مشروع النشر المشترك



# كتاب الاستبصار في عجائب الامصار

نشر وتعليق

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

# مقدمة

لسنا أول من يعنى بكتاب الاستبصار . فمنذ حوالى قرن نشر ألفرد فون كرمر الجزء الخاص منه بالمغرب نقلا عن مخطوط كان فى حوزته [1] . ولكن هذه النشرة غير كاملة : إذ تنقصها الفصول الخاصة ببلاد غُمارة ، واستقرار الأدارسة بالمغرب ، وزندقة بَرْغواطة ، ومدينة سجلْماسة ، وبداية العُبَيْديين الفواطم ، ومدن دَرْعَة وأَغْمات ونَفِيس وتِينمَلّل ومرّاكُش ، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة للسودان ( دون ذكر بلاد السودان نفسها ) . وإلى جانب ذلك فإن نشرة فون كرمر تحتوى هنا وهناك على بعض النقص مما كبر حجمه أو صغر . وبعد ذلك بحوالى خمسين عاما نشر ا. فانيان ترجمة فرنسية كاملة لهذا الجزء نفسه مصحوبة بهوامش وتعليقات ، واستخدم طبعة فون كرمر ، ومخطوطى الجزائر ، ومخطوط باريز [2] . ومع أن فانيان عمل فى ترجمته على تكملة نشرة فون كرمر وسد الثغرات التى كانت بها إلا أن ما قام به لا يغنى عن النص العربى ، ولا يرضي حاجة المشتغلين بالدراسات العربية .

هذا إلى جانب أن الجزء الذى بقي من الكتاب دون نشر كبير ومهم ، يبلغ حوالى نصف النص العربى الكامل . وهو ينقسم إلى قسمين : الأول ويبلغ الثلث خاص بالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ؛ والثانى خاص بمصر وعجائبها .

وهكذا تحدد عملنا ... الذى يهدف إلى إكمال ما قام به كرمر وفانيان — فى نشر النص الكامل لكتاب الاستبصار ، ثم ترجمة الجزء الخاص بالأماكن المقدسة ومصر إلى الفرنسية .

---

(1) Alfred Von Kremer, Kitab al - Istibsar fi 'Aja'ib al - Amsar : Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VI<sup></sup>e siècle de l'Hégire, Vienne, 1852.

(2) E. Fagnan, L'Afrique septentrionale au XII[e] siècle de notre ère; Extrait du recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1900

المؤلف :

ومما يدعو إلى الأسف أننا نجهل مؤلف كتاب الاستبصار . فباستثناء ابن أبي زرع ، صاحب كتاب روض القرطاس ، الذى يذكر عنوان الكتاب [1] لم يشر أى كاتب آخر إلى الكتاب أو إلى مؤلفه . هذا كما أن المؤلف لا يمدنا خلال كتابته بأية معلومات تكشف لنا عن شخصيته . وهنا نجد ثلاث كلمات تعبر عنه وهى : " المؤلف " أى صاحب الكتاب ، " والناظر " ثم " الواضع " ولها معنى كلمة المؤلف . وعلى ذلك فسنكتفى بالعناية بكلمتى " المؤلف " و " الناظر " . هل تعنى الكلمتان شخصية واحدة أو شخصيتين مختلفتين ؟ يمكن أن تكون كلمة الناظر لقبا كان يحمله المؤلف وبهذا تدل " المؤلف " و " الناظر " على شخص واحد . ولكن هذا الافتراض غير محتمل إذ لا نعرف " الناظر " لقبا فى تلك الفترة . وقد يكون معنى كلمة " الناظر " قريبا من معنى كلمة " المراجع " أى الذى أعاد النظر فى الكتاب ونظمه وأعطاه شكله الأخير . وهنا تعنى كلمة الناظر شخصا آخر غير المؤلف . وهذا ما تؤيده الفقرة التالية التى تختم الكتاب ( ص٢٢٦ ) : " قال الناظر : هنا انتهى ما وجدته من هذا الموضوع ، ولقد أحسن واضعه ورتب ما حقق ، وهذا لعمرى أقرب وأخصر من غيره ، ففيه ما فى غيره وليس فى غيره ما فيه . وحققت وطرزت كتاب الواضع بما قيدت فى هذه المواضع ، وأنا مؤمل أن أتفرغ لوضع كتاب كامل يحتوى على ذكر بلاد المغرب وممالكها إلى هذه الايام السعيدة الإمامية ، وأضيف إليها ما رفعته للحضرة العلية من مفاخر هذا الأمر العالى — أيد الله دوامه — سنة ٨٠[٥] [ = ١١٨٤ — ١١٨٥ ] ، وهو ما يزيد عندى من فتوحاته المستأصلة لشأفة الأعداء ... " .

---

[1] يذكر ابن أبي زرع كتاب الاستبصار عندما ينقل عنه جزءا خاصا بمدينة فاس ( أنظر روض القرطاس ، ص ٢٤ ) . ولما كان هذا الجزء لا يوجد فى الكتاب كما هو بين أيدينا اليوم فإن هذا يدعو إلى الظن أن كتاب الاستبصار إما أن يكون قد وصلنا ناقصاً أو مختصرا .

وأيا ما كان فإنا نعتبر "الناظر" هو المؤلف الحقيقي للكتاب بصورته التي وصلتنا ؛ فهو قد لجأ إلى كتاب قديم نجهل صاحبه ، فوضع له المقدمة ، ورتب فيها منهجه (من وصف الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب) ، وهو قد نقح الأصل وحققه وأضاف إليه ، ثم ختمه . وهو يعد بإخراج كتاب خاص بتاريخ المغرب إلى أيامه . وفى الكتاب فقرات تبين أن الناظر عاش على عهد يعقوب المنصور الموحدى ، وأنه كان ينظر بعين الولاء لأحد كبار رجال الدولة حينئذ وهو الشيخ أبو عمران بن أبي يحيي بن وقتين الذى يهدي إليه الكتاب ويطلب منه حسن الرعاية (ص ١ ، ٢) . ويظهر أنه كان يصنف الكتاب فى سنة ٥٨٧ (١١٩١) كما يفهم من بعض إشاراته (ص ١٣٨) ، وخاصة بمناسبة سفارة ابن منقذ رسول صلاح الدين إلى الخليفة المغربى (ص ١٠٧) ؛ وبمناسبة العمليات الحربية ضد بنى غانية بإفريقية (ص ١١١) . ولكنه يتضح أيضا أن الكتاب كان موضع تنقيحات تالية بالنسبة لهذا التاريخ ؛ والمثل لذلك زيارة ابن منقذ . فبهذه المناسبة يعود صاحب الكتاب ، بعد أن يذكر أنه كتب ذلك فى رمضان سنة ٥٨٧ (سبتمبر — اكتوبر ١١٩١) ، فيقول إن رسول صلاح الدين ترك العاصمة المغربية فى ١١ من المحرم سنة ٥٨٨ (٢٨ من يناير ١١٩٢) .

هذا وتدل التفصيلات التى يمدنا بها عن مكناسة وفاس ومراكش على معلوماته الغزيرة عن هذه المدن . فلا شك أنه عاش فيها إن لم يكن أصله منها ؛ فهو لا يكتفى بالوصف الدقيق للعواصم المغربية بأمبراطورية الموحدين على عهده ، ولا بالأعمال الإنشائية التى تمت على عهد يعقوب وسلفيه ، بل يقترح خططا عمرانية أخرى تهدف إلى نشر الرخاء فى هذه المناطق .

وزيادة على ذلك فإن المعلومات التى يعطيها عن الحملة العسكرية ضد بنى غانية فى إفريقية تتفق بشكل غريب مع إحدى الرسائل الرسمية الصادرة من ديوان يعقوب المنصور ، والتى يقتطف منها بعض الفقرات (ص ١٥٩ وهامش ١) . وهو عندما يتكلم عن بلاد السودان يقول إنه اطلع على الرسائل

الرسمية الصادرة باسم غانة ملك أحد هذه البلاد إلى يوسف بن تاشفين (ص ٢١٩)؛ ومعنى هذا أن سجلات المرابطين القديمة كانت فى متناول يده ؛ أو وصلت إليه صور منها على الأقل .

من كل ذلك يمكننا أن نفترض أن المؤلف " الناظر " كان يشغل وظيفة لدى يعقوب المنصور كانت تمكنه من الاطلاع على مجرى الأمور فى ديوان الخليفة أو فى بلاطه . وهنا يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنظن أنه ربما كان صاحب الرسالة الرسمية نفسه أى ابن مَحْشَرة [١] . يؤيد ذلك ما يظهره المؤلف من آيات الولاء والخضوع للخليفة وسلفيه ، ذلك الولاء الذى لايصدر إلا من خادم مخلص للموحدين .

## الكتاب :

إن النظرة السريعة إلى كتاب الاستبصار تبين أن موضعه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية . ورغم ذلك فإنه من الصعب وضعه فى موضعه الصحيح بين أصناف الكتب الجغرافية المعروفة : من كتب الأطوال والعروض ، وكتب تقويم البلدان ، وكتب المسالك والممالك ، أوكتب العجائب [٢] . والحقيقة أننا لو أخذنا بعنوان الكتاب ، وهو « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » لوجب وضعه بين كتب المجموعة الأخيرة . ولكن الأمر ليس كذلك ؛ إذ هو ليس كتاب جغرافية خالصة . فرغم تاريخ تأليفه المتأخر نسبيا نلاحظ أنه يحتوى على خليط من التاريخ والجغرافية من كل لون ، مما يجعله أشبه مايكون بكتب الجغرافية من النوع البدائى الأول .

فمن وجهة النظر الجغرافية ــ ولهذا السبب وحده ــ يمكن أن يقال بشكل عام إن الكتاب ليس من كتب الجغرافية العلمية المبتكرة ، فهو غير مخصص

---

(١) أبو الفضل جعفر بن محمد بن على بن طاهر بن تميم القيسى المعروف بابن محشرة ( ٥٤١ – ٥٩٨/١١٤٦ – ١٢٠١ ) . أنظر E. Lévi-Provençal, un recucil de lettres officielles almohades, étude. p. 9 et note 22.

(٢) أنظر R. Blachère, Extraits des géographes arabes, Paris, 1932 ؛ سعد زغلول عبد الحميد ، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٩١

لعجائب البلدان ، كما يمكن أن نتوقع ، وإنما هو مصنف يحوى معلومات دقيقة وأخبارا عامة وأساطير طريفة ، جمعت بعضها إلى جانب بعض بغرض تقديم وصف سهل لطيف مستساغ للقارئ لا تثقله الدقة العلمية المتعبة والتى لاتهم سوى الإخصائيين .

المصادر :

إن مما يعين على معرفة المصادر المختلفة التى أخذ عنها المؤلف معلوماته أن نأخذ بعين الاعتبار أن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام مختلفة هى : الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب .

والجزء الأول عبارة عن وصف مكة والمدينة ، والهدف منه هو تصوير شعائر الحج . والمؤلف يُعنى فيه بوصف مكة عناية بالغة ، فهو يعدد ضواحيها وتلالها ، والجبال المحيطة بها . ثم هو يصف بكل دقة الكعبة ومقاييسها وبابها والحجر الأسود بها . ثم هو يستطرد فى وصف المسجد الحرام ، ويصف بئر زمزم ؛ وهو خلال ذلك يشرح مناسك الحج . وإلى جانب هذا يصف المساجد الأخرى مثل مسجد الخَيْف ومسجد المُزْدَلِفة . وفيما يتعلق بالمدينة يستطرد المؤلف بنفس الشكل عند الكلام عن مسجد النبى وقبره المبجل ، ومسجد قُبَا ؛ وينهى وصفه بالكلام عن قبور الشهداء فى سفح جبل أُحد .

وهذا الجزء عظيم الأهمية نظرا لمعلوماته الدقيقة وطريقته العلمية ؛ ولكننا لانعرف من أى المصادر استقيت مادته . فالمعلومات التى يمدنا بها عن مكة مختلفة عن معلومات الأزرق ( القرن الثالث الهجرى = ٩ م ) التى ينقلها ابن رُسْته ( نهاية القرن الثالث = ٩ م ) ، وهى تختلف كذلك عن معلومات ابن جُبَيْر المعاصر لمؤلف الاستبصار ؛ والمعروف أن ماكتبه الأزرقى وابن جبير يعتبر أهم ماكتب عن مكة والكعبة وأكثره أصالة . وهنا نجد أن المؤلف لايدين بشئ لهذين الكاتبين . ويمكن بعد هذا أن نفترض أنه نقل عن البكرى الذى كتب فى سنة ٤٦٠/١٠٦٧ كتابه المعروف بالمسالك والممالك . والحقيقة أن كتاب البكرى هو المصدر الرئيسى لصاحب الاستبصار

بالنسبة للجزء الخاص بمصر والمغرب ، ولكن ضاعت من كتاب البكرى الفصول الخاصة بالأماكن المقدسة ؛ وهكذا فلا سبيل إلى القول بأن صاحب الاستبصار نقل هذا الجزء أو شيئا منه عن البكرى أو لم يفعل . وفيما يتعلق بوصف المدينة ومسجد النبي لانعرف أيضا المصدر الذى أخذ عنه الاستبصار ، ومعلوماته تختلف عما كتبه ابن رسته وابن جبير . وهنا نجد أن المؤلف يقول إنه فى سنة ٥٢٨/١١٣٣–١١٣٤ كان يوجد فى رواق المسجد وطاء طبرى (ص ٤١) . وهذا يحملنا على الظن أن الجزء الأول من الاستبصار نقله مؤلفه سنة ٥٨٧/١١٩١ عن مصدر لم يصل إلينا كتب سنة ٥٢٨ أو بعد ذلك .

أما الجزء الثانى من كتاب الاستبصار فيوضع بصفة عامة ضمن ماكتب عن عجائب العالم : فكل مايحويه عبارة عن غرائب وأشياء مدهشه فريدة فى نوعها . وزيادة على ذلك نلاحظ أن خطة الفصول الخاصة بمصر تنقسم على فترتين : فترة مصر القديمة ، التى تنقسم بدورها على فترتين يفصل بينهما الطوفان ؛ ثم فترة مصر الحديثة أى العربية . وتبدأ الفترة الأولى بوصف عام للبلاد ، وتنتهى بظهور الإسلام وفتح مصر على أيدى العرب . والفترة الثانية خاصة بوصف المدن المصرية ، وتبدأ بقصة الفتح منقولة عن ابن عبد الحكم . والحقيقة أن هذه التقسيمات ليست مقبولة إلا بصفة عامة ، وذلك أن المعلومات الجغرافية والتاريخية ، القديمة منها والحديثة ، تختلط وتتداخل خلال التقسيمات الصغيرة بعد ذلك بشكل لايدع مجالا للتفرقة بينها .

والمؤلف يستخدم فى تصنيفه لهذه الفصول خمسة مصادر مختلفة يذكرها فى بعض الأحيان ، وهى : المسعودى (توفى ٣٤٥/٩٥٦) ؛ وابن وصيف–شاه الذى يظن أنه فارسى الأصل وأنه كان يسكن بلدة اخميم ، الذى يكتب حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد (أواخر القرن الرابع الهجرى) (ص ٦٠ هامش ٢) ، وكان عالما بتاريخ مصر القديمة – حسب مفهوم ذلك التاريخ فى العصور الوسطى بطبيعة الحال ؛ وابن عبد الحكم ؛ ثم البكرى . وأخيراً هناك معلومات الناظر الشخصية وهى تتعلق فى معظم الأحيان بالأحداث التى عاصرها ، وهو فى كل مرة يسبقها بكلمتى : " قال الناظر " . والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو :

هل أخذ المؤلف معلوماته مباشرة عن المصادر التى يذكرها ؟ هنا نلاحظ أن القطع الباقية من كتاب البكرى والخاصة بمصر ( مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢١٨ ) تشبه بشكل واضح ، من حيث الخطة ومن حيث التفصيلات ، الفصول المماثلة من الاستبصار . وهذا يجعلنا نعتقد أن صاحب الاستبصار نقل عن كتاب البكرى معلوماته التى أخذها عن المسعودى وابن وصيف ـ شاه وابن عبد الحكم . وهذه الملاحظة لا تمنع من أن يكون المؤلف قد قرأ هذه الكتب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن يكون قد أخذ منها معلومات أضافها إلى ما كتبه البكرى . ورغم أنه لايذكر كتاب الإدريسى فالظاهر أنه تأثر به فى أكثر من موضع . والمؤلف عندما يعالج قصة الفتح العربى لمصر ينقل عن ابن عبد الحكم كما سبق أن نقل البكرى ؛ وفيما يختص بمصر القديمة يذكر ابن وصيف ـ شاه وينقل عنه . وفى مجال التاريخ القديم هذا لا ننتظر من المؤلف شيئا جديدا ؛ وذلك على عكس ما كنا ننتظره منه من المعلومات الجديدة عندما يعالج موضوع المدن المصرية ، كما فعل بالنسـ[ـبة] لمدن المغرب ، وهذا ما لم يفعله . فالصليبية فى الشام كانت على أشدها والمدن المصرية كانت مسرحا لعدد من المآسى التى كان لها صداها فى المغرب ولكن المؤلف الذى خصص صفحات ـ فى آخر هذه الفصول ـ للصليبية وانتصار صلاح الدين اكتفى بنقل الوصف التقليدى للمدن المصرية كما فعل المسعودى وابن عبد الحكم والبكرى . وأكثر من هذا فإنه يؤخذ عليه أنه كاد يوقع القارئ فى الخطأ عندما أهمل ذكر المصدر الذى نقل عنه ، وغيّر شكله إلى حد ما ذاكراً تاريخ الوقت الذى كان يكتب فيه هو نفسه . والمثال لذلك هو معلومات المسعودى عن مدينتى تِنِّيس ودِمْياط التى يذكرها صاحب الاستبصار ويختمها بالشكل التالى :

" ويسكن بجزيرة تنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله ، ونحن فى سنة ٥٨٦ [هـ] [ = ١١٩٠ ] " ( ص ٨٨ ) ؛ كما لو أن هذه الحقيقة كانت واقعة على أيامه أو كما لو أنه حققها بنفسه . وهو فى الحقيقة لم يعرف

أن تنيس كانت هدفا لعدد من غارات الصقليين والصليبيين ، وأن أهلها جلوا عنها فى سنة ٥٨٨ [ = ١١٩٢ ] عندما كان يعيد النظر فى تأليفه ( هامش ١ ص ٨٨ ) .

وما أن يترك المؤلف مصر ليعالج بلاد المغرب والسودان حتى يتخلص من آثار الماضى التى تسلطت على نفسه وقلمه ، فهو يسجل ما يشاهده ويعطى وصفا أكثر دقة . وإذا ما راعينا أنه كان مغربيا وبالتالى عارفا بالبلاد التى هى موطنه ، فهمنا بسهولة أن هذا القسم من الكتاب يفوق فى أهميته ما سبقه من الأقسام .

هنا نجد أن المصادر التى يأخذ عنها الكاتب معلوماته والتى يذكرها هى ، المسعودى والبكرى — وهذا الأخير يعتبر المصدر الأول للقسم الثالث من الكتاب خاصة . هذا إلا أن مجهود المؤلف لا ينكر ، فهو ينتهج منهجا خاصا به ، ويعطى معلومات شخصية فى غاية الأهمية ، لاسيما عن إفريقية والمغرب الأقصى .

## أهمية الكتاب :

يعتبر الكتاب مصدرا لمعلومات متنوعة الألوان من جغرافية وتاريخية وأثرية . وهو يسهب فى وصف رخاء مصر الزراعى ، الذى يرجع إلى النيل ، ويؤكد بصفة خاصة خصوبة منطقة الفيوم . والفيوم تجذب انتباهه بفضل عمليات المياه فيها ، وهذه تزيد من مزروعاتها وفواكهها . وفيما يتعلق بمنطقة الفرما يذكر أن تمرها يعد من عجائب الدنيا . أما عن معادن الزمرد الواقعة بين مدينة قُوْص ومدينة أسْوان فهى موضوع خصب لاسترسال قلمه وإسهابه . وهو بعد ذلك يعتنى بصناعة النسيج فى دمياط وتنيس ، حيث كانت تصنع أردية لا تدخل فى نسجها خيوط الذهب ، ويساوى الرداء منها مع ذلك مائة دينار . وكانت حرفة صيد السمان مربحة لأهالى المدينتين . وفى هذا العصر كانت مدينة عيذاب ميناء مهما منه تتجه المراكب نحو الحجاز واليمن والهند وغيرها من البلاد .

وفيما يختص ببلاد المغرب يبين الكتاب الثروة الزراعية والمعدنية لكل مدينة مثل : حرير قابس ، وزيت سَفاقُص الذى يصدر إلى صقلية وإيطاليا وفرنسا (الأرض الكبيرة) ، ومنسوجات سُوسة ، وأسماك بَنْزِرْت ، ومرجان طَبَرْقة ، وتمر الواحات وبلاد الجريد ، وذهب البلاد الواقعة بين الواحات ومصر ، وفستق قَفصَة ، وقمح باجة ، وصوف وَجّة ، ونحاس فاس ، وزيت مِكْنَاسَة وضواحيها ، وجلد اللمط والملح ثم السكر، بصفة خاصة ، التى اشتهرت بها بلاد السوس ، والتى كانت تصدرها إلى كل بلاد المغرب والأندلس وإفريقية ، وكذلك النحاس المصنوع والعسل والنبيذ والدقيق والعنبر الممتاز . وعندما يتكلم عن بلاد السودان يستطرد فى ذكر الشب الأبيض وحجر المغناطيس .

ومن الناحية التاريخية يحتوى الكتاب على معلومات مختلفة فى طبيعتها ، وفى قيمتها : كالقصص التاريخية القديمة المنقولة عن كتب معروفة أومفقودة وهى من طبقة الأساطير ذات القيمة الأدبية فقط ؛ ومثل الوثائق التاريخية المعاصرة ذات الأهمية البالغة .

والقسم الأول الذى يصف الأماكن المقدسة بشكل مطول مهم بالنسبة لتاريخ الفن ، ولا سيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى ندرة المصادر الخاصة بالآثار ، مما يجعل مهمة مؤرخ الفن من الصعوبة بمكان .

والقسم الخاص بمصر يعطينا فكرة عن الروح التى كانت تسيطر على مفهوم تاريخ مصر القديمة : فكل ما هو قديم ينبغى أن يكون عجيباً دون اعتبار للوثائق الأكيدة الموجودة فى متناول الأيدى . وهكذا قيل إن الرصاص استعمل بدل الملاط فى بناء الأهرام ؛ وكان يكفى النظر فى هذه الآثار للتأكد من أن الأمر ليس كذلك . وترتب على هذه الفكرة أن أصبح الجزء الثانى من الكتاب — على عكس الجزء الأول الجاف — ذا صبغة أدبية بصفة خاصة .

والفصل الخاص بمدينة الإسكندرية مهم جداً ؛ ففيه يصف المؤلف المنار المشهور بإسهاب ، ويبين موقع للمدينة من الناحية العسكرية ، وكيف أنها كانت هدفاً لتهديدات الأعداء التقليديين النصارى ، وخاصة الصقليين

منهم . أما عن جهاد صلاح الدين وانتصاره على الصليبيين ، وسفار ابن منقذ إلى المنصور الموحدى ، فقد شغلت عدة صفحات مهمة كـ نأمل لو أنها زادت إلى أكثر من ذلك .

والقسم الأخير الخاص بالمغرب مهم جداً بالنسبة لتاريخ الموحدين . فصاحب الكتاب يندد بمرارة بثورة على بن غانية فى إفريقية ، ويدافع عن موقف سيده الأمير . أما المعلومات المتعلقة بالمغرب الأقصى فهى أصيلة ومهمة للغاية : مثل المجهودات المعمارية التى قام بها أمراء الموحدين الثلاثة الأول ، وخاصة يعقوب منهم : كعمليات المياه ، وبناء المساجد والقصور ، ثم إنشاء الحصون فى مدن مراكش وفاس ومكناسة .

من كل ما تقدم يتبين أن كتاب الاستبصار يعتبر حقيقة موسوعة تاريخية جغرافية مختصرة .

تحقيق النص :

وقد رجعنا فى تحقيق النص إلى مخطوطات ثلاث : واحدة بالمكتبة الوطنية بباريز ( القسم العربى رقم ٢٢٢٥ ) ، وهى بخط مغربى مقروء ، ولكن تنقصها الورقات الأولى والأخيرة ، هذا بالإضافة إلى بعض النقص الذى يوجد فيها من حين لآخر ، والاثنتان بالمكتبة الوطنية بمدينة الجزائر : أولاهما ( رقم ١٥٦٠ ) فى حالة جيدة وهى كاملة ؛ والثانية ( رقم ٣٢١٦ ) رغم أنها كاملة ، إلا أنها فى حالة رديئة وذات خط غير مقروء فى بعض الأحوال . وإلى جانب ذلك رجعنا أخيراً إلى طبعة فون كرمر ( von kremer ) الخاصة بالمغرب والتى نشرها عن مخطوط لا نعرف مصيره ، وهى تحتوى على كثير من النقص .

ولقد رمزنا لمخطوط باريز بالحرف "ب" ولمخطوطى الجزائر – حسب ترتيبهما المذكور – بالحرفين "ج" ، "م" ، ولطبعة كرمر بالحرف "ك" .

وأول مانلاحظه هو أن الأخطاء الإملائية الكثيرة والنحوية فى بعض الأحيان ، وكذلك اختلاف أسماء الأعلام ، تبين أن هذه المخطوطات نقلت فى عصر متأخر بالنسبة للمخطوط الأصلى بمعرفة نساخ لم ينالوا حظا كبيرا من الثقافة . وترتب على ذلك أن اضطررنا إلى الرجوع – فى كثير من الأحيان – إلى المؤلفات القديمة ، ومن ذلك أن جامع " الحَيْف " كتب فى جميع مابين أيدينا من نسخ جامع "الحنيفية " ( ص ٣٣ وهامش أ ) . ورغم اتساع دائرة عملنا نتيجة لذلك فإننا لاندعى أن النص الذى حققناه قد استقام بشكل كامل لاغبار عليه . فما زالت بعض الكلمات بل وبعض الجمل غير دقيقة أو قليلة الوضوح . وقد صادفتنا عبارات يبدو أنها من مصطلحات العمارة الإسلامية وهى غير محددة المعنى عندنا ، وذلك مثل " بحر مُمَرَّخم " (ص ١٤–١٥) أو " حجارة مطرورة " ( ص٣٣، ٣٤ ) . وقد فهمنا هذه العبارات حسب المعنى العام للجملة . وهكذا أخذنا " بحر مرخم " بمعنى فراغ مكسو بالرخام ( الترجمة ص ٩ ) ، " وحجارة مطرورة " بمعنى حجارة مصقولة محددة أو حجارة مطينة مزينة ( الترجمة ص ٢٠ ) . ونذكر كذلك كلمات « ثوران من نحاس » ( ص ٢٠ ) ولقد فهمناها على أنها مسرجتان ( شمعدانان ) من نحاس ( الترجمة ص١٢ ) ، وجملة " فنازعنى فى القُرْب والشولى فغلبته (ص ١٨٥ ) " التى فهمناها على أنها : فتناقشنا فى أمر سمك التُنْ والزَجَر ولكننى فزت عليه . ونذكر أخيرا كلمة " ثليث " (ص ٢٠٠ ) وهى اسم علم لمدينة فى جنوب مراكش قرب سجلماسة ولانعرف عنها شيئا .

وفيما يختص بالترجمة فقد اجتهدنا فى نقل النص العربى إلى الفرنسية دون تصرف . ولم نخرج عن هذه القاعدة إلا فى الحالات التى يصعب فيها الترجمة الحرفية ، فنى هذه الحالات حاولنا نقل المعنى مع الحرص على عدم الابتعاد عن النص على قدر الإمكان . ولقد لاقينا فى هذا صعوبات كثيرة : كالتباين الخفيف بين مفهوم الكلمات ذات المعنى الواحد ، والصور التى يصعب نقلها كما هى ، والأساليب الخاصة بكل لغة . وعلى الجملة فقد كانت روح كلا اللغتين هى المهددة فى كل هذه الحالات . ويمكن إعطاء أمثلة كثيرة

لتوضيح هذه العقبات ، ودون البحث بعيدا فى أعماق النص يكفى النظر فى الصفحات الأولى من الكتاب ، حيث تكثر أمثلة هذه الصعوبات .

ولقد حرصنا على أن نزود النص بالهوامش المناسبة . والغرض من هذه الهوامش إما تحديد المؤلفات السابقة التى تعتبر من المصادر الرئيسية للنص ، وإما مقارنته بها . ولهذا السبب أيضا ذكرنا فى الهوامش بعض المصنفات المهمة من عصور متأخرة .

## تقديم الطبعة المغربية

لما كانت طبعة جامعة الاسكندرية (1958) لكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وهو الكتاب الذي كان أصلا رسالة ثانوية للدكتوراة التي تقدمنا بها إلى جامعة باريس في يونيه 1951 ، قد نفِدَت منذ مدة طويلة. ولما كان الدارسون لتاريخ مكة والمدينة ومصر وبلاد السودان الغربي في العصور الاسلامية حتى القرن السادس الهجري / 12م في حاجة الى النظر في هذا الكتاب، فضلا عن حاجة دارسي تاريخ أقطار الشمال الافريقي الاسلامية وجغرافيتها، وهو الأمر الذي تنبه اليه منذ مدة طويلة بعض الزملاء الأفاضل والناشرين في تونس وفي مصر، فإنه يسرني أن تقوم الآن دار النشر المغربية بمدينة الدار البيضاء، مشكورة، بمعرفة مديرها السيد البوري محمد سعيد بإعادة نشر الكتاب في طبعة مغربية جديدة، أرجو أن تكون مفيدة للمشتغلين بالتاريخ الاسلامي وتاريخ الشمال الافريقي - إن شاء الله.

هذا، ولقد قمنا بتصحيح الأخطاء القليلة بطبعة الاسكندرية الأولى.

وعلى الله التوفيق.

**سعد زغلول عبد الحميد**

الكويت في 1985/1/6

بســم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

# كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار

الحمد لله عالم الأسرار ، غافر الأضرار ، الواحد القهار ، العزيز الجبار ، المنزه الذى لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار ؛ نحمده حمد معترف بوحدانيته ، ونشكره شكر مغترف من بحر نعمته ، متقلب فى ظل رحمته . ونصلى على نبيه سيدنا محمد المبعوث بالآيات الباهرة ، والبينات القاهرة ، الآخذ عن النار بالحجزات ، الداعى إلى سبيل ربه بالآيات البينات ، وعلى آله الأخيار ، وأصحابه الأبرار ، صلاة باقية إلى يوم الدين . ونرضى عن نجله الأطهر (١) ، وسليله الأبر ، الإمام المهدى[1] ، الذى جدد رسم الدين بعد البلى ، وجاهد فى سبيل الله حق جهاده وأبلى ، وإلى طريق الحق [دعا] النفرى والجفلى ؛ وعن الخلفاء الراشدين ، أئمة الهدى ، ومصابيح من رشد واهتدى . ونوالى الدعاء لخليفتهم المبارك الأسعد ، سيدنا أمير المؤمنين يعقوب[2] بنصر تتصل أسبابه بسعادته ، وفتح يسوقه القدر وفق إرادته .

وبعد ، لما كان العلم أنفس ما يقتنى ، وأشرف ما به يعتنى ، لم يزل ينقله خلف عن سلف ويحمله ذو شرف عن ذى شرف ، وجب أن يكون أفضل ما يهديه مهد أو يستهديه مهدى ، رغبة فى الاتسام برسمه ، والارتسام والدخول

---

(١) ج : الأطهار .

(١) المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ( توفى ٥٢٢ – ٥٢٤ ؟ = ١١٢٨ – ١١٣٠ ) .

(٢) أبو يوسف يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن بن على وثالث خلفاء الموحدين . وملكه من سنة ٥٨٠ الى سنة ٥٩٥ ﻫ ( ١١٨٤ – ١١٩٩ ) .

فى رعيته ، والاستئثار بحيازة مآثر من تواريخ الأمم ، وسير العرب والعجم ، إذ كان المرء يقف منها على أخبار من غبر ، وآثار من ذهب ودثر ، ويشاهد ممالك ذهبت وبادت (ا) ، كأنها عادت إلى الحياة أو كادت :

لم يبق شىء من الدنيا أسر به إلا الدفاتر فيها الشعر والخبر
مات الذين لهم فضل ومكرمة وفى الدفاتر من أخبارهم أثر

وقديما وضع (ب) الناس التواريخ ورتبوها ، ودونوا الأخبار وكونوها ، حرصا منهم على نظم فرائدها وتقييد شواردها ، وما زال واضعوها يتقلبون بين إكثار وإقلال ، وإسهاب واختصار ، وكلهم يجرى على طريقة إلى غاية يضيفها ويسطرها . وكثيرا ما خلد خدم العقلاء ملوك أزمنتهم بالتواريخ المؤلفة والتواليف المزخرفة ، تفننا لمسراتهم وترضيا لمبراتهم ، ولولا ذلك لم يحصل الآخر على علم الأول ، ولا عرفت أخبار الملل والدول . ولذلك رأيت الشيخ الأجل المعظم ، الأغر الأسنى ، الأمجد المكرم ، أبا (جـ) عمران بن الشيخ الأرفع ، المرحوم أبى يحيى بن وقتين(1) أدام الله علاهم ، ووصل مجدهم وسراهم ، قد أبرز على الفضلاء فضلا ، وأربى على النبلاء نبلا ، وزاد على أهل زمانه فى العلم والحلم ، وغبطة بالعلم ووصل العلماء ومراضاة الفقهاء . وكانت همته السامية إلى طراف الأخبار ، وإيثار أهل الآثار ، إلى أن شادت بذلك الرفاق ، وامتلأت بحديثه الآفاق ، ونازعتنى الرغبة والتصدى لشكر النعمة ، إلى أن أطرز باسمه كتابا يجمع بين الأخبار والصحائف ، ويأخذ بطرفى شرائد الطرائف ، متضمنا بذلك إحسانه ، راجيا بذلك فضله وامتنانه عنه حسبما أردته . و[ لما ] اتسق وصفه على ما اخترت ، سميته بكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بعد أن قصدت فى أكثره التحقيق واطرحت فى مستودعه التلفيق .

---

(ا) ج : أبادت . (ب) ج : وضعها . (جـ) ج : أبو .

(1) إننا لا نعرف شيئا عن هذين الشخصين ، ولكن يمكن أن يقال ، من اسميهما ، إنهما من أصل بربرى .

وابتدأت بمكة شرفها الله تعالى، وما يجب ذكره من وصف حرمها، وأسماء الجبال المحيطة بها، وذكر أرباضها، ووصف المسجد الحرام بحسب الوسع، وذرع الكعبة من خارج، ووصفها من داخل. ووصفت الصفا والمروة، وعرفة ومُزْدَلِفَة، ومِنَى وجبل الرحمة، مع شريعة إبراهيم عليه السلام وصفة بطن مُحَسِّر إلى غير ذلك من المناسك، وصفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة. ووصفت منبره عليه السلام، ووصفت عدد أبواب المسجد، وجميع ما فيه من العمد (ا) وعدد ما فيه من القناديل، ووصف روضته عليه السلام. ثم وصفت بقية المدينة، وروضة عثمان رضى الله عنه ووصفت مسجد قُبَا، وقبور الشهداء (ب) بأحد رحمة الله عليهم تبركا بذلك وتيمنا بالاستفتاح به:

ثم عدت إلى بلاد مصر وما فيها من العجائب، ووصفت نيل مصر وعدد أمياله، من وسطه إلى موقعه، وذكرت بناء الأهرامات والبرابى (ج) ومن بناها، وصورتها وطولها وعرضها وما صنع فيها من العجائب؛ وذكرت من عمرها من الملوك قبل الطوفان وما نزل بها بهذا الطوفان؛ وذكرت فتحها فى أيام سيدنا عمر (د) بن الخطاب رضى الله عنه. ثم عدت إلى مدينة الإسكندرية، ووصفت بناءها وصفة منارها وصفة المرآة التى كانت بها وبناءها وتداول الملوك عليها.

ثم ذكرت بلاد إفريقية وما فيها من العجائب، ووصفت مدينة قرطاجنة وآثارها وعجائبها، ووصفت البلاد الى آخر بلاد المغرب. وقسمت أقطارها قسمين، ورتبتها صنفين: فنها الصحراوية أو ما قاربها، والساحلية وما يليها.

ولم أذكر شيئا مما سقته إلا ما كاد ينعقد على أكثره الإجماع، ويتفق عليه العيان والسماع، وللمولى أدام الله تأييده ووصل سعوده، أن يقدر عبده فيما أورده، ويحقق فيها رجاه أمله ومعتمده، فإنه وإن كان قد أنفذ وسعه فى الاختيار، وتوسط بين الإقلال والإكثار، حرى بالاحسان

---

(ا) ج: العمود. (ب) ج: الشهود. (ج) ج: المارمات والبربرى.
(د) ج: عمار.

ظنا، ويرى التغميض عن هناته سنا ، إذ هو فيما ذكر كمن حمل التمر إلى هجر[1].
ومنك استمددنا كل غريبة ، فأنت غريبة فى عيون الغرائب . وهذا حين
أبتدىء بذكر ما أردته فيما أوردته ، مستعينا بالله سبحانه ، راجيا صفحه
وغفرانه ، والله سبحانه يمتع الأدب ببقاء المولى ، ويشكره ما منح الخلق
من يده وأولى :

الناس يهدون على قدرهم     وإننى أهــدى على قدركا
يهدون ما يفنى وأهدى الذى     يبقى على الأزمان من فخركا

## ذكر حدود حرم مكة شرفها الله [2]

حدّ الحرم من ناحية المدينة من ذى طُوًى [3] على ثلاثة أميال من مكة ،
وحده من طريق جُدّة على عشرة أميال ، وحده من طريق اليمن على سبعة
أميال ، وحده من طريق العراق على ستة أميال ، وحده من طريق الطائف
على أحد عشر ميلا فعدد أميال الحرم ٣٧ ميلا [4] ، ودور الحرم
حول مكة ٧٣٣ ميلا [5] ؛ وكان النبى صلعم بنى بالحرمين ١٥ مسجدا [6] .

---

(١) هجر هى مدينة البحرين المشهورة بكثرة تمرها . أنظر أبو الفدا (الجغرافية) ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٣٧ وهامش ٢ ، ٣ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٨٢٥ ، ٨٢٧

(٢) الحرم هو المنطقة المقدسة بمكة . ولكن هذا الإسم يطلق أيضا على أرض المدينة ومن هنا سميت المدينتان الحرمان

(٣) ذو طوى هو أحد أودية مكة على طريق المدينة وفيه توقف النبى عند فتح مكة . أنظر البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٤٥٧ ؛ الأزرقى ، ص ١٩٧ ، ٤٢٦ ، ٥٠٠ ؛ ابن جبير ، ص ١١٢ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٨٩ — ب ؛ الفاسى ، ص ٨٣

(٤) هذا المقياس لا معنى له وذلك أن المؤلف أضاف طول المسافات التى تبين حدود الحرم فى الاتجاهات المختلفة ، بالنسبة إلى المسجد الحرام ، بعضها إلى بعض .

(٥) هذه المسافة مبالغ فيها من غير شك والظاهر أن الصحيح هو ٧٣ ميلا فقط ، وذلك أن الأرض الحرام تمتد حول مكة مسيرة يوم تقريبا . أنظر أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٠٥ هامش ٥

(٦) أنظر البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٥٥٩

## وصف مكة شرفها الله وأرباضها وأسماء الجبال المحيطة بها

جبل أبي قُبَيْس [1] وهو جبل أدكن ( أميل إلى البياض ) ، في رأسه منار يذكر أنه منار إبراهيم عليه السلام . وفي أصله الصفا [2] ومن عليه يرق إليه ، ليس(ا) له مرقى إلا على أربعة مواضع : على الصفا ، وعلى شِعْب عمر ، وعلى شعب علي [3] رضي الله عنهما ، وعلى شِعْب أجياد الصغير [4] ، ليس لأبي قبيس طريق يرق إليه إلا من هذه الأربعة مواضع . وهو أحد الأَخْشَبَين [5] فيما يقال ، ويقال إنه أول جبل خلقه الله تعالى ووضعه في الأرض . وإنما سمي بأبي قبيس لأن رجلا كان يسكنه على قديم الدهر يكنى بأبي قبيس فنسب إليه ذلك الجبل . وهو أقرب الجبال إلى المسجد الحرام ، يقابل من مكة ويقابل من الكعبة الركن الأسود .

---

(ا) ج : لرسو .

(١) أبو قبيس هو أحد جبال مكة المشهورة ويشرف على المدينة من جهة الشرق . وحسب الروايات المتداولة كان هذا الجبل يطلق عليه ، قبل الإسلام ، اسم « الأمين » لأنه حفظ الحجر الأسود من الطوفان . وهو أحد الجبلين المعروفين باسم « الأخشبان » . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٠٢ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص ٨٠

(٢) أنظر فيما بعد ص ٢٩ والهامش .

(٣) الشعب هو الوادي الصغير أو الطريق يخترق الجبال . وهو الإسم الذي أطلق على أزقة مكة والطرق التي تؤدي إليها . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٩٦ . وعن شعب عمر وشعب علي أنظر الأزرقي ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٦

(٤) هو الطريق الذي يقع مباشرة إلى جانب جبل «أبو قبيس» والذي يؤدي إلى الطريق الآخر المسمى «أجياد الكبير» . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٣٨ ؛ الأزرقي ، ص ٤٩٤ ؛ العبدري ، المخطوط ، ص ٩٣ – أ . وعن الإسم « أجياد » أنظر فيما بعد ص ٨

(٥) الأخشبان ( ومفردها أخشب وهو الجبل الصعب أو الأرض الخشنة : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٥٩ – ١٦٣ ؛ العبدري ، المخطوط ، ص ٩٢ – ب) هما جبلا مكة الشهيران : أبو قبيس وجبل الخندمة ( الأزرقي ، ص ٤٣ ، ١٣٩ ، ٤٧٨ . وعن الخندمة قارن ص ٦ ) . وحسب ابن رسته (ص ٢٩) كان موقف إبراهيم الخليل بين هذين الجبلين حينما دعا أهل اليمن والشام والشرق والمغرب إلى الحج إلى مكة والمسجد الحرام . وقارن البكري ، المعجم ، ج ١ ص ٧٨ ؛ الاصطخري ص ١٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٥ ؛ المقدسي ، ص ٧٧ .

ثم جبل الخنـْدَمة[1] وهو الجبل العالى المستعلى على أبى قبيس من ناحية الشرق ، وهو (ا) جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلقة تشبه الإنسان إذا نظرت إليها من البعد ، تراها من المسجد الحرام من باب السهميين (ب) الصغير . وفى ذلك الجبل تحصن أهل مكة يوم القرمطى(ج) [2]. وأسفل (د) من ذلك الجبل ، بينه وبين الجبل غار ، شعب على رضى الله عنه .

ثم الجبل الأبيض[3] الذى على الأبطح إلى باب منى[4] ، ومن ذلك الجبل إلى الجبل الأحمر السور ، وجعل هنالك بابين من خشب مصفحين بالحديد ، وهما على المعْلى (ر) [5] وهما المعروفان بباب منى . وعند هذا الباب آبار (س) بعيدة الرشا يستقى الناس منها ، وماؤها ليس بعذب

---

(ا) "وهو" ناقصة فى ب (ب) "السهميين" ناقصة فى ب. (ج) ج : القرموطى.
(د) ب : أسهل . (ر) ج : المعالى . (س) ب : أبيار .

(1) عن الخندمة أنظر الهامش السابق ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٦ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ٣١٩ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٣ – ا ؛ ابن الأثير ، ج ١ ص ١٨٨. وتقول الرواية إن اسم هذا الجبل مأخوذ من الفعل «خدم» وذلك أنه عندما فتح النبى مكة خرج مع المشركين رجل كان يسكن هذا الجبل ، ووعد امرأته بأن يعود لها بخادم من أسرى المسلمين . فأطلق على الجبل بعد انتصار المسلمين اسم الخندمة تندرا وذكرى لهذا الحدث (الأزرقى ص ٤٧٩) .

(2) القرمطى المذكور هنا هو أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى الذى استولى على مكة (فى ٨ من ذى الحجة سنة ٣١٧ = ١٢ يناير سنة ٩٣٠ ) وأخذ الحجر الأسود إلى الأحساء . أنظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٣١٧ ؛ الفاسى ، ص ٢٤١ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 49, sq. ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ص ٨١٣ .

(3) قارن الأزرقى ، ص ٤٧٩ ، ٤٩٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠٩

(4) تسمى نهاية أزقة مكة التى تؤدى إلى الأبطح ( وهو الجزء المنخفض من منطقة مكة ) الذى يشرف على موقع المسجد الحرام «أبواب المسجد الحرام» . وأحدها هو باب منى . وعن الآبار القريبة من هذا الباب أنظر الأزرقى ، ص ٤٧٩

(5) المعلى هو الجزء المرتفع إلى جهة الشرق من مكة وهو الذى يشرف على الأجزاء المنخفضة المسماة بالمسفلة إلى جهة الغرب . العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٢ – ب ؛ ابن جبير ، ص ١١٣ ؛ G.-Demombynes. Pèlerinage, p. 197 .

جدا . وهذا الجبل الأحمر متصل من مسجد الخيف (أ) [1] إلى الحَجُون [2] وفيه الثنية العليا ، وعند أصل الثنية بقيع مكة [3] .، وفى شعب منه المُحَصَّب [4] فى حوز الشعب الذى يقابل الخيف الذى كان ينزل فيه من سلف من الصدر الأول عندهم من منى إلى آخر أيام التشريق [5]، فيصلون الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ، وكذلك يدخلون مكة . وقد صح عن (ب) النبى صلعم أنه فعل ذلك [6].

---

(أ) فى النص : "الحنيفيين" .أنظر فيما بعد ص ٣٣

(ب) ج : عل .

(١) أنظر فيما بعد ص ٣٣ وهامش ١

(٢) الحجون هو الشعب أى الطريق الذى يؤدى إلى المعلى حيث مقبرة مكة . ومن هذا الطريق دخل النبى إلى مكة حين فتحها. ابن جبير، ص١٠٩ ، ١١٠ (G. -Demombynes, Pèlerinage, p. 314) ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢١٥ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٥ — أ . قارن اليعقوبى ، ص ٣١٤ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٣٩١ ، ٣٩٩ ؛ الفاسى ، ص ٨١ .

(٣) بقيع مكة هو أخفض أنحاء المدينة إلى حيث يتجه ماء السيل ، وهو الذى يسمى أيضا الأبطح والمحصب وذو طوى . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٩٢ ، ٦٥٩ ، ج ٤ ص ٤٢٥ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤٤١ .

(٤) أنظر الهامش السابق وهامش ٥ ص ٣٢ . وهو المكان الذى تلقى فيه الجمرات ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٤٩ ) . ويطلق عليه أيضا اسم المحصب لأن ماء السيل ينطلق إليه ويجمع فيه الحصباء الفاسى ، ص ٩٤ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٤ . وانظر G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 237 .

(٥) عن أيام التشريق أنظر فيما بعد ص ٣١ . أما عن شرح اسم التشريق الذى تعرف به الأيام العشرة الأولى من شهر ذى الحجة فيقول المسعودى : « وقد اختلف الناس فى علة تسميتها أيام التشريق وهى أيام منى ولياليها . فقالت طائفة إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يذبحون الذبائح بمنى ويشرقون (يعرضون) اللحم فى الشمس . وقال آخرون إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يخرجون بمنى وغيرها كالمزدلفة إلى مصليات لهم فى فضاء من الأرض يسمونها المشارق واحدها مشراق فيسبحون ويدعون . وفيه قول آخر وهو أن طائفة زعمت أنه مأخوذ من ذبح البهائم وهو الشرق » . مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ . وقارن تنوير الحوالك ، ص ٢٥٧ .

(٦) قارن تنوير الحوالك ، ص ٢٥٥ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤٣٩ ؛ ابن جبير ، ص ١٧٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٢ — ب .

ثم الجبل الذى بظهر دار الندوة[1] يسمى قُعَيْقِعان[2]، وهو الذى يقابل أبا قبيس ، وهو جبل أخضر . وإنما يسمى قعيقعان لأن مَضاض بن جرهم نزل به ، ونزل السُمَيْدع بن جرهم بجبل أجياد ، فدارت بينهما حرب عظيمة فى تلك الأيام ، فكانت أجياد — أعنى من سكن بها وهو السُمَيْدَع وآله — أول من جاد بالدم فى الحرم ودعا إلى القتل ، وقالت العرب فيها أجياد لأنها(١) أول من جادت بالدم . .

ثم جبل أجياد[3] ، وهو الجبل العالى الأخضر الذى بغربى المسجد الحرام فى رأسه منار يذكر أن أبا بكر رضه أمر ببنائه[4] ، ينادى عليه المؤذن فى رمضان ، ويقابل من الكعبة اليمانى ؛ ويخرج إليه من باب إبراهيم عليه السلام[5]. وهو يقابل قعيقعان من ناحية الغرب .

---

(١) "لأنها" ناقصة فى ب .

(١) عن دار الندوة أنظر فيما بعد ص ٢٩ . بناها قصى بن كلاب وجعل بابها أمام الكعبة . وفى هذه الدار كان يجتمع القرشيون لمناقشة شئونهم . ولقد اشتراها معاوية ثم دخلت تدريجيا فى المسجد الحرام على عهد عبد الملك بن مروان ثم الوليد بن عبد الملك بعده ثم سليمان بن عبد الملك ، وكذلك على عهد المنصور العباسى إلى أن انتهى الأمر بإدخالها جميعا فى المسجد على عهد المعتضد بالله سنة ٢٨١ هـ = ٨٩٤ . الأزرقى ، ص ٦٥ ، ١٨٨ ، ٣١٠ ، ٣٤٠ وتابع . قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٢٤

(٢) رغم أن المؤلف يظهر رغبته فى شرح أصل اسم هذا الجبل إلا أنه لا يفعل . وتقول الرواية إنه أثناء الحرب بين السميدع بن جرهم وبين الحارث بن مضاض بن جرهم ، جعل هذا الأخير يقرع الرماح والدروع ومنها أتت كلمة قعيقعان بمعنى رنين . المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٩٩ ؛ الأزرقى ، ص ٤٥ ؛ قارن الاصطخرى ، ص ١٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٣ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٤ ؛ المقدسى ، ص ١٠٣

(٣) قارن الأزرقى ، ص ٤٥ وتابع ، ص ٤٩٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص١٣٨ ؛ المسعودى، مروج الذهب، ج ٣ ص ٩٩. فيما يتعلق باسم أجياد يقول الأزرقى وياقوت إنه مأخوذ من كلمة جياد بمعنى خيل . وذلك أن السميدع عند ما خرج للحرب كان معه جياد مسرجة حسنة وبها سمى المكان

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذه المئذنة التى بناها أبو بكر .

(٥) عن باب إبراهيم أنظر فيما بعد ص ٢٤ — ٢٥

ثم جبل ابن عمران[1]، وهو الجبل الأسود الذى بين أبى قبيس وأجياد ، وهو خلفهما . ويظهر من البعد كأنه بينهما ، يقابل من الكعبة الجدار اليمانى ؛ وهو أميل إلى الركن اليمانى قليلا .

ثم جبل البُكا[2] ، وهو خارج على الجبال المحيطة بمكة ، وهو فى العطف الذى فى آخر ذى طوى ، عن يمينك وأنت خارج تريد التنعيم[3] . وهناك عن يسارك المتكا[4] ، وهو الحجر الذى قعد عليه النبى صلعم واستراح عند إقباله عليه فيما يذكر أهل مكة ، رووه عن مشيختهم .

## عدد أرباض مكة شرفها الله

ولمكة أربعة أرباض منها الحَجُون[5] وما حوله إلى المَرْوَة[6] ، وربض قُعَيْقِعَان[7] وما حوله إلى باب ذى طُوَى[8]، وربض أجياد الكبير[9]

(١) يسمى الأزرق (ص ٤٩٤) هذا الجبل « رأس الانسان » . قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٧٣١

(٢) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الجبل .

(٣) يبدأ أهل مكة الإحرام من أجل العمرة من هذا المكان . وهو يسمى أيضا « مسجد عائشة» وهو ليس من الحرم . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٧٩ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ٢٠٠ ؛ ابن جبير ، ص ١١١ (G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 195) ؛ قارن ابن حوقل ، ص ٢٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٧

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الحجر .

(٥) أنظر فيما قبل هامش ٢ ص ٧

(٦) المروة أشهر تل فى مكة واسمه مرتبط دائما باسم تل «الصفا» ، فبينهما يجرى طقس من أهم طقوس الحج والعمرة ألا وهو السعى . القرآن ، سورة ٢ ، آية ١٥٣ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤١٤ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٥١٩ ؛ ابن جبير ، ص ١٠٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٢ - ا ؛ ابن رسته ، ص ٥٤ ؛ الاصطخرى ، ص ١٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥١٩

(٧) أنظر فيما قبل هامش ٢ ص ٨

(٨) أنظر فيما قبل هامش ٢ ص ٤

(٩) أنظر فيما قبل ص ٨ وهامش ٣

مع شعب أبي بكر رضه إلى المدَّعْفَلة(١) إلى باب اليمانيين ، ثم إلى الأبطح(ا) وما حوله من باب منى(٢) إلى شعب على مع شعب عثمان(٣).

## ذرع الكعبة كرمها الله من خارج (٤)

طول وجه الكعبة وهو الشق الذى فيه الباب ، من الركن الأسود إلى الركن الشامى ٢٧ ذراعا (٥) . وعند الثلث الباقى من هذا الجدار من ناحية الركن الشامى ، يوقف منبر الخطيب يوم الجمعة ويرفع فى سائر الأيام ، وهو منبر كبير مفصل على ثلاثة قطع(٦). وطول مؤخرها وهو الشق الغربى ، من الركن اليمانى إلى الركن الغربى ، ٢٧ ذراعا — طول الذراع الذى به هذا الذرع (ب) ٢٠ أصبعا (٧) . وعرضها من ناحية اليمانى إلى الركن الأسود ٣١ ذراعا

---

(ا) ب ، ج : بطح . (ب) القراءة فى ج : الذى هو الذرع .

(١) أنظر فيما قبل هامش ٥ ص ٦

(٢) أنظر فيما قبل هامش ٤ ص ٦

(٣) أنظر فيما قبل ص ٥ والهوامش

(٤) لا يتفق الكتاب على مقاييس الكعبة والمسجد الحرام . ودون أن نحاول تحقيق المقاييس الصحيحة لكل فترة ، ودون تأييد الواحد منهم أو الآخر ، سنكتفى بالإشارة إلى أهم رواياتهم . ولكن يحسن الإشارة إلى أن كتاب الأزرقى يعتبر المصدر الرئيسى فى هذا المقام . فلقد نقله ابن رسته وذكره معظم الجغرافيين والرحالة مثل ابن جبير وياقوت والعبدرى والفاسى .. الخ .

ويحسن أيضا أن نشير إلى أن ما كتبه المؤلف هنا يختلف عن بقية المصادر . وهذا يدعو إلى الظن بأنه عمل شخصى أى مبتكر ، نقله صاحب الاستبصار عن مصدر لم يصل إلينا . وهو هنا وعلى عكس بقية أجزاء الكتاب لا يذكر اسم أى مؤلف .

(٥) يقول ابن الفقيه ( ص ٢٠ ) دون دقة إن طول المسجد ، فى وقته ، ٢٧ ذراعا ؛ وعلى العكس من ذلك يروى الأزرقى أن طول هذه الواجهة ٢٥ ذراعا ( ص ٢٠٥ ؛ ابن رسته ، ص ٣٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٦ ) . وحسب ابن خرداذبه ( ص ١٣٣ ) يكون طوله ٢٤ ذراعا وشبر وعرضه ٢٣ ذراعا وشبر ( المقدسى ، ص ٧٢ ) .

(٦) قارن ابن جبير ، ص ٩٣ — ٩٤ .

(٧) حسب الأزرقى (ص ٢٠٣) يكون طول هذه الواجهة ٢٥ ذراعا (ابن رسته ، ص ٣٠) . وكذلك الحال بالنسبة لليعقوبى (ص ٣١٦) وابن عبد ربه ( العقد الفريد ، ج ٣ ص ٣٦٣ ) . ويقرر الأزرقى (ص ٢٠٣) أن طول الذراع هنا هو ٢٤ أصبعا (ابن رسته ص ٣٠) .

ونصف ذراع[1] ، وعرضها من ناحية الشام وهو الشق الشامى وهو الذى عليه الميزاب [2] (ا) ، من الركن الغربى إلى الركن الشامى ، ٢٤ ذراعا[3].

هذا ذرع البيت من خارج . وذرعه من داخل : طول الجدار (ب) الذى يقابلك إذا دخلت البيت الذى فيه محاريب الفضة[4]، وهو الذى صلى عليه النبى صلعم ، من الركن الغربى إلى الركن اليمانى ، ٢٢ ذراعا[5]. وطول الجدار الذى فيه الباب ، من الركن الأسود إلى الركن الشامى ، ٢٩ ذراعا[6] ؛ بسبب (ج) الركن الذى بناه الحجاج بن يوسف فى داخل البيت فى الركن الشامى ، وجعل فيه سلما من داخل الركن يرقى منه إلى ظهر الكعبة لتعليق الكسوة[7] . وعرض الجدار الشامى ، الذى بين الركن الغربى والركن الشامى ، ١٥ ذراعا ونصف ذراع[8] ، نقص ذرع (د) الجدار

---

(ا) ج : الضراب (ب) ج : الجبال الجدار (ج) "بسبب" ناقصة فى ب .
(د) "نقص ذرع" ناقصة فى ج .

(١) طول هذه الواجهة ، حسب الأزرقى (ص ٢٠٣) ، ٢٠ ذراعا (ابن رسته ص ٣٠) ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لليعقوبى (ص ٣١٦) وبالنسبة لابن عبد ربه (العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣) . أما ابن الفقيه فيقول إن طولها ١٥ ذراعا وشبر .

(٢) أنظر فيما بعد ص ١٩ وقارن الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣٠ ؛ ابن جبير ، ص ٨٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٧٩

(٣) قارن الأزرقى ، ص ٢٠٣ ؛ ابن رسته (٢١ ذراعا) ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٦ (٢٢ ذراعا) .

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الحائط حيث توجد محاريب الفضة . ولكننا نظن أنها عبارة عن بابين صغيرين من فضة أشبه بالشباكين الملصوقين بركن الحجر الأسود . ابن جبير ، ص ٨٤ .

(٥) قارن الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣١ (٢٠ ذراعا و ٦ أشبار) .

(٦) الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ص ٣١ (١٩ ذراعا و ١٠ أشبار) .

(٧) بعد أن فتح الحجاج مكة وفيها ابن الزبير هدم ، بأمر الوليد بن عبد الملك ، الكعبة التى كان ابن الزبير قد بناها (حسب ما كانت عليه أيام ابراهيم الخليل . أنظر البخارى ، ج ١ ص ٤٠١) ، وأعاد بناءها كما كانت من قبل مع بعض الإصلاحات مثل عمل السلم الذى يؤدى إلى سطح الكعبة . قارن الأزرقى ، ص ١٤٦ ؛ ابن رسته ، ص ٣٣ ؛ ابن جبير ، ص ٨٤ (G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 52) ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٨ — ا .

(٨) قارن الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣١ (١٥ ذراعا و ٨ أشبار) .

من أجل ذلك الركن المذكور . وعرض الجدار اليماني ، من الركن الأسود إلى الركن اليماني ، ١٧ ذراعا ونصف ذراع [١]. وذرع قاع البيت مكسرا ٣٥٢ ذراعا ونصف ذراع[٢].

هذا ذرعه من داخل وتكسير قاعه . وغلظ جدار الكعبة ٥ أشبار[٣]. وارتفاع البيت من خارج : من الأرض إلى أعلى البيت ٣٠ ذراعا : طول جدار البيت منها ٢٧ ذراعا ، وعليه طرابزين وارتفاعه ذراع ، تعلق منه الكسوة وقد استعلت عليه ذراعا ، وكمل بذلك ارتفاع البيت ٣٠ ذراعا[٤]. هذا ارتفاعه من خارجه . وارتفاعه من داخله : جدره كلها من قاع البيت إلى السماء الأولى (ا) ٣٠ ذراعا ، ومن السماء الأولى إلى السقف الأعلى ذراعان[٥].

هذا ارتفاعه من داخله . وذكر أن إبراهيم الخليل عليه السلام إنما بنى البيت الحرام يوم بناه فى ارتفاع ٩ أذرع[٦] غير مسقف (ب) ، فلما بنته قريش واقتصرت عن طوله ٦ أذرع تركت ذلك فى الحجر ، وزادت فى ارتفاع البيت ٩ أذرع ؛ فكان البيت يومئذ من ١٨ ذراعا

---

(ا) ج : الأول . (ب) "غير مسقف" ناقصة فى ج .

(١) قارن الأزرقى ، ص ٢٠٤ (١٦ ذراعا و ٦ أشبار) .

(٢) فيما يتعلق بمقاييس المسجد الحرام الخارجية يقول الأزرقى (ص ٢٠٣ ؛ ابن رسته ص ٣٠) إن مساحة الكعبة عبارة عن ٤١٨ ذراعا مربعا .

(٣) قارن الأزرقى ص ٢٠٣ ، ابن رسته ، ص ٣٠ (ذراعان) .

(٤) ارتفاع البيت الحرام ، حسب الأزرقى (ص ٢٠٣ ؛ ابن رسته ص ٣٠ – ٣١) ، هو ٢٧ ذراعا دون حسبان ذراعين ونصف ذراع هى طول حائط السطوح حيث تعلق الكسوة أو ثياب الكعبة . وهذا يجعل طوله جميعا ٢٩ ذراعا ونصف ذراع : قارن اليعقوبى ، ص ٣١٦ (٢٨ ذراعا) ؛ ابن خرداذبة ، ص ١٣٣ ؛ المقدسى ، ص ٧٢ (٢٧ ذراعا) .

(٥) يقول الأزرقى (ص ٢٠٢ ؛ ابن رسته ، ص ٣٠) إن ارتفاع الكعبة من الداخل هو ١٨ ذراعا ونصف ذراع إلى السقف الأول و ٢٠ ذراعا إلى السقف التالى .

(٦) الأزرقى ص ٣١ ، ٤٨ ، ١٤٤ ، ٢٠٢ ؛ ابن رسته ، ص ٢٨ (Blachère, Extraits, p. 44) ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٩٨ . وعلى عكس هؤلاء الكتاب يقرر ابن الفقيه (ص ٢٠) وياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٨١) أن ارتفاع مسجد ابراهيم ٧ أذرع .

فى الارتفاع[1]. فلما احترق فى زمان عبد الله بن الزبير رضه وأمر ببنائه وزاد فيه ما كان أنقصته قريش، ظهر له عند ذلك قصير الارتفاع، فزاد فى ارتفاعه ٩ أذرع. وقال إن قريشا زادت فيه ٩ أذرع وأنا أزيد فيه ٩، فصار البيت من يومئذ من ٢٧ ذراعا[2] (ا) فى ارتفاعه، لم يزد فيه أحد من يومئذ.

## صفة البيت من داخله وفضله وفضل الصلاة فيه

ينبغى لمن يحج أن يرغب فى داخل البيت وفى الصلاة فيه. فإن فى ذلك فضيلة كثيرة[3]. فإذا دخل فيه أحد فليتركع وليلح بالدعاء والرغبة إلى الله، فإنه مشهد كريم. وليخلع نعليه ولا يبصق ولا يتمخط وليتزه ما استطاع فإنها بقعة مكرمة مقدسة مطهرة، كرمها الله عز وجل وشرفها على بقاع الأرض كلها. وهو قبال البيت المعمور الذى يحجه الملائكة فى السماء كما يحج هذا بنو آدم فى الارض[4].

وصفة قاع البيت هو مبسوط بالرخام الأبيض، وفى رخامة منها عند دخولك من باب الكعبة مسمار فضة. وكذلك جميع جدره مرخمة بالرخام الأبيض قدر ٩ أذرع (ب)، وما فوق ذلك منقوش مذهب بفراشة الذهب ليس بصفائح (ج) إلى سماء البيت. وفى ترخيم جدر (د) البيت ألواح حمر وخضر، يقال إن الوليد ابن عبد الملك بعث تلك الألواح من الشام مع الرخام الذى رخم به البيت، ومع ذلك ٣٠ الف دينار، وأمر أن يرخم البيت ويذهب، وهو أول من كساه بالرخام وذهبه.

---

(ا) ب، ج : ٢٩ ذراعا. (ب) أذرع ناقصة فى ج.
(ج) ج : بصفيح. (د) ب، ح : الجدد.

(١) الأزرقى، ص ١٠٥، ١٠٩، ١١٥، ٢٠٢ (ابن رسته، ص ٢٩ – ٣١؛ Blachère, Extraits p. 45)؛ ابن عبد ربه، العقد، ج ٣ ص ٣٦٣

(٢) الأزرقى، ص ١٤٤، ٢٠٢ (ابن رسته، ص ٣٠؛ Blachère, Extraits p. 45—6) ابن عبد ربه، العقد، ج ٣ ص ٣٦٣؛ ابن الفقيه، ص ٢٠؛ المقدسى، ص ٧٤

(٣) أنظر البخارى، ج ١ ص ٢٩٩

(٤) تقول الروايات إن الملائكة هم الذين بنوا الكعبة نفسها قبل خلق آدم وإنهم أدوا عندها فريضة الحج. الأزرقى، ص ٤ – ٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٨١

فمن تلك الألواح فى الجدار الغربى مقابل من داخل البيت ٥ ألواح : ٣ حمر و ٢ أخضران (ا) . وبين هذه الألواح الخمسة فى ذلك الجدار ٣ محاريب فضة ، طول كل محراب منها ٥ أشبار وعرضه ٣ أشبار ؛ بين كل محراب منها منقوش : « أقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين » . وفى جهة كل محراب منها منقوش : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وفى ذلك الجدار أيضا مما يجاور الركن اليمانى ، فى أعلى الترخيم على رأس اللوح الأحمر ، محراب ذهب طوله شبران وعرضه شبر ونصف[1] . وعلى رأس تلك الألواح والمحاريب بحر مرخم فيه مكتوب بالمسك المحلول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » مكرر فى سطرين . وبعد ذلك : « الإمام المطيع لله أمير المؤمنين »[2] . وفى سطر تحته (ب) : « الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين »[3] .

وفى الجدار اليمانى من تلك الألواح ٤ : أخضران وأحمران ، فوقهما بحر مرخم فيه مكتوب : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة (ج) مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات (د) مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا »[4] .

وفى الجدار الذى كان فيه الباب من تلك الألواح ٣ : أخضر بين أحمرين ، وفوقهم بحر مرخم مكتوب من طرف عتبة الباب : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين »[5] ، « بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »[6] .

---

(ا) ج : خضر . (ب) ج : فى وسط الثانى تحته .
(جـ) ج : بمكة . (د) هذه الآية منقولة فى "ج" الى كلمة بينات فقط .

(1) يعطى الأزرق (ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ؛ ابن رسته ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ) تفصيلات أكثر إسهابا عن هذه النقاط وهو يذكر أن الوليد بعث بـ ٣٥ ألف دينار ولكنه لا يقول شيئا عن محاريب الفضة ولا عن محاريب الذهب . أما ابن جبير فهو كما سبق أن أشرنا (هامش ٤ ص ١١ ) لا يتكلم إلا عن شباكى الفضة الملصوقين بحائط الركن .

(2) هو المطيع لله أبو القاسم الفضل ابن المتوكل (توفى سنة ٣٦٤ = ٩٧٤) .

(3) هو المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن أحمد الخليفة العباسى ( توفى سنة ٣٢٠ = ٩٣٢) .

(4) القرآن ، سورة ٣ ، آية ٨٩

(5) القرآن ، سورة ٣ ، آية ٨٩ ، ٩٠

(6) القرآن ، سورة ٣٣ ، آية ٥٦

وفى الجدار الشامى من تلك الألواح ٣ أيضا : أخضربين أحمرين ، وفوقهما بحر مرخم فيه مكتوب : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود »[1] . هذه صفة البيت من داخله وخارجه (ا) .

## صفة سقف البيت وعمده

وسقف البيت على ثلاثة عتب أطرافها من الجدار الشرقى إلى الجدار الغربى[2] . والعتب على ثلاثة أعمدة من خشب مخروطة على قواعد من خشب فيها مسامير فضة . وهى مصطفة من الجدار الشامى إلى الجدار اليمانى ، بين العامود الأول والجدار الشامى ٤ أذرع ، وبين ذلك العامود والعامود الأوسط ٧ أذرع ، وبين الأوسط والثالث الذى يليه الجدار اليمانى ٧ أذرع ، وبين العامود الثالث والجدار اليمانى ٦ أذرع[3] .

وسماء البيت مذهب فى خضرة ليس بمنقوش إنما هو داثر فى خضرة مذهبة . وفى سماء البيت أربعة روازن للضوء ، جميعها مغطاة بحجر أبيض يسمى الطلق ، يذكر أن عبد الله بن الزبير بعث به من اليمن فغطى منه (ب) الروازن ليدخل منها (ج) الضوء ولا يدخل منها الماء . واحدة من الروازن على الحجر (د) الأسود ، والثانية على وسط البيت بإزاء رأس العامود الأوسط ، وثالثة(ر)

---

(ا) ج : داخلها وخارجها . (ب) ج : منها . (ج) ب : منه
(د) ب : حجر . (ر) ب : ثلاثة .

(١) القرآن ، سورة ٢ ، آية ١١٩

(٢) حسب بن عبد ربه ( العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ) يشتمل المسجد على ثلاثة أروقة . ولكن حسب بن جبير ( ص ٨١ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 51 ) يقوم المسجد على ثلاثة أعمدة من خشب الساج .

(٣) طول المسافات بالأذرع بين الأعمدة والجدران ، حسب الأزرق ( ص ٢٠٥ ؛ بن رسته ص٣١ ) ، هى بالتوالى : ٢,٥ ، ٤,٥ ، ٤,٥ ، ٢ وثلث . قارن بن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢

على الركن الشامى ، ورابعة (أ) على الركن اليمانى (١) . وفى الركن عمود به قصبة فضة (ب) ، وهى التى كانت بها قرط مارية والتميمة وقرن الكبش (٢) . وليس بها اليوم إلا قنديلان من فضة كبيزان منقوشان ، ومعلاق فضة بقنديلين آخرين لا غير (ج) .

## صفة باب الكعبة وذرعه وعتبته

عتبة الباب من ساج أسود مكتوبة من داخل البيت مذهبة من خارجه . وطول باب (د) البيت ٧ أذرع ونصف ذراع ، وعرضه ٤ أذرع الا أربعة أصابع (٣) . وهو مكسو بصفائح الفضة المذهبة ، وله حلقتان من فضة بيضاء غير مذهبتين . وكان قفل البيت من نحاس أحمر مذهب ، بعضه قد انكشف وبقى بعضه مذهبا ، وهو اليوم (ر) حديد مكسو بالفضة (٤) ،

---

(أ) أربعة . (ب) القراءة فى ب : وبين الركن عمودين قصبة فضة . أما فى "ج" فالقراءة : وبين كل عمودين قصبة فضة .
(ج) ج : ومعلقان فضة فى آخرين . (د) كلمتا "طول باب" ناقصتان فى ج
(ر) « اليوم » ناقصة فى ب .

(١) يقول الأزرقى (ص ١٤٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ؛ ابن رسته ، ص ٣٠ ، ٣٢ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣ ) إن الحجر الذى استجلبه ابن الزبير من اليمن خاصة لكسوة هذه الروازن يسمى البلق وليس الطلق . وحسب ابن جبير ( ص ٨٣ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 51 ) كانت توجد خمسة روازن مغطاة بالزجاج العراقى ولكن أحدها لم يكن ظاهرا .

(٢) كانت الكعبة ، مثلها فى ذلك مثل كل المعابد ، تحتوى فى الجاهلية كما فى الإسلام على بعض الآثار المقدسة . نذكر من بينها قرن الكبش الذى تقول الرواية إنه الكبش الذى ضحى به إبراهيم من أجل ابنه إسماعيل . ولقد التهمتهما النيران التى أحرقت الكعبة أثناء الحصار الذى ضربه الحصين بن نمير سنة ٦٤ = ٦٨٣ . أنظر الأزرقى ، ص ١٥٦

(٣) قبل بناء ابن الزبير الكعبة كان للباب مصراع واحد فجعل له ابن الزبير مصراعين ارتفاعهما ١١ ذراعا . ولكن عقب إصلاحات الحجاج أنقص ارتفاع الباب إلى ٤ أذرع وشبر (الأزرقى ، ص ١٤٥ – ١٤٦) ، حتى أصبحت مقاييسه ٦ أذرع و ١٠ أصابع طولا ، و ٣ أذرع و ١٨ أصبعا عرضا (الأزرقى ، ص ٢١٦ ؛ ابن رسته ، ص ٣٦) . ابن الفقيه يقول (ص ٢٠) إن عرض الباب ٤ أذرع . أما ابن جبير (ص ٨٢ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 61 ) فيروى أن ارتفاعه ١٠ أشبار وعرضه ٨ أشبار .

(٤) أنظر الأزرقى ص ٢١٦ ، ٢١٧ (ابن رسته ص ٦٤) ؛ ابن جبير ، ص ٨٢ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 51

طول القفل شبر . والباب فى الجدار الشرقى ، بينه وبين الركن الأسود ٥ أذرع ، ويسمى هذا الموضع المُلْتَزِم[١] ، بينه وبين الركن الشامى ١٨ ذراعا ، وارتفاع الباب من الأرض ٥ أذرع[٢] .

## صفة الحجر الأسود وارتفاعه فى الركن وفضله

الحجر الأسود على ثلاثة أذرع من الأرض[٣] ، وطول ما يظهر منه فى الركن شبر غير أصله فى الجدار شبر[٤] . وهو مصدوع مكسور على ثلاثة قطع : اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة[٥] ، ذكر أن عبد الله ابن الزبير كان ألصقه وشده بالفضة وأدخله فى الركن . وكان قد بقيت القطعة الصغيرة منه عند بنى شيبة ، فلما رده القرمطى بعد أخذه ، ألصق بأَلك وأضاف إليه بنو شيبة القطعة الثالثة ، وأفرغ حوله الفضة ودارت الفضة بينها حتى صار كشبه العين[٦] .

---

[١] الملتزم أو المدعى أو المتعوذ وهو مشهور بالاسم الأول هو المكان الخالى الواقع بين ركن الحجر الأسود وباب الكعبة . وهو مكان مبارك فيه يستجيب الله لدعاء عباده ( الأزرقى ، ص ٢٤٦ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٢٩ ) . أما حسب ابن جبير ( ص ٨٢ ) فهو المكان الواقع بين ركن الحجر الأسود والحجر . وحسب الأزرقى يسمى الجزء الخلق من الكعبة أيضا ملتزم عجائز قريش .

[٢] يقول الاصطخرى ( ص ١٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٧٩ ) إن الباب على ارتفاع قامة . ويذكر ابن جبير ( ص ٨٢ ؛ G.-Demombynes, p. 51 ) أنه على ارتفاع ١١ شبرا ونصف شبر من الأرض .

[٣] يقول الأزرقى ( ص ٢٤٦ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢١٢ ) إنه على ارتفاع ذراعين وثلثى ذراع من الأرض . أما اليعقوبى فيذكر (ص ٢٣) أنه على ارتفاع قامة من الأرض وهو حسب ابن جبير (ص ٨٦) على ارتفاع ٦ أشبار .

[٤] يقول الأزرقى ( ص ٢٤٦ ؛ ابن رسته ، ص ٣٩ ) إنه مدفون فى الحائط إلى عمق ذراعين وثلثى ذراع . ولكن حسب ابن جبير (ص ٨٩) لا يصل هذا العمق إلا إلى ذراعين فقط .

[٥] قارن الأزرقى ، ص ١٤٤ ، ٢٤٥ ( ابن رسته ، ص ٣٨ ) . يقول ابن جبير ( ص ٨٩ ؛ G.-Demombynes, p. 41 ) إنه يتكون من ٤ أجزاء ملصوقة بعضها إلى بعض .

[٦] نفس المصدر . عن القرمطى أنظر فيما سبق هامش ٢ ص ٦

وفيه أيضا طرق كثيرة غير الصدع ؛ فأكثر من استلامه ومن (ا) الركن اليماني ، فإن ذلك يحط الخطايا[1]. وتقول عند استلامه : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم إيمانك وتصديقا لما جاء به نبيك عليه السلام .

## صفة الحِجْر وذرعه [2]

الحِجْر مكعب يشبه الصهريج ليس بالمربع ، مرخم قاعه وحوائطه بالرخام الأبيض ؛ طرفاه ليسا بملصوقين بركن البيت ، يقابلان من الأركان الشامي والغربي . بين طرفي حائط الحجر الواحد والركن الشامي ٨ أذرع ، وبين الطرف الثاني والركن الغربي ٦ أذرع ، وهما بابا (ب) الحجر من حيث يدخل إليه[3]. ودور الحجر ٤٥ ذراعا ونصف ذراع [4]،

---

(ا) « ومن » ناقصة في ب . (ب) ب و ج : باب .

(١) الاستلام هو عادة تقبيل اليد بعد لمس الحجر الأسود أو تقبيل الحجر نفسه . ولكن تصبح هذه العادة المأخوذة مما قبل الإسلام والمنافية لروح الإسلام الوحداني المجرد مقبولة تقول الرواية إن الحجر الأسود يمثل يد الله اليمنى يمدها للناس لكي يستلموها . ودون الإشارة إلى الأساطير التي تروى أنه حجر من الجنة نذكر أن عمر بن الخطاب اقترب من الحجر الأسود وقبله وقال : « إنما أنت حجر ولولا أني رأيت رسول الله صلعم قبلك ما قبلتك » . أنظر البخاري ، ج ١ ص ٤٠٤ وتابع ؛ تنوير الحوالك ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ؛ الأزرقي ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ؛ ابن جبير ، ص ٩٠ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, pp. 43, 209

(٢) الحجر هو المكان الخالي الذي تركه القرشيون عند ما بنوا كعبة إبراهيم من جديد ؛ ولقد أحاطوه بحائط من حجر ولذلك سمي الحجر ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٠٨ ) . وهو على شكل نصف دائرة تقع بين الركن الشامي والركن الغربي . وحسب ما يقوله الكتاب دفن في هذا الموضع إسماعيل وأمه هاجر. أنظر الأزرقي ص ٩١٨ (ابن رسته ، ص ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ؛ Blachère, Extraits..., p. 43 et note ) ؛ الاصطخري ، ص ١٦ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٣ ؛ ابن خرداذبه ، ص ١٣٢ ؛ ابن جبير ، ص ٨٦ ، ٨٨ ؛ المقدسي ، ص ٧٢ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, pp. 21, 27, 36; Note sur la Mekke et Médine, p. 22.

(٣) عرض كل من مدخل الحجر ، حسب ابن جبير (ص ٨٨) ، هو أربع خطوات أي ستة أذرع . ولكن الأزرقي يقول (ص ٢٢٦ ؛ ابن رسته ، ص ٣٨) إن عرض الواحد منها ٥ أذرع و ٣ أصابع .

(٤) مقياسه من الداخل ، حسب الأزرقي ( ص ٢٢٦ ؛ ابن رسته ، ص ٣٨ ) ، ٣٨ ذراعا ومن الخارج ٤٠ ذراعا . ويذكر ابن خرداذبه ( ص ٣٣ ) أنه ٥٠ ذراعا . أما عند المقدسي (ص ٧٢) فهو ٢٥ ذراعا فقط .

وطوله من جدار البيت إلى آخر جوف الحجر ٢٠ ذراعا (١) ، وعرض ما بين طرفيه ٢٥ ذراعا(٢) لأن طرفه الواحد يخرج عن ركن البيت الشامى قدر ذراع وكذلك مقابله . والميزاب فى وسط ذلك الجدار الذى على الحجر(٣) فى وسط ما بين طرفى الحجر ، لاصق بجدار الكعبة رخامتان خضراوان تجر إلى صفرة ، ملصوقتان (ا) بالرصاص يقع عليهما ماء الميزاب . وارتفاع حائطه ٥ أشبار ، وعرض غلظه أربعة أشبار ، مسطح أعلاه بالرخام الأبيض . وعلى ظهر الحائط فى وسطه مما يقابل الميزاب رخامة خضراء ، تجعل صدرك عليها للدعاء فى تمام كل أسبوع ؛ هذه صفة الحجر .

## صفة المقام

حجر لونه بين الدكنة والحمرة ، منقط بنقط سوداء ؛ له رأسان مختصر الوسط مخروم جدا ، وعمق الأقدام فى الحجر أكثر من ثلثى الشبر يزيد نصف أصبع(٤) .

صفة القدمين في الحجر : وصفة القدمين فى الحجر إبهام الواحد إلى كعب الثانى . وأصابع القدم اليمنى مما يلى مستقبل المقام ، وكعب ذلك القدم إلى البيت الحرام ، وأصابع القدم الشمال إلى البيت الحرام ، وكعبه مما يلى مستقبل

---

(ب) ب و ج : ملصوق .

(١) قارن الأزرق ، ص ٢٢٥ ؛ ابن رسته ، ص ٣٨ (٢٠ ذراعا) .

(٢) نفس المصدر (٢٢ ذراعا) .

(٣) أنظر فيما سبق ص ١١ وهامش ٢

(٤) تقدم لنا الروايات الاسلامية عددا من الأقاصيص الطريفة عن المقام وهو أثر الكعبة المشهور . فتقول إحداها ، وهى أكثرها رواجا ، إنه عند ما كان إبراهيم يبنى المسجد الحرام بمساعدة ابنه اسماعيل وعند ما ارتفع الحائط أحضر اسماعيل حجرا مكعبا لأبيه لكى يقف عليه ويواصل البناء ، فترك إبراهيم بطريقة إعجازية أثر رجليه على الحجر . وحسب أقصوصة أخرى كان صعود إبراهيم على الحجر عند ما دعا الناس لحج البيت الحرام (الأزرق ، ص ٢٧١ وتابع ؛ ابن رسته ، ص ٣٨ ، ٥٤) . وحسب رواية ثالثة تم وطء إبراهيم برجليه للحجر عند ما زار ابنه اسماعيل فأحضر أصهاره الحجر فداس عليه وهو راكب على مطيته . وهذا يفسر الوضع الغريب لأثر القدمين على الحجر إذ أنهما معكوسان حسب رواية الاستبصار . أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٧

المقام ، وبين القدمين غلظ مما يلي البيت الحرام ثلاثة أصابع ، ثم يضيق (ا) فيرجع في وسط المقام إلى أصبعين مغلقين ، ثم يضيق حتى يرجع في آخر الجهة مما يلي مستقبله إلى أقل من غلظ أصبع[1] .

ذكر صفة المقام : والمقام مكسو بغاشية فضة ، في الرأس الأعلى منقوش في الغاشية مقابل مستقبله « سبحان الله » ، وفي الجهة التي تلي زمزم « والحمد لله » ، وفي الجهة التي تلي البيت الحرام « لا إله إلا الله » ، وفي الجهة التي تقابل دار الندوة « والله أكبر »[2] . وفي المقام ، في رأسه الأسفل ، مقابض فضة ملصقة في الغاشية يرفع بها المقام عند تحريكه وغسله . وهو قاعد في وسط حويض من رخام أبيض مربع مكسو بغاشية فضة ، عمق الحويض ٤ أصابع مغلقة فيه حلقتان . تنزل على المقام مكبّة من خشب ارتفاعها ٤ أشبار ، وتدخل تلك الحلقتان في فتح في المكبّة ويضرب عليهما قفلان الواحد من جانب زمزم والآخر من جانب دار الندوة . ولها مكبّة أخرى من حديد فإذا قرب الحج وكثر الناس وأتى المرور ، رفعت مكبة الخشب وأنزلت مكبة الحديد[3] ، ويوضع عن يمين المكبة وعن يسارها كرسيان من خشب يجعل عليهما ثوران من نحاس عليهما شمع من قير . وبين المقام والكعبة ٣٠ ذراعاً ، وبينه وبين حد الطواف ١٢ ذراعا . فعرض الطواف هنالك ٤٢ ذراعاً ، وليس يقابل باب الكعبة إنما يقابل وسط جدارها .

---

(ا) القراءة في ب : بين القدمين قدم غلظه مما يلي البيت الحرام ثلاثة الأصابع . أما في ب فالقراءة : وبين القدمين غلظ مما يلي البيت الحرام ثلاثة أصابع فيرجع في وسط المقام إلى ...

(1) رواية المؤلف هنا مختلفة عن بقية روايات الكتاب . قارن الأزرق ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ . (ابن رسته ، ص ٤٠) ؛ ابن الفقيه ، ص ٢٠ ؛ ابن جبير ، ص ٨٤ ؛ المقدسي ، ص ٧٣ ؛ كتاب الجغرافيا ، المخطوط ، ص ٢٨ – ا ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٥ ب – ا .

(2) يقول الأزرق (ص ٢٧٨ ؛ ابن رسته ، ص ٣٤ ) إنه مكسو بغشاء من الذهب . وحسب ابن جبير كان يكسوه طبقة من الفضة . ولكن رغم دقة هؤلاء الكتاب فإنهم لا يذكرون شيئا عن النقوش التي تزين هذا الغطاء .

(3) قارن الأزرق ، ص ٢٧٩ (ابن رسته ، ص ٤٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٨٠ ، ٥٨٨) ؛ ابن جبير ، ص ٨٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٢١ ؛ المقدسي ، ص ٧٢ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

## صفة بئر زمزم وذرعها وذرع قبتها وما فيها من الماء وفضلها[1]

يستحب لمن حج أن يستكثر من ماء بئر زمزم (ا) ، ويكون منه شرابه ووضوؤه ما أقام بمكة ، ويكثر من الدعاء عند شربه وليقل إذا شربه : «اللهم إنى أسألك علما نافعا وشفاء من كل داء» ، فإنه لما شرب . ويستحب لمن حج أن يتزود منه لبلده (ب) فإنه شفاء لمن استسقى موقنا ببركته [2] . قال ابن عباس : «اشربوا من شراب الأبرار وصلوا فى مصلى الأخيار» ؛ قال وشراب الأبرار ماء زمزم (ج) ومصلى الأخيار تحت الميزاب [3] . وغور بئر زمزم من أعلاها إلى قاعها ٧٢ ذراعا[4] ، ومن وجه الماء إلى أعلى البئر ٣٤ ذراعا ، ومن وجه الماء إلى قعر البئر ٣٨ (د) ؛ ذراعا[5] ؛ ويذكر أنها تقرب ليلة النصف من شعبان فى وسط الليل[6] . وذكر أيضا أنه ليس يبقى أحد بمكة إلا يطهر منها تلك الليلة ، فيخرج منها من الماء ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، فما زادت ولا نقصت (ر) ولا تغير الماء عن حاله . وكذلك فى المواسم مانقصت شيئا إلا

---

(ا) ب : ماء زمزم ، ج : بئر زمزم . . (ب) لبلده ناقصة فى ج .
(ج) هذه الجملة ناقصة فى ب . (د) ج : ثلاثة وثلاثون .
(ر) «ولا نقصت» ناقصة فى ب .

(١) ينسب أصل بئر زمزم إلى اسماعيل : فعند ما عطش الطفل الصغير وتيقنت والدته القلقة من موته فجرت ملهوفة بين الصفا والمروة ، ضرب الأرض برجليه فنبع الماء تحت ضرباتها . وهكذا اتخذ هذا المورد صفة قدسية . الأزرق ، ص ٢٧٩ وتابع (ابن رسته ، ص ٨٠) ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٩١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ، ص ٩٤١ .

(٢) قارن الأزرق ، ص ٢٩٠ ؛ ابن جبير ، ص ٩٠

(٣) الأزرق ، ص ٢٩٢

(٤) يبلغ عمقها ، حسب الأزرق (ص ٣٠٠ ؛ ابن رسته ص ٤٢ — ٤٣ ) ، ٦٩ ذراعا : ولقد كان فى أول الأمر ٦٠ ذراعا ثم زيد فيه ٩ أذرع سنة ٢٢٣ ، ٢٢٤=٨٣٨ ، ٩٣٩. وحسب ابن جبير (ص ٨٨ ؛ ابن بطوطة ، ص ٣١٨ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 78 ) يبلغ عمقها ١١ قامة .

(٥) يقول ابن جبير ( ص ٨٨ ) إن عمق الماء ٧ قامات .

(٦) يحتج ابن جبير (ص ١٤٠ ؛ G.-Demombynes., Pèlerinage. p. 83—4 ) ضد هذا الاعتقاد الساذج الذى أثبت شخصيا عدم صحته . قارن العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٥ - ب .

أن الماء يتمكن قليلا فى المواسم . وقيل إنها غارت فى سنة ٣٢٤ وعطلت أياما ، وكانت تجم ليجتمع فيها الماء . وذكر أيضا أنها جفت فى بعض تلك السنين حتى أن رجلا دخل (ا) فيها فصلى فى قاعها ركعتين[١] .

ودور سعة البئر ١٨ ذراعا[٢] ، وذرع سورها ٦ أذرع[٣] ، وعليها قبة مربعة على ١٦ سارية (ب) منقوشة كلها[٤] ، و ٤ أركان معلقة بشراجيب الحديد ترجع إلى باب لطيف من ناحية قبة الشراب ، ويعرفها أهل مكة بساقية زبيدة[٥] . قاعها مبسوط بالرخام ، وسقفها ملبس منقوش من داخله بخشب الساج (ج)[٦] ، معمول من خارجه بالفسيفساء ، مصنوع من زاج قد جعل فيه فرشة الذهب . وفى أعلى القبة قبيبة فيها سلسلة من نحاس ، يوقد على جميعها الشموع ليلة الختمة فى رمضان . وعليها يرتفع الداعى لأمير المؤمنين بالدعاء[٧] ، وله مرتب على ذلك .

وقبة زمزم هذه تقابل من الكعبة المُلتزم وهو ما بين الركن الأسود وباب الكعبة[٨] ، وركن القبة خارج عن ركن الكعبة ، ودور القبة من داخل : صهاريج يصب فيها الماء ، يتوضأ الناس منها للصلاة .

---

(ا) « دخل » ناقصة فى ب . (ب) ب : ٦ سوارى .
(ج) القراءة فى ب : من داخلها فى خشب الساج

(١) حدث ذلك كما يقول الأزرقى (ص ٣٠٠ ؛ ابن رسته ، ص ٤٢ – ٤٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٤٢ ) سنتى ٢٢٣ و ٢٢٤ = ٨٢٨ و ٨٣٩
(٢) قارن الأزرقى ، ص ٣٠٠ ؛ ابن رسته ، ص ٤٣ (١١ ذراعا) .
(٣) نفس المصدر (ذراعان وشبر) .
(٤) قارن المقدسى ، ص ٧٢
(٥) هى زبيدة زوجة هارون الرشيد . أنظر G. Demombynes, Pèlerinage, p. 240
(٦) قارن الأزرقى ، ص ٣٠١ ، ٣٣٦
(٧) قارن ابن جبير ، ص ١٠٠ ، ١٠٣
(٨) أنظر فيما سبق هامش ١ ص ١٧

## صفة قبة الشراب[1]

وبإزاء بئر زمزم قبة الشراب ، وهى مقبوة على أرجل من خشب ، مغلوف بينها بالشرجب ، ترجع إلى باب صغير من جانب دار الندوة . وذرع القبة ٨٠ ذراعا ، وقاعها معمول بالجبار فيه خواب مملوءة بالماء يسقى الناس منها من المغرب إلى العتمة ؛ سقفها معمول بالفسيفساء ، فى أعلاها زج (ا) يشبه صورة طائر من نحاس تديره الرياح ؛ بينها وبين قبة زمزم ٣٥ ذراعا .

## صفة بيت اليهودية[2]

هو داخل المسجد الحرام ، وهو بيت مربع أعلاه مُشْرِف ، جدره ملبسة بالجيار . وليس فى المسجد الحرام بناء غير ما وصفت .

## صفة المسجد الحرام وذرعه وما فيه من الصنع

وفى المسجد الحرام أربع أئمة : فالإمام الشافعى إلى المقام ، والإمام المالكى إلى الركن الغربى ، والإمام الحنفى إلى الميزاب ، والإمام الحنبلى يصلى إلى الركن اليمانى[3] . وطول المسجد الحرام من ركن بنى شَيْبَة ، وهو الباب الذى يدخل الناس منه أول ما يدخلون المسجد الحرام ، إلى ركن بنى جُمَح الذى عند باب السهميين الكبير ٤٠٧ أذرع[4] . وعرضه من باب السهميين ، وهو ركن

---

( ا ) ج : زوج .

(١) الأزرق ، ص ٢٣٧ وتابع ؛ ابن جبير ، ص ٨٩ ( G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 89 ) . وقبة الشراب تعرف بقبة العباس وطولها ٢٤ ذراعا وعرضها ١٩ ذراعا . قارن العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٥ - ا .

(٢) عقب قبة العباس توجد القبة المعروفة بقبة اليهودية وهى منحرفة عنها . والقبتان عبارة عن مخزنين لأوقاف البيت الحرام من مصاحف وكتب وشمع وغيرها . أنظر ابن جبير ، ص ٨٩

(٣) يضيف ابن جبير ( ص ١٠١ - ١٠٢ ) إماما خامسا غير مهم هو إمام الزيدية من الشيعة المعتدلين .

(٤) قارن الأزرقى ، ص ٣١٩ ؛ ابن رسته ، ص ٤٤ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ (٤٠٤ ذراعا) ؛ ابن خرداذبة ، ص ٣٢ ؛ المقدسى ، ص ٧٢ (٣٧٠ ذراعا) .

بني جمح ، إلى ركن منى وأجياد الكبير الذي على باب اليمانيين ٢٨٠ ذراعا (١).
هذا ذرع المسجد الحرام في الطول وفي العرض .

وللمسجد الحرام خمس منائر(٢) : منارة في ركن أجياد ، ومنارة على ركن أبي قبيس – وفي ركن ذلك المنار مما يلي دار إبراهيم الخليل (٣) عليه السلام الميل الأخضر(٤) الذي منه ابتداء الهرولة – ومنار ثالث على ركن بني شيبة ، ومنار رابع على باب دار الندوة ، ومنار خامس على باب جمح ، ويعرف بباب السُدّة .

## عدد أبواب المسجد الحرام شرفها الله

له من الأبواب ١٧ بابا(٥) منها في الشق الغربي وهو الذي يلي باب جمح وبني سهم ٣ أبواب(٦) : باب السهمين الكبير وهو باب العمرة ومنه يخرج الناس إلى التنعيم لعمل العمرة ، وهو حنية كبيرة بلا سارية . ثم باب

---

(١) قارن الأزرقي ، ص ٣١٩ ( ابن رسته ، ص ٤٤ ) . عرض المسجد من مئذنة بني أجياد إلى مئذنة بني سهم ٢٧٨ ذراعا .

(٢) للمسجد ، حسب الأزرقي (ص ٣٣١) ، أربع مآذن تقع في الأركان الأربعة للبناء . إلا أن ابن جبير (ص ٩١) يذكر أن للمسجد سبع مآذن : أربع منها في الأركان الأربعة للمسجد ، وواحدة قائمة فوق دار الندوة وسادسة فوق باب الصفا والسابعة الأخيرة فوق باب إبراهيم . ولكن يحسن الإشارة إلى أن رواية العبدري (المخطوط ، ص ٩٣ – ب) تتفق بدقة مع رواية الاستبصار .

(٣) دار إبراهيم عبارة عن دار مبنية فوق جبل «أبو قبيس» . ويحتج الأزرقي (ص ٤٢٥ – ٤٢٦ ) على نسبة هذه الدار إلى إبراهيم الخليل ويقول إنها كانت محل إقامة رجل من سائر الناس اسمه إبراهيم .

(٤) الميل الأخضر عبارة عن علامة أشبه بالوتد قائمة لتبين حدود الأرض الحرام . وأول من أقام الأميال الخضراء هو المهدي العباسي . الأزرقي ، ص ٣١٢ .

(٥) لا يتفق الكتاب على عدد الأبواب في المسجد الحرام . فهي حسب الأزرقي (ص ٣٢٣ ؛ ابن رسته ، ص ٤٨) ٢٣ بابا . قارن المقدسي ، ص ٧٣ (١٩ بابا) ؛ ابن جبير ، ص ١٠٥) ابن بطوطة ، ص ٢٢١ – ١٩ بابا) ؛ كتاب الجغرافيا ، المخطوط ، ص ٢٨ – ا (١٨ بابا) ؛ العبدري ، المخطوط ، ص ٩٣ – ا (٣٩ بابا) . أنظر : G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 131 sq .

(٦) يعد الأزرقي (ص ٣٢٧ ؛ ابن رسته ، ص ٥١) ٦ أبواب في هذه الواجهة ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لابن الفقيه (ص ٢١) .

ابراهيم عليه السلام وهو ٧ أقواس على ٨ أعمدة (أ) من آجر (ب) ملبسة بالجيار ، تدخل منه قبل وصولك إلى المسجد ، إلى دار كانت دار الحنطة (ج) زادتها زبيدة [١] . وهي دار مربعة طولها ٥٦ ذراعا وعرضها كذلك (د) ؛ وهي سقائف محمولة على أعمدة من آجر ملبسة بالجيار تشتمل على ٥٢ عمودا . ثم تمضي منها إلى صحن المسجد ؛ وخارج هذا الباب على ضفة الوادى بئر غدورة وبئر ابراهيم [٢]، وهما بعيدا الرشا ملحان لا يشرب منهما . ثم باب جعفر (ر)، وهو المعروف بباب اليمانيين، وهو قوسان على سارية .

وفى الشق الذى إلى جانب الوادى وأبى قبيس ٦ أبواب [٣] : باب البقالين وهو باب أجياد الكبير ، ويقابل هذا الباب دار أبى جهل ، وهو قوسان على سارية ، ثم باب الغزالين وهو قوسان على سارية ؛ ثم باب الصفا (س) وهو باب بنى مخزوم ، ومنه يخرج إلى الصفا وهو ٥ أقواس على ٤ سوار ؛ ثم باب الخياطين وهو باب بنى طلحة ، وهو قوسان على سارية وفى هذا الباب يبيع البدو أطعمتهم إذ يأتون إلى مكة .

وفى الشق الذى إلى جانب المسعى ٤ أبواب [٤] : باب على (ص) ابن أبى طالب رضه ، وهو ٣ أقواس على ساريتين — وفى مقابل السارية الواحدة التى إلى جانب باب النبى صلعم الميل الأخضر الذى فى ركن دار جعفر لصق دار العباس ؛ وهو رجل ملبس بالجيار ، قد صبغ بالخضرة ، بناه المهدى ، جعله علما حيث تنقطع الهرولة . ثم باب النبى صلعم وهو قوس

---

(أ) القراءة فى ج : وهو على سبعة أقواس على ثمانية أعمدة . (ب) ج : آجور .
(ج) ج : دار الحنطة . (د) "كذلك" ناقصة فى ب .
(ر) ب : الجعفر . (س) كلمات : " ثم باب الصفا " ناقصة فى ب .
(ص) ج : باب السيد على .

[١] قارن الأزرقى ، ص ٣١٥ ، ٣٢٨ . ولكن صاحب الاستبصار أكثر دقة فيما يختص بهذه النقطة .

[٢] لا يذكر الكتاب شيئا عن هذين الموردين .

[٣] يعد الأزرقى (ص ٣٢٥ ؛ ابن رسته ، ص ٤٩) ٧ أبواب فى هذه الواجهة .

[٤] يعد الأزرقى هنا (ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ؛ ابن رسته ، ص ٤٩) خمسة أبواب .

صغير بلا سارية ، ومنه يخرج إلى الحدائق وإلى الصيادلة ؛ وعنده طبل عظيم عرضه ٥ أشبار وهو من خشب تم عليه رائحة الزنجبيل وهو مجلد من ناحية ، يضرب من أول ١٠ ذى الحجة عند كل صلاة . ثم باب بنى شَيْبَة وهو ٣ أقواس على ساريتين ، ومنه دخل النبى صلعم ، ومنه يدخل كل من دخل مكة حاجا أو معتمرا . وعتبته من القوس الأول إلى القوس الثالث هُبَل(١) الصنم الأعظم الذى كان فى الكعبة ، وكانت قريش تعبده من دون الله فغيره الإسلام عن حاله وجعله عتبة لهذا الباب (ب) تطأه الأقدام ؛ وإنما قصد به هذا الباب لأن الناس يدخلون عليه من جميع الآفاق(١) ؛ والحمد لله على نعمة الإسلام . وفى هذا الشق المسعى وهو مابين الصفا والمروة (٢) ؛ وهو بطن المَسيل (ج) ، وفيه سوق مكة يجتمع فيه الباعة للمطاعم والصناع .

وفى الشق الذى يلى دار الندوة ٤ أبواب(٣): باب السوارى وهو قوس صغير بلا سارية ؛ ثم باب الندوة وهو قوسان على سارية ، يدخل منه إلى دار الندوة التى زيدت فى المسجد (٤) . وهى دار مربعة يدخلها تبنيق من جانب دار العجلة (٥) ؛ وهى سقائف من كل جانب على أعمدة آجر ملبسة بالجيار (د) . طول الدار ٣٢ ذراعا ، وعرضها مثل ذلك ، وجميع ما فيها من العمد ٧٧ عمودا ؛ ولها باب آخر يدخل منها إلى المسجد أيضا يعرف أيضا بباب الندوة (٦) ،

---

(ا) ب : هل . (ب) « الباب » ناقصة فى ب . (ج) ب : أهبيل .
(د) ج : بالجير .

(١) يرى الأزرق (ص ٣١٦) أن هذا الاعتقاد لا أساس له من الصحة وأنها حجارة أحضرها من يسمى القسارى لبناء الحوض المعروف باسم بركة البردى ( ابن جبير ، ص ١١٣ ، (G.-Demombynes. Pélerinage, p. 132 .

(٢) أنظر فيما بعد ص ٢٩ وهامش ٤ .

(٣) يعد الأزرق (ص ٣٢٨ ؛ ابن رسته ، ص ٥٢) ستة أبواب فى هذه الواجهة .

(٤) أنظر فيما سبق هامش ١ ص ٨

(٥) يقال إنها أول دار أنشأها القرشيون فى مكة ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٢٢) . أما عن تسميتها فيقول الأزرق (ص ٤٦٤) أنه عندما أعاد ابن الزبير بناءها كانت أحجار البناء تحمل على عجلة تجرها الثيران ومنها أخذ اسم الدار .

(٦) عن وصف دار الندوة يقول الأزرق ( ص ٣٤٥ ) إن طولها ٨٤ ذراعا وعرضها ٧٦ ذراعا . وهو يعد فيها ٢٢ عمودا دون أعمدة الأبواب .

وهو قوسان على سارية مما يلي دار العجلة . ثم باب الطبرى وهو قوس صغير بلاسارية ، يقال له باب السُّدَّة ، ومنه يخرج إلى دارجعفرالصادق . وفى هذا الشق أيضا ستة أبواب (١) إلى الدور التى تجاور المسجد الحرام ليست من المسجد فى شىء .

## عدد سوارى المسجد الحرام وذكر معجزة النبي صلعم فى ابتياعه السارية الحمراء

وجميع ما فى المسجد الحرام من السوارى ٤٧٠ سارية ؛ هذا فى السقائف خاصة ، وفى أبواب المسجد ٢٦ سارية ليست من العدد الأول . وفى الدارين المزيدتين فى المسجد : دار الندوة ودار الحنطة ١٢٧ (ا) عمودا فكمل بذلك عدد السوارى والأعمدة ٦٢١ عموداً (٢) . والمسجد الحرام من كل جانب ٣ بلاطات فى كل شق من تربيعه(٣) . وفى طول المسجد من ناحية الصحن ٤٦ قوسا ، وفى عرض المسجد من جهة الصحن أيضا ٣١ قوسا(٤) ،وفى الوجه الذى يلى دار الندوة — فى وسط المسافة — سارية حمراء كانت ليهودية ، وطلبها النبى صلعم ليبتاعها منها فأبت أن تبيعها منه إلا بوزنها من ذهب ، فابتاعها منها صلعم فأخذها عليه السلام بهذا الشرط . فوضعت السارية فى كفة (ب) الميزان ووضع

---

(ا) ب : ١٢٩ والأصح أن تكون ١٢٥ حتى يصبح المجموع ٦٢١

(ب) «كفة» ناقصة فى ب .

(١) باضافة هذه الأبواب الستة التى لا يعددها المؤلف يصبح عدد الأبواب جميعا ٢٣ بابا وهو نفس رقم الأزرق ( هامش ٥ ص ٢٦ ) .

(٢) يعدد الأزرق (ص ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ ابن رسته ، ص ٤٤ ؛ كتاب الجغرافيا ، المخطوط ، ص ٢٨ —١) ٤٨٤ عمودا ؛ ويعد ابن جبير (ص ٩٠) ٤٧١ عمودا منها ؛ أما ابن الفقيه (ص ٢١) فيذكر أن عددها ٤٦٥ عمودا ؛ ولا يذكر ابن عبد ربه (العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢) العدد الكامل للأعمدة بل يكتفى بأن يقول إنه يوجد ٥٠ عمودا فى كل صف مقابل للواجهة الداخلية للصحن طولا و ٣٠ عمودا عرضا ، وإن عدد الأعمدة ذوات التيجان المذهبة ٣٢٠ عمودا .

(٣) قارن ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ؛ ابن جبير ، ص ٩٠

(٤) قارن الأزرق (ص ٣٢٢ وتابع) فهو مختلف ولكنه أقل دقة ؛ يذكر أبو جعفر على الفلكى القرطى أن كلا من واجهات الجوانب الكبيرة تحتوى على ٣٦ قوسا ، أما الجوانب الصغيرة فلا يحتوى كل منها إلا على ٢٤ قوسا ( أنظر : G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 125 ) .

النبي صلعم في الكفة الثانية مثقالا فرجح المثقال ببركته صلعم ، فأخذها عليه السلام ووزنها مثقالا واحدا فهذا من براهينه[1] صلعم . ووجه كل بلاط من ناحية الصحن مزول بالفسيفساء .

## عدد قناديل المسجد الحرام وما فيه من الحطيم والثريا[2]

داخله ١٠ (ا) أرجل من خشب مصفحة بالنحاس تسمى كل واحد منها بالحطيم ، تجعل عليه القناديل وتعلق منه بأكواس من زجاج في رمضان . فمنه حطيم صاحب بغداد وحطيم شاه (ب) ملك العجم وحطيم سنجار ملك الفرس وحطيم السيدة ؛ وهذه (ج) من ناحية المقام موقفة . وحطيم الحنيفية من ناحية الشام ينظر إلى الركن الغربي . فحطيم بغداد يتعلق منه ٢٠ قنديلا ، وحطيم شاه يتعلق منه ١٠ قناديل ، وحطيم سنجار يتعلق منه ١٠ قناديل أيضا ، وحطيم الحنيفية يتعلق منه ٦ قناديل . ويتعلق من الذى على زمزم ١٠ قناديل ، ويتعلق من الأربعة الباقية ١٨ قنديلا ، فعدد ما يتعلق منها ٧٢ قنديلا (د) . ويتعلق من سقائف المسجد الحرام

---

(ا) ب : خمسة . (ب) ج : شاهين . (ج) ب ، ج : هؤلاء .
(د) المجموع يساوى ٧٤ قنديلا .

(١) يذكر الأزرق (ص ٣٠٨ ، ٣٢١) العمود الأحمر ولكنه لا ينسبه إلى اليهودية ولا يقول شيئا عن المعجزة .

(٢) يعطينا المؤلف هنا تفصيلا فريدا . ولكن يرجع الفضل إلى ابن جبير (ص ١٠٢ ؛ ابن بطوطة ، ص ٢٧٤) في وصف الحطيم : فهو عبارة عن خشبتين موصول بينهما بأذرع من الخشب أشبه بالسلم تقابلها خشبتان على تلك الصفة وكل منهما معقودة على رجلين من الجص قليلتى الارتفاع . وتتصل الخشبتان في أعلاهما بخشبة مسمرة ثالثة معترضة قد تدلت منها خطاطيف الحديد تحمل القناديل .

أما عن الأزرق (ص ٢٦٧) فالحطيم عبارة عن المكان الواقع بين الركن الأسود والمقام وبئر زمزم والحجر . وهو المكان الذى كان يقوم فيه إساف ونائله اللذين غيرهما الله إلى حجر لجرأتهما على اللقاء في الكعبة وتدنيسها . أما اسم الحطيم فقد أعطى للمكان لأن الناس يقومون فيه بالدعاء . فهو مكان يجيب الله فيه السائلين ضد الظالمين .

أما عن ياقوت الذى يأخذ بهذا الرأى (معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٩٠) فهو يضيف أن كلمة حطيم ، حسب رواية بن عباس ، تعني حائط وهو حائط الكعبة .

١٥٠ قنديلا و ٥ ثريات : واحدة على باب إبراهيم الخليل عليه السلام ، والثانية (١) على باب (ب) الصفا ، وثالثة على باب شيبة ، ورابعة على باب السوارى ، والخامسة على باب بنى جمح[١].

وأرض المسجد الحرام رملة فى قوام السميد[٢] ؛ وقد رتب فيه نفسان بأيديهما وضفان يرقعانها عند كل صلاة[٣].

## صفة الصفا والمروة

والصفا حجر أزرق عظيم قد بنى عليه درج (ج) ، ومن عليه يصعد إلى أبى قبيس ، وعدد درجاته ٣٠ درجة وإلى آخر موضع الوقوف منها (د) ١٨ درجة . والمروة أيضا حجر عظيم كأنه قد انقسم فصار بعضه كذا و بعضه كذا وصار ما بينهما فرجة نحو ١٢ ذراعا ، بنى فى تلك الفرجة درج نحو العشرة إلى موضع الوقوف عليها ؛ وبنى فى أسفلها من ناحية الشرق محراب . وليس يرى من البيت من أعلى المروة إلا قدر ذراعين[٤].

ذرع المسعى : وذلك من الصفا إلى المَيْل الأخضر الأول ، الذى فى ركن المنار الذى على باب الوادى، وهو ١٨٠ ذراعا . ومن ذلك الميل إلى الميل

---

(١) ب : ثمانية . (ب) « باب » ناقصة فى ب . (ج) ب : ذرع .
(د) ب : آخر الموضع الموقوف منها .

(١) قارن الأزرق ص ٣٢١ (٤٥٥ قنديلا و ٨ ثريات) .

(٢) يقول العبدرى (المخطوط ٩٣ — ا) إن أرض المسجد منطاة بالرمل الأبيض الجميل المنظر .

(٣) يسمى ابن جبير (ص ٩٦) هذه الآلة الفرقعة : وهى عبارة عن عود مخروط أحمر قد ربط فى رأسه مرس من الأديم المفتول فى طرفة عذبة صغيرة ينفضها بيده فى الهواء فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه كأنه إيذان بوصول الخطيب .

(٤) لم يكن هناك سلم على التلين إلى عهد أبى جعفر المنصور العباسى الذى بناه . الأزرق ص ٣٥٠ (ابن رسته ، ص ٥٤) ؛ ابن جبير (ص ١٠٦ ؛ ابن بطوطه ، ص ٢٢٧) يقول إن سلم الصفا يتكون من ١٤ درجة .

الأخضر الثانى ، الذى فى ركن دارى جعفر والعباس ١٢٥ ذراعا ، ويقابل كل واحد من الميلين الأخضرين مثلهما على شكلهما . ومن ذلك الميل إلى المروة ٤٧٥ ذراعا ؛ فجميع ما بين الصفا والمروة ٧٨٠ ذراعا[١] .

## صفة منىً والجمرة ورميها[٢]

إذا دخلت منى فقل اللهم هذه منى وهى مما دللتنا عليه (أ) من المناسك (ب) ، فأسألك أن تمن علينا فيها بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك وعبادك الصالحين . ومنى شبه القرية التى بنيت على ضفتى الوادى النازل من عرفات[٣] . وفى وسط ذلك الوادى الجمرتان[٤] : والجمرة الأولى

(أ) ج : ذللتنا . (ب) « من المناسك » ناقصة فى ب .

(١) رواية الأزرق أكثر تفصيلا ( ص ٣٤٩ وتابع ؛ ابن رسته ، ص ٥٤ ) ولكنها مختلفة بشكل محسوس عن هذه الرواية . قارن الاصطخرى ، ص ١٦ ؛ المقدسى ، ص ٧٣ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٢ — أ .

(٢) منى هو المكان الذى تدور فيه أهم مناسك الحج من رمى الحصى إلى ذبح الأضاحى . وهناك رواية تقول إن الاسم مأخوذ من التمنى : وذلك أن جبريل عند ما أتى بآدم إلى هذا المكان سأله ماذا يتمنى فقال العودة إلى الجنة . فهكذا سمى منى . الأزرق ، ص ٤٠٦ ؛ ابن جبير ، ص ١٥٧ . أما ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٤٢) فيقول إنه سمى منى نسبة إلى الدم المراق أثناء احتفال التضحية .

(٣) يقال إن اسم عرفات مأخوذ من الاعتراف بالذنب . فالملاك جبريل هو الذى نصح آدم بالاعتراف بخطئه فى هذا المكان (ابن رسته ، ص ٢٥) . وحسب أسطورة أخرى يقال إنه المكان الذى التقى فيه آدم بحواء بعد خروجهما من الجنة وحيث عرف كل منهما الآخر (المسعودى مروج الذهب ، ج ١ ص ٩٢) . وحسب قصة ثالثة سمى المكان بعرفات لأن جبريل عرف آدم فيه كيفية القيام بمناسك الحج (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٦٤٥ — ٦٤٦) .

وهو عبارة عن أرض مسطحة يحدها التل الذى يشرف على وادى عرنة ويمتد حتى الجبال ثم المكان المعروف باسم وضيق ثم وادى عرفة ( الأزرق ، ص ٤٨ ) . وحسب ابن جبير ( ص ١٧٢ ) ينتهى بجبل الرحمة . قارن الاصطخرى ، ص ١٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٧ ؛ تنوير الحوالك ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٨

(٤) الجمرة هو المكان الذى تلقى فيه الحصيات ، وإلقاء الحصيات من مناسك الحج والعمرة الرئيسية . والاسم مأخوذ من التجمير أى التجميع وذلك لأن الحصيات تتجمع فيه فوق بعضها أيام الحج . أنظر الأزرق ، ص ٤١٠ وتابع . ابن جبير ، ص ١٥٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١١٧ ؛ الاصطخرى ، ص ١٦ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٦٩ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٢ ؛ المقدسى ، ص ٧٦ ؛ البخارى ص ٤٣٧ ، ج ١ ؛ تنوير الحوالك ، ص ٣٥٩ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٣ — ب ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, pp, 238, 275.

هي جمرة العقبة أول ما تلقى منى فى رأس العقبة على يسار الداخل فى منى من ناحية مكة ، فارمها من أسفلها من بطن الوادى بسبع حصيات . وتقول مع كل حصاة (أ) : « لا إله إلا الله والله أكبر على رغم الشياطين (ب) أو الشيطان وخزيه » . فإن رماها قبل الفجر لم تجز وأعاد رميها بعد الفجر ولا ذم عليه . والحصاة قربان فما تقبل منه رفع ، وما لم يتقبل منه بقى[1] . وليس على الخارج بمنى صلاة العيد وإنما صلاتهم فى ذلك اليوم وقوفهم بالمشعر الحرام[2] .

وأيام منى أيام ذكر الله ، قال الله تعالى : « وأذكروا الله فى أيام معدودات »[3] فالمعدودات أيام منى الثلاثة ، ترمى فيها الجمار وهى أيام التشريق[4] وليس يوم النحر منها لقوله تعالى : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه »[5] فلو كان منها لقال فمن تعجل فى ثلاثة . فالنفر هو فى اليوم الثانى من الثلاثة التى بعد يوم النحر (ج) ، والأيام المعلومات يوم النحر واليومان اللذان بعده ، واليوم الرابع للمعدودات خاصة . فإذا رميت جمرة العقبة نحرت هديك واستقبلت به إلى القبلة ، وقلت : « باسم الله اللهم منك ولك فأسألك أن تتقبل منى كما تقبلت من إبراهيم (د) خليلك عليه السلام » . وفى سفح الجبل على جمرة العقبة مسجد وفى حائطه من ناحية الجوف حجر مبسوط أدكن فيه (ر) أثر قدم إسماعيل عليه السلام ولد إبراهيم الخليل حين أضجعه للذبح فركض برجله فلان له الحجر

---

(أ) ب : حصيات . (ب) « الشياطين » ناقصة فى ج .
(ج) هذه الجملة مشوشة فى ب إذ أن قراءتها : فالنفر الأول الثانى من الثلاثة التى يعمل بعد يوم النحر . (د) ج : سيدنا ابراهيم .
(ر) « فيه » ناقصة فى ب .

---

(1) قارن تنوير الحوالك ، ص ٣٥٩ .

(2) المشعر الحرام الذى يعرف أيضا باسم جمع أو المزدلفة أو قزح ، هو المكان الواقع بين منى وعرفة . وهو المكان الذى يقف فيه الحاج ليلة (وقفة) عيد الأضحى .

قارن الأزرقى ، ص ٤١٧ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٨٧ ؛ ابن جبير ، ص ١٧٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١١٨ ؛ الفاسى ، ص ٩٧ . وانظر G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 238.

(3) القرآن ، سورة ٢ ، آية ١٩٩

(4) أنظر فيما سبق هامش ٥ ص ٧

(5) القرآن ، سورة ٢ ، آية ١٩٩

فغرق رجله فيه صلعم[١] . وفى هذا الموضع أثر الكبش وأسفل من ذلك فى جوف الشعب عند طلوعك إلى العقبة عن يسار الطريق مسجد بيعة (ا) الأنصار التى كانت فى الإسلام ، بقى أثره إلى اليوم[٢] . ثم تدخل منى فتلقى الجمرة الثانية عن يسارك على باب مضرب السيل ومضرب المعتز ، بينهما وبين جمرة العقبة ٤٠٠ ذراع[٣] ؛ ثم الجمرة الثالثة وهى وسط المحجة بينها وبين الجمرة الوسطى ٣٥٠ ذراعا[٤] . وترمى الجمرات الثلاث بسبع حصيات ، وتقول إذا رميتها مثل ما تقدم من القول . وليعلن الحاج بالتكبير أيام منى ، ويذكر الله ويكبر فى أى ساعات النهار شاء ، ولا يقطع (ب) التكبير حتى يصلى الظهر والعصر بالمُحَصَّب[٥] . فإذا دخلت مكة وطفت طواف الإفاضة[٦] فقل : «اللهم لك الحمد على تسليمك إياى حتى قضيت حجتى مفلحا ، قد غفرت لى ذنبى وقضيت لى حوائجى ، إنك على كل شئ قدير» (ج) . فإذا ودعت البيت وصدرت (د) عنه ، فلا ترد له ظهرك حتى تغيبه ؛ وتقول عند ذلك : «اللهم اجعله حجا مبرورا وذنبا مغفورا وعملا مقبولا وسعيا مشكورا يا أرحم الراحمين . اللهم لا تجعله آخر العهد من بيتك المعظم (ر) ومن زيارة قبر نبيك المكرم واقلبنى سالما إلى أهلى إنك على كل شئ قدير» .

---

(ا) ب : بعث . (ب) ب : يقطعوا . (ج) «شئ قدير» ناقصة فى ب .
(د) ب : صدت . (ر) «المعظم» ناقصة فى ب .

(١) أنظر ابن جبير ، ص ١٥٧

(٢) قارن الأزرق ، ص ٢١٣ ، ٤٢٨ ؛ ابن جبير ، ص ١٥٧ . عن بيعة المدنيين انظر ابن الأثير : ج ١ ص ٧٣ وتابع .

(٣) مقياس هذا المكان حسب الأزرق (ص ٤١١) ٤٨٧ ذراعا و١٢ أصبعا .

(٤) يقول الأزرق (ص ٤١١) إن المسافة بين هاتين الجمرتين ٣٢١ ذراعا .

(٥) عن المحصب أنظر فيما سبق ص ٧ و هامش ٣ ، ٤ . وهو مكان قليل الارتفاع على يسار الطريق من شعب الحجون إلى منى . واسم المحصب مأخوذ من الحصباء وهى الحصى الدقيقة التى تتجمع فيه . وليس لهذا المكان أهمية خاصة فيما يتعلق بمناسك الحج ؛ فالذى حدث هو أن النبى وقف فيه ينتظر عائشة التى كانت تقوم بالحج . وعلى ذلك فهو محطة اختيارية للحجج . البخارى ، ج ١ ص ٤٤١ ، الأزرق ، ص ٣٨٧ ؛ الفاسى ، ص ٩٤ . وانظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٢٦ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٥١٠ ؛ ابو الفدا ، الترجمة ، ص ١٠٧ وهامش ٣ .

(٦) أنظر G.-Demombynes, Pèlerinage, pp. 224, 256

## صفة مسجد الخَيْف[1] وذرعه وذكر الغار الذى بقربه[1]

المسجد فى أصل الجبل يمين الطريق إذا سرت إلى المُزْدَلِفَة من منى . وهو مبنى من حجارة مضرورة (ب) أكثرها آجر ملبسة بالجيار ؛ البيت منه على ثلاث بلاطات ، وحول الصحن من جانب سقيفة على أقواس معقودة على أرجل من آجر ملبسة بالجيار ؛ جميع ما فى المسجد كله ١٨٥ رجلا[2] . وطول المسجد ١٧٥ ذراعا وله ٧ أبواب وباب ثامن صغير فى قبلة المسجد قريب من المحراب إلى دار الإمام[3] . وفى وسط صحنه منار قد تثلم أعلاه[4] . وبالقرب من المسجد فى أصل الجبل غار دخله النبى صلعم منحنيا فلم يتمكن له فيه جلوس حتى لان له فيه الحجر فغرق فيه مرفقه ورأسه صلعم (ج) ؛ فكل من دخله لا يتمكن له فيه جلوس حتى يضع مرفقه ورأسه فى الموضع الذى وضعه فيه النبى صلعم (ج) . وفى هذا الغار أنزلت عليه سورة « المرسلات »[5] فيعرف بغار المرسلات .

## صفة مسجد المُزْدَلفة[6]

ومسجد المزدلفة أسفل من المسجد الحرام على يسارك إذا مضيت إلى عرفات ؛ وفيه يجمع ما بين المغرب والعشاء إذا نفرت من عرفات ، لقول النبى صلعم : «الصلاة أمامك»[7] . وهو مبنى بحجارة مطرورة دون سقف ؛ إنما هو حائط

---

(ا) القراءة فى النص : الحنيفية . (ب) ج : مطرده .
(ج) الجملة الواقعة بين صلعم وصلعم ناقصة فى ج .

(١) أنظر الأزرقى ، ص ٤٠٦ – ٤٠٧ (ابن رسته ، ص ٥٥ – ٥٦) ؛ ابن جبير ، ص ١٥٧ ؛ الاصطخرى ، ص ١٦ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٣ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٦ ؛ ياقوت ؛ معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٠٨ .

(٢) الأزرقى ، ص ٤٠٧ ؛ ابن رسته ، ص ٥٦ (١٦٨ عمودا) .

(٣) نفس المصدر (٢٠ بابا) .

(٤) قارن الأزرقى ، ص ٤٠٨

(٥) القرآن ، سورة ٧٧ ، وانظر G.-Demombynes, Pèlerinages, p. 238

(٦) الأزرقى ، ص ٤١٢ (ابن رسته ، ص ٥٥) ؛ ابن جبير (ص ١٧٧) يسميه مسجد المشعر الحرام ؛ الاصطخرى ، ص ١٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٣ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٨ – ب .

(٧) البخارى ، ج ١ ص ٤٢٠ ؛ تنوير الحوالك ، ص ٣٣٦ ؛ ابن جبير ، ص ١١٧

من جميع جهاته الثلاثة ، والوجه الرابع غير قائم وليس له محراب . وفي القبلة منه حجر منقوش . وطول المسجد ٦٣ ذراعا ، وعرضه ٥٠ ذراعا [١]، وارتفاع حائطه ١٠ أذرع . والمزدلفة كلها مشعر الابطن مُحَسِّر [٢] . ولا تدع التكبير والتهليل في نزولك بالمزدلفة ، وفي دفعك منها إلى منى وقل : «اللهم إني أسألك جوامع الخير كله» ، واسأله ما شئت فإنه (ا) موقف عظيم ؛ وخذ حصيات الجمرات من المزدلفة فإنه أحسن [٣] .

## صفة المشعر الحرام[٤]

وهو موضع مرتفع ، عن يمين الطريق إذا مضيت إلى عرفات ، من أصل جبل بني قُزَح [٥] في ذلك إلى الارتفاع . وهو منار من حجارة مطرورة بالجيار [٦] ؛ ارتفاع ذلك المنار ١٢ ذراعا ودور غلظه ١٢ ذراعا ونصف ذراع . ويرقى إليه من داخله على ١٥ درجة ؛ وله باب صغير نحو الكعبة . وحيثما وقفت من المشعر الحرام فكله موقف ؛ وارتفع عن بطن مُحَسِّر . وإذا دفعت مع الناس فادفع بالسكينة والوقار والذكر حتى تأتي بطن مُحَسِّر (ب) فتحرك فيه بكل حال إن كنت ماشيا أو كنت راكبا ، فهرول حتى تخرج منه فإنها السنة .

---

(ا) ب : فلأنه . (ب) الجملة السابقة ابتداء من كلمتي "وإذا دفعت" ناقصة في ج .

(١) يتكون المسجد حسب الأزرقي ( ص ٢١٢ ؛ ابن رسته ، ص ٥٥ ) من مربع طول الضلع فيه ٥٩ ذراعا وشبرا . ويحتوي على أربع واجهات وليس ثلاث فقط : حائط الجزء الخلفي منها ارتفاعه ثلاثة أذرع بينما ارتفاع الحوائط الثلاثة الأخرى كالآتي : حائط القبلة ٧ أذرع و٣ أشبار ، والحائط الشرقي ١٠ أذرع ثم الحائط الغربي ١٠ أذرع .

(٢) بطن محسر عبارة عن واد ضيق يقع بين وادي منى ووادي المزدلفة أنظر ص ٣٦ . وكل امتداد المزدلفة عبارة عن «موقف» سوى الوادي الذي يبدأ عنده «الدفع» من المزدلفة إلى منى . ابن جبير ، ص ١٧٢ ، ١٧٧ (ابن بطوطة ، ص ٤٠٠) ؛ الأزرقي ، ص ٤٥ ؛ الفاسي ، ص ٩٣ ؛ تنوير الحوالك ، ص ٣٤٨ ؛ الاصطخري ، ص ١٧ ؛ المقدسي ، ص ٧٧ . وانظر G.-Demombynes; Pèlerinage, p. 238 .

(٣) ابن جبير ، ص ١٧٧

(٤) أنظر فيما سبق هامش ٢ ص ٣١

(٥) الأزرقي ، ص ٤١٢

(٦) ابن جبير ، ص ١٧٢

## صفة عرفات وجبل الرحمة (ا) (١)

وعرفات قرية صغيرة فى جانب بنى ضبّة، غربيها تحت الموقف، عن يمينك إذا استقبلت الموقف. وجبل الرحمة الذى يطلع الناس إليه للدعاء هو أقرب الجبال إلى الموقف؛ وهو جبل صغير ليس بالعالى جدا ينقطع من كل جانب. وهو على الموقف، وقد بنى حوله شبه الساقية، يرتَى منه إلى الجبل من ثلاثة مواضع من ناحية الموقف، فى الواحد منها ١٧ درجة، وفى الاثنين عشر. وفى أسفل الجبل منها ٣ صهاريج للماء (ب)؛ وفى أعلى المبنى مسجد لأم سلَمة زوج النبي صلعم(٢).

## صفة شريعة ابراهيم عم(٣)

وهو حائط مبنى من كل جهاتها غير مسقف، وقد انهدم أكثرها فما بقى منها إلا جدار القبلة وفيه المحراب؛ وعن يمينك إذا استقبلت المحراب ٣ أقواس معقودة يدخل منها الناس. وموضع المنبر هناك عن يمين مستقبل المحراب، طول الشريعة ١٧٠ ذراعا وعرضها ١٥٠ ذراعا. وبقِبلى الشريعة بركة للماء، وخلف تلك البركة منبت الأراك (ج)؛ وهو بطن عُرَنَة، قريبة إلى العلمين اللذين هما حد الحرم. وهناك يجب الارتفاع للماشي والراكب؛ ومن وقف عليه عشية الوقوف(د) فقد فسدت حجته لقوله عليه السلام: «عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عُرَنَة(٤)». وقيل إنه من الحرم؛ وعرض ذلك الوادى قدر ٨٠٠ ذراع إلى العلمين(ر).

---

(ا) القراءة فى ب «وجبال الرحمة» بينما فى ج «وجبل الحرمة».
(ب) «للماء» ناقصة فى ب. (ج) ب: الاداء.
(د) ب: الموقف. (ر) ب: العالمين.

(١) جبل الرحمة: حسب رواية ابن جبير (ص ١٧٣)، جبل منعزل فى أرض مسطحة. وهو عبارة عن حجارة متقطعة كان من الصعب الصعود عليها فيما مضى. قارن الفاسى، ص ٨٥.

(٢) قارن ابن جبير، ص ١٧٣.

(٣) ابن جبير، ص ١٧٣؛ أبو الفدا، الترجمة، ص ١٠٠. هنا يجب ألا نخلط بين هذا المسجد ومسجد الخيف كما فعل الأزرق (ص ٢١٠). فمسجد الخيف يقع فى منى وهو معروف بهذا الاسم أى بمسجد منى بينما يقع جامع ابراهيم بعرفة.

(٤) يقع بطن عرنة عقب منطقة عرفة مباشرة بينها وبين الميلين الأخضرين اللذين يحددان الأرض الحرام، وهو يظهر وكأنه من عرفة. قارن تنوير الحوالك، ص ٣٤٨؛ ابن جبير، ص ١٧٢؛ الأزرق، ص ٤١٨؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ٣ ص ٦٥٧؛ الفاسى، ص ٨٧. وانظر G.-Demombynes, Pèlerinage, pr 245

## صفة بطن مُحَسِّر (١) وفى أى موضع هو من المزدَلِفة

بطن مُحَسِّر فى أول دخولك إلى المزدلفة من ناحية الغرب إلى الشرق يشقه الطريق ؛ وهو بطن مسيل عرضه ١٠٠ ذراع ، ثم تفصل عنه إلى موضع مرتفع وأنت خارج إلى المزدلفة ؛ وسقاية عباس هناك عن يمينك . وهى بركة عظيمة ليس بها ماء عظيم (١) اليوم .

## صفة المأزَمَين(٢)

هما جبلان فى فم المضيق إذا خرجت عن المشعر الحرام تريد إلى عرفات ، وتوقد هناك فى ليلة النحر مشاعل كثيرة عن يمين الطريق وعن يساره .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : ثم جمع ما شرطنا من وصف مكة — شرفها الله تعالى — فلنذكر الآن صفة مسجد النبي صلعم بالمدينة وصفة روضته وصفة البقيع وصفة قبور الشهداء(٣) رضى الله عنهم .

---

(١) « عظيم » ناقصة فى ب .

(١) أنظر فيما سبق هامش ٢ ص ٣٤ .

(٢) المأزمان مفرد مأزم ومعناه المضيق . ولكن كلمة مأزم هنا تطلق على كل من التلين الواقعين بين المشعر الحرام وعرفات . والحقيقة أن المقصود بها هو المضيق بينهما . ويعرف التلان باسم مأزى عرفة أو مأزى منى . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٩١ ؛ الأزرق ، ص٤١٠ ؛ الفاسى ، ص ٧١ ، ٩٦ .

(٣) هنا تنبغى الإشارة إلى أن كتاب ابن النجار المعروف باسم «الدرة الثمينة» (مخطوط المكتبة الوطنية بباريز — القسم العربى رقم ١٨٣٠ ) يستحق مديح ( المرحوم الاستاذ ) ج . سوفاجيه : J. Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médine. p. 39

ولما كان ما كتبه الكتاب لا يختلف كثيراً بعضه عن بعض ، فلن نحاول أن نعرض لكل النصوص ولا لذكر جميع المصادر . أنظر J. Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médine, p. 13

## صفة مسجده صلعم

ومسجد النبي صلعم مستطيل غير مربع ، يزيد طوله على عرضه ١٠٠ ذراع[1] . وسماء المسجد منقوشة مدهونة (ا) محفورة مذهبة ، كلها على عتب منقوشة على أعمدة خرز (ب) أسود بعضه على بعض ملبّسة بالجيار[2] . وهو ليس على أقواس إلا ما كان إلى الصحن ، فإنه أقواس معقودة وجوهها مزولة بالفسيفساء على أعمدة من خرز ملبسة بالجيار . والأعمدة التي إلى صحن المسجد هي أقصر من التي عليها سماء المسجد ، وتلك الأقواس التي إلى صحن المسجد مغلقة بشراجيب الساج ؛ مقدم المسجد خمس بلاطات معترضة ، ومؤخره مثل ذلك[3] ، ومجنبة المسجد الشرقية فيها ٣ بلاطات معترضة ، ومجنبته الغربية ٤ بلاطات[4] ؛ ومن مقدم المسجد إلى الصحن ١١ قوسا ، وكذلك من مجنبته الأخرى . وطول المسجد من ركن منار بلال رضه وهو الذى بإزاء قبر النبي صلعم (ج) إلى ركن مؤخره ، وعرضه من باب جبريل عليه السلام وهو الذى بإزاء قبر النبي صلعم (ج) إلى باب الرحمة التي بجنب دار السيدة ١٧٠ ذراعا .

---

(ا) « مدهونة » ناقصة فى ب . (ب) ج : رخام .

(ج) الجمل الواقعة بين صلعم وصلعم ناقصة فى ج .

(١) نكرر أنه لا جدوى من مقارنة ما أورده الكتاب من الروايات المأخوذة من أصول مشتركة بما يورده صاحب الاستبصار . انظر ابن رسته ، ص ٦٤ ، ٧٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٢٤ ؛ المقدسى ، ص ١١ . وفيما يختص بما كتبه ابن النجار والعبدرى (المخطوط ، ص ١١٦ – ا) وياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٦٦) فإنه يتفق مع ما يكتبه مؤلفنا . حسب ابن النجار (المخطوط ، ص ٣٣ – ا) أصبح مقياس المسجد بعد إضافات عمر والوليد والمهدى ٣٠٠ ذراع طولا و ٢٠٠ عرضا . ويقول ابن جبير (ص ١٩٣) إن طوله ١٩٦ خطوه وعرضه ١٢٦ خطوة .

(٢) يقول ابن جبير (ص ١٩٣) إن السوارى التي تشبه الأعمدة من حجر منحوت قطعا صغيرة مثقبة ، توضع أنثى فى ذكر ويشدها الرصاص حتى تصبح عمودا ثم تكسى بغلالة من الجيار الذى يدلك بدقة حتى تصبح كالرخام .

(٣) ابن جبير ، ص ١٩٠ ، ١٩٣ (ابن بطوطة ، ص ٢٦٣) .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٠ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٨ – ب .

## صفة الروضة التى بين القبر والمنبر

طول الروضة التى بين قبره صلعم والمنبر ٥٦ ذراعا[١] . وذرع الموضع المرخم الذى فى وسطه الروضة ، وهو الموضع الذى كان يقعد فيه النبي صلعم ، ويستند إلى تابوت من خشب كان يرفع فيه حوائجه صلعم ، فذلك الموضع اليوم شبه الحوض ، مرخم عمقه قدرشبر وطوله ٣ أذرع . والتابوت فيه باق إلى اليوم ، وعليه قفل من حديد ما فتحه أحد ولا يعلم ما فى داخله ؛ والتابوت فى قبلة الحوض منزول منه إلى الأرض بمقدار ما يتحرك[٢] .

## صفة الروضة التى فيها قبر النبي صلعم[٣]

قبره صلعم فى ثلث البلاط الأوسط من ناحية الشرق ، وهو فى روضة مخلقة ولها ٥ أركان : فى الحائط الذى ينظر إلى القبلة منها ، فى الركن منه من ناحية المنبر ، وجه النبي صلعم إلى القبلة ؛ وعند قدر وسطه عليه السلام وجه أبى بكر رضه ، وقبال ذلك مسمار فضة علامة لموضع وجهه رضه ؛ وعند قدروسط أبى بكر وجه عمر رضه[٤] ومن ذلك الحائط إلى حائط القبلة ٢٠ ذراعا ، وطول هذا الحائط ١٩ ذراعا ، وطول الحائط الذى يلى باب جبريل عليه السلام ١٥ ذراعا ،

---

[١] يقول ابن جبير ( ص ١٩٢ ) إن المسافة بين المنبر والروضة ٤٢ خطوة .

[٢] يتكلم ابن جبير ( ص ١٩١ ) عن صندوق من خشب الأبنوس والصندل تكسوه لوحات من الفضة على شكل النجوم . والصندوق موضوع قرب الحائط الشرقى الغربى من الروضة . وبعد ذلك (ص ١٩٢) يذكر حوضا يكسوه الرخام موضوع فى وسط الروضة . ويقول عنه البعض إنه بيت ( غرفة ) فاطمة ويقول الآخرون إنه قبرها . قارن العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٩ — ب .

[٣] تقول الرواية إن اسم الروضة مأخوذ من حديث منسوب إلى النبي ، قال فيه : « ما بين حجرتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» . وحسب تفسير آخر : قيل معناه كانت الصحابة تقتبس من العلم فى ذلك الموضع فهو مثل الروضة . ابن النجار ، المخطوط ، ص ٢٦ — ا ، ٢٦ — ب ؛ البخارى ، ج ١ ص ٢٠٠ .

[٤] يورد ابن النجار فى هذا المقام الروايات المتباينة التى يوردها الكتاب عن الموضع الصحيح للقبور الثلاثة . المخطوط ، ص ٤٢ — ا وتابع . وقارن الاصطخرى ، ص ١٨ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٦ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٦ ؛ المقدسى ، ص ٨٢ ؛ ابن جبير ، ص ١٩١ (ابن بطوطة ، ص ٢٦٤) ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٩ — ب .

وبين هذا الحائط وحائط المسجد الشرق ٩ أذرع . وطول الثلاثة أوجه سوى هذه ١٥ ذراعا ، وارتفاعها من الأرض نحوا من ١٢ ذراعا ، وهى مرخمة كلها ، وعليها مما يلى سقف المسجد شباك الحديد ، وهى مكشوفة ليس لها سقف ، ولها سماء إلى سقف المسجد [1] . وقد أسدلت عليها أستار من الديباج الملون إلى قدر ثلثى الحيطان ، والثلث الباقى من ناحية القبلة والغرب ملطخ بالعنبر والمسك والزعفران .

وفى الركن الذى عند رأس النبى صلعم رخامة خضراء ما رأى أحد أجمل منها ، جعلت علامة لموضع رأسه[2] صلعم .

## صفة المنبر

هو من ٨ درجات [3] يقعد الخطيب منها فى الدرجة السابعة ، والثامنة عليها مكبّة من خشب لئلا يرقى عليها أحد لأنها الدرجة التى كان يقف عليها النبى[4] عم . وبين المنبر وحائط القبلة ٢٠ ذراعا ، وبينه وبين المقصورة[5] ١٢ ذراعا ، وبين وجه المقصورة وحائط القبلة ٨ أذرع (ا) . وفى جانب المنبر من ناحية الروضة حلقة فضة على كوكب فضة تدورلها صوت

---

(ا) « القبلة » ناقصة فى ب .

(١) انظر ابن جبير ، ص ١٩١ .

(٢) يقول ابن جبير (ص ١٩١) إن العلامة عبارة عن مسمار فضة يحدد مكان وجه النبى .

(٣) يقول الاصطخرى ( ص ١٨ ) إن المنبر الأول يعلوه منبر آخر أحدث منه . وحسب ابن رسته (ص ٧٦) قام مروان بن الحكم بعمل المنبر على عهد معاوية . وهو من تسع درجات بينما كان منبر النبى من ثلاث درجات فقط (ابن النجار ، المخطوط ، ص ٢٥ — ب ، ٢٦ — ب) . والمنبر حسب المقدسى (ص ٨٢) يتكون من ثمانى درجات ( ثلاث قديمة وخمس أضافها معاوية ، ابن جبير ، ص ١٩٢) . أنظر J. Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médine, p. 87

(٤) إن وجود اللوح الذى يغطى الدرجة الأخيرة حتى لا يجلس الخطيب فى مكان النبى يدعو إلى الظن أن الدرجات التى أنشأها الأمويون كانت قاعدة للدرجات الثلاث القديمة . وبعد أن يقرر السمهودى ذلك ( المخطوط ، ص ١١٧ — ا ) يقول إن منبر معاوية بما فيه منبر النبى راح ضحية الحريق وإن المنبر الموجود أنشئ بعد ذلك الحادث .

(٥) أنظر J. Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médine, p. 41

إذا حركت ، كان النبي صلعم يشغل بها الحسن والحسين[1] رضه عنهما . وفى قبلة المنبر ، مائلا إلى الشرق قليلا ، عمود من أعمدة المسجد قد قطع فيه قدر شبر ، ودخل فى جوف العمود الجذع الذى حن لرسول الله [2] صلعم .

## صفة المحراب

المحراب ليس فى وسط (ا) حائط القبلة ، إنما هو أميل إلى الشرق بـ ٢٠ ذراعا [3] . والقبلة مرخمة وعلى الترخيم مكتوب ، من باب الرحمة إلى باب السلام ، من أول سورة « والشمس وضحها » إلى آخر سورة « قل أعوذ برب الناس »[4] الخ . وعلى جانب المحراب كوكب كبير ، وفى وسطه حجر من ياقوت أزرق يذكر أنه وسط عقد فاطمة الزهراء رضه . وفى قبلة المسجد عن يمين المحراب باب صغير ، تحت المقصورة فى وسط البلاط ، يهبط منه على درج إلى باب كان يسكن فيه آل عمر [5] رضه .

## عدد أبواب مسجد النبي صلعم

وللمسجد ٢٠ بابا : منها فى الجانب الشرقى ٧ أبواب (ب) مربعة بمصاريع مشرجبة ؛ وفى الجانب الغربى كذلك منها باب صغير بدفة ، وهو قوس

---

(ا) « وسط » ناقصة فى ج . (ب) القراءة فى ج : عشرة سبعة أبواب .

(١) قارن ابن جبير ، ص ١٩٢ — ١٩٣

(٢) أنظر ابن النجار ، المخطوط ، ص ٢٤ — ب ، ٢٥ — ا .

(٣) قارن ابن رسته ، ص ٧٥ . يؤكد العبدرى (المخطوط ، ص ١١٩ — ا) أنه يقع إلى الغرب أكثر منه إلى الشرق .

(٤) القرآن ، سورة ٩٣ ، آية ١١٤ . عمر بن عبد العزيز هو الذى أمر بنقش هذه الآيات على القبلة . أنظر ابن رسته ، ص ٧٠ ؛ ابن النجار ، المخطوط ، ص ٣٢ — ا .

(٥) يقول ابن النجار (المخطوط ، ص ٣٢ — ا) إن هذه الفتحة كانت باب مسكن آل عمر بن الخطاب . وإنه عند ما أمر المهدى بترسيع المسجد سدت ؛ ولكنه عند ما صالح العمريين أعاد فتحها وجعل لها ثلاث درجات وباب تحت الأرض (قارن ابن رسته ، ص ٧٣) . ويقول ابن جبير (ص ١٩٣ — ١٩٤ ؛ ابن بطوطه ، ص ٢٦٤) إن هذا السرداب يؤدى إلى مسكن آل أبى بكر .

ليس للمسجد باب بقوس غيره (ا) . وفى الجانب الجوفى ٤ أبواب أيضا كبار ؛ وباب فى القبلة ؛ وباب تحت المقصورة التى تقدم ذكرها[1] .

## عدد ما فى المسجد من العمد (ب)

وجميع ما فى المسجد من العمد ٢٧٦ عمودا[2] . وللمسجد ٣ منائر على ٣ أركان[3]: منها على ركن القبلة الشرقى منار ، وعلى الغربى منار ، وعلى ركن مؤخر المسجد منار . والمسجد مبسوط مقدمه ومؤخره ومجنّبته بالحصى الأدكن . وكان فى البلاط الأوسط عام ٥٢٨ [ = ١١٣٤ ] وطاء طبرى (ج) مبطّن . وجميع جدره مرخّمة قدر قامتين أو أزيد قليلا ، وصحنه مبسوط بالحصى ، وهو مغروس بالنخيل . فى البلاط الشرقى بناء قائم يشبه المحراب ، ذكر أنه كان موضع صلاة فاطمة رضه . وفى الجوف (د) ، فى وجه البلاط فى الصحن ، بناء قائم كأنه بيت ، ذكر أنه مخزن المسجد .

## عدد مافيه من القناديل

وفى المسجد من القناديل ٢٨٤ (ر) قنديلا[4] ؛ وكان يحرق كل ليلة ١٠ أرطال من الزيت .

---

(ا) « بقوس غيره » ناقصة فى ج . (ب) ب ، م : العمود .
(ج) ب : صبرى ، ج : وطاصبر . (د) « فى الجوف » ناقصة فى ب .
(ر) القراءة فى النص : ثلاثمائة قناديل الا ستة قناديل .

[1] حسب ابن رسته (ص ٧٥) كان للمسجد ٢٢ بابا سنة ٢٩٠=٩٠٢ . وعند ما يتكلم عن فتحات المسجد بالتفصيل (ص ٧٧) يقول إن للمسجد ٢٤ بابا ، ولكنه لا يعدد منها سوى ٢٠ فقط . المقدسى ، ص ٨٠ (٢٠ بابا) ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٦ (للمسجد ١٨ بابا . ولكن المؤلف لا يعمل حساب باب حائط القبلة ولا باب المقصورة) . ابن جبير (ص ١٩٥) يعد منها ١٩ بابا . ومما يلفت النظر أن العبدرى (المخطوط ، ص ١٠٩ – ا) لا يعد منها إلا ٤ أبواب .

[2] يروى ابن رسته (ص ٧٩) أن عدد الأعمدة ٢٩٦ عمودا . وابن جبير (ص ١٩٣) يعد فى المسجد ٢٩٠ عمودا .

[3] يقول ابن رسته (ص ٧٠) إنه بعد إضافات الوليد بن عبد الملك أصبح للمسجد ٤ مآذن : واحدة فى كل زاوية . ولكنه عند ما يتكلم عن المآذن بالتفصيل (ص ١٧٦) لا يذكر منها إلا ثلاث . والحقيقة أن إحداها هدمت على عهد سليمان بن عبد الملك . أنظر ابن النجار ، المخطوط ، ص ٣٢ – ا ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٦ ؛ ابن جبير ، ص ١٩٥ .

[4] قارن ابن رسته ، ص ٧٦ (٢٩٠ قنديلا) .

## صفة بقيع المدينة[1]

بقيع المدينة من ناحية الشرق ، فأول ما تلقى إذا خرجت إلى البقيع قبر مالك رضه ، وهو قبر مهمل مبنى بالحجر والطين مرتفع من الأرض نحو ٤ أشبار . وعند رأسه حجر أدكن منقوش تاريخه من يوم مات . ثم تسير منه قليلا وقد بصقت القبور موتاها ورفضت الأرض جميع ما دفن فيها من صغير وكبير ، ولم يبق فى بطنها منهم شئ إلا رفضته(ا) على وجهها . فلم يبق عضو من أعضائها ولا عظم من عظامها ، ولو كان مقدار خردلة إلا وخرج على الأرض من ناس أهل المدينة خاصة . وترى البقيع شبه المقتلة من دفن قديم وحديث وجماجم الموتى بالية قديمة وأخرى حديثة ، فهذا عبرة لمن اعتبر . ثم تسير قليلا فتلقى روضة العباس بن عبد المطلب رضه ، ثم روضة إبراهيم ولد النبي عم ، ثم روضة عثمان بن عفان رضه ، وروضات كثيرة[2] .

## صفة مسجد قبا[3]

وهو مسجد على ثلاثة أميال من المدينة ، تصلى فيه إذا مررت به . وهو مسجد مربع طوله ٧٠ ذراعا[4] وعرضه كذلك ، مقدمه ٣ بلاطات ، ومؤخره مع مجنبته سقيفة واحدة على أعمدة من خرز ملبسة بالجيار عددها

---

(ا) ربما كانت كلمة لفظت هنا خير من كلمة رفضت الموجودة فى النص .

(١) تسمى مقبرة المدينة بقيع الغرقد لأنها كانت مغطاة بالنباتات الشوكية المعروفة بالغرقد . أما كلمة بقيع فمعناها المكان المزروع بعدد من أنواع الشجر . أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٠٤ وهامش ٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٠٣ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ١٧٠ ؛ ابن جبير ، ص ١٩٥ ؛ المقدسى ، ص ٨٢ ؛ ابن النجار ، المخطوط ، ص ٤٩-ب

(٢) قارن ابن جبير ، ص ١٩٦ ؛ ابن النجار ، المخطوط ، ص ٥١ - ا ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٨ - ب ؛ ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٤٤ .

(٣) ابن جبير ، ص ١٩٧ ( ابن بطوطة ، ص ٢٨٨ ) ؛ ابن النجار ، المخطوط ، ص ٣٤ - ا ؛ الاصطخرى ، ص ١٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٦ ، ابن الفقيه ، ص ٢٦ ؛ المقدسى ، ص ٨٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٣ .

(٤) يقول ابن النجار ( المخطوط ، ص ٣٦ - ب ) إن طوله ٦٨ ذراعا وعرضه مثل طوله . ويكتفى ابن جبير (ص ١٩٧) بأن طوله مثل عرضه .

٤٣ عمودا(١) ، وله ٣ أبواب بلا مصارع(٢) . وعلى ركن مؤخر المسجد مكتوب عن يسار من استقبل المحراب : « إن النبي صلعم دخل على أم أيمن وهي حزينة فقالت له ليس عندى ما أحج به فقال لها صومى أيام العشر ثم ايت مسجد قُبا يوم عرفة فصلى فيه ركعتين تنقلبي بثواب حجة »(٣) . ومكتوب أيضا أن سعد بن أبي وقاص رضه قال : «لئن آت مسجد قبا فأصلى فيه ركعتين أحب إلى من أن أزور بيت المقدس مرتين . ولو علم الناس ما فى مسجد قبا لضربوا إليه آباط الإبل»(٤) .

وبئر قبا التي مضمض النبي صلعم ومج فيها وكانت ملحة فعذبت ببركته(٥) صلعم ، وهو بغربي المسجد . وبيت سعد بن خيثمة الأنصارى الذى كان يقيم فيه النبي صلعم بين المسلمين ، هو قريب من ركن المسجد الغربي(٦) . ومن مقدم المسجد والشجرة التي كانت تحتها البيعة سقف ، وذلك السقف جزع وهو مغطى بالألواح(٧) .

## صفة قبور الشهداء بأُحُد رحمة الله عليهم

وقبور الشهداء فى أصل جبل أحد(٨) ، أقرب ما يكون منها بأحُد حظير (ا) مبنى من حجارة ارتفاعه إلى الحزَم (ب) ، فيه من القبور ٣٧ قبرا (ج)

---

(ا) ب ، م : بحضير . (ب) ب : الحرم . (ج) ب و ج : منبرا .

(١) حسب ابن النجار (المخطوط ، ص ٣٩ – ب) يكون عدد الأعمدة ٣٩ عمودا .

(٢) يقول ابن جبير (١٩٧) إنه ليس له إلا باب واحد .

(٣) أم أيمن هى مربية النبى ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠٠ ) . أما فيما يختص بفضل هذا المسجد فيروى ابن النجار (المخطوط ، ص ٣٦ – ٦) أن النبى قال : « من توضأ وجاء مسجد قبا فصلى فيه ركعتين كان له أجر عمرة ... » . وقارن ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٢ ص ٩

(٤) أنظر ابن النجار المخطوط ، ص ٣٦ – ا .

(٥) أنظر ابن جبير ، ص ١٩٧

(٦) أنظر مقال دائرة المعارف الاسلامية .

(٧) أنظر البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٨٠١

(٨) أحد هو أقرب الجبال إلى المدينة . وهو جبل أحمر على بعد ميل تقريبا من شمال المدينة ، وقربه دارت معركة أحد الشهيرة حيث استشهد ٧٠ من صحابة النبى . ياقوت ، =

مغطاة بالجندل . وقبر العروسين معاذ بن عمرو بن الجموح وصاحبه معاذ بن عمر اللذين أمر النبي صلعم أن يدفنا فى قبر واحد[1] ، وهما بغربى ذلك الحظير ، بينهما قدر رميتين بحجر ؛ وعليه لوحان مكتوبان الواحد من مسن المدينة والآخر من خشب . وقبراهما مقبو عليهما ؛ ارتفاعه قدر القامة عنده ١٢ قبرا . وأسفل من الحظير قبر حمزة بن عبد المطلب[2] ، وقد بني حوله حظير ، وقطع منه مسجد وقبر . والقبر فى الحظير أمام المسجد غير ممهد ، عند رأسه لوح من مسن المدينة فيه مكتوب : « هذا قبر حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلعم ، أسد الله وأسد رسوله ؛ سيد الشهداء وقائدهم إلى الجنة ؛ شهد بدرا وقتل يوم أحد رضه » . وعند ظهره لوح مكتوب فيه : « إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » إلى آخر الآية [3] . وعند رجله لوح مكتوب فيه : « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » [4] . « هذا قبر حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ، شهد بدرا وقتل يوم أحد شهيداً » .

ومن ذلك الحظير على يساره إذا مضيت إلى أحد ، عن يمينك قبل أن تبلغ قبر حمزة ، مبني ارتفاعه إلى المحزم ، عليه لوح مكتوب من خشب : « هذا قبر سهل بن قيس بن سعد ، صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا [5] .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : انتهى ما قصدته من ذكر مكة شرفها الله ، وما سقته معها من ذكر المناسك ، ووصف مسجد النبي عم بالمدينة . والآن أشرع فيما أشترطه من ذكر البلاد بمبلغ الوسع والاجتهاد ، والله الموفق للصواب .

---

= معجم البلدان ، ج ١ ص ١٤٤ وقارن الاصطخرى ، ص ١٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٦ ؛ ابن جبير ، ص ١٩٥ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٨ – ب ؛ ابن الاثير ، ج ٢ ص ١١٣

(١) أنظر ابن النجار ، المخطوط ، ص ١٦ – ب ، ١٧ – ب .

(٢) أنظر ابن جبير ، ص ١٩٥ ؛ المقدسى ، ص ٦٢ ؛ ابن النجار ، المخطوط ، ص – ب .

(٣) القرآن ، سورة ٩ ، آية ١١٢

(٤) القرآن ، سورة ٣٣ ، آية ٥٦

(٥) أنظر ابن النجار ، المخطوط ، ص ١٥ – ب .

# ذكر بلاد مصر وما فيها من العجائب[1]

بلاد مصر فى أول الإقليم الرابع ، لها من البروج الجوزاء ، ومن النجوم عطارد[2] . وهى من أسوان إلى الإسكندرية ، وخصبها وزرعها وفواكهها كثير جدا ، يسقى جميعا بالنيل (ا) . والنيل من عجائب العالم لا يعرف له منبع من تحت جبل القمر[3] ، وراء خط الاستواء بتسع درجات ونصف درجة ، يخرج من ١٢ عينا هنالك ، يجتمع فى بحيرتين هناك كالبطائح[4] ، ثم ينبعث من كل بطحة ٣ أنهار ، منها نيل مصر وغيره من الأنهار الكبار التى يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى . وذلك فى البلاد المحترقة الجنوبية التى لا يكون فيها نبات ولا حيوان ، لقرب الشمس من ذلك الموضع[5] .

---

(ا) ب : يسع جميعها .

(١) هنا ينبغى ألا يغيب عن الذهن أن كتاب البكرى المعروف بالمسالك والممالك ( أنظر مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢١٨ ) يعتبر المصدر الرئيسى الذى يأخذ عنه صاحب الاستبصار . والبكرى ينقل بدوره عن المسعودى وابن عبد الحكم وابن وصيف — شاه جزءا مهما من معلوماته .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٨٢ ، ج ٢ ص ٣٥٦ ، التنبيه ، ص ٣٤ وتابع . وتحسن الاشارة إلى أن مصر ، حسب الجغرافيين العرب ، تقع فى الاقليمين الثانى والثالث . وحسب الإدريسى (ص ١٤) تقع أسوان فى الاقليم الأول . قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٣١ ، ج ٤ ص ٥٤٥ ؛ الإدريسى ، ص ٤٢ ، ١٥٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٣٨ .

(٣) أنظر عبد اللطيف ، ص ٤ والترجمة ص ٢ والهامش ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦١ ، التنبيه ، ص ٥٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٨ ، ٥١ ، ٥٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٤٠ ، ٢٤٦ . وحسب صاحب كتاب الجغرافية ( المخطوط ، ص ٦ — ا ) يطلق على هذا الجبل اسم جبل القمر لأن لونه يتغير تدريجيا بالنسبة لكبر القمر التدريجى يوما بعد يوم .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٢٠٥ ، ولكنه بعد ذلك (ج ٢ ص ٣٥٩) يغير منهجه ويبحث من تفسير دينى فيقول إن النيل يخرج من الجنة ، أنظر ابن رسته ، ص ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٠ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٢ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٦ — ب ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٥٣ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٥) قارن ابن رسته ، ص ٩٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٥٣ .

قيل ينبعث نيل مصر فى رمال وجبال ، ثم يخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج ، ثم ينبعث منه خليج يشق بلاد الزنج يصب فى بحر الزنج[1] . وتظهر(١) فى هذا الخليج الزيادة التى تظهر فى نيل مصر ؛ وفيه التمساح الكائن فى نيل مصر ، ويسمى الورل الذى يكون فى الصحراء والبرارى إنما أصله من التمساح . وذلك أن التمساح يخرج من النيل فيسرح على السواحل ، فربما قبض عنه الماء فيبقى فى البر ، فيتناسل فيكون منه الورل المشهور . والتمساح لا يوجد إلا فى نيل مصر ، أو فى نهر أصله من ماء واحد مع نيل مصر[2] .

وفى نيل مصر السمك الرعاد[3] ؛ من صاده لم تزل يده ترتعد ما دام فى شبكته أو فى صنارته . وعلى النيل جبل هامد ، يراه أهل تلك الجهة ، من انتضى سيفه ثم أولجه فيه ، وقبض على مقبضه بيديه جميعا ، اضطرب السيف فى يده

---

(١) ب : تنهر .

(1) بحر الزنج هو المحيط الهندى .

(2) قارن عبد اللطيف ، ص ٧٢ ، ٧٤ ؛ الاصطخرى ، ص ٥٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٨ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ٥٥ ؛ الادريسى ، ص ٤٦ ، ١٤٥ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٣٧ — أ ؛ القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ص ١٨٧ — ١٨٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٦٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٦٧

ولما كان التمساح يوجد فى نهر مهران (الإندوس) ظن بعض الجغرافيين العرب أن هذا النهر يشترك مع النيل فى منابعه (اليعقوبى ، ص ٣٣٦ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦١ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٥٣ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٤٨) . ولكن روح النقد عند المسعودى تتضح عندما يحتج على هذا الاعتقاد الخاطىء الذى يلقى تبعته على الجاحظ إذ يقول (مروج الذهب ، ج ١ ص ٢٠٦) : «وقد ذكر الجاحظ أن نهر مهران السند من نيل مصر واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل . وذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان وهو كتاب فى نهاية الحسن ، وإن كان الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ... ولم يعلم أن مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالى بلاد السند : من أرض قنوج من مملكة بوورة وأرض قشمير والقندهار والطافن حتى ينتهى إلى بلاد المولتان ...» .

(3) أنظر عبد اللطيف ، ص ٤٢ والترجمة ص ٤١٦ وهامش ٥٣ ص ١٦٧ ؛ الاصطخرى ، ص ٥٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٨ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٧ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٢ ؛ عجائب المخلوقات ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ؛ المقريزى الخطط ، ج ١ ص ٦٦ ، ٦٧ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٤٦

فارتعد، ولا يقدر على إمساكه ولو كان أشد الناس . وإذا أُحِدَّ بحجارة هذا الجبل سكين أو سيف لا يؤثر فيه حديد أبدا ؛ وجذب الإبر والمسال أشد جذبا من المغنطيس ، ولا يبطل الثوم عمله كما يبطل المغنطيس . وحجر الجبل نفسه لا يجذب الحديد، فإن حُدَّ عليه الحديد، جذب ذلك الحديد[1]، وهذا من العجائب .

ويقال إن نيل مصر يجرى على وجه الأرض ٧٠٠ فرسخ، ويجرى فى غير عمران مسيرة ٤ أشهر، وفى بلاد السودان مسيرة شهرين، وفى بلاد مصر(آ) مسيرة شهر ، من أسوان إلى أن يصب فى البحر بحلق رشيد بشرقى الإسكندرية[2] . وذكر هورشيش الرومى[3] فى تاريخه أن منبعه إلى موقعه ٩٩٠٨٣٠ ميلا[4] . والنيل مخالف لكل نهر من أنهار الأرض : لأن كل نهر يستقبل الجنوب ، والنيل يستقبل الشمال ، فهو مخالف لجميع أنهار الدنيا ؛ وعلة ذلك أن منبعه من الجنوب ؛ قال الشاعر :

بلاد مصر شأنها عجيب ونيلها تجرى به الجنوب[5]

قيل وليس فى الدنيا نهر يسمى بحرا ويَمًّا غير النيل ؛ قال الله تعالى : «فإذا خفت

---

(آ) الأمصار .

(١) أنظر نفس الرواية : ابن الفقيه ، ص٦٧ ؛ القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ص ١٧٢ . وقارن كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٣١ – ا . وعن تأثير الثوم على المغناطيس أنظر المسعودى مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٧

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٦٢ ؛ عجائب المخلوقات ، ص ١٨٥ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٤٤ . وحسب ابن خرداذبة (ص ٨٣) وابن الفقيه (ص ٥٩) يكون طول النيل ٤٠ ليلة . ولكن حسب الأخير طول بلاد السودان ٧ أشهر . ومن الغريب أن هذه الرواية الأخيرة اقتبسها المسعودى (مروج الذهب ، ج ١ ص ٣٦٨) دون تعليق.

(٣) هو المؤرخ الرومانى Paulus Orosius ( القرن الخامس الميلادى ) .

(٤) لا يتفق الكتاب بشأن طول النيل : المسعودى ، التنبيه ، ص ٥٧ (٧٤٨ فرسخا = ٢٢٤٥ ميلا) ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٢٠٨ (٩٠٠ – ١٠٠٠ فرسخ تقريبا) الإدريسى ، ص ١٤٤ (٥٦٣٤ ميلا) ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٦ – ب (١٠٤٥ فرسخا) ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٤٦ (٨٦١٤,٦٦ ميلا) .

(٥) ينقل ويؤكد معظم الجغرافيين العرب هذه الرواية التى لا أساس لها . المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ٢٧٣ . أنظر ابن الفقيه ، ص ٦٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٦٢ ؛ القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ص ١٨٥ ؛ المقريزى الخطط ، ج ١ ص ٦٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٤٥ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٣٩

عليه فألقيه في اليم»[1]؛ والعرب تسميه بحرا . وليس في الدنيا نهر يفيض على الأرض ويزرع عليه ويغني عن المطر غير النيل . وقيل إن بلاد مصر ٣ أشهر درة بيضاء ، و٣ أشهر مسكة سوداء ، و٣ أشهر زمردة خضراء ، و٣ أشهر سبيكة حمراء . وتفسير ذلك أن النيل إذا استوى ، طما جميع أرض مصر فتبقى قراها وضياعها في روابٍ وتلال كأنها الكواكب ؛ ويتصرف الناس بينها في الزوارق فتكون الأرض كدرة بيضاء . ويمكث عليها الماء ٣ أشهر ، فإذا قبض عنها الماء أخذ الحراثون في بذر الزرع ، فتمكث الأرض سوداء إلى أن ينبت الزرع وتظهر خضرته ٣ أشهر ، فكأن الأرض مسكة سوداء ، وأيضا فإنها تفوح منها رائحة طيبة عطرة . فإذا كبر الزرع وظهرت خضرته ، كانت الأرض كأنها زبرجدة خضراء . وبقيت كذلك ٣ أشهر ، إلى أن يصفر الزرع وييبس ويتناهى ، كانت الأرض عند ذلك كأنها سبيكة ذهب حمراء ، وبقيت كذلك ٣ أشهر حتى يتم الحصاد[2] .

وذكر أن مصر في كتب الأوائل مصوَّرة وسائر البلاد مادة اليها أيديها تستطعمها[3]، ومعنى (ا) ذلك أنها أكثر بلاد الله زروعا . وذكر أن هارون الرشيد صورت له مدائن مصر ومدائن الدنيا (ا) فما استحسن منها غير عمل مدينة أسيوط ؛ وهي بسيط واحد لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع نواحيه ، يبذر فيها جميع (ب) الحبوب ، فإذا اخضر فلا يكون على الأرض بساط أعجب

---

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة في ب .

(ب) « جميع » ناقصة في ب .

(1) القرآن ، سورة ٢٠ ، آية ٣٩ . أنظر المسعودي ، ج ٢ ص ٣٦٠ ؛ عبد اللطيف ، الترجمة ، ص ٧ وهامش ١ ؛ ابن جبير ، ص ٥٧ . ويحاول المقدسي (ص ١٨) أن يعطي تفسيرا آخر فيقول إن مصب النيل ربما كان في بحر القلزم ( البحر الأحمر ) وإن أم موسى ألقت بابنها في هذا البحر ومنه دخل إلى النيل .

(2) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٥٧ وتابع ، التنبيه ، ص ٢٠ — ٢١ ؛ البكري ، المخطوط ، ص ٧ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٣١ — ب ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٢٦ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٣٦

(3) البكري ، المخطوط ، ص ١١ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٢

منه [1] . والجانب الغربي من هذه المدينة جبل أبيض كأنه طيلسان (ا) ، ويحيط بها من الجانب الشرقي النيل كأنه جدول فضة ، قد تشبكت عليه في الأرض الأشجار والكروم ، فلا تسمع فيه الكلام من شدة أصوات الطيور [2].

ولنيل مصر في زيادته ونقصانه عجائب كثيرة ، عرضنا عن ذكرها لكثرة معرفة الناس بها . وليلة الغطاس بمصر من أعجب شيء ؛ وتسمى في هذا الزمان كسر الخليج ، وهي لعشر تمضي من كانون الآخر (ب) وهو بلغة الروم ينير ؛ وذلك الوقت يستوي مد النيل ويأخذ في الانحطاط . وأصفى ما يكون ماء النيل في ذلك الوقت . ولهذه الليلة بمصر شأن عظيم : وذلك أنه يخرج تلك الليلة جميع البشر ممن يقدر على الخروج تلك الليلة وقد أعدوا ما أمكنهم من الأطعمة والأشربة ، ولبسوا أحسن ما عندهم من الملابس ، وأظهروا ما أمكنهم من الجواهر وأواني الذهب والفضة ، وأحضروا جميع الملاهي . ويدخل الناس في الزوارق ، ومنهم من يدخل في الدور المشرفة على النيل ، ويشعلون المشاعل (ج) والشمع الكثير . ويشعل صاحب مصر الشمع على جانب النيل (ج) ، فيحرق في تلك الليلة بمصر من الشمع ما لا يحصى عدده ؛ فترى الناس على شطوط النيل في الزوارق ، ومنهم في الدور المشرفة على النيل بالطبول والأبواق وجميع الملاهي . وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأكملها سرورا ؛ ويغطس أكثر الناس في النيل ، ومن لم يغطس يرش عليه من الماء ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض [3] .

قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر تعدل الخلافة » [4]، لأنها جعلها الله متوسطة بين الإقليم الثالث والرابع ؛ سلمت من حر الإقليم الأول والثاني ، ومن برد الإقليم الخامس والسادس . وقال الجاحظ : « أهل مصر أعقل الناس صغارا

---

(ا) القراءة في النص « سيلطان » ولكنها « طيلسان » في البكري (المخطوط ، ص ١١) . (ب) ج : كانون الأول الآخر .

(ج) الجمل الواقعة بين (ج) ، (ج) ناقصة في ج .

(١) البكري ، المخطوط ، ص ١١ ؛ وانظر فيما بعد هامش ٣ ص ٨٤

(٢) البكري ، المخطوط ، ص ١١

(٣) البكري ، المخطوط ، ص ٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦٤-٣٦٥ (المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٤٩٤) ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٦٦ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٦٠ ، ٢٦٤ - ٢٦٥

(٤) البكري ، المخطوط ، ص ١١ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧

وأحمقهم كبارا» (١). وقيل إن مصر لم يجعل الله فى أرزاق أهلها ولا فى أقواتهم نصيبا مما قسم على عباده : من الرحمة بالغيث الذى جعله الله عمارة البلاد .

## نبذ من أخبار ملوك مصر من لدن عمارتها

يقال والله أعلم إن أول من ملك مصر عند قسمة الأرض بين ولد آدم ، زمن أنوش ، بوصية آدم عليه السلام ، ملك يقال له نقراوش بن أضرم . وهو أول من اتخذ المصانع ، وعمل الطلسمات وأقام الأساطين ، وزبر عليها التواريخ ، وبنى المدن(!) . وهو الذى حفر النيل وعمقه ووسعه ؛ وكان قبل ذلك ينقطع ويستنقع . وعمل للتماسيح على شاطىء النيل فى آخر بلاد النوبه مبنيين ، وزبر عليهما أحرفا منعت التماسيح أن تنحدر فى النيل . وكانت كتابتهم بالقلم الخلقطير وهو قلم آدم عليه السلام . وكان عالما كاهنا وكان له رأى من الجن ؛ ويقال وقع إليه بعض العلوم التى كان رزآبيل الملك علمها آدم عم ، فعمل بها عجائب : منها صورة طائر على اسطوانة عالية يصفر فى كل يوم مرتين ، عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، تصفيرا مختلفا يستدل به على ما يكون من الحوادث . وعمل فى مدينة برسان ، وهى التى بناها لابنه مصرام ، قبة ذهب على منار عال ، لا تزال على تلك القبة سحب تمنعها من الشمس . وعمل على باب المدينة أصناما موجهة إلى نواح مختلفة ، إذا قصد أرضهم قاصد بسوء أرسلت عليه نارا فأحرقته . فكان ملكه ٢٣٠ سنة . فلما مات جزع عليه قومه أشد جزع ، فقاموا يطوفون به على أعناقهم ٣٠ سنة (٢) .

---

(!) القراءة فى النص « المدون » .

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ١١ ؛ المقريزى ، ج ١ ص ٥٠

(٢) يوجد فى مخطوط البكرى خرم لا نعرف مقداره ، ولكنه يستمر من هنا إلى بناء الأهرامات (انظر هامش ٢ ص ٥٦) . ورغم ذلك فإن معظم المعلومات الخاصة بمصر القديمة ، حسب ما كانت مفهومة فى ذلك العصر ، توجد فى كتاب المقريزى . أنظر الخطط ، ج ١ ص ١٢٩ — ١٣٠ (عن الملك قناوش) ، ص ٥٢ (عن تقويم مجرى النيل) .

أما عن تسمية كتابة قدماء المصريين بالخلقطير فالكلمة يونانية . أنظر Journal Asiatique, 1913, t I p. 201 . ويسمى البعض هذه الكتابة بالخط « المسند » (ابن خرداذبه ، ص ١٥٩ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠١) . ولكن للأسف يعتقد =

ثم ملكهم من بعده ابنه مصرام ، وكان يعبد زحلا ، وحارب أمة من الجن حتى أدخلهم فى طاعته بالعزائم الشداد . وبنى فى صحراء المغرب مدائن معلقة على أساطين رخام ، تحيط بها شباك من ذهب ، وجعل فيها خزائن الحكمة . وجعل لها أبوابا تحت الأرض لا يدخل إليها إلا منها ؛ وجعل لها أقفالا ومفاتيح مدبرات . وكانت ٣ مدن فى كل مدينة ٣ خزائن ، فيها عجائب العلم وطرائف الحكمة ورموز الصنعة ، وأجرام من الماء المعقود لا يتحلل ، ومن الهواء المجمد لايضمحل . وفيها مطهرة من ماء الحياة الإلهى الصنع ، وفيها صورة الكواكب فى بيوت شرفها ، وعلى رؤوسها أكاليل الغلبة ، وبإزائها صور الحكماء المقيمين لأمورها بأيديهم مصاحف (ا) الصنعة ، وجميع الطلسمات والعلوم ، ومن دروب الأحجار الرفيعة والجواهر النفيسة والأجرام العجيبة : من الدر الخطير ، وسبائك الذهب والفضة ، والحجارة الرفيعة ، والعقاقير المكنونة والأدوية المؤلفة . وصور هذه الخزائن فى كل بربى من برابى مصر ، قد زبروا عليها بخطوطهم ، وخبرها مشهور فى جميع مصاحفهم القديمة وهياكلهم المرسومة .

وبنى هذا الملك بمدينة بالقرب من هذه المدن الثلاث على هيئة الجنة بزعمه ، وجعل لها أسرابا تحت الأرض ، يوصل منها إلى هذه المدائن الثلاث ، وتوصل من بعضها إلى بعض [1] .

أخبرنى رجل دخل (ب) بلادا كثيرة ، أن الغاوى الذى بجبل ألـمُوت إمام الحشيشية ، يرى اغتيال الملوك عند مدينة تحت الأرض على هذه الصورة . يدخل فيها المستجيب له ، فإذا عاين ما أعد له فيها ، يقال له : هذا لك إذا قتلت فلانا فى الموضع الفلانى . ويكون إدخاله فى تلك المدينة وهو قد سُقِى المُرَقِّد ، فينتبه فيها . فإذا أريد إخراجه ، سقى المرقد أيضا ، ويخرج فينتبه فى منزله ، ويتذكر ما رأى ،

---

(ا) ج : مصابيح .     (ب) « دخل » ناقصة فى ب .

= الاصطخرى (ص١٥) ان هذه الكتابة هى اليونانية . ولكن السيوطى (حسن المحاضرة ، ج١ ص٤٣) ذهب بخياله إلى أبعد من ذلك . فلكى يقطع الاختلاف ، وربما لكى يرضى الجميع فى نفس الوقت ، قال إن هذه الكتابة تشمل سبع كتابات معا هى : اليونانية والعبرية واللاتينية والفارسية والحميرية وخط أهل السند .

(١) أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٢٠ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٨

فيقصه على من أمامه . فيقول له : إنك رأيت هذا فى منامك وهو بشرى لك ، فلا تنثنى عما أمرت به ويبشره بالمثوبة عليه ، ويرفع له خنجرا مسموما معدا عنده من حينه (١) .

قال المؤلف فلما هلك الملك نقراوش المتقدم الذكر ، ملك بعده ابنه سورت . وكان موحدا مؤمنا . فغلق هياكل الكواكب فقل النيل فى أيامه ، فرفضه بنو أبيه وخلعوه وملكوا أخاه الأصغر مصرام المتقدم الذكر . وكان جبارا فزاد فى هياكل الكواكب ، واحتفل فى شكرها وبر سدنتها وزاد فى دخلها وقرابينها . وكان له ربى فأمره أن يحتجب عن الناس ، وألقى على وجهه نورا حتى لم يتمكن أحد من النظر إليه ؛ وذلل له الأسد فركبها ، وادعى الإلهية ودعا الناس إلى عبادته ، وغاب عن الناس نحو ٣٠ سنة . وركب فى غيبته أنواعا من الدواب العظام من الوحوش والسباع لها منظر يهول . ومضى به ذلك الربى حتى أوقفه على البحر الأسود ، فبنى فى وسطه صنما من حجر أسود أبيض ، وزبر عليه اسمه وجعله قربانا للشمس ، وعمل قلعة الفضة التى فى البحر الأسود وخبرها مشهور .

ذكر ذلك الموس الكاهن فى سير الملوك القدماء . وزبر على ذلك الصنم : « أنا مصرام الجبار جامع الأخبار وكاشف الأسرار والعالم القهار : وأظهرت الحكمة العجيبة وكشفت الأمور الغريبة ؛ ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة ليعلم من بعدى أنه لا ملك مثل ملكى » . وقيل إنه ركب فى مدينة برسان شجرة تؤكل منها كل فاكهة ، وعمل عجائب وغرائب يطول وصفها (٢) .

فلما هلك مصرام ملك بعده من بنيه عدة ملوك ، كل واحد منهم يعمل فى وقته عجائب وغرائب فى البناء ، وغير ذلك من الطلسمات والصور والأصنام المركبة من الجواهر الغالية ؛ إلى أن ملك من بنيه شوندين بن سلمون صاحب الأهرام . وكان ملكا عاقلا عالما محبا للعلماء ، وكان أوتى من العلم والحكمة ما لم يسبقه إلى ذلك ملك ولا غيره ، وكان يتعهد من مصالح الرعية ما لم يتعهده سواه من الملوك ، وكان ينفق على الزمناء والضعفاء من ماله . واتخذ مرآة من أخلاط

---

(١) المقصود هنا بالحشيشية طوائف الإسماعيلية المعروفين أيضا بالحشاشين الذين كانوا على عهد الصليبيين يحتلون عددا من القلاع وخاصة بالشام ، والذين اشتهروا باغتيال خصومهم . والإسم مأخوذ من الحشيش الذى كانوا يستعملونه للوصول إلى حالة الذهول أو الانجذاب . أنظر دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) أنظر ابن وصيف شاه ( العجائب ) ، الترجمة ، ص ١٨١ ؛ قارن المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٣٠ ، ١٧١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٦ .

وأقامها على منار فى وسط قصره ، فكان ينظر فيها جميع الأمم والأقاليم وغير ذلك ، ويقابل ذلك بما يصلحه . وكان قد عهد إلى رئيس كهنته أن يأمرهم بالنظر فى كل يوم ما يحدث فى العالم ، ويخلد ذلك فى كتاب ، فجمع إليه العلماء والكهنة والمنجمون من جميع أقطار الأرض ، وحققوا له ما أراده وتم له ذلك . وعملت له الغرائب والعجائب فى البناء والطلسمات وغير ذلك ، وفى أيامه بنيت الأهرام التى بأرض مصر . فيقال إنه ليس على وجه الأرض حجر موضوع على حجر أغرب من بناء أهرام مصر .

وكان سبب بناء هذه الأهرام أن الملك شوندين رأى رؤيا هائلة ، وذلك أنه رأى الكوكب المعروف بالبانية [1] فى صورة طير أبيض وكأنه يختطف العالم ويلقيهم بين جبلين ، وكأن الجبلين انطبقا عليهم ، وأن الكواكب المنيرة مظلمة كاسفة كلها . فأخبر بذلك رؤساء الكهان والعلماء وأمرهم أن ينظروا ما تدل عليه الكواكب مما يحدث فى العالم ، فأقاموا الكواكب فى مراكزها فى وقت مسألة فدلت على آفة نازلة من السماء وخارجة من الأرض . فلما بان لهم ذلك أخبروه به . فقال ما هو ذلك فنظروا فى خفى أمورها ودقائق علمها . فوجدوها مفسدة للأرض وأهلها وحيواناتها وجميع ما فيها . وقالوا إن هذه الآفة محيطة بجميع أقطار الأرض إلا اليسير . وذلك إذا نزل قلب الأسد بأول دقيقة من السرطان . وتكون الشمس والقمر فى أول دقيقة من الحمل . فلما تيقن الملك شوندين من ذلك . وعلم أن تلك الآفة تكون ماء يغرق الأرض ومن عليها ، أمر ببناء الأهرام (1) — وهى البرابى لتخليد علومهم وصناعاتهم وسير ملوكهم وسننهم فى رعيتهم وأهل مملكتهم — وبنيان أعلام عظام تكون خزائن لأموالهم وكنوزهم وذخائرهم ، وتكون أيضا قبورا لهم ولأهل بيتهم . تحفظ أجسادهم من الفساد وتبقى علمهم صحيحا (2) . وأمر بأن يبنى ذلك كله من حجر صلد لا يغيره الدهر ولا يفسده الطوفان .

---

(1) هذه المقتطفات منقولة عن ابن وصيف — شاه . أنظر العجائب ، الترجمة ، ص ٢٠٠ وتابع . وينسب المسعودى بناء الأهرام حينا إلى يوسف ( مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦٥ ) وحينا إلى المصريين القدماء ( نفس المصدر ، ص ٤٠٢ ) . أما ابن خرداذبه (ص ١٥٩) فينسبها إلى بطليموس . هذا وينسبها آخرون إلى بانى الإسكندرية ومنارها وهو الإسكندر أو شداد ابن عاد الأسطورى (ابن عبد الحكم ، ص ٣٤ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ٢٠) . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٩٦٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١١١ وتابع ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٤٠ .

(2) عن معنى كلمة «بربى» أنظر عبداللطيف ، الترجمة ، ص١٨٢ وهامش٤٨ (ص٢٢٩) . وفيها يختص بالاهرامات ، حسب الاصطخرى ( ص ٥٢ ) ، فكانت مقابر للملوك . —

ويقال إنه أمر أن تبنى هذه الأهرام والبرابى من حجارة ومن طين . فإذا كان الحادث ماء ذهبت التى من طين (أ) وبقيت التى هى من حجارة ، وإن كانت نارا ذهبت التى هى من حجارة وبقيت التى هى من طين(ب) . فكان ذلك الحادث ماء فذهبت الطين وبقيت الحجارة . ثم أمر الملك وزراءه فمشوا مع المنجمين والكهان فاختاروا موضعا لبناء تلك الأعلام ، وهى الأهرام والبرابى ، فاختاروا موضعا بقرب النيل فى الجانب الغربى فبنيت فيه مدينة مرقة ، معناه بلسانهم «مطلب الحكمة» . ثم أمر الملك بجمع الناس والفعلة فجمع ٧٠٠٠ لقطع الحجارة ونحتها ، ومثلهم لهندستها ، وأضعافهم للبناء . وعمل قضبان الحديد واستخرج الرصاص ، فكانوا ينصبون البلاطة ويجعلون فى وسطها عامود حديد قد نفذها ، والعامود قائم قد ضبط بالرصاص المسبوك ، وتركب عليها بلاطة أخرى فى قدرها وهندستها ، مثقوبة بقدر دخول القضيب فيها ، ثم يسكب الرصاص حول العامود وعلى البلاطتين معا ، حتى أتى بنيانا ما بُنى فى العالم قط مثله [1] . وطول حائط الهرم ١٥٠ ذراعا بأذرعهم ، وفى عرضه مثل ذلك وارتفاعه فى الفضاء ٤٠٠ ذراع [2] . ويقال إن عمقها تحت الأرض مثل ارتفاعها فوق الأرض ؛ وعرض الحائط من حيطانها ٢٠ ذراعا بأذرعهم .

---

(أ) الجمل الواقعة بين (أ) ، (ب) ناقصة فى ج .

= أما حسب ابن حوقل (ص ١٠١ ) فإنها كانت مقابر ومخازن لجمع الطعام . ويرى المقدسى (ص ٢١٠ ) أنها طلسمات وأهرام بناها يوسف أو أنها مقابر .

(١) إن استعمال الرصاص فى بناء الأهرام لا أساس له من الحقيقة إلا فى خيال الكتاب . وليس من الضرورى أن يكون الإنسان عالما بالآثار لكى يقرر أن الأمر ليس كذلك ، فالنظرة العابرة تدل على عدم استعمال أى معدن فى بناء هذه الآثار .

(٢) يتفق معظم الكتاب ، على عكس صاحب الاستبصار ، بالنسبة لمقاييس الأهرامات فهى حسب رواياتهم عبارة عن ٤٠٠ ذراع فى كل ناحية . عبد اللطيف ، ص ٩٤ والترجمة ، ص ١٧٤ (ولكنه فى مكان آخر — ص ٩٤ والترجمة ، ص ١٧٥ — يقول إنه رأى « بعض أرباب القياس قال عمودها ٣٠٠ ذراع ونحو ١٧ ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات طول كل ضلع منها ٤٦٠ ذراعاه ) ؛ الاصطخرى ، ص٥١ ؛ ابن رسته ، ص٨٠ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ١٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١١٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٢ (٥٠٠ ذراع) .

فلما تم بنيان هذه الأهرام والبرابى ، أمر الملك أن يكتب على حيطان البرابى وسقوفها جميع الأشياء وغوامض الأمور : من دلائل النجوم وعللها وسائر الصنائع والطباع ومكنونها ، والنواميس العظام وعمل الأدوية وتأليفها ، ومعرفة العقاقير وأسمائها وصورها ، وعلم صنعة الكيمياء وغير ذلك مما ينفع ويضر . كل ذلك ملخص مفسر لمن عرف كتابتهم وفهمها . ونقش فى حيطانها وسقوفها جميع الطلسمات وكتب على كل طلسم خاصيته ونفعه وضرره ، وكما وضع فى تلك الأهرام فنونا من الذهب والفضة والكيمياء وحجارة الزبرجد الرفيعة والجواهر النفيسة مالا يحصله وصف واصف . وكذلك فعل بنوه من بعده .

فلما تمت هذه الأهرام والبرابى على ما أراد الملك قال لهم أنظروا هل تفسد هذه الأعلام ، فنظروا فوجدوها باقية لا تزول . فقال لهم هل يفتح منها موضع ، أو هل يدخل إليها ، فنظروا فقالوا له يفتح فى الهرم الفلانى فى الجانب الشمالى منه ، فقال لهم حققوا النظر فى معرفة الموضع بعينه ، فنظروا وعرفوه بالموضع . فقال لهم عرفونى متى يكون ذلك ، فنظروا فعرفوه أنه يكون ذلك لمدة ٤٠٠٠ دورة للشمس والدورة سنة . فقال لهم أنظروا مقدار ما ينفق فى فتح هذا الموضع ؛ فنظروا فعرفوه بالقدر ، فقال لهم اجعلوا فى الموضع الذى يوصل منه إلى داخل الهرم ذهبا بمقدار ما ينفق على فتحه . ثم حثهم على الفراغ من بناء الأهرام والبرابى ، ففرغوا منها فى ٦٠ سنة . وأمر أن يكتب عليها : «بنينا هذه الأهرام فى ٦٠ سنة فليهدمها من يهدمها فى ٦٠٠ سنة ، على أن الهدم أهون من البناء »[1] . ثم قال لهم أنظروا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضر غيرها ، فنظروا فإذا الكواكب تدل فى وقتهم وتظهرهم على آفة أخرى نازلة من السماء ، وتكون فى آخر الزمان وهى ضد الأولى ، وهى نار محرقة لأقطار العالم ، فأخبروه بذلك . فقال لهم فهل من خبر آخر توقفونا عليه بعد هذه الأمور ، فقالوا له ننظر فى ذلك ، فنظروا على آلاف السنين ، وقالوا له إذا قطع قلب الأسد ثلثى دورة ، وهى آخر دقيقة من برج العقرب ، لم يبق من حيوان الأرض متحرك إلا تلف ، فإذا استتم دورة تحللت عقد الفلك . فقال لهم فى أى يوم تتحلل عقد الفلك ، فقالوا له اليوم الثانى من وجود الفلك . قال فتعجب الملك من ذلك ، وأمر بكل ما قاله العلماء من هذه الحكم أن تخلد فى الكتب ، وتستودع فى تلك الأهرام ؛ فيقال إن فيها علم الأولين والآخرين .

---

(١) قارن ابن حوقل ، ص ٨٨ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٨ ؛ المقدسى ، ص ٢١٠ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١١٣ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٢

نرجع الآن إلى حديث الثلمة : قيل فلما كان في زمان المأمون بن هارون الرشيد ، وفرغ من حرب التيماء وأقام بمصر [1] ، أراد هدم الأهرام ، فعرفه بعض شيوخ المصريين أن ذلك غير متمكن ، وقال له ولا يحسن بأمير المؤمنين أن يطلب شيئا ولا يبلغه [2] ، فقال له لابد أن أعلم ما فيها . ثم أمر بفتح هرم من أعظم الأهرام ، ففتح فيه ثلم من جانبه الشمالي ، لقلة دوام الشمس على من يعمل فيه ؛ فلما ابتدؤا عمله وجدوا حجرا صلدا يكل فيه الحديد . فكانوا يوقدون النار عند الحجر ، فإذا حمى رش بالخل ورمى بالمنجنيق فزبر الحديد ؛ وأقاموا على ذلك أياما حتى فتحوا الثلمة التي فيه الآن ، فمنها يدخل إلى ذلك الهرم . ووجدوا بنيانه بالحديد والرصاص [3] ووجدوا عرض الحائط ٢٠ ذراعا ؛ وبالقرب من الموضع الذى فتحوا مطهرة من حجر أخضر فيها مال على حول الدنانير العريضة ، وزن كل دينار منها ٢٧ مثقالا وثلثي مثقال . فقال المأمون زنوه فوزنوا الجملة فوجدوا فيها مالا معلوما ، وكان المأمون رحمه الله فطنا ، فقال رحمه الله ارفعوا ما أنفقتم على فتح هذه الثلمة ، ففعلوا فوجدوه موازنا لما وجدوا من المال . فعجب أمير المؤمنين من ذلك ، ومن معرفتهم بالموضع الذى يفتح منه ذلك الهرم على طول الزمان ، وازداد فى علم النجوم يقينا . قال فمشى المأمون حتى دخل الهرم ، ومشى فيه فوجد صنما أخضرا مادا يده وهو قائم فلم يعلم خبره . ونظر إلى الزلاقة والبئر الذى فى الهرم ، وأمر بالدخول والنزول فيه . قال فنزل فيه قوم من رجاله من درجة إلى درجة حتى أفضوا إلى صنم أحمر ، عيناه مجزعتان سواد فى بياض كأنهما حدقتا إنسان ينظر إليهم ، فهالهم أمره وقدروا أن له حركة ، فجزعوا منه فخرجوا وعرفوا أمير المؤمنين الحال . قال فجرأه ذلك على طلب مخابىء كثيرة . ويقال إنه وجد فيه مالا كثيرا .

---

(1) أنظر ابن وصيف – شاه ، الترجمة ، ص ٢١٠ . كان حضور المأمون من الشام إلى مصر سنة ٢١٦ هـ = ٨٣١ م عقب قيام ثورة محلية . ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٩٦ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٩٦

(2) من الغريب أن هدم هذه الآثار الشهيرة كان مجالا لتفكير ملوك مصر الذين غلبت عليهم فكرة وجود كنوز مدفونة فيها . وحسب عبد اللطيف (ص ٩٦) حاول عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٩٣ = ١١٩٦ هدم واحد من الأهرامات الصغيرة ، ليستعمل حجارته فى بعض مشاريعه العمرانية ، ولكنه اضطر إلى العدول عن هذه المحاولة الصعبة (المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١١٥)

(3) هنا ينتهى الخرم الأول الموجود فى مخطوط البكرى (أنظر هامش ٢ ص ٥٠) .

قيل فسأل المأمون عمن وجد بمصر من العلماء بتاريخ العالم : هل لهذه الأهرام أبواب يدخل إليها منها ؟ فقيل له إن لها أبوابا تحت الأرض، في آزاج مبنية بالحجارة، طول كل زج منها ٢٠ ذراعا، له باب من حجر واحد يدور بكوكب، إذا أطبق لم يعرف أنه باب، وصار كالبنيان لا يدخل الذر في خصاصته، ولا يوصل إليه إلا بكلام وقرابين وبخورات معروفة . وإن في هذه الأهرام قبورا من الذهب والفضة والكيمياء وحجارة الزبرجد الرفيعة النفيسة ما لا يسعه وصف واصف . وفيها من الكتب المستودعة فيها طرائف الحكمة وكمال الصنعة، ومن التماثيل الهائلة من الذهب الملون على رؤسها التيجان الفاخرة مكللة بالجواهر النفيسة، ما يستدل به على عظم ملكهم؛ وجعلوا على ذلك من الطلسمات ما يمنع منه، ويدفع عنه إلى أوقات معلومة وأمد لا بد منه . وإنما قصدوا بذلك أن تكون تلك الأشياء ذخيرة لأعقابهم، ولمن يكون من بعدهم، علما على عظم ملكهم . قال ووضعوا أساس تلك الأعلام في وقت السعادة، وجعلوا في أساس كل علم منها صنما، وزبروا في صدورها دفع المضار والآفات عنها . وفي كل صنم منها آلة كالبوق، وهو واضعه على فيه . وفي وسط كل هرم منها شرفات موجهة إلى آزاج ضيقة المنافذ واسعة المداخل، تجتذب الرياح إليها على طول الزمان، وتخرج من وجه الداخل إليها، ولها صفير فمن لم يحس دفعها أهلكته . قال فعجب المأمون من ذلك ولم يتعرض إلى شيء من تلك الأعلام .

وقيل إنه عمل تحت تلك الأهرام أسرابا تخرج إلى نواح مختلفة : منها ما يخرج إلى الفيوم وهي على نحو يوم ونصف من مصر، وإلى ناحية المغرب على مسيرة يومين وأزيد، وفي أسفلها مسارب للماء تفضي إلى النيل . قيل ووكل بكل هرم من تلك الأهرام روحانيين، فجعل في الهرم الغربي روحاني في صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج لها ذؤابتان حسنة الخلق . وإذا أرادت تستفز الإنسان ضحكت إليه، واستجرته إلى نفسها؛ فإن تبعها أهلكته . ذكر ذلك من رآها مرارا . ووكل بالهرم القبلي روحاني في صورة غلام أمرد عريان حسن الخلق يفعل كذلك . وقد رؤي من خارج مرة بعد مرة ثم يغيب في الهرم . وفي الهرم الملون صورة شيخ عليه ثياب الرهبان، وبيده مجمرة كأنه يتبخر . وكذلك وكل بجميع البرابي [1]. وببلد إخميم يشاهد أهله أن روحاني

---

(١) قارن ابن وصيف – شاه، الترجمة، ص ٢١٧ . وانظر البكري، المخطوط، ق ١٢ – ١٣؛ المقريزي، الخطط، ج ١ ص (معلوماته مأخوذة عن كتاب المسعودي المفقود والمعروف باسم أخبار الزمان)، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٤٣، السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١ ص ٤٧

البِرْبِىَ الذى بها (١) فى صورة غلام أسود بيده عصا ، فلا يقدر أحد أن يدخل (ا) البربى من بعد العصر إلى الصبح . وكذلك بِرْبَىَ مدينة سمنود (٢) فيه روحانى فى صورة رجل طويل ، أدم اللون صغير اللحية أشيب . وأما بِرْبَىَ قفْط ، فجارية سوداء معها صبي صغير أسود تحمله (٣) . ولكل بربى من البرابى (ب) قربان وكلام يطيع به ذلك الروحانى ، ويدل على علوم البربى (ب) وكنوزه . ويقال إن ذا النون الإخميمى (٤) إنما قدر على ما قدر عليه من علوم البربى حتى عمل الصنعة الكبيرة ، وهى الكيمياء والجوهر ، وحمل من مصر إلى بغداد فى ليلة واحدة ؛ وغير ذلك مما كان عنده من الغرائب وخبره مشهور .
فيقال إنه خدم راهبا كان بإخميم يقال له ساس مدة صباه ، فعلمه قراءة الخط الذى فى البربى ، وعلمه القربان والبخور واسم الروحانى ؛ وأوصاه أن يكتم ذلك. فلما علم ذوالنون ما علم من علم الكيمياء وغيرها ؛ عمد إلى طين الحكمة ، فطمس به صنعة الكيمياء حتى لا يبلغ إليها أحد غيره ؛ وهذا الطين لا ينقطع أبدا .
وهذا القلم هو المسطر فى كتاب السياسة الأوسط وهو كتاب مشهور :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م

---

(ا) ج : يقرب . (ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ب .

(١) عن بربى إخميم أنظر فيما بعد ص ٨٤ وهامش ٢

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ١٣ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٤ ؛ ابن دقاق ، ص ٩١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣١

(٣) البكرى ، المخطوط ، ص ١٤

(٤) أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم المعروف باسم « ذو النون المصرى » المتوفى سنة ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ ، أصله من مدينة إخميم . وكان ذوالنون زاهدا عرف بإشتغاله بالآثار المصرية القديمة وخاصة ببربى مدينته إخميم . وكانت هذه المهمة خطرة وخاصة فى أعين أهل ذلك العصر ، وفعلا لن تلبث المتاعب أن تلحق به بسببها : إذ اتهم الرجل الورع بالزندقة ، واستدعى إلى بغداد لكى يفسر مسلكه أمام الخليفة المتوكل نفسه . أنظر السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ؛ البكرى ، المخطوط ، ص ١٤ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠١ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٦٥ ؛ ابن دقاق ، ص ٢٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣١ ، ٣٩ ؛ Brockelmann, G.A.L., II, 82; L. Massignon, Passion d'al-Hallaj, t. I, p. 192.

ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و لا ى [1].

ص

وبها من الكيمياء . وفى بعض أخبار مصر أن قوما قصدوا الأهرام ، فنزلوا فى تلك الآبار ، وطلبوا أن يدخلوا فى تلك المضايق التى تخرج منها الرياح ، واحتملوا معهم سرجا فى أوان رخام . فلما حصلوا فى تلك المضايق ، خرجت عليهم ريح شديدة وأخرجتهم منها عنفا ، وأطفأت أكبر سرجهم . فأخذوا أحدهم وكان أقواهم جأشا وأشدهم عزما وأصلبهم قلبا ؛ فربطوا وسطه بالحبال ، وقالوا ادخل فإن رأيت شيئا تكرهه جذبناك ، فلما دخل المغرور وزاحم تلك الرياح ، انطبق عليه ذلك الفتح ، فجذبوه فانقطعت حبالهم ، وبقى الرجل فى ذلك الشق وهم لا يعلمون له خبرا ؛ فصعدوا هاربين حتى خرجوا من البئر ، واغتموا لما أصاب صاحبهم . فجلسوا عند الطمة مفكرين فى أمر صاحبهم ، وفى أمرهم وما أقاموا عليه ، فبينما هم كذلك إذ انفجرت من الأرض فرجة كالكوة ، وأثارت لهم ذلك الرجل عريانا مشوه الخلق ميت الدم جامد العينين ، وهو يتكلم بكلام عجيب لا يفهم ، فلما فرغ من كلامه سقط ميتا . فازداد وجلهم وتضاعف حزنهم وجزعهم ، وعلموا أنهم خالصون من أمر عظيم [2] . قال فاحتملوا صاحبهم ، واتصلت أنباؤهم بوالى مصر وهو ابن المدبر فى أيام المتوكل [3] ، فسألهم عن أمرهم ؛ وأخبروه بذلك فعجب . وأمر أن يكتب الكلام الذى قال ذلك الرجل الذى مات ، حسب ما قاله ، وأقام ابن المدبر يطلب من يفسره إلى أن وجد رجلا يعرف شيئا من ذلك اللسان ، ففسره : « هذا جزاء من طلب ما ليس له وأراد الكشف على ما يخفى ، فليعتبر من رآه » . قال فمنع حينئذ ابن المدبر أن يتعرض أحد للأهرام .

---

(1) لا نستطيع التعليق على مصدر هذا الخط ولا عن طبيعة العلاقة بين هذه الحروف وبين النقوش المصرية القديمة أو الحروف اليونانية أو القبطية وإن كان هناك تشابه بين بعضها . والأمر متروك للاخصائيين .

(2) أنظر ابن وصيف – شاه ، الترجمة ، ص ٢١٣ . وقارن المقريزى ، المخطوط ، ص ١٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٣ – ١٤

(3) احمد بن المدبر كان صاحب خراج مصر حوالى سنة ٢٤٢ = ٨٥٦ م . وعند ما وصل احمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤ = ٨٦٨ قام بين الرجلين الطموحين صراع مر ، انتهى بانتصار احمد بن طولون انتصارا حاسما فاختفى ابن المدبر دون أن نعرف تاريخ وفاته . أنظر Zaky Hassan, Les Tulunides, p. 35 sq., 71 sq

وفى خبر آخر أن جماعة دخلوا الأهرام فوجدوا فى بعض البيوت زلاقة إلى بئر ، فنزلوا فيها فوجدوا سربا ، فساروا فيه نصف يوم حتى انتهوا إلى حفير عميق وفى عدوته باب لطيف . وكانوا يتبينون منه شعاع الذهب والفضة والجواهر النفيسة . ومن رأس الحفير مما يليهم إلى ذلك الباب المحاذى لهم ، الذى فيه الذهب والجوهر ، عامود حديد قد ألبس محورا من حديد يدور عليه ولا يستمسك فى دورانه . فاحتالوا فى وقوفه وذهاب حركته فلم يقدروا على ذلك ، فربطوا أحدهم فى حبل ، وتعلق بالعامود ليصل إلى الجانب الآخر ، فدار به المحور (ا) فتحير وسقط وانقطع الحبل الذى كان فيه ، فخرجوا هاربين لا يلوون على شئ .

وفى خبر آخر أن قوما دخلوا بعض الأسراب التى فى الهرم ، فانتهوا إلى صنم أخضر على صورة شيخ ، وبين يديه أصنام صغار كأنه يعلمهم . ثم ساروا فوجدوا فوارة تحت قبة يقع فيها ماء من أعلى تلك القبة ، فيكون له نشيش شديد كأنه يطفئ نارا ، ثم يفيض هناك ولا يتبين . ثم داروا فوجدوا بيتا مسدودا لا يظهر له باب غير حجر صلد ، وفيه دوى شديد لا يدرى ما هو ؛ ووجدوا عنده شبه المطهرة الكبيرة فيها ماء ودنانير ، منقوش فى الوجه الواحد صورة أسد وفى الوجه الثانى صورة طير ، فأخذوا من تلك الدنانير شيئا ، فلم يقدروا على حركة ولا كلام حتى تركوها فى موضعها .

وأما البرابى ففيها من الطلسمات والكتابة ، وعمل الصناعات وتصوير جميع الآلات وتعليم جميع الصناعات ، كل ذلك منقوش فى الحجر الصلد ، وإن الناس يمشون إليها فيأخذون فوائد كثيرة[1] . قال الوصيفى[2] : رأيت فى بربى إخميم صورة عقرب فألصقت عليها شمعا فلم أتركها فى موضع إلا أن انحاشت العقارب إليها من كل موضع ، وإن كانت فى تابوت اجتمعت

---

(ا) « المحور » ناقصة فى ب .

(1) أنظر البكرى ، المخطوط ، ص ١٥

(2) أننا لا نعرف شيئا دقيقا عن هذا المؤلف . وكل ما يذكره المقريزى الذى يأخذ عنه كثيرا من معلوماته هو أنه يسميه الأستاذ ابراهيم بن وصيف-شاه ( الخطط ، ج ١ ص ١١١ ، ١٢٥ ) . أما عن مصنفه عن العجائب فلقد ترجمه Carra de Vaux ترجمة جزئية ( L'Abrégé des Merveilles, Paris, 1908 ) . وحسب ما حققه Seybold كان ابن وصيف شاه يكتب حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية ( أنظر Orientalische Litteratur Zeitung, Mai 1908, p. 146 ) .

حول التابوت وتحته . فطلبها مني بعض إخواني فرجعت إلى إخميم فوجدت تلك الصورة قد نقرت وأفسدت . وفي هذا البربي ، عند الباب الذي يدخل منه إلى المصعد على يسار الداخل ، صورة رأس إنسان عظيم اللحية كثير الشعر كأنه رأس روحي بغير جسد ، فذكر أن الأولين كانوا يبخرون ذلك الرأس ، ببخور لهم معروف عندهم ، فكل من بخره وجد عنده دينارا ؛ فكان في ذلك معونة لأهل المسألة . قال الوصيفي : تصفحت الموضع الذي بقرب ذلك الرأس ، فوجدت أثر البخور والطيب بينا فيه . وذكر أن على باب إخميم طلسم ، وهو قطعة من الحجر في صورة القلنسوة ، معقبة الرأس كأنه منقار طائر ، يقال إن تحته مال عظيم ، وقد جهد جماعة من الولاة على إخميم في قلعها أو كسرها فلم يقدروا على ذلك ، وتنكسر المعاول كلها ولا يتثلم منها شئ . وأخبرني رجل بأنه رأى هنالك صورة استحسنها ، وهي صورة إنسان على رأسه طائر وإلى جنبه كلب رابض وتحت رجليه كتابة ، قال فأخذتها وصورتها في قرطاس كما رأيتها فأقمت ثلاثة أيام فلم أهجع ولم آكل ولم أشته شيئا من الطعام ولم أدر ما السبب لذلك حتى فكرت في الصورة التي عندي فنزعتها عني فاشتهيت الطعام وأكلت ونمت [1]. وحدث رجل من أهل إخميم أن رجلا من أهل المشرق نزل عندهم وكان بصيرا بهذه العلوم فتذاكروا معه أمر البربي فقال ذلك المشرقي لبعضهم إن وجدت فيه صورة إنسان عريان مؤتزر بمئزر وفي يده اليمنى فأس له رأسان وفيه ورقة معلقة فأنسخه لي وما حوله من الكتابة . قال ففعلت ذلك وأتيت بها إليه وسألته عن خاصيتها ، فأطعمني (ا) فيها وقال ليس ينتفع عندها أو تفسد البربي . قال فمشيت إليها فخدشتها بمنقار حتى أفسدتها وطمستها ثم سألته عن علمها فخلط علي ولم يعطني فائدة . فلما كان بعد ذلك تحدثت به مع قوم أهل المشرق فتلهف أحدهم فسألته عن أمرها فقال إن تلك الصورة إذا جعلت في موقع فيه كنز ارتفع من الموضع غبار فيعلم أن فيه خيرا وهي دلالة على الكنوز فغمني أن كنت أفسدتها . وكذلك يتحدث أهل سمنود عن البربي الذي عندهم [2] بعجائب كثيرة منها أن بعض من دخله كتب على كفه صورة من تلك الصور أعجبته ، فأطبقت عينه الواحدة حتى أتاه من كتب على كفه الصورة المحاذية لها فانفتحت عينه .

---

(ا) ج : فأطمعني .

(1) هنا يوجد خرم في مخطوط البكري لا نعرف مداه . قارن المقريزي ، الخطط ، ج ١ صفحه ٢٤٠

(2) عن بربي سمنود أنظر فيما سبق ص ٥٨ وهامش ٢

قال الوصيفي : وأخبرني من أثقه أنه رأى ببربى سمنود صورة شيطانين تحوط بهما سلسلة بكتابة ، وهما يمسكان طرفي السلسلة وبينهما كتابة ، قال : فصورت ذلك كما هو ، وأمسكته عندي إلى أن جاءني من عرفها ، فقال لي : هذا حرز عظيم من جميع السباع ، ومن كل من يروم الإذاية ، ولو جعل على هذا الطلسم لحم ، وجوع كلب أو سبع وقرب منه لم يقدر على (ا) أخذ شيء منه بوجه ولا بحال ، قال فعجبت من قوله فامتحنت الطلسم فوجدته كما قال . ومن المتعارف عند أهل إخميم ، أنه كان في البربى الذى كان عندهم ، صورة شيطان قائم على رجل واحدة وله يد واحدة قد رفعها إلى الهواء ، وفي جبهته وحواليه كتابة ، وله إحليل ظاهر ملتصق بالحائط . فقيل من احتال لذلك الإحليل حتى ينقب عليه ، وينزعه من غير أن ينكسر ، ويعلقه في وسطه لم يزل منعظا إلى أن ينزعه ، ويجامع ما أحب ولا ينكسر ما دام عليه . وقيل إن ابن الغمر لما ولي إخميم أخبر بذلك ، فطلب تلك الصورة في البربى فلم يجد منها غير واحدة قرب سقف البربى ، فاحتال عليها حتى أخذ الإحليل ، فكان يستعمله فيخبر عنه بعجب ، وقيل إنه كان في البربى منه صور كثيرة فلم [تزل] تؤخذ حتى فقدت [1] .

قال الوصيفي : حدثني من أثقه أنهم وجدوا في بعض البرابي أشنانة زجاج أحمر مربعة الشكل موضوعة في طاق وفيها ماء أصفر ، فلم يدروا لم يصلح ذلك الماء فاهرقوه منها ، وأخذ أحدهم تلك الأشنانة . قال فأقامت عنده مدة إلى أن رآها رجل غريب نزل عليه ضيفا ، فاستظرفها فسأله عنها فأخبره بخبرها وبخبر الماء الذى كان فيها ؛ فتلهف ذلك الرجل على الماء ، وقال أضعتم علما عظيما وخيرا كثيرا . وقال إنكم لو حميتم الفضة وغمستموها في ذلك الماء لصارت ذهبا ؛ قال فندمت على التفريط في ذلك الماء . ثم قال لي أتريد أن أريك في هذه الأشنانة عجبا ؟ قلت نعم قال زنها ، قال فوزنتها فوجدت بها ٤ أرطال سواء ، فقال لي املأها ماء أو ما أحببت ، قال ففعلت ، قال لي زنها فوزنتها ، فوجدت وزنها واحد وهي ممتلئة مثل وزنها وهي فارغة ٤ أرطال لا تزيد ولا تنقص شيئا [2] ،

---

(ا) « لم يقدر على » ناقصة في ب .

(١) قارن المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٥ ، ٢٤٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٧

فعجبت من ذلك . وشاع خبرها حتى اتصل ببعض الولاة فوجه إلى فأخذها منى .
وكان فى هذه البرابى عجائب من الطلاسم فى قبورشتى قد درس أكثرها ، وتهدم
أكثر البرابى . وأما الأهرام فهى باقية على حالها ما اختل منها شئ ، فيقال إن كل
ما تهدم من هذه الهياكل وتغير ، مثل بربى بوصير[1] وبربى سمنود وغير ذلك
من الهياكل ، أن المنجمين تركوا الاستقصاء فى أخذ الطالع وتصحيحه فى وقت
وضع الأساس ، وكذلك ما بقى منها فلقرب الطالع من الصحيح . ولا شك
أن الذين بنوا هذه البرابى كانوا على بعد من الملوك ، ولم يكونوا بحضرتهم ولا
تحت نظرهم . فيستقصوا النظر كما اتفق فى بناء الأهرام . وكان بالقرب من صاحب
مصر فكان يتفقدها . والبرابى أكثر إنما هى فى الكور . قيل ولكل بربى
من هذه البرابى خاصة ومنفعة فى الموضع الذى يكون فيه وما والى جهته ؛
وأهل تلك الديار لا يشكون أنه لما هدم بربى سمنود ، وحملت حجارته إلى أشتوم
دمياط[2] ، أن اليوم الذى فرغ فيه من هدم الحائط الغربى ، دخل حباسة
الإسكندرية وخربها[3] ، وكثرت الرمال فى أسباب البحر بها حتى انقطع النيل
عنها فى شهور الصيف ، وكان يمر عليها صيفا وشتاء ؛ وقلت زكاة الزرع
وكثر الفأر فيه والجراد والفساد الذى لم يعهد قبل ذلك . ومن العجائب
المذكورة بأرض مصر فى قرية يقال لها بدرسانة (ا) ، كنيسة قديمة للروم
فيها بيت يصعد إليه فى نيف وعشرين مرقى ، وهناك سرير عليه صبى ميت ،
وتحت السرير صورة ثور عظيم من زجاج فى جوفه باطية زجاج فيها أنبوبة
نحاس موضوع فيها فتيل كتان ، ويصب عليه يسير زيت فما تلبث أن تمتلىء

---

(ا) « بدرسانة » غير مقروءة فى ب .

(1) كانت هناك أربع مدن تحمل اسم بوصير ؛ ونعتقد أن بوصير المذكورة هنا هى التابعة لمدينة سمنود والتى كانت شهيرة بمعبدها القديم . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج 1 ص ٧٦ .
وقارن البكرى ، المخطوط ، ص ٥٧ ؛ Quatremère, Mém. géog. et hist., t I, p. 112

(2) أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٧٦

(3) هو حباسة بن يوسف قائد عبيد الله الفاطمى . ولقد نجح فى محاولاته الأولى من أجل دخول مصر لحساب سيده فى دخول الإسكندرية على رأس مائة ألف مقاتل ، وذلك فى ٨ من المحرم سنة ٣٠٢ هـ = ٤ أغسطس سنة ٩١٤ . الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٢٦٩ ؛ ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٩٨ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٨٢

الباطية من الزيت حتى يفيض إلى جوف الثور ، فيأخذ قيم الكنيسة ذلك الزيت دائما ، فيسرج منه قناديل الكنيسة كلها ، ولا ينقطع نماؤه وزيادته على مرور الدهور والأيام. فإن أزيل الصبي الميت ، طفيت النار ولم يفض الزيت ، فإذا أعيد عاد الزيت إلى ما كان عليه . وقد سار إلى هذه الكنيسة جماعة من الناس ورأوا ذلك وأفرغوا الباطية ثم أسرجوها بيسير من الزيت ، ففاضت وبدا منها ما ذكرنا .

ثم نرجع إلى ذكر الملك شوندين (١) .

قال فلما هلك الملك شوندين بعد أن ملك ١٣٥ سنة ودفن في الهرم الغربي ، ملك بعده ابنه قمناوش وكان جبارا فظلم وجار وسفك الدماء واغتصب النساء ؛ واستخرج كثيرا من الكنوز ، فبنى بها قصور الذهب والفضة ورصعها بالجواهر الغالية ، وعمل بركا فصب فيها الجواهر وأرسل عليها الماء ، وفعل من مثل هذه الأشياء ما لم يفعل غيره من الملوك ؛ واستجهل من مضى من آبائه ، واستعبد الناس واستخف بالهياكل . فلما هلك ملك بعده ابنه فترك الظلم وتحبب إلى الناس ، وطلب العلم (١) وأعاد الهياكل كل إلى ما كانت عليه في أزمان أجداده ، وجمع المنجمين والكهان ، وعملت في أيامه من العجائب والغرائب ما كانت تعمل في أيام آبائه (٢) ؛ وملك مدة ولم يكن له ولد . وطلب النسل من ٣٠٠ امرأة ، فلم يقدر عليه لأن أرحام النساء عقمت في أيامه . وفي وقته شاع خبر نوح عم . قال فلما لم يكن له ولد ولا أخ ، خاف على ذهاب ملكه فأشرك في أمره فرعان ، وكان من بني عمه ، وكان أحد الجبابرة ففتح البلاد وقهر الأمم ؛ فوافقته امرأة من نساء الملك على أن يقتل الملك ويلي الملك ففعل ، واحتوى على المملكة فتجبر وعلا وقهر . وأصل الفراعنة مشتقة منه ومن اسمه (٣) .

---

(١) هنا يوجد خرم قدره حوالي صفحتين في ج ( أنظر هامش ١ ص ٦٦ ) .

(١) أنظر ابن رسته ، ص ٨١ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٢ ، ٣٧ .

(٢) هنا ينتهي خرم البكري (أنظر هامش ١ ص ٦١) .

(٣) عن كلمة فرعون يقول المسعودي (مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤١٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩) : « وسألت جماعة من القبط بالصعيد وغيره من أهل الخبرة عن تفسير فرعون فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل في لغتهم . فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان سمة

وكتب إليه ذو ميشيل بن عديل بن درشيل الأكبر يخبره بأمر نوح ، فكتب إليه فرعان يشير عليه بقتل نوح فهلكا فى الطوفان .

## ذكر أول من نزل مصر بعد الطوفان

يقال إن أول من نزل مصر بعد الطوفان مصر بن ينصر بن حام بن نوح عم ، بدعوة سبقت له من جده نوح عم . روى عن ابن عباس أنه قال دعا نوح عم لمصر بن ينصر بن حام ، وهو أبو القبط ، فقال : « اللهم بارك فيه وفى ذريته وأسكنه الأرض المباركة ، التى هى أم البلاد وغوث العباد ، التى نهرها أفضل أنهار الدنيا ، واجعل فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها » . قيل وكان السبب فى نزول مصر أرض مصر ، وبه سميت ، أن فليمون الكاهن صدق نوحا عم وآمن بالله تعالى ، وسأل نوحا أن يحمله بأهله وولده معه فى السفينة فحمله . قال فلما انجلى الطوفان ، قال فليمون لنوح عم يانبى الله اجعل لى رفعة وقدرا أذكر به بعدى ؛ فزوج نوح [ مصر بن ] ينصر بن حام من بنت فليمون (ا) فولدت له ولدا فسماه فليمون (ا) على اسم جده لأمه . فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون : يا نبى الله إن بلدى خير البلاد وأولى الناس به ابنى مصر ، فابعثه معى إليه أظهره على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه . قال فأنفذه معه فى جماعة من أهل بلده ، قيل إن عددهم كان ٣٠ رجلا فقطعوا الصخور وبنوا المصانع والمعالم ؛ وبنوا مدينة سماها ماقة ؛ ومعنى ماقة ٣٠ بلغتهم(١) وهى مدينة منف . وأطلع فليمون صهره مصر بن ينصر على

---

(ا) الكلمات الواقعة بين ( ! ) ، ( ا ) ناقصة فى النص ولكنها موجودة فى البكرى ( المخطوط ، ص ١٧ ) .

= لملوك تلك الأمصار ، وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية وهى الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية » . وحسب الطبرى (ج ١ ص ٢١٧) يكون الفراعنة من نسل العمالقة . قارن البكرى ، المخطوط ، ص ١٦

(١) انظر البكرى ، المخطوط ، ص ١٦ — ١٧ ؛ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص٧ — ٨ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٨٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص١٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥١ — ٥٣ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٦٧ ؛ ابن دقاق ، ص ١٣٠

كنوز مصر وعلومها : وعلمه خط البرابى ، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر ، وأطلعه على عمل الصنعة فى الجبل الشرقى فسمى به المقطم .

وتزوج الملك امرأة من بنات الكهنة ، فولدت له أربعة من الولد منهم قطيم وإليه عهد بعد موته . فلما حضرته الوفاة أمر أن يحفر له سرب بين جبلين طوله ١٥٠ ذراعا ، ويفرش بالمرمر ، ويجعل فى وسطه مجلس مصفح بالذهب له ٤ أبواب ، على كل باب تمثال من الذهب عليه تاج مرصع بنفيس من الجوهر ، جالس على كرسى من الذهب قوائمه من الزبرجد . ونقشوا فى صدر كل تمثال آيات عظاما وأسماء من أسماء الله تعالى مانعة من أخذه ، وجعلوا جسده فى تابوت من زبرجد مصفح بالذهب ، وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط ، وألف تمثال من الجوهر النفيس ، وألف إناء مملوءة من در الدر الفاخر . ووضعوا هنالك الصنعة الإلهية والعقاقير السرية ، ومعها الطلسمات العجيبة ، وأكوام من سبائك الذهب بعضها فوق بعض ، ثم كتبوا على المجلس : « مات مصر بن بنصر بن حام بن نوح عم بعد ٧٠٠ سنة مضت من أيام الطوفان ، ولم يعبد الأصنام إذ لا هرم ولا أسقام ، ولا عوز ولا اهتمام ، وحصن مجلسه بأسماء الله تعالى العظام ، التى لا يصل إليها أحد من الأنام ، وكان يدين للملك الديان ، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن ، الداعى إلى الإيمان ، الظاهر فى آخر الزمان » . ثم دهموا ذلك بالصخور العظام وجعلوا فوقها الرمال ، وذلك بين جبلين متقابلين ، وجعلوا فيها علامات [1].

ثم ولى ابنه قطيم وهو أبو الأقباط ؛ وكان (ا) جبارا عظيم الخلق وفى أيامه هلكت عاد [2] بالريح ، فكان ملكه ٤٠٠ سنة . وكان قد عمل

---

(ا) هنا ينتهى الخرم الموجود فى ج ( أنظر هامش ا ص ٦٦ ) .

(١) انظر البكرى ، المخطوط ، ص ١٧ — ١٨ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩ ، ٢٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠

(٢) عاد هى القبيلة التى قضت عليها العاصفة كما هو مذكور فى القرآن ، سورة ٨٦ ، آية ٦

لنفسه قبل موته سربا تحت الأرض معقودا على آزاج فى الجبل الغربى . وجعل فيه من الذخائر والغرائب والتماثيل : ومن الطلسمات والعجائب التى يطول وصفها ، كما كان فى نواويس آبائه .

قال : فما زال هؤلاء الملوك من ذرية مصر بن ينصر يتوارثون الملك خلف عن سلف ، إلى أن كان منهم ملك يسمى عديم . وكان عاقلا عالما ، وهو أول من صلب . وكان سبب ذلك أن امرأة ورجلا زنيا فى أيامه . فأمر بهما فصلبا على منارين بناهما لهما ، وجعل ظهر كل واحد منهما إلى ظهر الآخر . وطلاهما بأطلية مانعة لفناء جثتهما ، وزبر على المنارين اسماهما وما فعلا . وتاريخ الوقت الذى عمل بهما ذلك فيه ؛ فانتهى الناس فى أيامه عن الزنا . وناووس عديم هذا من أعاجيب الدنيا ، وهو فى صحراء قفط (١) على وجه الأرض . وهو قبة عظيمة من زجاج أخضر براق ، معقودة على ثمانية آزاج ، قدر قطرها (ب) ١٠٠ ذراع وارتفاعها فى الهواء ١٠٠ ذراع ، تخضر بخضرتها ما حولها من الأرض وعلى رأس القبة طائر من الذهب منشور الجناحين موشح بجوهر نفيس ، وهو طلسم تلك القبة ؛ يمنع الوصول إليها وإلى ما فيها . وذكر أن قوما قصدوا ذلك الناووس فى صحراء قفط ، ورأوا القبة وعاينوا ما فيها ، وأقاموا عليها أياما لا يقدرون عليها ؛ وكانوا منها على قدر ٨ أذرع ، وكانوا إذا قصدوها (ج) دارت القبة على يمينهم وشمالهم . وذكروا أنهم عاينوا ما فيها من العجائب ، وأنهم رأوا الملك وهو على سرير من ذهب ، مشبك عليه ثياب منسوجة بالذهب منظمة بنفيس الجواهر ، وهو مكشوف الوجه ، فقدروا وجهه بذراع ونصف ، وقدروا طول بدنه بـ ١٠ أذرع ، وله لحية كبيرة . وفى جانب القبة ١٧٠ مصحفا من مصاحف الحكمة ، وفيها ٧ موائد على كل مائدة أوانيها : فمنها مائدة در رمانى وآنيتها منها ، ومنها مائدة ذهب أحمر يختطف الأبصار وهو الذهب الذى يعمل منه تيجان الملوك وآنية المائدة منها ، ومنها مائدة من حجر الشمس المضىء وآنيتها منها ، ومائدة من الزبرجد الذى إذا نظرت إليه الأفاعى سالت عيونها ، ومنها مائدة كبريت أحمر مدبر على ما ذكروه من تدبيره فى مصاحف حكمتهم وآنيتها منها ، ومائدة ملح أبيض براق (د) يكاد نوره أن يخطف الأبصار

---

(١) القراءة فى النص « نبط » ولكننا فضلنا قفط حسب البكرى ( المخطوط ، ص ٢١ ) والمقريزى ( الخطط ، ج ١ ص ٣٣ ) .

(ب) « قطرها » ناقصة فى ب . (ج) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

(د) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

وآنيتها منها ، ومنها مائدة زئبق معقود وحافاتها وقوائمها زئبق أصفر معقود وآنيتها من زئبق أحمر معقود . وقيل وجعل معه فى القبة جواهر عظيمة ، وأوانى من الفضة المدبرة ، وجعل حوله سبعة أسياف صاعقية وسبعة كاهنية ، وفى القبة معه تماثيل أفراس من ذهب ، وعليها سروج من ذهب ، وعدة توابيت مملوءة بالدنانير التى ضربها وصور عليها صورته . وفى تلك القبة أشياء من العجائب والغرائب يطول وصفها (١).

وقيل إنه ملك من ذرية هؤلاء الملوك ملك يسمى ساوس ، وهو أول من عبد البقر . وقيل إن السبب فى ذلك أنه اعتل بعلة يئس فيها من نفسه ، وأنه رأى فى منامه صورة روحانى عظيم الخلق يخاطبه ويقول له : لا يخرجك من علتك إلا عبادة البقر ، لأن الطالع كان حلوله بك فى صورة ثور . فأمر ذلك الملك بأخذ ثور أبلق حسن الصورة ، فبنى له مجلسا فى وسط قصره عليه قبة مذهبة ، ووكل به سادنا ، وكان يبخره له ويطيبه . وكان يعبده سراً من أهل مملكته ، فبرأ من علته وعاد إلى أحسن حاله . وقال آخرون وكان السبب فى ذلك أن هذا الملك كان يتفقد بلاده ويطوف عليها ، وهو أول من عملت له العجل ، وعملت عليها قباب من خشب مذهبة وفرشت بالفرش . وكانت البقر تجره فيطوف على جميع بلاده ، فإذا مر بالمكان الخرب أمر بعمارته . فقيل إنه نظر ذات يوم إلى ثور من تلك البقر التى كانت تجر تلك العجلة التى كان فيها الملك ، وكان ثورا أبلقا حسن الهيئة ، فأعجبه فأمر بإزالته من جر العجلة وسوقه بين يديه ، وجعل عليه حللا من فاخر الديباج . فتفرد به يوما ينظر إليه ، فبينما هو قائم بين يديه خاطبه الثور فقال له : لو رفعتنى أيها الملك كفيتك جميع أمورك ، وأعنتك على ما تريد ، وقويتك على ملكك وأزلت عنك جميع عللك . فارتاع الملك من كلامه ، وأمر به حينئذ وغسل وطيب وبنى له هيكلا ، وأمر بعبادته . وكان فى ذلك الثور آية أنه لايروث ولا يبول ولا يأكل إلا أطراف ورق الشجر مرة واحدة فى الشهر . قال فافتتن الناس به ، وصار ذلك أصلا لعبادة البقر بأرض مصر . وصار ذلك الثور يعبد مدة ثم إن ذلك الثور أمرهم أن يصنعوا صورة مثل صورته من ذهب مجوفة ، ويؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن تحت قرونه ومن أظلافه ويجعل فى ذلك التمثال . وعرفهم أنه لاحق

---

(١) انظر ابن وصيف — شاه ، الترجمة ، ص ٢٤٧ . وقارن البكرى ، المخطوط ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٢ ، ١٣٧

بعالمه ، وأمرهم أن يجعلوا جسده فى حرز من حجارة وينصب فى الهيكل ، وينصب تمثاله عليه ، ويكون ذلك وزحل فى شرفه ، والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث ، والقمر زائد ، وتنقش على التمثال علامات الكواكب السبعة . فأمر الملك فعملت صورة الثور من ذهب ، وكللت بأصناف الجوهر ، وصنعوا سائر ما أمرهم به ذلك الثور ؛ وفى الوقت الذى حدد لهم . وكان ذلك التمثال يخبرهم بالعجائب وما يحدث وقتا وقتا ، ويجيبهم عن جميع ما يسألونه عنه ، فعظم أمر ذلك التمثال ، فنذرت له النذور وقربت له القرابين ، وقصده الناس من الآفاق فكان يخبرهم بما يريدون . وبقيت عبادة البقرسنة فى دولة ذلك الملك يتوارثونها خلف عن سلف (1) ، إلى أن تملك منهم ملك يقال له ما ليق ، وكان موحدا على دين من سبق من أجداده ، قطيم ومصر ؛ فكانت القبط تذمه لذلك ؛ وكانت القبط تعبد الكواكب والبقر . وكان هذا الملك يستعمل الغزو والجولان على البلاد ؛ وزعم بعض أهل مصر أن الله تعالى أيده بملك من الملائكة يوعظه ويرشده ، وربما أتاه فى نومه فأخبره بالأشياء وأمره ونهاه . فجمع جيوشا عظيمة واتخذ سفنا كثيرة فى البحر ، وغزا جموع البربر برا وبحرا وهزمهم واستأصل أكثرهم ، وبلغ إفريقية وقتل أكثر أهلها وكانوا على الكفر . واتخذ فى بحر الروم ٤٠٠ سفينة ، وكان لا يمر بأمة إلا أبادها إلى أن غزا بلاد الأندلس . ومشى إلى بلاد الافرنج وكان بها ملك عظيم ، فحشد أمم نواحيه وأقام يحاربه شهرا ثم طلب السلامة والأمان ، وأهدى إليه هدايا كثيرة . فسار عنه ودوخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر وأطاعه أكثرها ، وعمل أعلاما على البحر الأخضر ، وزبر عليها اسمه وتاريخ الوقت الذى عملها فيه . وخرب مدن البربر حيث كانت حتى الجاءم إلى ذرى الجبال ، ثم رجع إلى مصر ، فتلقاه أهل مصر بصنوف اللهو والطيب ، وفرشت له الطرقات بأنواع الرياحين والأزاهير ، ودخل قصره وهو غانم موفور ؛ وذلك صنع الله لمن وحده ولم يشرك به شيئا . وأمر أن يبنى له ناووس فكان يتعبد فيه ، فلما حضرته الوفاة أمر أن يدفن فيه ، وألا يدفن معه ذهب ولا فضة ولا جوهر . فلم يدفن معه سوى الطيب ، وصحيفة مكتوبة بخطه : هذا ناووس فلان

(1) قارن البكرى ، المخطوط ، ص ٢٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٣٨

ابن فلان الملك ، مات مؤمنا بالله لا يعبد معه غيره ، بريئا من الأصنام وعبادتها ، مؤمنا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال ، فمن أحب النجاة من عذاب الآخرة فليؤمن بما أومن به (١) .

وكان من ذرية هؤلاء الملوك ، كَلْكَن الملك الجبار ، كان يعقد التاج على رأسه ، وكانت دار مملكته منف ، وهي كانت دار الملوك قبله . وكان يحب الحكمة ، وإظهار الحكمة والعجائب ، ويقرب العلماء والمنجمين وأهل الصنعة ، فلم تعمل الكيمياء قط في وقت من الأوقات كما عملت في أيامه ، حتى أستغنى أهل ذلك العصر عن معادن الذهب فلم يشتروها ، ولم يكن الذهب أكثر منه في أيامه ، ولا الصنعة أقوى منها في وقته . كان يطرح المثقال من مثاقيل الكيمياء على القناطير الكثيرة من الفضة فيصبغها . ويحكى القبط عنه أنه اخترع أشياء تخرج عن حد العقل حتى أنهم يسمونه حكيم الملوك ؛ غلب جميع الكهنة في علمهم حتى كان يخبرهم بما غاب عنهم فخافوه . وفي وقته كان نمرود ابراهيم الخليل عم (ا) ؛ وكان نمرود جبارا شديد البأس ، وكان ملكه بالعراق ، وكان قد أوتي قوة وبطشا فغلب على أكثر الأرض ، فأراد أن يستوزر كَلْكَن الملك . وبعث إليه في ذلك فخافه كلكن وأجابه إلى ذلك ، ووجه إليه أنه يريد أن يلقاه منفردا من أهله وحشمه ، ليريه من حكمته وسحره ؛ فسار النمرود إلى موضع يلقاه فيه كلكن . فأقبل كلكن تحمله أربع أفراس ذوات أجنحة ، وقد أحاط به نور كنار ، وهو في صورة مهيبة ؛ فدخل بها وهو متوشح تنينا عظيما ، والتنين فاغرفاه ، ومعه قضيب آس ؛ فكلما رفع التنين رأسه ضربه بالقضيب الذي بيده ، فلما رأى النمرود هاله مارآه ، واعترف له بجليل حكمته وسأله أن يكون له ظهيرا ففعل . وتزعم القبط أن كلكن الملك كان يجلس إلى الهرم الغربي ، وهو أعظم الأهرام ، في قبة على رأس الهرم . وكان يجمع إليه رعيته وحشمه ويأمرهم وينهاهم من أعلى الهرم ، ويقيم

(ا) الجملة الأخيرة ناقصة في ب .

(١) أنظر ابن وصيف — شاه ، الترجمة ، ص ٣١٣ ؛ البكري ، المخطوط ، ص ٢٧ — ٢٨ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٢ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٥ . حسب ابن الفقيه (ص ٦٧) كانت مملكة فرعون تمتد غربا حتى تشمل بلاد المغرب والأندلس .

بذلك الموضع أياما كثيرة لا يأكل ولا يشرب ؛ ثم إنه غاب عنهم فلم يقفوا على موته ولا على شيء من أمره . وكان عهد إلى أخيه ماليا فلما غاب عنهم أقاموا ماليا أخاه مقامه ، فكان همه فى الأكل والشراب والرياسة ، غير ناظر فى شيء من الحكمة ، وانما استقام له الأمر بهيبة أخيه كلكن ، وتقديرهم أنه لم يمت وأنه سيرجع إليهم . وكان لماليا ولد كان أكبر ولده ، وكان جبارا جريئا شديد البأس ، وكان يستجهل أباه لخلوده إلى الراحة ، فأعمل الحيلة فى قتله وحملته على ذلك أمه وبعض وزراء أبيه ، فهجم على أبيه فى رواقه وهو سكران فقتله ، وقتل معه امرأة له من بنات الملوك كانت قد غلبت على أمره ، فقتلها وصلبها وجلس على سرير ملك أبيه . وكان مهيبا شديد البأس كثير القتل ، فتزعم القبط أنه أول الفراعنة بمصر ، وأنه فرعون ابراهيم عم[1] .

والفراعنة سبعة وهو كان أولهم . وقيل إنما سمى فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته وخدمه ونساءه وكثيرا من الكهنة والحكماء . وكان حريصا على الولد فلم يرزق ولدا غير ابنة واحدة سماها حورية ، وكانت عاقلة حكيمة ، وكانت تسدد أباها كثيرا ، وتمنعه من كثير من الشر والقتل . فلما رأت أمره يزداد فسادا خافت على زوال ملكه فسمته ، فمات بعد أن ملك سبعين سنة . فتنازعوا فى تمليكها عليهم ثم اجتمعوا عليها إلا أهل مدينة أتريت فانهم ملكوا عليهم رجلا منهم ، وكان من ولد أتريت بن مصر الملك المتقدم الذكر ، وبه سميت مدينة أتريت ، يقال له أبراحش . فجرت بينهم حروب كانت الدائرة فيها على أبراحش ، فهرب خوفا من حورية إلى الشام ، وكان بها الكنعانيون من ولد عمليق ، فاستغاث بملكهم فأخبره بأمره وقرب عليه مصر ، وسول له تصييرها إليه . فجهز ملك الشام مع أبراحش جيشا عظيما(ا) ، وقدم عليه رجلا من قواده ، فلما قرب من مصر بعثت حورية (ا) طيرا لها إلى جيرون تقول له : إن فلانة سمعت بك وأحبتك ، وهى تريد زواجك وأن تكون لها أهلا ، وتعطيك بلاد مصر . فسر جيرون بما سمع منها ورغب فيما قالت له ، ثم عقدت معه أن يقتل أبراحش . فقال

---

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ب .

(1) البكرى ، المخطوط ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٦ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ ، ١٤٠

لها وكيف أصنع ؟ فأخرجت له سما ، فسم به أبراحش فمات فى الحين . فلما أراد أن يصل إليها بعثت إليه أنه لا يجوز أن أتزوجك حتى تظهر فى بلادى قوتك وحكمتك لكى أعذر فى زواجك، وأريد أن تبنى لى مدينة عجيبة أدخل معك فيها ، فإنى أكره الدخول عليك فى بلادى وبين أهل بلدى . وأن مدينة فى بلاد مصر كانت لأوائلنا قد خربت ، فانظر موضعها واظهر حكمتك فيها ؛ وبعثت معه من يريه الإسكندرية .

قيل فجد جيرون فى بنائها ، وبعثت إليه حورية من مصر مائة ألف صانع ، فأقام فى بنائها مدة وأنفق جميع ما كان معه من المال ، فلما فرغ من بناء المدينة ، وجه إليها يعلمها بتمام المدينة ويحثها على القدوم عليه . فوجهت إليه فرشا كثيرة فاخرة وآلات عجيبة ، وقالت له : « قسم جيشك أثلاثا وابعث الثلث الأول ، حتى إذا بلغت نصف الطريق فابعث إلى الثلث الثانى ، فإذا بلغت الثلثين من الطريق ، فابعث إلى الثلث الثالث حتى يكون الجيش من ورائى ومن أمامى، لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك ؛ ولا أحب أن أجد معك سوى صبية تخدمك . ثم أقامت تجهز له الجهاز والأموال حتى أيقن بإقبالها ، فوجه إليها ثلث جيشه . فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة وخرجت إليهم فى خيولها وخدامها ؛ فلما لقوها أنزلتهم وأمرت حشمها فأقبلوا عليهم بالأطعمة والأشربة والطيب ، كل ذلك من مسموم ، فلم تصبح منهم عين تطرف(١) . ثم سارت فلقيها الثلث الثانى من الجيش ، ففعلت بهم كذلك . ثم سارت فلقيها الثلث الثالث ، ففعلت بهم مثل ذلك ، وهى تبعث إليه وتقول : إنى بعثت الجيش إلى مصر يحفظها بعدى ، إلى أن دخلت على جيرون هى وطير لها وجوار كن معها ، فرشقت طيرها عليه ، فارتعدت مفاصله وخارت قواه ، ولم يملك نفسه شيئا فأيقن بالهلاك ؛ وقال جيرون : « من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه » . فقيل إنها فصدته وأسالت دمه حتى مات ، فقالت : « دماء الملوك شفاء النفوس » . وأخذت رأسه فوجهت به إلى قصرها فنصبته عليه ، وحملت بيوت أمواله إلى منف دار مملكتها ، وبنت حينئذ منار الإسكندرية ، وزبرت عليه اسمها واسمه ، وما أراد وما فعلت به ، وتاريخ الوقت الذى كان فيه ذلك . ويذكر فى بناء منار الإسكندرية غير ذلك مما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى . قيل فلما اتصل خبر حورية بالملوك وما فعلت بالجيش الذى دخل بلادها ، هابوها وعظمت فى أعينهم ، فمن كان

---

(١) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

ينازعها وبروم أخذ بلادها كف عن ذلك فاشتد ملكها وعظم أمرها ، وبنت حصونا على بلاد مصر من ناحية النوبة . وعملت طلاسم كثيرة وأعلاما وأشياء كثيرة يطول وصفها [1].

قيل فلما ضعفت حورية عن الملك عهدت إلى بنت عم لها تسمى دليفة . فلما هلكت حورية ضعفت دليفة عن الملك ، وخرج عليها أيموش يطلب ثأر خاله أبراحش ، واستنصر بملك العماليق صاحب الشام فأجابه ، وخرج فى نصرته لما كانت حورية فعلمت بقائده وبجيشه فيما تقدم . وقدم جيش أيموش ، فخرجت إليه دليفة تحاربه فغلبها ، فلما أيقنت بالغلبة سمت نفسها فهلكت فى الحين . ثم إن ملك الشام العمليقى غلب على مملكة مصر ، وكان اسمه الوليد بن دومع ، وأصل العمالقة من العرب العاربة ، وكان شديد البأس فأباد الأمم ودوخ البلاد حتى بلغ فيما يقال إلى جبل القمر الذى ينبعث من تحته النيل ، وإنما سمى جبل القمر لأن القمر يطلع عليه أبدا لخروجه عن خط الاستواء ، وبلغ هيكل الشمس وأرض الذهب ، وهى أرض تنبت قضبان الذهب ، واستعبد هذا الملك القبط وملكهم ١٢٠ سنة ثم هلك . ويقال إنه ركب ذات يوم فرسا وخرج متصيدا فركض به الفرس فقتله ، ودفن فى بعض تلك الأهرام [2]. ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف عم ، والقبط تسميه نقراوش، وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا محسنا إلى الناس . لما ولى بعد أبيه أسقط الخراج عن الناس ٣ سنين ، وفتح خزائن الأموال وفرق على الضعفاء فأحبه الناس وشكروه . وكان يميل إلى الراحات وغلبت عليه اللذات ، وملك أمر الناس رجلا من أهل بيته يقال له قطفير ، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز . وقد ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم فى قصة يوسف عم [3] ، وكان رجلا عاقلا حصيف الرأى نزيه النفس مؤثرا العدل ، وأمر أن ينصب له فى قصره سرير من الفضة يجلس

---

(١) ابن وصيف — شاه ، الترجمة ، ص ٣٢٢ . وقارن البكرى ، المخطوط ، ٣١ — ٣٢ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٦ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤١ . وعن الأساطير المختلفة الخاصة ببناء الاسكندرية أنظر فيما بعد ، ص ٩١ وهامش ٢

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٣٤ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١١ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٧

(٣) القرآن ، سورة ١٢ ، آية ٨٨

عليه والوزراء والكتاب بين يديه ؛ وقام بجميع أمور الملك الريان وكفاه أحسن الكفاية ؛ والملك مشتغل بلذاته عاكف عليها ، قد صنعت له مجلس من الزجاج الملون ومن البللور الشفاف والبللور المصبوغ ، وأرسل حوالبها المياه ووضع فيها السمك ، فكانت الشمس إذا وقعت على ذلك الموقع أرسلت شعاعا عجيبا يبهر العيون ، وعملت له متنزهات على النيل وعلى غير النيل على عدد أيام السنة ، وكان ينتقل(ا) كل يوم إلى متنزه منها ، وكان فى كل متنزه من الفرش الغريبة والآنية العجيبة ما ليس فى غيره . وفى أيامه كان من أمر يوسف عليه السلام ما قصه الله تعالى فى محكم تنزيله ، وخبره مع امرأة العزيز وهى زليخة بنت صاحب عين الشمس ، وعين الشمس مدينـة عظيمة من مدن أهل مصر فيها عجائب . وكانت زليخة بنت عم العزيز ، واسم العزيز قطفير بلغة القبط ، واسم الملك نقراوش بلغة القبط ، وقد ذكر الله تعالى اسم العزيز فى كتابه العزيز [1] .

## ذكر ما نقله القبط من خبر يوسف عم

قيل إن فى كتب تواريخ القبط أنه أدخل مصر غلام من أهل الشام كان قد باعه أخوته ، وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف [2] اليوم ، فأوقف غلام فنودى عليه وهو يوسف عم فبلغ زنته ذهبا ، فاشتراه قطفير وهو العزيز ليهديه للملك . فلما أتى به منزله ورآه زليخه امرأته ، قالت له أتركه لنا نربيه ففعل ؛ فكان من أمر افتتانها به ما قصه الله تعالى [3] إلى أن رأى الملك الرؤيا ؛ فأخرج يوسف من السجن ، وأمر بغسله وكساه الثياب الرفيعة ، وحمل إليه فلما دخل عليه ورآه امتلأ به سرورا وألقيت عليه منه المحبة والهيبة ، وسأله عن الرؤيا ففسرها له كما ذكر الله تعالى ؛ فقال له الملك ومن يقوم لى بذلك ؛ فقال له يوسف أنا ، فإنى حفيظ عليم . قيل فرأى الملك امتحان يوسف عم ومعرفته فأمر له بعمل الفيوم ، وكان موضعا يفيض فيه ماء النيل ، فأقام تلك الأرض وأتى بتلك الحكمة

(ا) « كان ينتقل » ناقصة فى ب .

(1) القرآن ، سورة ١٢ آية ٨٨ ؛ الطبرى ، ج ١ ص ٣٧٨

(2) كان « الموقف » سوقا للحيوانات . انظر ابن دقاق ، ص ٣٤ . وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٨٨

(3) القرآن ، سورة ١٢

المعجزة والآية البينة فى ٤ أشهر، وقيل فى ٩٠ يوما، وشق تلك الخلجان الثلاثة فلما فرغ يوسف عم من عمل الفيوم وأعلم بذلك الملك، خرج هو ووزراؤه وأهل دولته ينظرون إلى ما صنع يوسف عم، فلما نظر الملك إلى حكمة صنع ذلك الموضع فى مدة يسيرة، قال الملك لوزرائه: هذا عمل ألف يوم؛ فسمى الفيوم من حينئذ. قيل فسر الملك بيوسف سرورا عظيما وخلع عليه وألبسه تاجا مكللا بفاخر الجوهر، وأمر الجيش أن يركب معه ويطاف به ويرد إلى القصر ويجلس على سرير العزيز. وكان العزيز قد مات فاستخلفه الملك على ملكه، وسماه العزيز وزوجه امرأته زليخة، فدخل بها يوسف عم فوجدها عذراء فقال لها هذا أصلح مما أردت، فقالت له اعذرنى فإن زوجى كان عنينا، ولم تكن تراك امرأة فى حسنك وجمالك إلا صبا قلبها إليك.

قيل فلما جاءت سنين الخصب أخذ يوسف فى توفير الغلات والاستكثار من الأقوات، وبنى لاختزان الزرع مخازن عظيمة، ويقال إن بعضها باق إلى الآن فإن الطعام كان يختزن بسنبله كما ذكر الله تعالى. فلما جاءت سنين الجدب ونقص فيض النيل وتوالى نقصانه فأحسن يوسف عم السياسة والتدبير فى تلك المجاعة، وقسط بيع الزرع بين الناس فلا يبيع لأحد إلا بقدر حتى ساوى بين الناس؛ ولولا ذلك لهلك الناس. وقيل إنه صار ليوسف جميع أموال أهل مصر بما باع منهم من الطعام، فإنه باع منهم بالذهب والفضه والحلى والثياب والدواب والأبنية والعقار، وبجميع ما بأيديهم من الأموال، حتى أنه يقال إنهم باعوا منه أولادهم ونساءهم وأنفسهم حتى صاروا له كلهم عبيدا، وتلك كرامة من الله أكرمه بها لأجل ما بيع ببلدهم[1]. فمن ذلك الوقت صارت أرض مصر كلها للسلطان ليس للرعية فيها ضيعة ولا فدان. وقد اعترضهم بعض ولاة مصر فى أيام بنى عبيد الذين كانوا بها قبل اليوم ملوكا، وأراد أخذ ديارهم واحتج عليهم بهذا القول. قيل وقحط أهل الشام فى ذلك الوقت، فكان من أمر يوسف مع أخوته ما قصه الله تعالى فى كتابه. فوجه يوسف عم إلى أبيه وحمله من الشام إلى مصر بجميع أهله وولده، فلما قرب يعقوب عم من مصر خرج

---

(١) أنظر البكرى، المخطوط، ص ٣٧، ٤٠، ٤١؛ الطبرى، ج ١ ص ٢٧٦ وتابع؛ ابن عبد الحكم، ص ١٢، ١٣؛ المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٦٩، ٣٧٠؛ الاصطخرى، ص ٥٠؛ ابن حوقل، ص ٩٧؛ المقدسى، ص ٢٠٨؛ المقريزى، الخطط، ج ١ ص ٢٤١ وتابع.

إليه يوسف فى وجوه أهل مصر، وتلقاه وأدخله على الملك، وكان يعقوب عم نبيا جليلا فصيحا فأعظمه الملك وأحبه . قيل فدعاه يعقوب إلى توحيد الله تعالى ونبذ الأصنام ، وكان يوسف قد قدرعنده ذلك فتمكن من استبصار الملك وآمن . فيقال إنه كتم إيمانه خوفا من ذهاب ملكه ، ثم لم يزل يعقوب عليه السلام مكرما معظما حتى حضرته الوفاة ، وذلك فى حياة الملك الريان بن الوليد ، فأوصى يعقوب أن يدفن فى مكانه ومكان آبائه بالشام، فوضع فى تابوت وخرج به يوسف ووجوه أهل مصر حتى بلغوه إلى موضعه . قيل فمنعهم عيصوم أخو يعقوب أن يدفنوه هناك لأن إسحاق عم آباهما وهب لعيصوم ذلك الموضع حتى اشتراه يوسف منه ودفن فيه يعقوب . ثم انصرف يوسف إلى مصر ، وولد له بعد ذلك أولاد كثير .

ثم هلك الملك الريان واستخلف ابنه دريموس بن الريان ، وهو فرعون الرابع ويسميه أهل الأثر دارم ، وكان الملك الريان قد أوصى ابنه دريموس أن يبقى يوسف على ما كان عليه(ا) من استخلاف وحجابة وأن يسمع من رأيه ، فبقى يوسف على ما كان عليه(ا) . وكان الملك دريموس يسمع من رأيه غير أنه خالفه فى دينه وما كان اعتقده أبوه ، فكان يخدم القمر لأنه كان طالعه ، فكان يصنع له أصناف الفضة وينصبها فى قصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرق النيل . قيل وقبض يوسف عم بعد سنين من ولاية هذا الملك ، فجزع عليه جزعا شديدا وكذلك أهل مصر ، وأمر الملك أن يكفن فى ثياب الملوك ، وجعل فى تابوت من رخام ، ودفن فى الجانب الغربى من النيل عاما فأخصب ذلك الجانب ثم نقل إلى الجانب الشرقى عاما فأخصب أيضا ذلك الجانب ، فلما ظهرت لهم بركته رأوا رأيا أن يجعل التابوت فى وسط النيل ، فشدوه بالحبال ودلوه فى وسط النيل فأخصب الجانبان كلاهما جميعا (١) .

---

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ج .

(١) قارن البكرى ، المخطوط ، ص ٤١ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٨٧ ؛ الطبرى ، ج ١ ص ٤١٣ ، ٤٤٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤٤

ويقال إن الملك الريان بن الوليد صاحب يوسف عليه السلام لم يمت وانه عاش إلى زمان موسى ؛ وإنه فرعون موسى عم المذكور فى القرآن ، وإنه لما أطال الله فى عمره أدركه الإعجاب فتأله ودعا الناس إلى عبادته، وقيل غير ذلك. وتنازع الناس فى أمر فرعون موسى عم ، فمنهم من رأى أنه من العماليق، ومنهم من رأى أنه من لخم من الشام، ومنهم من رأى أنه من الفرس من مدينة اصطخر ، ومنهم من رأى أنه من ولد مصر المتقدم المذكور والقبط أثبتت ذلك، وزعم قوم من الأعاجم أنه من الأندلس من مدينة قرمونة ، وذكر أن اسمه الوليد بن مصعب . وكان سبب ملكه أنه دخل مدينة منف (ا) من البادية يحمل خمرا للبيع على أتان له ، وكان أهل منف(ا) قد اختلفوا فى (ب) تولية ملك عليهم فأجمعوا أن يملكوا أول من يدخل فى ذلك اليوم ، فكان أول داخل (ب) ذلك اليوم على باب المدينة فرعون، فولوه الملك . ومدينة منف كانت فى ذلك الزمان قاعدة مدن مصر ودار مملكتها، فلما تمكن ملك فرعون ببلاد مصر بذل الأموال وجمع الجيوش وقتل من خالفه وناوأه ومدن المدن وخندق الخنادق فاستقر له الأمر ، وكان جبارا معجبا يدعو الناس إلى عبادته ، ويقول لهم أنا ربكم الأعلى كما حكى الله تعالى عنه فى كتابه العزيز [1]. واستعبد بنى اسرائيل فكان من أمره مع موسى ماقصه الله تعالى . ثم ملك موسى بلاد مصر والشام (ج) لبنى اسرائيل يتوارثونها ملك عن ملك، ومنهم كان داود وسليمان عم إلى أن بعث الله تعالى عيسى عم ، وظهر دين النصرانية ، ملك أرض مصر النصارى وكانوا يتوارثونها ملك عن ملك إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام ، فدخل المسلمون بلاد مصر وملكوها فى أيام عمر بن الخطاب رضه .

---

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ب .
(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ب .
(ج) « الشام » ناقصة فى ب

(١) القرآن ، سورة ٢٠ ، آية . وقارن البكرى ، المخطوط ، ص ٤٢ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٨ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٧
عن مدينة منف أنظر فيما بعد ص ٨٣ وهامش ٢

## ذكر فتح مصر

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن [ عبد ] الحكم[1] : لما كان سنة ١٨ من الهجرة [ = ٦٤٠] فى خلافة عمر بن الخطاب رضه وقدم عمر رضه الجابية ، خلا به عمرو ابن العاص وقد كان دخل مصر فى الجاهلية وجرى له بها خبر الكرة (ا) ، فكان عمرو بن العاص يعرف أحوال مصر ، فجعل يعظم عند عمر بن الخطاب أمرها ، ويعرفه بكثرة جبايتها ويهون عليه أمرها وفتحها ، حتى ركن لذلك عمر رضه. فعقد له على ٤٠٠٠ وجهزهم معه ، وقال له : «سر وأنا مستخير الله تعالى وسيأتيك كتابى سريعا بما أرى إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف قبل أن تدخل أرض مصر فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصر به» . فسار عمرو بن العاص فى جوف الليل ولم يشعر به أحد ، ثم استخار عمر فكأنه تخوف على المسلمين فكتب إلى عمرو يأمره بالانصراف بمن معه ، فأدركه الكتاب وهو فى رفح فتخوف عمرو إن قرأ الكتاب يكون فيه الأمر بالانصراف ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش . فسأل عنها فقيل له إنها من أرض مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ثم قال لهم : ألستم تعلمون أن هذه القرية من أرض مصر؟ فقالوا بلى . فقال لهم إن أمير المؤمنين عهد إلى إن لحقنى كتابه وأنا لم أدخل أرض مصر أن أرجع بمن معى ، وإن كتابه لم يلحقنى حتى دخلت أرض مصر فسيروا على بركة الله . فساروا حتى توسطوا بلاد مصر فنزلوا بموضع على النيل وهو الفسطاط ، ولم يكن فيه حينئذ مدينة وإنما بنى الفسطاط عمرو . وكان ملك مصر فى ذلك الزمان المقوقس وهو الذى أهدى

---

(ا) القراءة فى ب : وجرا له الخير الكثير .

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحكم ( توفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ = ٨٧١ هو أقدم مؤرخى مصر العربية . وكتابه يعتبر أحسن وثيقة أصيلة وصلت إلينا عن افتتاح مصر على أيدى العرب ، ولذلك اقتبس منه معظم الكتاب فيما بعد . أما عن الصفحات التالية فقد أخذه عنه البكرى ، وعن هذا الأخير نقل مؤلفنا . أنظر البكرى ، المخطوط ، ص ٤٥ وتابع وقارن ابن عبد الحكم ، ص ٤٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٩٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٨ وتابع ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥ وتابع ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٣ وتابع .

لرسول الله صلعم مارية القبطية ، فلما سمع المقوقس دخول المسلمين بلاده ونزولهم فى موضع الفسطاط ولم يكن له بهم علم راعه ذلك ، ونظر فى توجيه الجيوش إليهم . فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضه يستمده ، فأمده بأربعة الآلاف . ويقال إن أسقفا كان بالإسكندرية من أهل العلم بالكوائن ، لما بلغه قدوم عمرو مع المسلمين إلى بلاد مصر كتب إلى القبط يعلمهم أن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو والطاعة له ؛ فأطاعه كثير من القبط فاستعان بهم على من سواهم . ثم سار عمرو إلى البلد الذى كان فيه الملك المقوقس ، وكان حصنا عظيما مانعا وقد خندقوا حوله وجعلوا للخندق أبوابا وعلقوا شبك الحديد على تلك الأبواب ، فكان عمرو يفرق أصحابه على جوانب الحصن ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، ويغدوا بهم فى الأسحار ويصففهم على أبواب الخندق عليهم السلاح والدروع .

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضه بعث الزبير بن العوام فى ١٢ ألفا فتقوى المسلمون ، فجعل عمرو يلح بالقتال ووضع المنجنيق ، فلما أبطأ الفتح على المسلمين قال الزبير بن العوام رضه : أنا أهب نفسى لله وأرجو أن يفتح الله على المسلمين . فوضع له سلم (ا) إلى جانب الحصن فرقى ثم قال لهم إذا سمعتم تكبيرى أجيبونى ، فما شعر أهل الحصن إلا والزبير على رأس الحصن يكبر والسيف بيده منتضى ، فتحامل المسلمون على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا أن ينكسر بهم ، فهرب أهل الحصن جميعا . وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه واقتحم المسلمون فيه ، فلجأ الروم والقبط إلى الفوق وهو قصر منيع فى الحصن ، فحاربهم المسلمون نحو شهر ، وكان فى ذلك القصر المقوقس مع أكابر الروم والقبط ، فخاف المقوقس على نفسه وعلى من معه فخرج من باب خفى وترك فى القصر جماعة يقاتلون ، وسار إلى الجزيرة موضع دار الصناعة اليوم ، وأمر بقطع الجسر (ب) . ثم أرسل (ج) المقوقس إلى عمرو بن العاص : « إنكم قوم قد دخلتم بلادنا وطال مقامكم بأرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد اضلتكم الروم وجهزوا إليكم الجيوش ، وقد أحاط بكم هذا النيل وأنتم أسارى بأيدينا ؛ فابعثوا إلينا رجلا منكم نسمع كلامه فعسى أن يتأتى الأمر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ،

---

(ا) ب : سلوم . (ب) ب : الجسر . (ج) « أرسل » ناقصة فى ب .

وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جيوش الروم فتندموا . فرد عمرو مع رسله أنه ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن تدخلوا فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لنا مالكم وعلينا ما عليكم ، فإن أنتم أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، أو جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين . فلما رجعت رسل المقوقس قال لهم كيف رأيتموهم ، قالوا رأينا أقواما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على الركب وأميرهم كواحد منهم ، يغسلون أطرافهم بالماء ، فإذا حضرت صلاتهم لم يتخلف عنها أحد منهم ويتخشعون فى صلاتهم تخشيعا كثيرا . فقال المقوقس والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لزلزلوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، وإن لم يغننا صلح(ا) هؤلاء القوم وهم محصورون بهذا النيل فإنهم لن يجيبونا إذا تمكنوا من الأرض . وكان ذلك وقت خروج النيل وفيضه ، والمسلمون قد أحدقت بهم المياه من كل جانب لا يقدرون على النفوذ إلى الصعيد ولا إلى غيره . ثم بعث إليهم عمرو بن العاص ١٠ رجال أحدهم عبادة ابن الصامت ، وكان أسود اللون من العرب ، وأمرهم أن يكون متكلم القوم فإنه كان فصيحا ، وأمرهم أنه لا يجيبهم إلا إلى أحدى ثلاث خصال وهى المتقدم ذكرها . فركبوا السفن ودخلوا على المقوقس ؛ فتقدم عبادة للكلام فهابه المقوقس لسواده وقال نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره ، فقالوا جميعا إن هذا الأسود سيدنا وأفضلنا رأيا وعلما . فكلمه عبادة (ب) ثانيا ، فقال المقوقس لأصحابه : لقد هبت منظره وإن قوله عندى لأهيب ، وإن هذا وأصحابه إنما خرجوا إلى خراب الأرض وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها . وقال نعطى كل من فى الجيش دينارين ونعطى أميرهم ١٠٠ دينار ونبعث إلى خليفتهم ١٠٠٠ دينار ؛ فلم يجبه عبادة إلا إلى إحدى ثلاث خصال . فقال المقوقس لأصحابه بماذا ترون ؟ فقالوا : أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا ما لا يمكن ولا نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه ، وأما ما أرادوا [من] أن يجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك ، فإن رضوا بأن نضعف لهم ما أعطيناهم وينصرفوا عنا كان أهون علينا .

---

(ا) « لم يغننا صلح » ناقصة فى ب .

(ب) هنا يوجد خرم فى ب يقدر بحوالى صفحتين تقريبا .

فانصرف عنهم عبادة بن الصامت وأصحابه ولم ينعقد بينهم صلح على شيء ، فألح عليهم المسلمون بالقتال حتى أذعن المقوقس لإعطاء الجزية عن القبط خاصة . وأما الروم فيخيرون فى المقام على الجزية والخروج إلى أرض الروم ، وتم ذلك (ا) بينهم وبين المسلمين ؛ قيل فأحصى (ب) يومئذ جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط فكانوا ٦٠٠٠ ألف ممن بلغ الحلم ، سوى الشيخ الفانى والصغير الناشئ والنساء . وفرض على كل رجل منهم دينارين فى السنة فكانت فريضتهم ١٢ ألف دينار ، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ثم زادت بمن استقر بها من النصارى وغيرهم من النوبة ٣٠٠٠ دينار . فجعل عمرو يبحث عن الأموال ويضمها إلى بيت مال المسلمين ، فذكر له أنه عند عظيم الصعيد مال كثير ، فبعث إليه فيه فقال له ما عندى مال فسجنه . وسأل عمرو من كان يدخل إليه هل سمعوه يذكر أحدا ، فقالوا له سمعناه يكثر ذكر راهب بالطور ، فبعث عمرو فأتوا بخاتم المسجون فكتب كتابا على لسانه إلى ذلك الراهب بالرومية وختم عليه ، وبعث به إلى ذلك الراهب فأتى بقدرة نحاس مختومة بالرصاص فإذا فيها كتاب فيه : يا بنى إذا أردتم مالكم فاحفروا تحت الفسقية . فبعث عمرو الأمناء إلى الفسقية وهى الساقية ، فحفروا تحتها فاستخرجوا ٥٠ أردب دنانير ، والأردب نحو قنطار ونصف .

ثم أمر عمرو المسلمين ببناء دور يسكنونها بالفسطاط وهى مدينة مصر اليوم ، وإنما سميت مدينة مصر بالفسطاط لأن عمرو بن العاص حين دخل مصر ضرب فسطاطه بذلك الموقع ، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع الفسطاط فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو لقد تحرم هذا منا بحرم ؛ فأمر الفسطاط فأقر مكانه وأوصى عليه . فقام المسلمون من الإسكندرية بعد فتحها وقال الناس أين ننزل فقيل الفسطاط ، لفسطاط عمرو الذى تركه فى المنزل مضروبا بالموضع الذى يعرف اليوم بدار الحصى . ثم بدأ عمرو ابن العاص ببناء المسجد وكان موضعه حدائق وأعناب فقطعت ، ووضعوا أيديهم على البناء فلم يزل عمرو ومن حضر من أصحاب رسول الله صلعم قياما حتى وضعت القبلة ، فلما أتمه اتخذ فيه منبرا فكان يخطب عليه . وقال أبو تميم الجهانى : فوصل ذلك عمر بن الخطاب رضه فكتب إلى عمرو ابن العاص : أما بعد فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى فيه على رقاب المسلمين

---

(ا) « وتم ذلك » ناقصة فى ب و ج . (ب) القراءة فى النص « أحصا » .

أما بحسبك أن تقوم قائما والناس من تحتك ، فعزمت(ا) عليك إلا كسرته. ثم اختط عمرو داره التي هي اليوم عند باب المسجد بينهما الطريق ، وكذلك اختط جميع من أراد السكنى بمصر من المسلمين دارا لنفسه . وكان الزبير بن العوام اختط دارا وجعل فيها السلم الذى صعد (ب) عليه إلى الحصن المتقدم الذكر ، فلما ولى عبد الملك بن مروان اغتصبها من الزبير وأصفاها لنفسه ، فلما [ولى] أبو جعفر المنصور من بنى العباس ردها على هشام بن عروة بن الزبير [1] .

## ذكر المشهور من مدن أرض مصر [2]

منها مدينة مصر وهى الفسطاط [3] الذى ذكرنا آنفا : وهى حاضرة بلاد مصر فيها من المبانى والمصانع والبساتين والغرف المشرفة على النيل والقصور ما يبهج العيون ويطرب المحزون .

---

(ا) هنا ينتهى الخرم فى ب (أنظر هامش (ب) ص ٨٠) .
(ب) « صعد » ناقصة فى ب .

(١) لا تتفق روايات الكتاب الآخرين مع هذه الرواية . حسب ابن دقاق (ص ٨ ، ١١) كان الزبير يملك دارين إحداهما فى زقاق القناديل والثانية فى المكان المعروف بسوق وردان . وهذه الأخيرة التى كانت تقع قرب دار عمرو بن العاص والمسجد هى المقصودة عند ما يتكلم الكتاب عن دار ابن الزبير . ويقول البعض إنها أدخلت فى المسجد (ابن دقاق ، ص ٦٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤٩) ويقول آخرون إنها راحت ضحية للحريق (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٩٥ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٧٧) .

(٢) يلاحظ أن المؤلف يكتفى بنقل المعلومات القديمة عن مدن مصر دون تصرف ، فهو لا يحاول تجديد معلوماته كما يفعل عند ما يتكلم عن أعمال بنى غانية فى إفريقية . والحقيقة أنه وقعت أحداث مدوية على أيامه فى مصر كان ينبغى أن يكون لها صدى عظيم فى المغرب ، مثلها فى ذلك مثل أحداث بنى غانية . فالقاهرة كان يهددها الصليبيون ، والفسطاط أحرقت (سنة ٥٦٤ = ١١٦٩) لوقف تقدمهم ضد العاصمة . ثم كثيرا ما كانت الفرما ودمياط وتنيس ضحايا لغاراتهم البرية والبحرية . لم يهتم صاحب الاستبصار بهذا ، وكل ما همه هو انتصارات صلاح الدين فى فلسطين فخصص لذلك صفحات فيما بعد (ص١٠٤–١٠٦) .

(٣) قارن البكرى ، المخطوط ، ص ٥٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٩٣ وتابع (عند ما يتكلم عن الفسطاط ، يذكر قصة الفتح السابقة) . أنظر ابن دقاق ، ص ٢ وتابع ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٨ و٢٩٦ وتابع ؛ ابن الفقيه ، ص ٥٩ ؛ المقدسى ، ص ١٩٧ ؛ الإدريسى ، ص ١٤١ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦٢ وتابع .

مدينة القاهرة : محدثة من بناء الُعَبيْديّين الشيعة الذين كانوا بها ، بينها وبين مصر نحو ٣ أميال . وهي مدينة كبيرة فيها من القصور والمباني ما يعجز الوصف عنه وكانت دار مملكة العبيديين . وكان الحاكم من بني عبيد قد بنى بين الفسطاط والقاهرة مسجدا عظيما على ٣ مشاهد كانت هناك ، وجعل فيه سدنة وخدما يوقدون فيه السرج الليل كله . وذكر أنه أراد أن ينقل إليه جثة النبي صلعم ، وقد كانت توجهت له الحيلة في ذلك غير أن الله دفع وأظهر الله تعالى أهل المدينة على ذلك وقاية لرسوله صلعم وردا لكيد عدوه . وذلك أن الحاكم بذل الأموال لرجال من شيعته فمشوا إلى المدينة فاشتروا دارا تلاصق مسجد رسول الله صلعم ، وبذلوا فيها مالا كثيرا ، وأخذوا ذرع ما بين الدار والقبر ، واحتفروا سربا عظيما حتى كادوا أن يصلوا إلى القبر المكرم ، فأطلع الله أهل المدينة على ذلك ، فقتلوا أولئك البغاة الفسقة ومثلوا بهم وردموا ذلك الحفير بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص فلا يطمع في الوصول إلى مثل ذلك طامع أبدا [1]

مدينة مَنْف : مدينة عظيمة أزلية قديمة . وهي كانت دار مملكة الملوك القدماء (ا) ، وكان بها فرعون موسى عليه السلام . وكان اتخذ لها ٧٠ بابا وفصل حيطان المدينة بالحديد والصفر ، وفيها كانت الأنهار تجرى من تحت سريره وكانت ٤ أنهار . ذكر رجل من ولد علي بن أبي طالب رضه ، قال : رأيت بمنف دار فرعون ، وكنت أمشي في مشارفها ومجالسها وغرفها (ب) وجميع سقائفها وحجورها فإذا ذلك كله حجر واحد منقور . فإن كان بناء قد أحكم حتى صار في الاستواء كحجر واحد لا يستبان فيه جمع حجرين ولا ملتقى حضرتين فذلك عجيب ، وإن كان جبلا واحدا فنقر الرجال فيه بالمناقير حتى خرقت فيه تلك المخارق فهو أعجب وأعجب [2] .

---

(ا) ب : القديم ، ج : القديمة .

(ب) القراءة في النص : مشارفه ومجالسه وغرفه .

(١) البكري ، المخطوط ، ص ٥٥ . قارن المقريزي ( الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٧ وتابع) الذي يتكلم بالتفصيل عن الجوامع الثلاثة المنسوبة للحاكم وهي جامع باب الفتوح والمسجد المعروف بجامع راشدة ثم جامع المقس ، ولكنه لا يذكر شيئا عن هذه القصة .

(٢) البكري ، المخطوط ، ص ٥٦ . وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٦٧ ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٦ والترجمة ص ١٨٤ ؛ الاصطخري ، ص ٥٤ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ اليعقوبي ، ص ٣٣١ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٩ . وأنظر ابن دقماق ، ص ١٣٠ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٣٤

مدينة دَلاَص : هى مدينة قديمة أزليــة عجيبة البناء فيها غرائب ؛ وهى كانت مجتمع سحرة مصر[1] .

مدينة إخْميم : وهى مدينة كبيرة أزلية قديمة فى الضفة الشرقية من النيل ، وفيها أسواق وحَمَّامَات ومساجد كثيرة . وداخل سورها (ا) البِرْبىّ المتقدم الذكر ، لم يتغير منه شئ . وفيها من عجيب المبانى والآثار ما يعجز الوصف عنه[2] .

مدينة أسيوط : وهى مدينة قديمة أزلية مسورة على الجانب الغربى من النيل ، جميلة القصبة كثيرة الفوائد وهى أكثر بلاد الله قصب السكر وأطيب ؛ وفى وسط سوقها بربى تهدم بعضه[3] .

مدينة عين الشمس : هذه مدينة قديمة أزلية وهى كانت مدينة فرعون ، وفيها آثار كثيرة ومبانى عجيبة من أساطين الرخام وتماثيل ونقوش ؛ وفيها بركة عظيمة وقد نقرت فى حجر صلد وحوالها كراسى من رخام ، فكان يجلس فرعون عليها وتملأ بالخمر وحوالها أنهار العسل وأنواع المشروبات ؛ وبالقرب منها صورة من رخام يخيل للناظر أنها تتكلم (ب) ، ذكر أنها كانت ماشطة فرعون . وبالقرب منها صنمان من حجارة كل صنم منها طوله ٦ أذرع ، أحدهما يبكى والآخر يضحك . وهذه المدينة كانت فى طاعة والد زليخة زوجة العزيز ، وكانت تعرف ببنت صاحبها[4] .

---

(ا) ب : صورها . (ب) « تتكلم » ناقصة فى ب .

(1) أنظر البكرى ، المخطوط ، ص ٥٧ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣١ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٨١ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ؛ ويقول الادريسى (ص ٥١ والترجمة ، ص ٥٩) إنها مدينة صغيرة تسلط عليها البرابر من لواته وشرار العرب فأفنوا عمارتها .

(2) عن بربى إخميم أنظر ابن جبير ، ص ٦٠ وتابع ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٤ ؛ الادريسى ، ص ٤٦ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٦٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٢ والهامش ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٣٣ - ب ؛ ابن دقاق ، ص ٢٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٣٩

(3) أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٧٢ ، ج ٣ ص ٢٢٢ ؛ الادريسى ، ص ٤٨ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٤ ؛ ابن دقاق ، ص ٢٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٨٩

(4) قارن عبد اللطيف ، ص ١٠٦ وتابع والترجمة ص ١٨٠ وتابع ؛ الاصطخرى ، ص٥٤ ؛ ابن رسته ، ص٨٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٧ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧١ ؛ ياقوت ،

مدينة أنصنا : وهي كانت مدينة السحرة فى زمن فرعون وأكثرها خراب . وكان بها أيضا بربى لم يبق منه اليوم إلا بيت واحد كأنه من صخرة واحدة . ويقال إن مارية القبطية التى أهداها المقوقس إلى النبى صلعم كانت من كورة أنصنا ، من قرية يقال لها جفن . ومدينة أنصنا لا يقربها التمساح والناس منه آمنون هناك . وأكثر ما يكون التمساح عدوانا بالشاطئ الذى يقابل أنصنا فى قرية يقال لها الأشمون ، لا يقدر أحد أن يقرب من شاطئها ، فإذا صارت التماسيح فى حد أنصنا تحولت على ظهورها حتى تجاوز حدها [1] ، وكذلك تصنع بفسطاط مصر فوق المدينة بنحو ١٠ أميال حتى تخرج عن حد المدينة بمثل ذلك .

مدينة قوص [2] : هى مدينة كبيرة أزلية قديمة فيها آثار كثيرة للأوائل ، وبينها وبين مدينة أسوان غيران منحوتة فى جبال هنالك فيها قبور الأموات لا يعلم لها عهد ، تستخرج منها المومياء الطيبة [3] ، وهم يجدونها فى رممهم وبين أجفانهم . ويقال إن فى تلك الصحراء التى بين قوص(أ) وأسوان معادن الذهب ، غير أن البجاة وهم جنس من الحبشة تمنع منه ؛ وبلادهم بين بحر القلزم ونيل مصر ، ويسكن عندهم جماعة من العرب من ربيعة بسبب هذا

---

(أ) ب : قوم .

= معجم البلدان ، ج ٣ ص ٧٦٢ ؛ ابن دقاق ، ص٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٢٨ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٨١

(١) قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٤ ؛ الإدريسى ، ص ٤٥ ؛ أبوالفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩ ، ٢٠٤ (نقل لرواية البكرى الناقصة فى مخطوط باريز) ؛ ابن عبد الحكم : ص ٤٤ . حسب ابن رسته (ص ٨١) والمقدسى (ص ٢١١) يكون التمساح أخطر ما يكون قرب قرية سردوس ، حتى ليتمثل بذلك فيقال : « أحذر سردوس ولو كان الماء فى قادوس » . أما عن النيل والتمساح الذى شغل اهتمام كل الرحالة والجغرافيين العرب فيقول عنه الشاعر ( المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٦ ص ٢٧٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٧٦) :

أظهرت للنيل هجراً ومقلية ... اذ قيل لى انما التمساح فى النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كثب ... فما أرى النيل الا فى البواقيل

وكذلك عندما يمدح الشقندى اشبيلية يقول إن شرفها غابة لا سباع فيها وإن نهرها نيل خال من التماسيح ( أنظر E. G. Gomez. Elogio del Islam espagnol. Madrid-Grenade. 1934).

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٠١ ؛ الادريسى ، ص ٤٩ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥١

(٣) عن المومياء أنظر عبد اللطيف ، ص ١٥٠ والترجمة ص ٢٠٠

المعدن [١] . ويتصل ببلادهم معدن الزمرد الفائق الذى ليس له مثيل بمعمور الأرض ، وهو بموضع يعرف بالخربة فى مفازة وجبال محمية بالبجاة ، وإليهم يؤدى الخفارة من يرد لحفر الزمرد . وبين هذا الموضع والنيل أكثر من ٢٠ مرحلة ، وبين هذا المعدن والعمران مسيرة سبعة أيام . ولا يعرف معدن للزمرد غيره إلا ببلاد البلهرى من بلاد الهند ولا يلحق بهذا (ا) . والهندى هو الذى يعرف بالمكى لأنه يحمل إلى عدن فيؤتى به مكة فاشتهر (ا) بهذا الاسم . والزمرد الذى يقطع من الخربة هو أربعة أنواع : فأعلاها الذى يعرف بالمرو، وهو كثير المائية تشبه خضرته السلق إلا أنه يضرب إلى السواد . والنوع الثانى هو البحرى فى لون ورق الآس ، وإنما غلب عليه اسم البحرى لأن ملوك الهند والسند والصين يرغبون فيه ، ويفضلونه على غيره من الزمرد . والنوع الثالث يعرف بالمغربى لأن ملوك المغرب والأفرنج والأندلس والجلالقة يتنافسون فيه . والصنف الرابع وهو المسمى بالأصم ، وهو أدناها وأقلها ثمنا لقلة مائه وخضرته وكثرة ركوده . وأكثر حجارة الزمرد الفائق يبلغ وزن العدسة ١٠ دنانير ، وهذا المعدن قد انهارت غيرانه وتهدمت لبعد العمارة عنه وانقطاع الناس . ولا خلاف عند جميع من يقرب من موضع ذلك المعدن أن الحيات والأفاعى وسائر الحيوان المسموم لا يقرب هذا المعدن ولا حومته ، وقيل إن هذه الحيوانات إذا بصرت بالزمرد الفائق سالت عيونها ، وإن الملسوع إذا سقى منه وزن دانق برئ باذن الله تعالى . وكانت ملوك اليونانيين من أرباب الحكمة تفضله على جميع الأحجار ،وأهل الحكمة يقولون إن شعاعه نورى وخضرته تقوى بزيادة القمر وامتلائه ، والله تعالى فى علمه أسرار مخفية [٢].

---

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ج .

(١) قارن الاصطخرى ، ص ٥٤ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٧ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٤ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٤

(٢) هذه الرواية مأخوذة عن المسعودى ( مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣ وتابع ؛ أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٧ ) . وقارن المسعودى ، التنبيه ، ص ٢٢ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٩ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣ ؛ ابن الفقيه ، ص ٥٩

مدينة قفط : هي مدينة متوسطة المقدار أزلية لها سور ، وبينها وبين مدينة قوص أربعة أميال وفيها برابي وبقربها شعراء كثيفة[1] .

مدينة أسوان : هي آخر مدن(ا) مصر لأنها ثغر متصل ببلاد النوبة وهم كفرة ، ولولا ما بين بلاد مصر وبلادهم من الجبال والأوعار التي تحول بينهم لأفسد النوبة بلاد مصر . والنيل إنما يهبط من بلاد النوبة على صخور وأوعار ولا يدخل ذلك الموضع مركب[2] . ومن أسوان الطريق إلى عيذاب ؛ وعيذاب مدينة على ضفة البحر الغربي المعروف ببحر القلزم . ومن عيذاب يعبر إلى ساحل الحجاز إلى جدة ، ومن عيذاب يسلك إلى بلاد اليمن والهند وغير ذلك من البلاد[3] .

ومن مدن مصر تنيس ودمياط : وهما مدينتان قد غلب على أكثر أرضهما ماء البحر . فمدينة تنيس مدينة كبيرة أزلية فيها آثار كثيرة للأول ، وأهلها ذو يسار وثروة وأكثرهم حاكه ، وبها تحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا . ويصنع فيها لصاحب مصر قميص لا يدخل فيه من الغزل سداة (ب) ولحمة غير أوقيتين وينسج من الذهب ٤٠٠ دينار ، قد أحكمه صانعه حتى لم يحوج إلى تفصيل ولا خياطة غير الجيب والبنائق (جـ) ، والذى تبلغ القيمة فيه ١٠٠٠ دينار . وقد أحكمه صانعه حتى لم يحتاج إلى تفصيل ولا خياطة غير ما قلنا ، وكذلك إلى الآن يصنع لكل ملك من ملوك مصر هذا الثوب في كل عام . ويسمى هذا القميص البدنة ، وليس في جميع الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب

---

(ا) النص : مدينة .    (ب) ج : مداورة
(جـ) « البنائق » ناقصة في ب ، أما في ج فهي البائق .

(١) أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٥٢ ؛ اليعقوبي ، ص ٣٣٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٥٠ ؛ ابن جبير ، ص ٦٤ ؛ الادريسي ، ص ٤٨ ؛ أبو الفدا ، التوجمة ، ج ٢ ص ١٥١ ؛ ابن دقاق ، ص ٣٢

(٢) أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٩ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٠ ؛ اليعقوبي ، ص ٣٣٤ ؛ المقدسي ، ص ٢٠٠

(٣) قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥١ ؛ اليعقوبي ، ص ٣٣٥ ؛ ابن جبير ، ص ٦٦ وتابع ؛ ابن دقاق ، ص ٣٥

منه وهو سادج دون ذهب ١٠٠ دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط . ويسكن بجزيرة تنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله ؛ ونحن فى سنة ٨٦ [٥] (ا) . وأهل تنيس يصيدون السمان وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم ، فإنهم يمدون شباكا فى سككهم عند أبواب دورهم ، والسمان طير (ب) يجزع عند خروجه من البحر فيقع فى تلك الشباك . وكانت تنيس أخصب بلاد الله وأكثرها ثمارا وفاكهة ، وكانت مقسومة بين ملكين أخوين من ولد أبريت بن مصر ، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا . فأنفق المؤمن فيها من أمواله فى وجوه البر حتى باع من أخيه الكافر حصته فى تنيس ، فزاد فيها الكافر غروسا وأنهارا وبنى فيها مصانع ، فاحتاج أخوه إلى ما فى يده فمنعه وسطا عليه بماله وحشمه وحقره لفقره ، فقال له أخوه المؤمن : مالى أراك غير شاكر لله تعالى على ما رزقك ويوشك أن ينزع ذلك (ج) منك ويغير نعمته عنك . فأرسل الله تعالى على جناته ومصانعه الماء فأضحت خاوية على عروشها (١) ؛ فهما اللذان عنى الله تعالى فى سورة الكهف عز وجل : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا فكلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا » إلى آخر الآيات المحكمات (٢) . وتركب السفن من تنيس إلى الفرما وهى [على] ساحل البحر .

---

(ا) ب : ثمان وثمانون (ب) ب : يطير . (ج) ب : لذلك .

(١) قارن ابن وصيف - شاه ، الترجمة ، ص ٤١ - ٤٢ ؛ الادريسى ، ص ١٥٦ ؛ ابن رسته ، ص ٩٠ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠١ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ؛ عبد اللطيف ، الترجمة ، ص ١٤٥ والهامش ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٦٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٨٢ (تنيس) ، ج ٢ ص ٦٠٢ (دمياط) ؛ المقدسى ، ص ١٩٥ ؛ ابن دقاق ، ص ٧٨ وتابع ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٤٠ - ب (تنيس) ، ص ٤ - ب (دمياط) ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٦ وتابع ؛ Maspéro (J.) et Wiet (G.), Mémoires de l'institut du Caire, t 36 p. 60—1.

هنا لا يكتفى المؤلف بنقل رواية المسعودى كما هى ( أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٧ ) بل نجده يضيف إليها التاريخ الذى يكتب فيه حتى ليظن أن المعلومات التى يوردها إنما هى معلوماته الخاصة . وهو لذلك يجهل أن تنيس كانت هدفا لعدد من غارات أهل صقلية سنة ٥٧١ (١١٧٥) وسنة ٥٧٣ (١١٧٧) ، وكذلك غارات الصليبيين بعسقلان سنة ٥٧٥ (١١٨٠) حتى أن الملك الكامل أمر فى سنة ٦٢٤=١٢٢٧ بهدم المدينة التى كان قد تم الجلاء عنها سنة ٥٨٨=١١٩٢ وهى نفس السنة التى كان يصنف فيها كتابه . أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٦

(٢) القرآن ، سورة ١٨ ، آية ٣١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٦

مدينة الفرما : وهي مدينة كبيرة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة عجيبة تدل على أنها كانت دار مملكة . ويقال إن الذي بناها هو الفرما الملك ، ويذكر أهل مصر أن [ابن] المدبر لما ولى مصر وجه إلى الفرما لهدم أبواب من رخام بها فى شرقى الحصن احتاج إلى أن يعمل منها فرشا فى داره فمنع من ذلك أهل الفرما ، وخرجوا إلى رسله بالسلاح ، وقالوا هذه الأبواب التى ذكرها الله تعالى على لسان يعقوب : «يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وأدخلوا من أبواب متفرقة». ومن عجائب الدنيا نخل الفرما فإنها تثمر حين ينقطع البسر والرطب من جميع البلاد ، فيكون رطب نخل (ا) الفرما بكانون الأول حين تلد النخل فى كل مكان فلا ينقطع ٤ أشهر ، ولا يوجد هذا فى بلد من البلاد سوى الفرما ، وهو(ا) تمر كبير يوجد فى وزن التمرة ٢٠ درهما وطولها فتر [١] .

مدينة رشيد : وهي مدينة كبيرة على كثيب رمل عظيم ، إذا هبت الريح الغربية ، وهي تشتد عندهم ، ملأت عليهم سككهم وبيوتهم رملا فلا يقدرون على التصرف فى أسواقهم . وهم على ضفة النيل قرب البحر ، ومن أعجب منتزهات الدنيا ضفة النيل من مصر إلى مدينة رشيد هذه ، ولا غلة لثمار الأرض كغلة هذه الناحية . قال أبـو عبيـد البكـري أن رجلا أخبره ، من أهل تلك النواحى ، أنه رأى ضيعة ما (ب) لأحد المصريين تغل فى رمانها وموزها خاصة ١٥ ألف مثقال فى العام [٢] . قال ، وهناك كانت ضيعة الليث بن سعد (ح) رحمه الله ، قال قتيبة سمعت الليث بن سعد يقول : « يدخل (د) على فى كل سنة ٥٠ ألف دينار ما وجبت عليها الزكاة قط ، يعنى أنها من الفواكه التى لا (ر) تجب فيها الزكاة [٣].

---

(ا) الكلمات الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ج . (ب) ب : ما ضيعه .
(ح) ب : سعيد . (د) ب : دخلت . (ر) « لا » ناقصة فى ب .

(١) القرآن ، سورة ١٢ ، آية ٦٧ ؛ قارن ابن دقماق ، ص ٥٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢١٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٣ ؛ ابن خرداذبه ، ص ٨١ ؛ اليعقوبي ، ص ٣٣٠ ، ٣٣٧ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٩ . ( Blachère, Extraits, p. 28 et note ) لا بأس من أن نذكر هنا أن الفرما لقيت نفس مصير تنيس ، فى سنة ٥٤٥ (١١٥٠) دمرها الصليبيون وأحرقوها .

(٢) هنا يوجد خرم فى مخطوط البكرى . قارن ابن دقماق ، ص ١١٤

(٣) هو أبو الحارث المصري الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى (٩٤ — ١٧٥ = ٧١٣—٧٩٢) اشتهر بمعرفته بالحديث . ولا نعرف الظروف التى ضاعت فيها تعاليمه ومذاهبه =

ذكر الفيوم : وهو قطر كبير فيه قرى كثيرة ، يقال إن فيه من القرى عدة ما فى قطر مصر كله من القرى ، فإن يوسف عم حين صنعه أنزل فى كل قرية أهل بيت من قرى مصر ؛ وسير لكل قرية من الماء بقدر ما يروى أرضها من غير زيادة ولا نقصان . ويقال أيضا إن بالفيوم ٣٦٠ قرية على عدد أيام السنة لاتقصر عن الرى أبدا لحكمة شربها ، فإذا نقص النيل فى سنة من السنين وغلا السعر بمصر مارت كل قرية منها مصر يوما . وحجر اللاهون بالفيوم من عجائب الدنيا واللاهون قرية كبيرة من قرى الفيوم . وهذا الحجر شاذروان مبنى بأحكم صنعة ، مدرج على ٦٠ درجة فيها فوارات (ا) فى أعلاها وفى وسطها وفى أسفلها . فتسقى (ب) العليـا الأرض العليا ، والوسطى الأرض الوسطى ، والسفلى الأرض السفلى بوزن وقدر لا ينقص لأحد من دون حقه ولا يزاد له فوق حقه . وهو من أحكم البنيان وأتقنه ؛ قيل من ذلك الوقت عرفت الهندسة ؛ وذكر كثير من الناس أن يوسف عم عمله بالوحى . ولم تزل الملوك من الأمم تقصد هذا الموضع ويتأملون حسن صنعته ويتعجبون من غرائب حكمته ، ويقال إن الملك المعاصر ليوسف عم لما تأمله قال هذا من ملكوت السماء ، وهو من البناء الذى يبقى على غابر الأزمان ؛ ويقال إنه عمل من ٣ أشياء : من الفضة والنحاس والزجاج ؛ وفى الضفة الغربية منه مسجد يوسف عليه السلام . والفيوم يشرب من ١٢ ذراعا ، وليس بأرض مصر موضع يشرب من ١٢ ذراعا غير الفيوم لحكمة بنيان حجر اللاهون ، وإنما رى أرض مصر من ١٦ ذراعا ، فإذا زاد النيل على ١٢ قطع الماء عن الفيوم . فإذا كان يوم زيادته (ج) سد حجر اللاهون ، وحضر ذلك شهود أهل تلك الجهة والمهندسون وأمروهم بالطبول والبنود (د) فلم يكن لمن يدعى نقصان الماء عذر ، وخرجت الإرسال عند ذلك بالبشائر إلى مصر ، وهو عندهم يوم سرور ونزهة . وأهل الفيوم يزدرعون والماء باق على جميع أرض مصر ولم يتم جريه ، فإذا كان حصاد أهل مصر كان

---

(ا) ب : فوران . (ب) « فتسقى » ناقصة فى ب .

(ج) « زيادته » ناقصة فى ب .

(د) القراءة فى النص : حضر ذلك شهود تلك الجهة وأمروهم بالطبول والبنود والمهندسون فى أهل تلك الجهة .

— وذلك أن الشافعى أشاد بعلمه بل وفضله على مالك بن أنس . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٦٤ ؛ الكندى ، القضاة والولاة ، ص ٢٩ ؛ Brockelmann, G. A. L, II, 82 .

ذلك أول السقية الثانية لأهل الفيوم فإنهم يزدرعون فى العام مرتين ، ويزدرعون السقية الثانية القمح والشعير والأرز فضلاً عن القطانى . والفيوم أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها فاكهة ، لا يعدم بها التمر والرطب شتاء ولا صيفا ، ولذلك غلتها أكثر جبايات بلاد مصر .

قال عبد الملك بن حبيب إنما سميت الفيوم لأن أخراجها ألف دينار كل يوم . والفيوم (ا) فى وسط بلاد مصر فلا يؤتى إلى كورة (ا) الفيوم من ناحية من النواحى إلا من صحراء أو مفازة ، ذكر ابن عفر وغيره أن عمرو بن العاص لما فتح بلاد مصر أقام سنة لا يعلم أين موضع الفيوم ولا حيث مكانه حتى بعث عمرو قيس بن الحارث إلى ناحية الصعيد يبحث عن الفيوم ، فسار حتى أتى القيس وبه سميت . فأبطأ على عمرو خبره فقال من يأتنا بخبر قيس ، فقال ربيعة بن حبيب أنا آتيك به ، فركب فرسا له أنثى فجاز بها النيل من الجهة الشرقية وكان معه عمرو بن ربيعة بن حبيب بن الصدفى وأصحابهم ، فمشوا فلما سلكوا فى الحابة لم يروا شيئا وهموا بالانصراف ، ثم ساروا قليلا فطلع له سواد الفيوم فطلبوا قيسا فوجدوه فى القيسين فأتوا عمرو بخبر الفيوم [1] .

مدينة الإسكندرية : [2] ذكر أن اسمها برودة ولها ١٥ كورة، قالوا كانت الإسكندرية ٣ مدن كبار بعضها بجنب بعض : منها شنة وهى موضع المنار وما إلى ذلك ؛ والإسكندرية اسم قصبة السلطان وموضعه وهى باقية إلى اليوم ؛ والمدينة

---

(ا) الكلمات الواقعة بين (ا) و (ا) ناقصة فى ب .

(١) أنظر فيما سبق ، ص ٧٤ — ٧٥ . قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٩٢٣ وتابع ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٣ ، ١٤ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٨٤ (ينسب أصل أهل هذه الجهات إلى فتاة رومية وأمها) ، ج ١ ص ٢٠٩ ، ج ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٣ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ؛ الإدريسى ، ص ١٤٦ وتابع ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٨—١٥٩ وهامش ١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤٥ وتابع . وعن قيس أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢١٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٠٤ . ويحتج Quatremère على نسبة قيس إلى رجل عربى ، ويقول إن القرية كانت موجودة وتحمل نفس هذا الاسم قبل الفتح العربى Mém, géog. [illegible] l'Egypte, t. I p. 141 et suiv.

(٢) الفصول الخاصة بالإسكندرية نقلها البكرى عن المسعودى ؛ والجزء الأول منها ناقص فى مخطوط البكرى . أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢١ وتابع ، ٤٢٩ وتابع . ويجمع ياقوت فى معجمه (ج ١ ص ٢٥٦) أهم ما قيل عن الإسكندرية ولا تنقصه فى ذلك ==

الثالثة نقيطة . وكان على كل واحدة منها سور ، وقيل إنه كان على الإسكندرية ٣ مدن كبار و٧ أسوار بـ ٧ خنادق . وكان أصل بنائها أن الإسكندر استقام له ملكه(ا) فى بلاده ، وكانت بلاده رومة وما إلى ذلك من بلاد الروم ، وكان فيها يقال روميا ، فيقال إنه خرج يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء يبنى بها مدينة يسكنها ، فأتى موضع الإسكندرية فأصاب به أثر بنيان وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند (ب) ، وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد : « أنا شداد بن عاد ، سددت بساعدى الوادى وقطعت عظيم العماد من شوامخ الجبال والأوطاد ، وبنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . أردت أن أبنى هنا مدينة كارم وأنقل إليها كل ذى قدم من القبائل والأمم ، فأصابنى ما أعجلنى وعما ذهبت إليه قطعنى ، فارتحلت عن هذه الدار ، لا لقهر ملك جبار ولا بخوف جيش جرار ، ولكن لتمام المقدار ، وانقطاع الآثار ، وسلطان العزيز الجبار . فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى فلا يغتر بالدنيا بعدى » . قيل فلما رأى الإسكندر طيب أرض ذلك المكان وصحة هوائه وما به عزم على بنيان مدينة بذلك الموضع ، فبعث إلى البلاد فحشد الصناع واختط الأساس ، واستجلب العمد والرخام وأنواع المرمر الملون والأحجار فى البحر من جزيرة صقلية وبلاد إفريقية وأقريطش .

فلما اختط أساس المدينة كلها وحفره أراد أن يكون إنزال البناء فى وقت سعادة وبقاء على الدهور ، فوضع على حفير الأساس عمود رخام وعلى كل

---

(ا) « له ملكه » ناقصة فى ب . (ب) ب : المند .

= روح النقد . فهو يعرف أن الذى بناها هو الإسكندر بن فيليب ، ولكنه لا يستطيع إنكار المصادر الأخرى مثل ابن عبد الحكم وابن الفقيه والمسعودى وغيرهم ، فهو يورد رواياتهم . وهو لذلك يقدم عددا من الأساطير والخرافات الشعبية ، وينكر بعضها قائلا إن الجهال هم الذين يعتقدون فيها .

قارن عبد اللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٣ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٣٢ وتابع ؛ ابن خرداذبه ، ص ١٥٩ (حسب روايته طالت مدة بناء المدينة إلى ٣٠٠ سنة . ابن رسته ، ص ٨٠) ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٩ — ٧٠ ؛ المقدسى ، ص ١٩٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٩ ؛ الادريسى ، ص ١٣٨ وتابع ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٥ ؛ ابن دقاق ، ص ١١٦ وتابع ؛ ابن جبير ، ص ٤٠ وتابع ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٤٩ — ا وتابع ؛ كتاب الجغرافيا ، المخطوط ، ص ٣٨ — ا وتابع ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٧ وتابع .

قطعة من الأرض خشبة قائمة ، ووصل بها حبالا منوطة بعضها ببعض يرجع جميعها إلى عمود الرخام ، وعلى العمود جرسا عظيما وعلى كل قطعة من تلك الحبال جرسا صغيرا ، فإذا حركوا حبل الجرس الكبير على العمود وخفق تحركت سائر الحبال وخفقت الأجراس . وأقام الإسكندر يرقب الوقت المحمود ، وأمر الصناع إذا سمعوا تحريك الأجراس أن يضعوا الأساس دفعة واحدة وقد كانوا استعدوا لذلك . فبينما الإسكندر يرقب الوقت أصابته سنة ، فوقع غراب على حبل الجرس الكبير فحركه فتحركت جميع الأجراس ، فوضع البناؤون فى تلك الساعة الأساس [1] . وارتفع الضجيج بالتحميد والتسبيح فاستيقظ الإسكندر لضجيجهم ، فسأل عن الخبر فأعلن ، فعجب من ذلك ، وقال : « أردت أمرا فأراد الله غيره ويأبى الله إلا ما يريد ، أردت طول بقائها وأراد الله سرعة بنائها » [2]. ثم تمادى على عملها وبنى المدينة على آزاج وطبقات قد عمل لها مخاريق ومتنفسات للضوء ، يسير الفارس وبيده رمح طويل فلا يضيق به طريق من تلك الآزاج حتى يدور جميع الإسكندرية . وكذلك كانت أسواقها مقنطرة فلا يصيب أهلها المطر . وبنى أسوارها من أنواع الرخام الأبيض والملون ، وكذلك جميع قصورها ودورها ، فكانت تضئ بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام ، وربما علت على أسوارها شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياضها أبصار الناس [3]. وبنى عليها ٧ أسوار وأمام كل سور خندق ، وبين كل خندق وسور فصيل .

ويقال إنها كانت أعظم مدينة بنيت فى معمور الأرض وأغربها بنيانا ، فقيل إنه كان سكان البحر يؤذون الناس ويختطفونهم بالليل ، فاتخذ الإسكندر الطلسمات مصورة على أعمدة رخام على هيئة شجرة السرو ، طول العمود منها ٨٠ ذراعا ، وهى باقية إلى هذه الغاية . يقال إنها على أعمدة نحاس قد خرقت الأرض فصورت

---

(١) هنا تجدر الإشارة إلى أن ابن تغرى بردى ( النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٤١٥ ) ينسب هذه الأسطورة إلى بناء القاهرة .

(٢) القراءة فى المسعودى ( مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢٤ ) : « .. أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها .. » .

(٣) حسب رواية أخرى ظل أهل المدينة يضعون الخرق السود على عيونهم طوال ٧٠ عاما خوفا على أبصارهم من شدة بياض الرخام . ابن عبد الحكم ، ص ٣٦ ؛ ابن خرداذبه ، ص ١٥٩ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠

فيها أشكال وصور تمنع وتدفع(ا) . وبنى المنار على طرف اللسان الداخل في البحر من البر ، وجعله على كرسي من زجاج على هيئة السرطان في جوف البحر [١] ، وجعل طوله في الهواء ألف ذراع [٢] ، وجعل في أعلاه المرآة . وكانت المرآة قد ركبت من أخلاط غريبة فيبصر فيها ما يأتي من مراكب العدو على مسيرة أيام فيتأهب لهم ، فإن قربت المراكب من البلد عملت أخلاط بأدهان يعرفونها وطليت بها المرآة وعكس شعاعها على تلك المراكب فأحرقتها . وجعل في المنار تماثيل من نحاس وطلاسم كثيرة تمنع وتدفع ولها خواص ، فمنها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس حيث كانت من مشرق أو مغرب أو أفق فيدور معها ، وتمثال يشير بيده نحو العدو إذا كان منه على مقدار ليلة ، فإن دنا وأمكن أن يرى بالبصر يسمع لذلك التمثال صوت هائل على ميلين أو ثلاثة . وتمثال آخر كلما مضى من الليل أو من النهار ساعة سمع له صوت طرب بخلاف الصوت الذي كان منه قبل ذلك . وقد اختلف الناس والرواة في أمر بناء هذا المنار فمنهم من رأى أنه من بناء الإسكندر ؛ ومنهم من رأى أن دلوكه (ب) الملكة بنتها ؛ ومنهم من رأى أن جيرون الملك المتقدم الذكر بناها . وقيل إن الذي بنى الأهرام بناها ، وقيل إن الذي بنى رومة المدينة العظمى بنى الإسكندرية وبنى منارتها . وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لسكناه بها وغلبته ممالك الأرض منها . وقيل إن الإسكندر كان لا يخاف أن يطرقه عدو في البحر ولا يهاب ملكا يرد عليه فيجعل لذلك مرقبا وحراسا . قال عبد الله بن عمرو

---

(ا) ب : تدوم . (ب) « دلوكه » ناقصة في ب .

(١) يقول المسعودي ( مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٩ ؛ التنبيه ، ص ٤٧) إن بطلميوس بنى المنار بعد موت الإسكندر بن فيلبس . ويروى ابن رسته (ص ٨٠ ، ١١٨) وابن الفقيه (ص ٧٠) وابن خرداذبه (ص ١٠٩) والمسعودي (في مناسبة أخرى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣١) أن المنار من عمل الإسكندر ، وأنه حسب قول البعض من عمل دلوكه بانية الأهرام .

(٢) لا يتفق الكتاب فيما يختص بمقاييس المنار . ورغم الإعجاب البالغ الذي يثيره فإن ياقوت يؤكد خيبة أمله حينما رآه بعد ما سمعه عنه ( معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣) .

وعن ارتفاع المنار أنظر عبد اللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٣ ( ٢٥٠ ذراعا) ؛ ابن جبير ، ص ٤١ ( أكثر من ١٥٠ قامة ) ؛ اليعقوبي ، ص ٣٣٨ ( ١٧٥ ذراعا ) ؛ ابن رسته ، ص ١١٨ ( ٣٠٠ ذراع بذراع الملك أي ٤٥٠ ذراع بمقياس اليد) ؛ الإدريسي ، ص١٣٩ ( ١٠٠ قامة) . قارن Asin Palacios, Una descripcion nueva del Faro de Alejandria, Al-Andalus, 1933, fasc. 2, p. 245, 599.

ابن العاص إن أول من ملك الإسكندرية فرعون واتخذ فيها مصانع ومجالس ، وهو أول من عمرها ثم تداولها الملوك بعده ، وإن سليمان بن داود عم اتخذها مسكنا وبنى فيها قصورا ومصانع عجيبة من بناء الجن ، وبنى فى المنار مسجدا متقنا وهو باق إلى الآن . والأصح أن الإسكندر بناها من أولها واختط أساسها وبنى المنار فيها وعمل المرآة فى أعلاها ، فيقال إنه ما ظهر العدو فى البحر ولا ضرب بأسيافه الإسكندرية إلا بعد زوال تلك المرآة ، وكان زوالها فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان . وذلك أن ملك الروم أعمل الحيلة فى زوال المرآة من المنار ، فبعث خادما من خواص خدمه ذا دهاء ورأى ومعرفة بما يتناول من أشغاله ، فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور . فحمل إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان فأعلمه أنه كان من خواص ملك الروم وأنه أراد قتله لموجدة لم يكن لها حقيقة ، وأنه هرب منها ورغب فى الإسلام فأسلم بين يدى الوليد ، وأظهر له النصح فى أشياء خدمه فيها . ثم إنه استخرج له دفائن فى بلاد دمشق وغيرها من بلاد الشام بكتب كانت عنده ، فلما رأى ذلك الوليد شرهت(أ) نفسه وتمكن طمعه وباحثه عما عنده من هذا الفن ؛ فقال له إن الإسكندر استولى على ممالك العالم ، واحتوى على الأموال والذخائر التى كانت لشداد بن عاد وغيره من ملوك العرب والعجم والفرس وغيرهم من الأمم ؛ فبنى لها الآزاج والأسراب والأخباء ، وأودعها تلك الذخائر والأموال والجواهر ثم بنى فوقها تلك المنارة التى بالإسكندرية . فلو هدم ذلك المنار استخرج من تحته(ب) من الأموال والذخائر والكنوز وما لا عين رأت ؛ فصدق ذلك الوليد وطمع فيه ، وبعث معه (ب) من خواصه وثقاته من يقف على هدم المنار ، وأمر صاحب الإسكندرية أن يعينه على جميع ما يريد ، فهدم ذلك الرومى قدر نصف المنار (١) وأزال المرآة التى كانت غرضه وأراد هدم الكل ، فضج أهل

---

(أ) ب : شرحت .
(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ج

(١) حسب المسعودى ( التنبيه ، ص ٤٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٧ ) انهدم جزء من المنار يقدر بحوالى ٣٠ ذراعا فى شهر رمضان سنة ٣٤٤ = أكتوبر ٩٥٥ بفعل الزلزال .

الإسكندرية ، وعلموا أنها مكيدة وحيلة . فلما استفاض ذلك خشى الرومى على نفسه ، وهرب فى الليل (ا) فى مركب كان قد أعده لذلك الوقت ؛ وبقيت المنارة على ذلك المقدار إلى هذا الوقت .

صفة المنارة اليوم : هى اليوم ٣ أحزم ؛ أما الحزام الأول فهو مربع البناء ، قد عمل أحسن عمل بحجارة مربعة قد خفى التصاقها حتى صارت كالحجر الواحد لم يغيره الزمان ، ارتفاعه ٣٢٠ ذراعا . ثم ترك فى أعلاه قدر غلظ الحائط وهو ٨ أصابع ونحو ١٠ أذرع سوى ذلك الغلظ [١] ؛ ورفع على ما بقى من البناء بناء مثمن الشكل طوله ٨٠ ذراعا [٢] . ثم ترك قدر غلظ حائطه وهو أقل من غلظ الأسفل وهو نحو ٨ أذرع سوى ذلك [ الغلظ ] ؛ ثم أقيم عليه بناء مربع الشكل ارتفاعه ٥٠ ذراعا [٣] ونحوها . وفى أعلا ذلك مسجد محكم البناء ويقال إنه مسجد سليمان [٤]. وفى الناحية الشمالية من البناء كتابة من النحاس لم يقدر أحد على فكها ولا معرفة ما هى . وباب المنارة حديد لايعلم له عهد ، ويرقى إلى الباب من أسفل المنارة فى علوة لا تتبين ، وكذلك إلى أعلا (ب) الحزام الأول فى طريق يمشى فيه فارسان متناكبان فى أرض سهلة لا يكاد الراقى يعلم فيه

---

(ا) ب : النيل . (ب) « إلى » ناقصة فى ب ، ج .

[١] قارن المسعودى ، التنبيه ، ص ٤٧ ( الطبقة الأولى ارتفاعها ١١٠ ذراعا ) ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٤ ( الطبقة الأولى مربعة وارتفاعها ١٢١ ذراعا ) . حسب العبدرى (المخطوط ، ص ٥٠ - ١) غلظ الحائط ١٠ أشبار .

[٢] قارن المسعودى ، التنبيه ، ص ٤٥ (ارتفاع الطبقة الثانية ٦٠ ذراعا) ؛ عبداللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٧ (الطبقة الثانية مثمنة وارتفاعها ٨١ ذراعا ونصف ذراع) .

[٣] على عكس ما يقوله صاحب الاستبصار يذكر عبد اللطيف ( ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٤) أن الطبقة الثالثة دائرية (وارتفاعها ٣١ ذراعا) . قارن المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٧ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٤

[٤] يروى ابن عبد الحكم (ص ٣٥) أن سليمان بنى هذا المسجد عند ما اتخذ الإسكندرية عاصمة لملكه ؛ وبعده هدم الإسكندر المدينة عدا المنار الذى ظل سليما ثم أعاد بناءها . وفى رواية أخرى (ص ٣٦) يقول إن المنار ، حسب ما يقال ، كان من عمل كليوباترة . قارن ابن جبير ، ص ٤١ ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٦ والترجمة ص ١٨٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٤ ( الذى ينسب بناء المسجد إلى ابن طولون ) .

هل هو راق أو ماش؛ في كل عطف من هذا المصعد باب دار داخلها بيوت مربعة ، سعة كل بيت منها ٢٠ ذراعا إلى ١٠ أذرع ، قد فتح له مضاو ومنافس للهواء لئلا تهدمها الرياح . وعدد ما في المنار من البيوت ٣٦٤ بيتا (١)، وعطف مطالعها من أسفلها إلى أعلاها ٧٢ عطفا وفي كل عطف ١٢ درجة . وبيوتها كلها آزاج معقودة ، وبناء المنار كله معقود بخشب الساج ، وعدة أبوابها الظاهرة خارجا ٢٢ بابا ، فتحت لتخرقه الرياح ولولا ذلك لهدمته . وهذا المنار من دخله ولم يعرف مسالكه تاه فيه وضل لأن فيه طرقا تولى إلى أسفله وإلى سرطان الزجاج المتقدم الذكر وإلى البحر . ويقال(ا) إن جيش صاحب المغرب حين وصل الإسكندرية وذلك في خلافة المقتدر (٢) ، دخل جماعة منهم المنار على خيولهم ليروا ما فيه من الغرائب ، فتاهوا وتهوروا هم ودوابهم وفقد منهم عدد كثير . وقد كان البحر أثر في أسفل المنارة من غربيها كالكهف العظيم فسد بعض أمراء مصر — أظنه من العبيديين (٣) — ذلك الثلم بأساطين الرخام بعضها فوق بعض . فالبحر يضرب اليوم في تلك الأساطين فلا يؤثر فيها شيئا . وفي جهة الشمال من المنار بناء عظيم عريض ارتفع من قعر البحر حتى ظهر على وجه الماء ، يدل على أنه كانت عليه مصانع قد ذهبت ، ويسمى ذلك البنيان الفاروس ؛ تحته ترسو السفن لأنه يكف عنها الرياح والموج . وقد زعم قوم أن ذلك الظاهر ليس بيتا وإنما هو ما هدم من حجارة المنار الذي ذكرنا.

قال بعض العارفين إذا أردت أن تبصر ارتفاع المنار وعلوه من الجو فاخرج من الإسكندرية من باب أشتوم (ب) ، وتسير على ضفة البحر نحو نصف ميل ثم تسير نحو الشمال مقدار ذلك ثم تسير على بناء في البحر كالقناطر(ج) ولها منافس والبحر يضرب من ناحيتها نحو ٤٠٠ خطوه ، فإذا خرجت من ذلك البناء سرت

---

(ا) و« يقال » ناقصة في ب (ب) ب : استومر .

(ج) القراءة في النص : كالقناطير .

(١) رغم الروايات المختلفة مثل التي يوردها الاصطخري (ص ٥١) والمقدسي (ص ٢١١) يقرر ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣) أنها مبنية على خرافات ومبالغات لا أساس لها .

(٢) أنظر فيما سبق هامش ٣ ص ١٤

(٣) ينسب المسعودي (التنبيه ، ص ٤٨) هذه الترميمات إلى أحمد بن طولون . قارن المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٧

فى فضاء داخل فى البحر كأنه جزيرة والمنارة فى أعلا هضبة منها . وقد أحاط البحر بالمنارة من ٣ جهات : من ناحية الشمال والغرب والجنوب ؛ فتنظر حينئذ إلى المنارة فتراها كأنها سحابة قد ارتفعت فى الجو، فتظن أنها ترتعد من انعكاس شعاع الشمس وضرباته فى المنارة (١) .

ولهذه المنارة بالإسكندرية مجتمع فى العام يسمونه بخميس العدس (١) ، وهو أول خميس فى شهر مايه لا يختلف فى مدينة الإسكندرية عن الخروج إلى المنار فى ذلك اليوم أحد . وقد أعدوا لذلك اليوم الأطعمة والأشربة ، ولابد فى ذلك الطعام من العدس . فيفتح بابها للناس ويدخلون فيها ، فمن ذاكر لله تعالى ومن مصل ومن لاه ومتفرج ، فيقيمون إلى نصف النهار ثم ينصرفون (٢). ومن ذلك اليوم بعينه يحترس البحر . وفى المنارة قوم مرتبون يوقدون النار الليل كله فى الحزام الأول ، فيؤم أهل السفن سمت تلك النار(ب) من جميع البلاد ؛ ويوقد صاحب السفينة النار فى سفينته فإذا رأى المحترسون النار فى البحر ، زادوا فى وقود النار وأوقدوها من جهة المدينة ؛ فإذا رأى ذلك محترسو المدينة ضربوا البوقات والأجراس حذرا من العدو .

وكان حول المنار مغائص يستخرج منها أنواع من الأحجار يتخذ منها فصوص الخواتم ، مثل الاسباد شيخ ومثل الكركهن والباقلمون وغير ذلك من الأحجار الغريبة التى لا توجد فى هذا الزمان ولها خواص . وهذا الباقلمون حجر يتلون ألوانا مختلفة عند النظر إليه كلون ريش الطواويس الهندية ؛ فإن ألوان ريشها أحسن ألوانا من هذه الطواويس التى بهذه البلاد . ولطواويس الهند جمال عظيم وخلق عجيب ، تمازج ألوان ريشها وتترادف فيها فيرى لها منظر عجيب ؛ وأصلها من الهند وما خرج منها من ديار الهند صغر جسمه وكدر لونه كما (جـ) يفعل مانقل من النارنج والأترج من بلاد الهند ، فإنها تصغر وتعدم تلك الروائح العطرية لعدم ذلك الهواء والتربة . قيل وكان حول المنار من تلك الجواهر كثير ،فيقال إن الإسكندر أغرق ذلك حول المنار فيوجد هناك إذا طلب ، ويكون ذلك الموضع أبقى لها ويرى الناس على مر الدهور عظيم ملكه

---

(أ) النص : العرس . (ب) ب : الناس .
(جـ) « كما » ناقصة فى ب .

(١) قارن ابن رسته ، ص ١١٨ ؛ المقدسى ، ص ٢١١
(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٠ ؛ انظر المقريزى ، الخطط ، ص ٢٦٦ ، ٤٩٥

وما قدر عليه لوجود ما عز عند غيره (ا) مطلبه . وقيل أيضا إنها كانت آلات شراب الإسكندر ، فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع غيرة أن ينتفع بها أحد[1] . والقصر الأعظم الذى كان بالإسكندرية ، لم يكن له على معمور الأرض نظير ، هو اليوم خراب . وهو على ربوة عظيمة بإزاء باب المدينة طوله ٥٠٠ ذراع وعرضه على النصف من ذلك ولم يبق منه إلا بعض سواريه ، وبابه من أحكم بناء وأتقنه على عضادة من حجر واحد ، وعتبته حجر واحد ، فيه نحو ١٠٠ إسطوانة قائمة غلظ كل واحدة نحو عشرة إشبار (ب) . وفى نحو الشمال منه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها ، غلظها (ب) ٣٦ شبرا وهى من العلو بحيث لا يدرك أعلاها قاذف بحجر ، وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أن بناء كان عليها ، وتحتها قاعدة من حجر أحمر مربع الشكل محكم عرض كل ضلع من أضلاعه ٢٠ شبرا فى ارتفاع ٨ أشبار . والأسطوانة منزلة فى عامود من حديد قد خرقت به الأرض ، فإذا اشتدت الرياح رأيتها تتحرك وربما جعلت تحتها الحجارة فتطحنها لشدة حركتها[2] . وهذه الأسطوانة (ج) من إحدى أعاجيب الدنيا ، ويقال إن الجن صنعتها لسليمان بن داود عم . وكانت وسط قبة وحولها أساطين ، وأعلا الكل قبة تشبه الصحفة من حجر واحد رخام أبيض بأحسن صنعة (د) وأغرب إتقان . فلما مات سليمان بن داود عم (ر) ، رفعت الجن تلك القبة ورمت بها فى البحر ، فإنها كانت من غرائب ما عملت الجن لسيدنا سليمان بن داود عم (ر) . قال حمزة بن محمد المصرى إن بعض ملوك مصر دخل الإسكندرية ورأى قصرها فنظر إلى قصر عجيب الشأن غريب البنيان من بناء الأولين ، فدعا الصناع وسألهم أن يبنوا له مثله فقالوا له لا نقدر على ذلك ، فعزم عليهم فقام إليه شيخ وقال : أنا أبنى لك مثله وأحسن منه إن فعلت لى ما أريد ، قال بلى ، قال : إيتونى بثورين مطيقين وعجلة فأمر له بذلك فدخل

---

(ا) « غيره » ناقصة فى ب .

(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ب .

(ج) ب : السطوانه . (د) ج : صفة .

(ر) الجمل الواقعة بين (ر) ، (ر) ناقصة فى ب .

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٧ وتابع .

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٦١ ( والمقتطف الذى نقله De Sacy : عبد اللطيف هامش ٥٣ ص ٢٣٢ وتابع ٢ )

مقابر الأولين واحتفر قبرا منها واستخرج جمجمة عظيمة ، فوضعها فى العجلة فما جرها الثوران إلا بعد مشقة وجهد ، فجاءه فقال أصلح الله الأمير إن أعطيتنى من تكون رؤوسهم مثل هذا الرأس بنيت لك مثل هذا القصر ، فعلم أنه لا يقدر على ذلك [١]. وقال حمزة بن محمد أيضا : رأيت بالاسكندرية قصابا عنده ضرس يزن به اللحم زنته ٨ أرطال [٢] . وكان بالإسكندرية دار ملعب قد تهدم أكثرها ، وكانت قد بنيت بضروب من الحكمة ، وكانوا يجلسون فيها لقضاء حوائجهم ، فكان كل جالس فيها إنما جلوسه تلقاء وجه صاحبه ولا يخفى على أحد منهم شئ من حال غيره ، يتساوى قريبهم وبعيدهم فى ذلك . وكان لهم يوم مهرجان يجتمعون فيه فى هذا الملعب ، ويحضره رؤساؤهم وأبناء ملوكهم وعامتهم ، ويلعب فيه الصبيان (ا) والفتيان بالصوالج وبينهم كرة (ب) . فإن دخلت تلك الكرة كم رجل ممن حضر فى ذلك اليوم فلابد له من ولاية مصر ، كان هذا عيدهم معروف لا ينكره أحد . وكان عمرو بن العاص رحمه الله قد سافر إلى الإسكندرية فى الجاهلية تاجرا بالقطن والأدم ، فحضر ذلك الملعب فى ذلك اليوم ، فلعبوا فيه بالكرة فدخلت كم عمرو بن العاص حتى أتى (ج) الله بالإسلام فكان ما قدر الله تعالى من دخول عمرو مصر وولايتها ٣ مرات [٣] .

والإسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها وإتقانها وسعة شوارعها وطرقاتها . وهى برية بحرية ، وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ماليس ببلد مع طيب هوائها وتربتها . وقد ذهب بعض المفسرين

---

(ا) « الصبيان » ناقصة فى ب . (ب) ج : كورة .

(ج) « أتى » ناقصة فى ب .

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٠ . يحتج عبد اللطيف ( ص ١٣٠ والترجمة ص ١٩٠ ) ضد هذا الاعتقاد ويقول : « وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة ، أو أنه كان لهم عصا إذ ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم » .

(٢) أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٠ . وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٤

(٣) أنظر الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٧ ؛ ابن دقاق ، ص ١٢٥ — ١٢٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣١ ، ١٥٨ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٥

إلى أن إرم ذات العماد هي الاسكندرية[1] . وقال الناظرون في الأعمار في جميع الأقاليم والأمصار : لم تطل أعمار الناس في بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادى فرغانة ؛ ومريوط قرية من قرى الإسكندرية بالقرب منها ؛ وهي كبيرة ولها بساتين كثيرة (أ) ومنها تجلب الفواكه إلى الإسكندرية . ويروى أن عوف بن مالك حين دخل مدينة الإسكندرية قال لأهلها[2] : « ما أحسن مدينتكم » ، فقالوا له إن الإسكندر حين بناها قال : « أبني مدينة إلى الله فقيرة وعن (ب) الناس غنية » فبقيت بهجتها على مر الدهور . وكان الفرما أخو الإسكندر بنى مدينة الفرما وقال : « إنى أبنى مدينة عن الله غنية وإلى الناس فقيرة » ، فذهبت بهجتها ولا يزال ينهدم منها كل يوم شئ لا يجبر أبدا [3] ويقال إن عمر بن عبد العزيز لما دخل الإسكندرية ، وكان إذ ذاك والى مصر ، ورأى عظمتها وسعة آثارها وعلم أنها كانت مدينة كبيرة قال لعاملها وكان من أهلها : « أخبرنى كم كان عدد سكان الإسكندرية في أيام الروم » ؛ فقال له : « والله لا أدرك علم ذلك أحد إلا الله وحده ، ولكنى أخبرك كم كان عدد رؤسائهم ورؤسائها وملوكها فإن ملك الروم أمر بإحصائهم ، وكتب ذلك في تواريخهم وكتبهم ، فوجدهم ٦٠٠ ألف ملك[4] . والدليل على عظم شأنها وكثرة ملوكها أن المطر إذا نزل فيها نزولا شديدا وسال ترابها مع الماء ، خرج من فيها من الرجال والنساء والصبيان والضعفاء يلتمسون حوالها ، فيجدون قطع الذهب والفضة من الحلى وغيره والياقوت والزمرد وأنواع الجواهر ، وليس يرجع أحدا منهم بغير شيء .

---

(أ) « ولها بساتين كثيرة » ناقصة في ب . (ب) النص : وإلى .

(١) تقول الروايات إن إرم ذات العماد ، عاصمة قبيلة عاد المذكورة في القرآن ( سورة ٨٩ ، آية ٦) ، هي الإسكندرية لوجود الأعمدة بها وخاصة عمود السوارى المشهور . ومن هذه الأسطورة خرجت الخرافة التي تقول إن بانى الإسكندرية هو شداد بن عاد الذى ينسب إليه زيادة على ذلك بناء الاهرام . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٨٨٣ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٥

(٣) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٢ ؛ ابن خرداذبه (ص ١٥٩) يقول أنه كان بها من اليهود ٦٠٠ ألف سوى أهلها

(٤) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٥ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٩ ؛ المقدسى ، ص ١٩٤ ؛ ابن دقماق ، ص ١٢٦

ومدينة الاسكندرية أعظم مدن مصر ؛ وبلاد مصر كلها فيها من العجائب والغرائب ما يعجز عنه الواصفون . ذكر أن أحمد بن طولون كان صاحب مصر في سنة نيف ومائتين وكان مولعا بمعرفة هذه الآثار القديمة والعجائب[1]، فذكر له أن رجلا من الأقباط بأرض الصعيد ، وهي من أعالي بلاد مصر ، له (ا) نحو ١٣٠ سنة ، وهو ممن عني من لدن حداثته بالعلم والإشراف على الآراء وانتحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم ، وأنه علامة بالممالك والملوك ومعرفة بهيئة الأفلاك والنجوم ؛ وكان نصرانيا على مذهب اليعاقبة . فبعث ابن طولون إليه قائدا من قواده فحمله إليه في النيل مكرما ؛ وكان الشيخ قد انفرد عن الناس في بنيان قد اتخذه وسكن في أعلاه ، وكان قد رأى الرابع عشر من ولده . فلما وصل إلى أحمد بن طولون أكرمه وأبره وأسكنه بعض مقاصيره ومهد له موضع جلوسه وحمل إليه لذيذ المأكل والمشرب ، فأبى الشيخ أن يتغذى أو يلبس إلا ما حمل مع نفسه من كمك وسويق ونحوها ، وقال هذه بنية قوامها بما ترون من الغذاء والملبس فإن أنتم سمتموني النقل على العادة كان ذلك سبب انحلال البنية ويفوتكم مني ما تطلبونه ، فتركه ابن طولون وما يريده . ثم أحضره مجلسه مع أهل الدراية من أصحابه وخواص مجلسه وصرف إليه همته وغرضه ؛ فلما سأله عن بحيرة تنيس ودمياط المتقدم ذكرهما ، قال كان موضع البحيرة أرضا لم يكن بديار مصر مثلها لطيب التربة وذكاء الريع ؛ وكانت جنات متصلة ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبه الفيوم إلا هي وحدها ، وكانت أكثر فاكهة منه ؛ وكان الماء ينحدر إلى قرى موضع البحيرة صيفا وشتاء يسقون منه متى شاءوا ، وفضلة الماء تصب في البحيرة . وكان بين العريش وقبرص طريق مسلوكة في يبس ، وبينهما اليوم مسير طويل في البحر ، فلما كان قبل استفتاح المسلمين بلاد مصر بـ ١٠٠ سنة طما ماء البحر وزاد فأغرق القرى التي كانت في موضع البحيرة ؛ وما كان منها في البقاع المرتفعة فهي باقية إلى الآن قد أحاط بها الماء . وقال وعند هذه الزيادة التي زادها ماء البحر ، طغى الماء على القنطرة التي كانت بين بلاد الأندلس وبين

---

(ا) « له » ناقصة في ب .

[1] الصفحات التالية مأخوذة عن المسعودي ( مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧٢ وتابع ) بمعرفة البكري كما لاحظ ذلك البدري (المخطوط ، ص ٦٩ – ا) . قارن النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٤٣

ساحل طنجة من أرض المغرب . وكانت قنطرة عظيمة لا يعلم فى معمور الأرض مثلها ، مبنية بالحجارة ، تمر عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب إلى الأندلس ، وكان طولها ١٢ ميلا فى عرض واسع وسمو كبير ؛ وربما بدت هذه القنطرة لأهل السفن تحت الماء فعرفوها .

وسئل عن ممالك الحبشة والأحابيش التى على النيل ، فقال ألفيت منهم ٦٠ ملكا كل ملك منهم ينازع من يليه . قال وبسبب استحكام النارية فى بلادهم ، تكون عندهم معادن الذهب كثيرة ، فإن حرارة الشمس ويبسها يغير الفضة ذهبا ، فإذا طبخ ذلك الذهب بالملح والزاج والطوب ، خرج مافيه من الفضة .

وسئل عن منتهى النيل فى أعلاه ، فقال أصله من البحيرة التى لا يدرك طولها ولا عرضها ، وهى تحت خط الاستواء تحت قنطرة الفلك المستقيم ؛ وهو الموضع الذى فيه الليل والنهار متساويان الدهر كله .

وسئل عن الأهرام ، فقال إنها قبور الملوك ؛ وكان الملك إذا مات وضع فى حوض من رخام ثم أطبق عليه وبنى له هرم على قدر همة وليه (ا) ، ثم يوضع الحوض فى وسط الهرم ويصنع باب الهرم تحت الحوض ، ثم يحفر له طريق فى الأرض ويعقدونه آزاجا . فقيل له فكيف هذه الأهرام المملسة وكيف كانوا يصعدون (ب) لبنائها ؛ فقال كانوا يبنون الهرم مدرجا ويصعدون لبنائه فإذا فرغوا من عمله نحتوه . قيل له وكيف كانوا يصنعون (ب) بهذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر ١٠٠ رجل منا أن يزحزحوا منها حجرا واحدا ؛ قال كانت لهم فراقل قد دبروها بأخلاط من المعادن وأنواع من الحكم ، فكانوا يضربون بها الحجر الكبير فينقسم لهم على القدر الذى يريدون ويتأتى لهم النحت ، ومع هذا فإنه كان لهم صبر وجلد على أعمالهم ليس لمن بعدهم . قال الوصيفى [1]، قال رجل قبطى ، وقد أجرينا من هذا الذى ذكرنا (ج) : إنهم أصابوا فى بعض الكنائس فى طاق سفطا فى (د) سلة ففتحوها فوجدوا فيها فرقلة فعجبوا منها ولم يدركوا لها معنى ، فطرحوها فى النار فكانت تثب من النار حتى تبلغ سقف الكنيسة فكسروها (ر) ، ثم ندموا على فسادها .

---

(ا) « وليه » ناقصة فى ب .
(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ج .
(ج) القراءة فى ج : من هذا الذكر . (د) « فى » ناقصة فى ب .
(ر) « فكسروها » ناقصة فى ب .

(١) انظر فيما سبق هامش ٢ ص ٦٠

قال : الناظر هذه مدينة الإسكندرية يطمع فيها عدو صقلية أبدا ، ويجشم مراكبه بأهوال تصيبه عليها ؛ فنها ما أدركته عشية العاشر(ا) من محرم سنة ٥٧٠ [= ١١ أغسطس ١١٧٤]. وذلك أنه احتفل فى مراكب كثيرة ونزل فى ساحلها وحصن ما قدر وعزم على محاصرة البلد ، فما كان إلا أن عزم على المقارعة حتى صاح فى الأعداء صائح وصرخ بينهم صارخ فولوا مدبرين[١] ، وقتل بعضهم والحمد لله رب العالمين .

وفتح الله تعالى ببركة هذا الأمر (ب) العزيز على المسلمين بديار مصر ، عند ما سمح بخاطر أمير البلاد بها ، وهو يوسف بن أيوب الكردى ، المخطط بصلاح الدين ، أن يخاطب الخليفة الإمام أبا (جـ) يوسف يعقوب(د) بن الإمامين الخليفتين رضه أجمعين ؛ فهزم روم الشام واستأصل شأفتهم ، وفتح بيت المقدس شرفها الله ، وجميع تلك البلاد التى كانت بأيدى أعداء الله . ونص الرسالة الواردة بصورة فتح ، كلام مختصر من كتاب وصل من الإسكندرية(ر)، تاريخه فى العشر الوسط من شعبان المكرم سنة ٨٣[ه] [= أكتوبر ١١٨٧]، يصف ما سناه الله تعالى وبسره بقدرته من الفتوحات فى الروم دمرهم الله تعالى[٢]. وذلك أن رسل ملكهم وصلوا إلى دمشق فى الصلح ، فأراد يوسف بن أيوب أن يصالحهم ويعقد لهم الصلح على أن يدفع لهم ١٠٠ ألف أردب من القمح مع المضاف إليه ، وكان بن أخيه ، المخطط عندهم بتقى الدين ، قد تصاهر مع أمير التركمان وجاء بخلق كثير من الأتراك ، فلما عاين عمه يريد الصلح عز عليه ذلك وغضب . فسأله عمه عن شأنه فقال له : يأتى الناس متطوعين مسارعين للجهاد وتصالح أنت الأعداء الروم ، ماذا يقوله أهل العراق وأهل الأمصار عنا . فقال يوسف لابن أخيه : تعرف ما صنع أصحابنا

---

(ا) « العاشر » ناقصة فى ب .
(ب) ج : الأمير . (جـ) « أبا » ناقصة فى ب . (د) ب : بن يعقوب .
(ر) ب : بكلام مختصر بكتاب وصل من الاسكندرية .

[١] فيما يختص بمحاولة الصقليين الفاشلة من أجل الاستيلاء على الاسكندرية سنة ٥٧٠هـ = ١١٧٤، يعطى ابن الأثير تفصيلات مهمة عن أسطول العدو ومعدات القتال وعن استراتجية وتكتيك المعركة التى انتهت بانسحاب المهاجمين ، بعد قتال دار طوال أربعة أيام ( الكامل ، ج ١١ ص ٥٧٠ ؛ أبو شامة ، ج ١ ص ٢٣٤) .

[٢] بعد انتصار صلاح الدين المدوى على الصليبيين وفتح بيت المقدس ، بعث الرسل إلى ملوك الاسلام فى مختلف الجهات يعلمهم بالنبأ السعيد . أنظر عماد الدين ، ص ٥٨ — ٥٩ ؛

G. - Demombynes, Mèlanges Réné Basset, 1915, Une Lettre de Saladin au Calife almohade, p. 279.

يوم الرملة ؛ وقد كان خرج معهم إلى لقاء الأعداء الروم فهربوا وتركوه، وكاد أن يقتل أو يؤسر ، وأخذ له جميع ما كان معه من عدد وأمتعة، وذلك سنة ٥٧٢ . فلما سمع الأجناد (ا) قالوا: صدق ونحن تائبون ونحلف له[1]. فدخل تقي الدين مع الأمراء وأشياخ الأجناد على يوسف ، وحلفوا له كلهم في المصاحف أنه لا يشرب أحد منهم كأس خمرة أبدا ولا يرتكب معصية . فلما حلفوا كلهم . فرح يوسف بذلك وأرسل إلى الرسل ، فاجتمع الرسل مع تقي الدين ومع على بن يوسف بن أيوب وجماعة أشياخ الأجناد فاشترطوا شروطا كثيرة في مصالحتهم : منها ألا يؤخذ من أحد مكس ؛ وأن ترد بعض البلاد . فغضب الرسل ووقع بينهم كلام كثير وقالوا بيننا وبينكم السيف ، فاستخف الرسل بكلامهم وفارقوهم ، فقامت قلوب المسلمين وليقضى الله أمرا كان مفعولا . وخرجوا بنيات صادقة وعزائم ناجحة ، فأخذوا طبرية من فورهم ، وبقيت قصبتها لأنها مانعة جدا[2]. ووصل الروم دمرهم الله في جمع حفيل طامعين في المسلمين ، فمنعهم المسلمون الماء ، فعزموا على المقاتلة ؛ وصفت الصفوف غرة جمادى الأولى ، وقيل إن المقابلة كانت في يوم الجمعة الـ ٢٠ من ربيع الآخر [ ٢٩ يونيه ]، فكان يوما عظيما ، دفع عليهم الروم دمرهم الله ١١ دفعة والمسلمون بحمد الله ثابتون ، فدفع عليهم المسلمون دفعة واحدة فلم يقف منهم أحد ، فهم بين أسير وقتيل ؛ وأحصى عدد من قتل وأسر ٢٢ ألفا . وأخذ ملوك الروم أسارى وأعيانهم وصاحب الكَرَك والشوبَك ، وقد كان هذا اللعين صالح يوسف ابن أيوب وغدره ، فلما مثل بين يديه في جملة الأسارى ، لم يتمالك أن قام يوسف بن أيوب فقتله بخنجر كان بيده[3] . ثم قاتل يوسف قصبة طبرية فرغبوا في المصالحة ، فحصن البلد وقصبته وبعث الأسارى إلى دمشق[4]؛ وأسرع السير إلى عكة فدخلها صلحا وأخرجهم منها دون سلاح ولا عدة[5]. وقد كان سيف الدين ، أخو يوسف المذكور ، حصر يافا ودخلها صلحا ،

---

( ا ) « الأخبار » ناقصة في ب .

(١) حسب أبي شامة (ج ١ ص ٢٧٣ ) دارت هذه المعركة التي انهزم فيها صلاح الدين سنة ٥٧٣هـ = ١١٧٧م .

(٢) أنظر عماد الدين ، ص ٢٢ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥١ — ٣٥٢

(٣) أنظر عماد الدين ، ص ٢٥ وتابع ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٢

(٤) أنظر عماد الدين ، ص ٢٨ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٥

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٩ ؛ ج ١١ ص ٣٥٥

فوجد أهلها قد قتلوا أسارى المسلمين ؛ فقتلهم أجمعين[1] ، ونزل على عسقلان ، واتصل به أخوه يوسف بعد أن ترك على صور عسكرا يحصرها ، ودخل عسقلان آخر جمادى الثانى [= ٥ سبتمبر] [2].

وعدد البلاد التى فتح الله تعالى وأسماؤها هى هذه :

الداروم وغزة وعسقلان وأرسوف ويافا وحيفا وقيصارية وعكة وإسكندرية وصيداء وبيروت وجبلة — أسلم صاحبها وجماعة معه . وفتحت تبنين وجبل الطور والفولة وناصرة — مدينة المسيح عم — وطبرية وفلسطين ونابلس ويبنا وصفورية والرملة . ونهض يوسف بن أيوب خارج عسقلان إلى بيت المقدس ، وقال للأجناد : بيت المقدس لكم طعمة(ا) ، فدخله منتصف رجب سنة ٥٨٣ [= ٢٠ سبتمبر ١١٨٧] [3] بعد ٩٥ سنة بأيد الروم أو نحوها ، وقد كانوا تملكوه فى شعبان سنة ٤٨٨ هكذا [=أغسطس ١٠٩٥].
ونص النسخات التى وصل بها الطائر إلى الإسكندرية من مصر بصورة فتحه هو هذا المسطر .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

سرح هذا الطير الطائر ورفيقه فى أول ساعة من نهار الأربعاء ، عند ورود البشرى بالمكاتبة المعظمة السلطانية ، بتاريخ يوم الجمعة ٢٨ من رجب سنة ٥٨٣ [= ٣ أكتوبر ١١٨٧] بما من الله تعالى به من فتح بيت المقدس ، ورفع الأعلام الناصرية فى أشرف موضع فيه . وتقرر على كل من فيه لشراء أنفسهم الرجل بـ ١٠ دنانير والمرأة بـ ٥ دنانير والطفل بدينارين ، وتلك نعمة لا تحصر ولا تحصى . وعدد من خلص فيه من أسارى المسلمين ٤٠٠٠ أسير[4] ، وكان له فى النفوس من الفرح والجذل ما لا خفاء فيه .

---

(ا) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

(1) انظر عماد الدين ، ص ٣٢ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٧

(2) نفس المصدر ، ص ٤٤ ؛ ج ١١ ص ٣٦٠

(3) نفس المصدر ، ص ٤٧ وتابع ؛ ج ١١ ص ٣٦٧ ؛ أبو شامة ، ج ٢ ص ٩٣

(4) حسب شروط المعاهدة اتفق على أن من لم يستطع فدية نفسه خلال أربعين يوما يصبح عبدا . وعند انتهاء هذا الأجل فقد ١٤ ألف رجل و ٧ آلاف امرأة حريتهم . أنظر عماد الدين ، ص ٥٥

وكل ذلك ببركة استجابة هذا الرجل لطاعة الإمام — مهد الله عمره — وقد بعث إرساله بما وجد فيه وفى تلك البلاد من الذخائر . وهم الآن فى مدينة فاس - حرسها الله - مستمعين للأوامر المطاعة ؛ ونحن الآن فى شهر رمضان الفرد من سنة ٥٨٧ [ = سبتمبر — أكتوبر ١١٩١ ] ؛ وكان اجتماع هذا الرسول وهو عبد الرحمن بن محمد بن منقذ الأزدى (ا) سادس محرم سنة ٨٨ [٥] [= ٢٣ يناير ١١٩٢ ] بالخليفة الإمام أبى يوسف رضه ؛ وخرج من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام ولم يعلم به[1].

---

(ا) ج : الأزرق .

(١) لم يكن انتصار صلاح الدين نهائيا إذ تشبث الصليبيون ببعض النقط على الساحل وخاصة فى صور . وبعد قليل تمكنوا من محاصرة عكا وضغطوا ضغطا شديدا على صلاح الدين الذى كانت تنقصه القوة البحرية المناسبة . وهكذا اضطر إلى طلب المعونة من أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى . ولكن لما كان هذا الأخير فى صراع مستمر ضد النصارى فى الأندلس والثوار فى إفريقية ، فإنه لم يستطع إجابة هذا الطلب العزيز على كل المسلمين (أنظر سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، سنة ١٩٥٣م) .

ونلاحظ هنا ، وربما بشىء من التعجب ، أن المؤلف بعد أن أثبت تاريخ تدوين كتابه (سنة ٥٨٧=١١٩١) عاد ليقول إن رسول صلاح الدين غادر العاصمة الخلافية فى السنة التالية (٥٨٨= ١١٩٢) . ولا ينبغى أن يخدعنا هذا التضارب إذ الحقيقة أن المؤلف أضاف ، كما كانت هى العادة ، هذه الأسطر إلى كتابه الذى كان قد تم عند رحيل السفير .

# ذكر المشهور من المدن والعمائر

## من بلاد مصر إلى آخر بلاد المغرب حسب المعرفة إن شاء الله تعالى

نجعل ذلك على قسمين : فالبلاد الساحلية أو ما يقرب من الساحل بمرحلة ونحوها بجهة ؛ والبلاد التي تبعد (ا) من الساحل بمرحلة أو نحوها بجهة ، ونضيف إليها ما كان (ب) فى الصحراء منها .

فمن مدينة الإسكندرية على الساحل عمائر كثيرة للعرب ولقبائل من البربر سكنوا فى تلك الأحياء إلى مدينة سُرْت . ومدينة سُرْت (ج) مدينة كبيرة قديمة على ساحل البحر ، وأهلها أخس الناس (د) خلقا وأسوأهم معاملة ، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفقوا عليه . وربما نزل المركب بساحلهم موسوقا بالزيت ، وهم أحوج الناس إليه ، فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويصففونها فى حوانيتهم ، ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثير بائر . فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ، ما باعوا منهم إلا على حكمهم . وهم يعرفون بعبيد قرلة (ر) ويغضبون لذلك [1].

---

(ا) القراءة فى ب : البلد الذى تبعه . (ب) ب : الآن .

(ج) النص : سرات . (د) ب ، ج : أحسن . أنظر ترجمة Fagnan ، ص ١ والهامش . (ر) القراءة فى النص « بعيد منزلة » ولكن قراءة البكرى (ص ٦ : عبيد قرلة ) هى الصحيحة ؛ أنظر ترجمة Fagnan ، ص ١٧ ، هامش ١ ، والقرلة طائر صغير يضرب بشراهته وحرصه المثل (أنظر أحمد النائب ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، ص ١٠٨)

(١) هذه الرواية مأخوذة عن البكرى ( النص ، ص ٦ والترجمة ، ص ١٥ وهامش ٤ ، ص ١٧ وهامش ١ ؛ Quatremère, Note d'un manuscrit.. p. 16 ) . ولقد نقلها ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ ) بحذافيرها أيضا . قارن الإدريسى (صرت) ، ص ١٢٢ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٤ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢٠٣ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٤٤ . أما العبدرى ( المخطوط ، ص ٤٦ — ب) فيلاحظ أن اسم سرت يطلق ، على عكس مايقول البكرى ، على عدد من القلاع (القصور) .

## ذكر بلاد إفريقية وما فيها من العجائب
## وذكر البلاد الساحلية منها والصحراوية وذكر ما فيها من الآثار

### مدينة أطرابلس [1]

فأول مدن إفريقية على الساحل مدينة أطرابلس . وهي مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر ، والبحر يضرب فى سورها (ا) ؛ وسورها من حجر جليل من صنعة الأولين . وقيل إن تفسير أطرابلس ٣ مدن ، وقيل مدينة أياس (ب) . وبها سوق حافلة وحمامات (ﺟ) كثيرة وبساتين فى شرقها ، وهى كثيرة الفواكه جمة الخيرات ، وأكثر أهلها تجار يسافرون برا وبحرا ، ولهم سمح فى تجاراتهم ، وهم أحسن الناس معاملة ضد أهل سرت . وداخل سورها بئر يعرف ببئر أبى الكنود ، يقال إنه من شرب منه يحمق فهم يعيرون به ؛ يقال للرجل منهم إذا أتى بما يلام عليه (د) : لاعتب عليك لأنك شربت من بئر (د) أبى الكنود .

ومن أطرابلس إلى نفوسة ٣ أيام ، وطرف هذا الجبل الخارج فى البحر هو طرف أوثان ، ما بين أطرابلس والإسكندرية ، وهو الطرف الذى إذا عدته المراكب استبشرت بالسلامة . وهذه المدينة تعد من بلاد إفريقية ، وسنذكر ما ورد فيها من الآثار والله المستعان (س) .

قال الناظر كان فى مدينة أطرابلس المذكورة رجل غزى اسمه قراقوش (ص) [2] استند إلى ذروة (ط) هذا الأمر العزيز — أيد الله دوامه —

---

( ا ) ب ، ج ، م : صورها . (ب) ب : الناس ، لك : الاياس . والكلمة ناقصة فى ج . أنظر البكرى ، ص ٨ (ﺟ) « حمامات » ناقصة فى لك .
( د ) ب : مائلا بدلا من يلام على . ( د ) « بئر » ناقصة فى لك .
( س) « من الآثار والله المستعان » ناقصة فى طبعة كرمر التى تورد بقية هذا الفصل فيما بعد ص٨١ (ص) لك : قزوش ، ج : قرقوش . (ط) لك : داره .

(١) عن أطرابلس أنظر البكرى ، ص ٧ — ٨ والترجمة ، ص ١٨ وتابع ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٥٢١ ) ؛ أنظر الإدريسى ، ص ١٢١ ؛ وعن رأس أوثان قارن أبو الفدا ، الترجمة ، ص ١٧٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٤٥ ؛ وترجمة Fagnan ، ص ٤ هامش ٤

(٢) حوالى سنة ٥٦٨ ﻫ = ١١٧٢ م خرج أحد مماليك تقى الدين ( ابن أخى صلاح الدين ) واسمه قراقوش على رأس عدد من المماليك المصريين واتجه نحو برقة وطرابلس . وهناك أثار الاضطراب واستولى على عدد من مدن الولاية الموحدية واتخذ طرابلس مركزا لقيادته ، وأخيرا تعاون مع بنى غانية حينما أتوا من ميورقة واستقروا فى إفريقية ثم خرج عليهم ، وذلك على عهد يعقوب المنصور . أنظر التيجانى ، الرحلة ص ١٧٥ ، — الترجمة — ص ١٠٢ وتابع ؛ ابن خلدون ، العبر ، =

بعد شرود وفرار كان منه ، وأسلم لأوليائه وآلائه (ا) ، وساعد غاويا شقيا لفظه البحر من جزيرة ميورقة ـ فتحها الله ـ ولم تزل سعادته مخلصة من تلك الورطات ، إلى أن هلك (ب) الشقى الميورقى ، وأناب قراقوش إلى حزب التوحيد ، فغلب على طرابلس وأخرج منها المستولى عليها أبا زبا الفارسى (ج) ، وهو ثائر الزاب المذكور فى الأراجيز (د) . قال الضبي :

وثائر الزاب إن (ر) حلت عساكره بأرض سوسة ضاقت بالورى الحيل

فأدرك أهل علم الحدثان اسما مركبا من الزاى والباء ، فقالوا ثائر الزاب ، لعلمهم بموضع ثورته وجهلهم باسمه ، حتى أبرز الأمر (س) العزيز أبا زبا فى الزاب . فلما توجه الخليفة أبو يوسف رضه لفتح بلاد إفريقية سنة ٨٣[٥] [=١١٨٧-١١٨٨] ، خاطبه أبو زبا (ص) ضارعا راغبا فى الصلح والقبول ، ثم نكث واستبد بطرابلس حتى أناب قراقوش (ط) وصح توحيده ، فأخرجه منها وبعثه مقيدا ، فحل (ع) بحضرة مراكش سنة ٥٨٦ [=١١٩٠] (ف) ؛ ونحن الآن فى شهر رجب الفرد سنة ٥٨٧ [= يوليه ـ أغسطس ١١٩١] ، وكلمة (ك) التوحيد والهداية فى بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو .

قيل وإنما سميت إفريقية لأن قوما من الأفارق (ل) سكنوها ، وهم أولاد فاروق بن مضر من العرب العاربة ؛ وزعموا أن إفريقية اسم ملكة ملكت إفريقية ؛ وقيل إنها إبريقية . وحد إفريقية طولا من برقة شرقا إلى مدينة (م) طنجة غربا ، وعرضها من البحر إلى الرمال التى هى حاجز بين بلاد

---

(ا) ب ، ك : أبنائه .
(ب) ك : ملك .
(ج) ك : الفلوس .
(د) ب : الأجر ، ك : الاراجز .
(ر) « ان » ناقصة فى ك .
(س) ج : الأمير .
(ص) النص : خاطب أبا زبا
(ط) ك : حتى أندب قروش .
(ع) ب : بحبل ، ج : لحبل .
(ف) « خمسمائة » ناقصة فى ب ، ك .
(ك) ب : وحلت .
(ل) ك : الأبارق .
(م) « مدينة » ناقصة فى ك .

= ج ٥ ص ٢٨٦ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٩١ -٩٢ ؛ A. Bel, Les Benû Gâniya, p. 61sq., G.-Demombynes, Mél. R. Basset, Paris, 1915, Lettre de Saladin au Calife almohade . . ., p. 289 sq. ؛ سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٣

إفريقية [1] وبلاد السودان ؛ وهي جبال من الرمال من المشرق (ا) إلى المغرب ؛ وفيها يصاد الفنك الذى لا يوجد لجلده مثال . وجاء فى حديث رسول الله صلعم : « ينقطع الجهاد من جميع الجهات ولا يبقى إلا ببلاد إفريقية ، فبينما القوم بإزاء عدوهم نظروا إلى الجبال قد سيرت فيخرون (ب) لله سجدا فلا ينزع أطمارهم عنهم إلا أزواجهم من الحور العين » . وروى عنه صلعم أنه بعث سرية فى سبيل الله ، فلما قفلوا (ج) منها ، شكوا شدة برد أصابهم ، فقال رسول الله صلعم : « لكن (د) إفريقية أكثر بردا وأعظم أجرا » [2] . وبإفريقية فى هذا الوقت من أبناء الإمام الخليفة وحفدته السادات النجباء — أدام الله نصرهم — ما تمهدت به (ر) أكنافها وعمرت لهم أوساطها وأطرافها ؛ ولكن الشقى يحيى بن اسحق ، صنو الشقى على متوغل فى صحاريها ، وقراقوش متصيد له متوثب عليه [3] ؛ والله سبحانه ولى التوفيق بمنه وكرمه .

مدينة قابس [4] : وتعد أيضا من بلاد الجريد ؛ بينها وبين طرابلس ٨ أيام ، وهى مدينة كبيرة قديمة أزلية وعليها سور صخر جليل من بناء الأول ؛ ولها حصن حصين وأرباض واسعة ؛ وفيها فنادق وحمامات ؛ وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء إذا خافوا من نزول عدو إليهم (س) فيكون أمنع شىء . ولها واد يسقى بساتينها وأرباضها ومزارعها ؛ وأصل هذا الوادى من عين خرارة

---

(ا) « المشرق » ناقصة فى ب . (ب) ك : يفخرون .
(ج) ج ، ك : قبلوا . (د) ب : لاشىء . (ر) ك : شهدت بهم .
(س) القراءة فى ك : يجرون اليه الماء وقت نزول العدو عليهم .

[1] عن إفريقية ( تسميتها ومساحتها ) أنظر البكرى ، ص ٢١ والترجمة ، ص ٥٢ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٢٤ . يسمى أبو الفدا (الترجمة ، ص ١٦٨) البلاد الممتدة من تخوم مصر غربا وتشمل كل إفريقيا الشمالية إلى طنجة وكذلك الأندلس « بلاد المغرب » .

[2] هذه الأحاديث المنتحلة والمنسوبة إلى النبى موجودة فى كتاب البكرى (ص ٢٢) .

[3] أنظر هامش ٢ ص ١١٠

[4] البكرى : ص ١٧ ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣ — ٤ ؛ Quatremère, Note d'un Manuscrit, p. 28) . قارن الإدريسى ، ص ١٠٦ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٤ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ص ١٩٨ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٤١ — ١ .

فى جبل بين القبلة والمغرب ، وهو يصب فى البحر . وبين مدينة قابس وبين البحر نحو ٣ أميال وجناتها أكثر إلى البحر(ا) ، وهى كثيرة الثمار والموز بها كثير وليس بإفريقية موز إلا فيها ؛ وفيها شجر التوت كثير ويربى بها الحرير ، وحريرها أطيب الحرير وأرقه وليس يعمل بإفريقية حرير إلا بها . وهى مدينة فخيرة(ب) بحرية صحراوية ، والصحراء منها قريبة ؛ فيقال إنه ما اجتمع فى مائدة رجل ٣ أشياء متضادة المواضع إلا فى مائدة من يسكن قابس : يجتمع فيها الحوت الطرى ولحم الغزال الطرى والرطب الجنى . فهى حاضرة هذا الإقليم وقطبه وروحه وقلبه ، ومركز دائرته التى عليها يدور محيطه (ج) وبالاستناد إليه يتمهد رحبه ، والله يعصمنا بعزته .

## ذكر مدينة القيروان وكيفية وضعها سنة ٤٧ من الهجرة (د)(١)

ولى (ر) معاوية بن أبى سفيان عقبة بن نافع القرشى على إفريقية فافتتحها فى ١٠ آلاف من المسلمين ؛ ووضع السيف وأفنى من بها من النصارى . ثم قال ، إنى أرى إفريقية إذا دخلها إمام تحرموا (س) بالإسلام ، فإذا خرج عنها رجع كل من أجاب منهم عن دين الله ، فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون لكم عز الأبد . فأجابه الناس واتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين فيها ؛ وقالوا نقربها من البحر ليتم الجهاد والرباط . فقال لهم عقبة : نخاف من ملك القسطنطينية ؛ فاتفق رأيهم على موضعها ، فقال : قربوها من السبخة

---

(ا) القراءة فى ب ، ج : وجناتها أكثرها انما هى منها الى البحر .
(ب) « فخيرة » ناقصة فى ج .
(ج) القراءة فى ب : ومركز دائرته الذى عليه يدور محيطه .
(د) القراءة فى ب : سنة سبعة وثمانين وأربعين من الهجرة .
(ر) ب : ولا .     (س) ك : يحوموا .

(١) قارن البكرى ، ص ٢٢ وتابع والترجمة ، ص ٥٧ وهامش ١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢١٢ — ٢١٣ ؛ ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ١٢ — ١٣ ؛ الإدريسى ، ص ١١٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ص ١٩٨ — ١٩٩ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٣٥ — ا ، ٣٥ — ب ؛ وحسب الدمشقى (ص٢٣٧) كانت القيروان تتكون من أربع مدن هى : رقادة وصبرة والمنصورية والقصر القديم . أنظر ابن خلدون ، الترجمة (Berbères) ، (ملحق ابن عبد الحكم ج ١ ص ٣١١ ، النويرى ص ٣٢٧) ؛ اليعقوبى ، ص ٣٤٧ ؛ المقدسى ، ص ٢٢٤ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٩ ؛ J. Despoirs, La Tunisie Orientale, p. 188

فإن أكثر دوابكم الإبل ، تكون إبلكم على بابها فى مراعيها آمنة من البربر . فدعا ما كان فى الغيضة من الوحوش والهوام ، وقال اخرجوا بإذن الله فخرج كل ما كان فيها حتى لم يبق من الحيوانات شئ ؛ وهم ينظرون إليها . وقال ابن الرقيق (ا) [1] فى تاريخه : فبقيت القيروان ٤٠ سنة لم ير فيها خشاش ولا هوام .

وتنازعوا فى قبلة الجامع فبات عقبة مهموما ، فرأى فى المنام قائلا يقول له : خذ اللواء بيدك فحيث ما سمعت التكبير فامش ، فإذا انقطع التكبير فأركز اللواء فإنه موضع قبلتكم ؛ ففعل عقبة ذلك فهو موضع القبلة ، وهو محراب جامع القيروان إلى اليوم ؛ وقد هدم حسان بن النعمان جامع القيروان وبناه حاشى المحراب فإنه تركه . ويقال إنه هدم وبنى ٣ مرات ، كل وال يلى القيروان يريد أن يكون الجامع من بنيانه ؛ وكانوا يتركون منه المحراب تبركا ببناء عقبة رحمه الله . ويقال إنه لما أراد معد بن إسماعيل بن عبيد الله الشيعى [2] تحريف قبلة مسجد القيروان وذلك سنة ٣٤٥ [=٩٥٦] بلغه أهل القيروان يقولون إن الله عز وجل يمنعه منه بدعاء عقبة بن نافع الفاضل فى وقت تأسيسه الجامع . فلما وصل ذلك إلى معد غضب ، وأمر بنبش قبر عقبة بن نافع وإحراق رمته بالنار ، وكان قبره بظاهر مدينة تهودا ، حيث استشهد رحمه الله . وبعث معد لذلك ٥٠٠ ما بين فارس وراجل ؛ قيل فلما دنوا من قبره وحاولوا ما أمرهم به ، هبت عليهم ريح عاصفة ولاحت بروق خاطفة وقعقعت رعود قاصفة كادت تهلكهم ، فأضربوا ولم يعرضوا له ؛ فخافوا عقوبة معد فتاهوا فى صحارى إفريقية حتى سمعوا أنه هلك ، فحينئذ أتوا إلى أوطانهم معتبرين مستبصرين(ب) . وبإزاء جامع القيروان الساريتان الحمراوان الموشاة بالصفرة ، اللتان لم ير الراؤون أحسن منها ولا مثلها ؛ كانت فى كنيسة من كنائس الروم ، فنقلها إلى جامع القيروان حسان بن النعمان ؛ وهما مقابلتان المحراب ، عليهما القبة المتصلة بالمحراب .

---

(ا) ب : أبو الرقيق ، ج : الرقيق .

(ب) ج : مستبشرين . (ج) القراءة فى ب : وبإزاء جامع القيروان فى الساريتين الحمر الموشاة بالصفرة اللتان لم ير الروائد أحسن منهما .

[1] هو أبو اسحاق ابراهيم ابن القاسم الذى يكتب سنة ٣٧٧ (٩٨٧) على عهد بنى زيرى بإفريقية . قارن ابن خلدون ، الترجمة ، هامش ٣ ج ١ ص ٢٩٢

[2] معد بن اسماعيل بن أبى القاسم بن عبيد الله الشيعى رابع الخلفاء الفاطميين ، المعروف بالمعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ = ٩٥٢ - ٩٧٦) .

وبخارج مدينة القيروان ١٥ ماجلا للماء ، هي سقايات لأهل القيروان ، منها ما بنى فى أيام هشام بن عبد الملك بن مروان وفى أيام غيره من الخلفاء ، وأعظمها شأنا وأفخمها منصبا ، الماجل الذى بناه أحمد بن الأغلب بباب تونس من القيروان ، وهو متناهى الكبر (ا) وفى وسطه صومعة مثمنة ،وفى أعلاها قبة مفتحة على أبواب ، فإذا وقف الرامى على ضفته ، ورمى بأشد ما يكون من القسى لا يدرك الصومعة (ب) التى فى وسطه . وكان على ذلك الماجل قصر عظيم فيه من البناء العجيب والغرف المشرفة على ذلك الماجل كل شئ غريب ، ويمر فى هذا الماجل (ج) ماجل لطيف متصل به ، يقع فيه ماء الوادى إذا جرى ، فتنكسر فيه حدة جريانه (د) ، ثم يدخل الماجل الكبير . وهذا الوادى الذى يدخل الماجل إنما واد شتوى (ر) يجرى فى أيام الشتاء ، فإذا امتلأ هذا الماجل وغيره من المواجل ،شرب منه أهل القيروان ومواشيهم . ويرفع ماء هذا الماجل إلى أيام الصيف ، فيكون ماؤه باردا عذبا صافيا لكثرة الماء فيه . وكان عبيد الله (س) الشيعى يقول ، رأيت بإفريقية شيئين ما رأيت مثلهما بالمشرق : الحفير الذى بباب تونس من القيروان ، يعنى هذا الماجل الكبير ، والقصر الذى برقادة المعروف بقصر البحر [1] ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وهو الموفق للصواب بمنه (ص) .

مدينة صَبْرة (ط) [2] : وهى متصلة بمدينة القيْروان ، وهى مدينة كبيرة بناها إسماعيل وسماها المنصورة ، وكانت لها جبايا كثيرة (ع) ، يقال إنه كان يدخل أحد أبوابها كل يوم ٢٦ ألف درهم ، والله أعلم بالصواب .

---

(ا) ك : وهو مستدير منتهى الكبير . (ب) ك : لايدرك الى الصومعة .
(ج) ج : وفى جوف هذا الماجل . (د) القراءة فى ب : فينكسر فيه حد جريانه ، وفى ك : « مرة » بدلا من « حدة » . (ر) ج : شفاء .
(س) ك : عبد الله . (ص) هذا الدعاء ناقص فى ب ، ج ، م .
(ط) ج : صفيرة ، صبرا . (ع) : ب ، ج : كان لها فائد كبير .

(١) قارن البكرى ، ص ٢٦ والترجمة ، ص ٦٦

(٢) البكرى ، ص ٢٥ والترجمة ، ص ٦٤ . بنيت المدينة سنة ٣٣٧ (= ٩٤٨-٩٤٩) بمعرفة إسماعيل المنصور الفاطمى إثر انتصاره على أبى يزيد الخارجى . قارن المقدسى ، ص ٢٢٦

مدينة رَقّادَة [1] : وهى من القيروان على ٤ أميال ؛ وهى مدينة كبيرة دورها ٢٤٠٤٠ ذراع . وكانت أكثر بلاد إفريقية بساتين وفواكه ، وليس بإفريقية أعدل هواء من رقادة ولا أرق نسيما ، ولا أطيب تربة . يقال إن من دخلها لم يزل يضحك مستبشرا مسرورا من غير سبب . وذكر أن واحدا من ملوك بنى الأغلب كان قد أصابه أرق شديد ، وشرد عنه النوم أياما ، فعالجه اسحق المتطبب ، وهو الذى ينسب إليه الأطرفيل ، فأمر الملك بالخروج والتنزه والمشى . قيل فلما وصل إلى موضع رقادة نام ، فسميت رقادة من يومئذ ، واتخذت موضع فرجة ومنتزها للملوك . ويقال إن الملك الذى بنى مدينة رقادة هو إبراهيم بن أحمد بن [ محمد بن ] الأغلب [ ٢٦١ — ٢٨٩ = ٨٧٤ — ٩٠٢ ] ، فجعلها دار مملكته ومسكنه . قيل ومنع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة بسبب جنده وعبيده ، فقال فى ذلك بعض الشعراء :

يا سيّد الناس وابن سيّدهم ... ومن إليه القلوب منقادة

ما حرّم الشرب فى مدينتنا ... وهو حلال بأرض رقادة

وفيها بويع عبيد الله الشيعى ، ذكره ابن الجزار فى تاريخه(ا) ، والله أعلم .

مدينة سَفَاقُس [2] : هى مدينة أزلية عليها غابة كبيرة من الزيتون . وزيتها أطيب من كل زيت إلا الشرقى ، ومن الناس من يفضله عليه ، ومنها

---

(ا) ج : تأليفه .

= يقول ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٦٦) الذى ينقل رواية البكرى أن البانى الحقيقى لهذه المدينة هو المنصور بن يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى والد باديس وجد المعز بن باديس (توفى سنة ٣٨٦=٩٩٦) . وهنا يخلط ياقوت بين صبرة وبين بجاية التى انتقل إليها ملك الحماديين على عهد المنصور بن الناصر بن علناس ( توفى ٤٩٦ = ١١٠٤ — ١١٠٥ ) . أنظر فيما بعد ص ١٢٨ — ١٢٩ والهامش .

[1] البكرى ، ص٢٧ — ٢٨ والترجمة ، ص ٦٨ وهامش ١ ( اسحاق بن سليمان ، المذكور فى النص ، توفى سنة ٣٢٠=٩٣٢ ؛ وعن ابن الجزار أنظر هامش٢ ص١٢٤ ) ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٧٩٧ ؛ الإدريسى (ص ١١١ ) الذى يسمى هذه المدينة قصور رقادة ، يقول إنها كانت خربة على أيامه وذلك بعد دخول الهلاليين إفريقية . قارن أبو الفدا ، الترجمة ص ١٩٦ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢١٥

[2] البكرى ، ص ٢٠ ؛ بعد أن يصف الإدريسى المدينة (ص ١٠٧ ) يفخر بافتتاح الملك رجار الصقلى لها سنة ٥٤٣=١١٤٨ — ١١٤٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٣٢٢ =

يمتار (ا) أهل إفريقية الزيت ، وتحمله المراكب إلى بلاد الروم ، وعليه معول أهل صقلية ، وإيطالية ، وأنكبوردة ، وقلورية ، وجميع سواحل الأرض الكبيرة ، لكثرته وطيبه . وقد كانوا ملكوا هذه الجهات الساحلية إلى أن أخرجهم منها أمير المؤمنين سنة ٥٥٥ [=١١٦٠] .

مدينة المهدية[1] : وهى مدينة عظيمة بناها عبيد الله الشيعى إذ قام عليه (ب) [أبو] عبد الله الداعى وهو الذى أقامه ونصره ، ودخل عليه سجلماسة وأخرجه من سجن ابن مدرار ثم استحال عليه ، وأراد خلعه . وأعانه على ذلك أشياخ كتامة ، وكان يقول للناس إنه هو يهودى وضعته مكان العلوى الفاطمى حتى يأتى ، وأبحث عنه حتى أجده فإنه صاحب هذا الأمر ، وقد آن وقته (ج) وخبرهما مشهور . وبين مدينة المهدية والقيروان ٦٠ ميلا ، والبحر قد أحاط بمدينة المهدية من جميع جهاتها إلا من الجانب الغربى ، وفيه بابها . ولها ربض كبير يسمى زويلة ، وفيه الأسواق ، وللمهدية أسواق مبنية بالصخر الجليل . ولها بابان من حديد لا خشب فيهما (د) زنة كل واحد منهما ١٠٠٠ قنطار وطوله ٣٠ شبرا ، وفيها صور الحيوان وهى من أعجب ما عمل فى الإسلام . وفى المهدية ٣٦٠ ماجلا لماء المطر (ر) سوى ما جرى إليها من القناة التى جلبها إليها عبيد الله من قرية ممشانس[2] ، وهى على مقربة

---

(ا) ب : يمار ، ك : تمتاز .  (ب) ب ، ج : اذ قام اليه ، ك : انه قام عليه .
(ج) ج : وان ، ك : دان .  (د) القراءة فى ب : ولها باب لا خشب فيها ، وفى ج : ولها بابان من مدينة ، وفى ك : لاخشبة بدلا من لا خشب .
(ر) ب : ما ما جلا من المطر .

= قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٩٦ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٤ ؛ ابن حوقل ، ص ٤٧ ؛ مراصد الإطلاع ، ص ٣٤ . أما عن فتح عبد المؤمن لإفريقية على الصقليين من النرمنديين فانظر ابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥٨ وتابع ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٢ ؛ التيجانى ، الرحلة (الترجمة) ، ص ٢٦٤ ؛ ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٩٢

(1) البكرى ، ص ٢٩ . قبل أن يورد ياقوت رواية البكرى (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٩٣ ، ج ٣ ص ١٠٩ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٨٧ — ١ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ص ١٨٣) نراه يفرق بين مدينتين تحمل كل منها اسم المهدية : أشهرهما مدينة إفريقية التى بناها عبيد الله ، والثانية بناها عبد المؤمن بن على قرب مدينة سلا ، وسماها باسم المهدى ابن تومرت . قارن الإدريسى ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ص ٧٠ (عن أبى عبيد الله الشيعى أنظر ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٩ وتابع) ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٤٧ ؛ J. despoirs, La Tunisie Orientale p. 170

(2) البكرى ، ص ٢٩

من المهدية . وللمهدية مرسى(ا) للمراكب من عجائب العالم ، فإنه منقور فى حجر صلد ، يسع ٣٠ مركبا ، وكان على المرسى برجين بينهما سلسلة حديد من أغرب ما عمل . وإذا أرادوا أن تدخل سفينة أو مركب ، أرسل حراس البحر السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدوها كما كانت ، وذلك (ب) تحصينا لئلا تتطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها ، كما كان فى أيام الحسن الذى (ب) دخلها الروم عليه [١] ؛ وذلك مشهور فى جميع الأقطار .

ومن المهدية إلى قصر لَخْشم [٢] ، وهو المعروف بقصر الكاهنة ، ١٨ ميلا . وذكر أن الكاهنة حصرها عدوها فى هذا القصر ، فحفرت سربا فى صخرة صماء (جـ) من هذا القصر إلى مدينة (د) ملقطة [٣] عشى فيه العدد الكثير ، وبينهما ١٨ ميلا . ويقال إن أخت الكاهنة كانت فى ملقطة ، فكان الطعام يجلب إليها فى ذلك السرب على ظهور الدواب . وقصر لخم عجيب البنيان ، قد بنى وأحكم (ر) بحجارة طول الحجر منها ٢٥ شبرا ؛ وارتفاع القصر فى الهواء ٢٤ قامة . وهو من داخله كله مدرج إلى أعلاه ؛ وأبوابه طاقات بعضها فوق بعض .

مدينة تُمّاجِر (س) [٤] : هى بغرب المهدية ، كبيرة أزلية فيها آثار للأول ؛ وبينها وبين المهدية الوادى .

---

(ا) ب : مرضى .

(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ب .

(جـ) ك : صمد . (د) ج : منقطعة . (ر) ب : احتكم .

(س) القراءة فى النص ، تماجرن ولكنا أخذنا بقراءة البكرى ، وهذه المدينة لا توجد فى ج .

(١) قارن الإدريسى ، ص ١٠٩ . هنا يفخر الإدريسى كعادته بافتتاح المدينة بمعرفة ملك صقلية رجار على أميرها الحسن بن على بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥٤٣ = ١١٤٨ . أنظر ابن خلدون ، الترجمة ( Berbères ) ، ج ٢ ص ٢٦ وتابع .

(٢) يقول الإدريسى (ص ١٣٨) إن اسم هذه المنطقة مأخوذ من اسم أهلها وهم مختصون بتجارة الشهد . قارن العبدرى ، المخطوط ، ص ٨٥ – ا . وهنا يقرر العبدرى (سنة ٦٨٨ = ١٢٨٩) خطأ رواية البكرى وينسى عامل الزمن وتغير الظروف .

(٣) البكرى (سلقطه) ، ص ٣١ والترجمة ، ص ٧١

(٤) البكرى ، ص ٢٩ والترجمة ، ص ٧٣

مدينة جَلُولا [1] : مدينة قديمة أزلية لها حصن ، وعين سُرَّة في وسطها (ا) ، وهي كثيرة البساتين والأشجار ، غزيرة الفواكه والثمار والأزهار ، والرياحين بها كثيرة جدا وأكثر رياحينها الياسمين ؛ وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها وحرش (ب) نحلها له ، وأكثر فواكه القيروان تجلب إليها من جلولا .

مدينة سُوسَة [2]: مدينة أزلية قديمة فيها آثار للأول ، وهي على ساحل البحر ، وفيها بنيان عظيم يسمى الملعب ، وهو من أغرب البنيان فيه أقباء معقودة بحجر النَّشْف الذى يطفو فوق الماء، المجلوب من بركان صقلية . وداخل سور المدينة هيكل عظيم يسميه البحريون الفنطاس ، وهو أول ما يرون من البحر إذا قصدوا من صقلية وغيرها ؛ وسوسة في سند عال ترى دورها من بحر صقلية . وهي مخصوصة بكثير الأمتعة وجودة الثياب الرقاق، وقُصَارتها. وجميع أشغال الثياب الرفيعة من طرزها(ج) ، وكمدها لا يصنع ببلد مثل صنعته بهذه المدينة . والثياب السوسية معلومة لايوجد لها نظير ، لها بياض رائق (د) وبصيص(ر) لا يوجد في غيرها . ومنها تجلب الثياب الرفيعة مثل عمائم المَعْمُور (س) وغيرها ، تساوى منها العمامة ١٠٠ دينار وأزيد (ص) ؛ يحمله التجار إلى جميع البلاد شرقا وغربا ؛ ويباع الغزل بها زنة(ط) المثقال بمثقالين .

---

(ا) القراءة في ج : وعين ستوفرسره . . في وسطها .
(ب) ج : ومرعى . (ج) « طرزها » ناقصة في ج . (د) ك : زائد .
(ر) ب ، ج : مصيص . (س) ج : العصور ، ك : المقصور .
(ص) القراءة في ب : تساوى منها العمامة دينارا وأزيد . (ط) ج : سنة .

(1) البكرى ، ص ٣١ ؛ الإدريسى ، ص ١٢٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢٦٢

(2) البكرى ، ص ٣٤ وتابع ؛ الإدريسى ، ص ١٢٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٩٠ وتابع . فيما يختص بالأثر الذى يسمى الفنطاس فإن De Slane (ترجمة البكرى، ص ٨٧ وهامش ١) يفترض أنه هيكل سفينة . ولكن ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٩١) يقرر أن المدينة كان لها سور حصين وبرج يعرف باسم خلف الفتى . ومن المحتمل أن هذا هو الذى أطلق عليه الملاحون اسم الفنطاس . قارن أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩٩ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٥ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٦٨

ولحم سوسة من أطيب لحوم بلاد إفريقية لطيب مراعيها . وبالقرب منها محرس (أ) المنستير الذى جاء فى الأثر(ب) ، وهو حصن عالى البناء متقن العمل ، وفيه جماعة من الصالحين الذين حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والعشائر ؛ وأهل تلك البلاد يخرجون إليهم الصدقات[1] . وبقربه نحو ٥ محارس متقنة البناء معمورة بالصالحين .

مدينة تونس (ج) [2]: مدينة عظيمة بينها وبين القيروان مسيرة ٣ أيام ؛ وبينها وبين البحر نحو ٤ أيام ؛ وبينها وبين قرطاجنة نحو ١٠ أميال ومرساها واحد يسمى رادس . ويقال إن ببحر رادس خرق (د) الخضر عم السفينة (ر) ؛ وكان الملك المذكور فى القرآن (س) [3] ؛ الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا ؛ ملك قرطاجنة وكان يسمى أجلندا . وبين المرسى وتونس بحيرة يقول أهل تونس إنها كانت [من] نحو ١٠٠سنة(ص) أرضا لهم ، كثيرة الجنات والمياه والزرع طيبة الفواكه ، فغلب عليها ماء البحر ؛ وهم يعرفون موضع ضياعهم فيها إلى الآن . ومدينة تونس مدينة قديمة البناء لها سور عظيم ويدور بها حفير ؛ يقال إن دورها ٢٤ ألف ذراع (ط) وبها جامع متقن البناء مليح الصنعة مطل على البحر ؛ بناه عبيد الله بن الحبحاب[4] هو ودار الصناعة ؛ وأنفذ إليه البحر ، وهو من عجائب الدنيا . ومدينة تونس فى سفح جبل ، وبها مبان عجيبة ؛ وأكثر عضادات أبواب دورهم (ع) رخام أبيض : لوحان قائمان وثالث معترض مكان العتبة . ومن الأمثال بإفريقية : دور تونس أبوابها رخام وداخلها سخام . وهى دار علم

---

(أ) ج : محرض (ب) ب ولك : الآثار . (ج) القراءة فى ب : مدينة تونس عمرها الله وكلأها . (د) "خرق" ناقصة فى لك ، وهى فى ب «غرق» .
(ر) «السفينة» ناقصة فى ب . (س) ب ، ج : القيروان .
(ص) القراءة فى ب ، ج : انها مائة سنة . (ط) ب ، أربعة وعشرة ألف دور .
(ع) ج : دور أبوابهم .

(1) البكرى ، ص ٣٦ (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٦١) ؛ الإدريسى ، ص ١٠٨ (اتخذ أهل سوسة هذا المكان مقبرة لهم ، وإنهم ينقلون إليه موتاهم فى القوارب) . أنظر G. Marçais, Mél. R. Basset, Paris, 1925, Note sur les Ribâts en Berbérie, p. 405.

(2) البكرى ، ص ٧٨ وتابع ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٩٧ — ٨٩٨ ؛ الإدريسى ، ص ١١١ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٦ وتابع ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ص ١٩٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٢٢ — أ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢١٩

(3) القرآن : سورة ١٢ ، آية ٧٠ ، ٧٨

(4) ابن الحبحاب كان عامل إفريقية سنة ١١٦ (٧٣٤) .

وفقه ، وأهلها موصوفون (ا) بالقيام على الولاة ؛ يعد لأهلها القيام على أمرائهم نحو الـ ٢٠ مرة ، لأنها أكثر البلاد باعة (ب) وغوغاء ؛ وإن سلامتها من شئ ميورقة لمن براهين هذا الأمر العالي (ج) ؛ وما ذلك إلا لسعادة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أيده الله .

وبالقرب من تونس بنحو الـ ١٠ أميال نهر كبير يسمى مَجَرْدَة ، وهو على الطريق إلى المغرب ؛ ويقال إن من شرب من مائه قسى (د) قلبه فأكثر الناس يجتنبون شربه . ومدينة تونس أشرف مدن إفريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة ، فمن ذلك اللوز الفريك ، يفرك بعضه بعضا دون أن تمسه يد لرقة بشرته ، وكذلك الرمان والأترج والسفرجل والتين وجميع الفواكه ؛ لا يوجد لها نظير . وفيها من أجناس الحوت البحرى ما لا يحصى كثرة . وكان اسمها فى القديم ترشيش ، وإنما سميت تونس فى أيام الإسلام . وذلك أن المسلمين إذ فتحوا إفريقية على الروم كانوا يضربون على بلادها ، وكان بقرب ترشيش هذه صومعة راهب ، فكانت سرايا المسلمين تنزل (ر) بإزاء تلك الصومعة ، وتأنس (س) بصوت الراهب ، فيقولون (ص) هذه الصومعة تؤنس فلزمها هذا الإسم ، فسميت تونس .

مدينة قَرْطَاجَنَّة [١] : بينها وبين تونس ١٠ أميال ومرساهما واحد . وهى من المدن المشهورة ؛ فيها من الآثار وعجائب البنيان ما ليس فى بلد شرقا ولا غربا . وقيل لو دخلها إنسان ومشى فيها عمره يتأمل آثارها لرأى فيها كل يوم أعجوبة لم يرها قبل ذلك . ويقال إن ملكها (ط) كان ملكا عظيما جبارا ، وكان ملك أكثر الأرض وكان يسمى أنبيل (ع) ، فدخل بلاد الروم ، وقتل ملوكها ، وأخذ بلادهم ، وبعث لقرطاجنة من خواتم الملوك الذين قتل ٣ أمداد . ويقال إنه نازل مدينة رومة الكبرى التى هى دار مملكة الروم ،

---

(ا) ج : موضوعون . (ب) ج : باغة ، ك : بماه .
(ج) القراءة فى ب : لمن يرا هذا العدل الأمر العالى .
(د) ب : قصى . (ر) ب : ينزلون . (س) ب : ويأنسون .
(ص) ك : يقولون . (ط) ك : ساكنها . (ع) ج : النيل .

(١) أنظر البكرى ، ص ٧٨ وتابع ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٩٧ — ٨٩٨ الإدريسى ، ص ١١١ ؛ ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٦ وتابع ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ص ١٩٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٢٢ — ا ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢١٩

فلما حاصرها وضيق على ملكها ، وأفسد أقطارها ، أرسل ملك رومة قائدا من قواده ، فحشر من كان ببلاده من الروم والجيوش ، وأمرهم بالوصول إلى بلاد إفريقية ؛ ونزلوا على قرطاجنة ولم يكن فيها من يعاونهم ، فأرسلوا إلى ملكهم أنبيل يعلمونه بما حل ببلادهم من البلاء من أهل رومة ، ويسألونه الإسراع لأغاثتهم . قال فعجب من ذلك ملك قرطاجنة ، وقال: أردت قطع رسم الرومانيين من الدنيا ، وأظن إله (ا) السماء أراد غير ذلك . ثم رجع إلى بلاده مسرعا ، فزحف إليه شبيون قائد صاحب رومة ، فهزمه مرارا عديدة حتى قتله واستأصل عسكره ، ودخل فى قرطاجنة فهدمها وأحرقها ؛ وخرب المسلمون بقيتها وذلك مشهور . وليس يسكن منها الآن إلا قصر واحد ، يسمى بالمُعلَّقة (ب) [1]، وبناؤه من أغرب ما يكون من البناء ، مفرط العظم والعلو ، أقباء معقودة بعضها فوق بعض طبقات كثيرة (ج) ؛ وهو مطل على البحر ، وهو حصن عظيم .

وبقرطاجنة دار الملعب ويسميه أهل تلك البلاد بالطياطير ، هوكله أقباء معقودة على سوارى رخام ، وعليها مثلها نحو أربع مرات ، وقد أحاطت بالدار . والدار دائرة من أغرب ما يكون من البناء ، ولها أبواب كثيرة وقد صور على كل منها صورة نوع من الحيوان ؛ وقد صور فى الحيطان صور جميع الصناع بأيديهم آلاتهم . وفى هذه الدار من الرخام ما لو أجمع أهل إفريقية على نقله ما قدروا عليه لكثرته . وكان فيها قصران يعرفان بالأختين [2]، ليس فيهما حجر سوى الرخام ، ورخام (د) الواحد لا يشبه رخام الثانى ؛ ويوجد فيها لوح رخام طوله ٣٠ شبرا وعرضه ١٥ شبرا ؛ ويقال إنه وجد فى غربيها بيت من لوح واحد ( ر ). والناس ينقلون من رخام هذين القصرين ، لحسنه على قديم الزمان ، وما فرغ إلى الآن . وبهذين القصرين ماء مجلوب من ناحية الجوف لايعرف منبعه ؛ وكانت عليه نواعير وسواقى تسقى

---

(ا) ب : أن ، ك : الآن . (ب) ك : بالقلمة . (ج) ك : كبيرة .
(د) (الرخام ، ورخام) ناقصة فى ك . (ر) القراءة فى ب ، ج : ويقال وجد فيها غارب بيت من لوح واحد .

(١) أنظر البكرى ، ص ٤٣ والترجمة ، ص ١٠٦ ؛ الإدريسى ، ص ١١١
(٢) أنظر البكرى ، ص ٤٤ (ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٢١) .

بساتينهم . وكان بها قصر عظيم مطل على البحر يسمى قومس[1]، وهو من أعجب ما فيها ، لأنه مبنى على سوارى رخام مفرطة الكبر والعظم — يجلس على رأس السارية ١٢ رجلا بينهم سفرة طعام أو شراب — وهى مشطبة ، كالثلج بياضا ، يكون دور السارية منها نحو الـ٣٠ شبرا فى علو مفرط ؛ وعليها سوارى أخر معترضة . وقد بنى القصر على أقباء معقودة بعضها فوق بعض بأغرب صناعة وأحكم بناء ، فكان هذا القصر حصنا وإنما هدم من عهد قريب ؛ وذلك أنه تحصن فيه قوم من القطاع ، فكانوا يقطعون بتلك الجهات ، ويلجأون إليه ؛ فخرج إليهم أهل تونس وقتلوهم وهدموا القصر . وبقربه موضع فيه أقباء ودهاليز تحت الأرض يهاب الدخول فيها ؛ وفيها جثث الموتى على حالها ، فإذا مست تلاشت لقدمها(ا) .

وداخل ميناء المدينة تدخله المراكب (ب) بقلوعها . وفيها مواجل كثيرة للماء ، وبعضها تسمى مواجل الشياطين ، بسبب [أن] من يقرب منها يسمع فيها دويا . والناس يتقايسون (ج) فى الدخول فيها ، فمن جسر على الدخول فيها ، علم أنه جرئ (د) قوى القلب . وقد دخلتها بالنهار مع أصحاب لى (ر) ، فرأيت منظرا هائلا ، من تكلم فيها بأدنى كلمة يسمع لها دوى عظيم ؛ وأغرب ما رأيت فيها الماء باق إلى الآن . وليس يدخلها ماء المطر وذلك لاحكام سطوحها ؛ وهى ١٨ صهريجا منفوذة بعضها إلى بعض ، فى ارتفاعها نحو الـ ٢٠٠ ذراع ، فى عرض كبير . وفيها من الماء نحو الـ ٦ قيام ، ولا يعلم من أين يدخل(س) ذلك الماء . وكذلك ذكر أبو عبيد [الله] البكرى ، فى كتاب المسالك والممالك ، أن أغرب ما فى قرطاجنة الماء الذى فى المواجل المعروف بمواجل الشيطان ، الذى لا يعلم له عهد (ص) .

ومن عجائب الدنيا بنيان القناة التى كان يأتى فيها الماء المجلوب من عين جفان إلى مدينة قرطاجنة على مسيرة ٥ أيام ؛ وهى قناة عظيمة كان يأتى عليها ماء كثير بـ ٥ أرحاء أو أكثر . وعرض القناة نحو ٨ أشبار ، وارتفاع مائها

---

( ا ) الجملة الأخيرة ناقصة فى ك .
(ب ) القراءة فى ك : وداخل المدينة قناة تدخلها المراكب . (ج) ك : يتقاسبون
( د ) ك : جدا . ( ر ) القراءة فى ك : وقد دخلنا بالنهار اليها مع أصحاب لى .
(س) ب : قامة . (ص) القراءة فى ك : انه لا يعلم له عهد .

(١) أنظر البكرى ، ص ٤٤ ( ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٢٠) .

نحو القامة ونصف ، تغيب مرة تحت الأرض فى المواضع المرتفعة ، فإذا جازت على المواقع المنخفضة ، تكون على قناطر فوقها قناطر (أ) حتى تساوى السحاب علوا ، وهى [1] من أغرب بنيان الأرض . وفى وسط المدينة صهريج كبير حوله ، فى وقتنا هذا ، نحو ١٧٠٠ حنية (ب) سوى ما تهدم منها ؛ وكان يقع فيه الماء المجلوب فى هذه القناة ؛ ويخرج من هذا الصهريج إلى بعض تلك المواجل . ورأيت فى بعض أرجل تلك القناطر كتابة فى حجر ، قيل إنها ترجمت فوجدت : « هذا من عمل أهل سمرقند » ؛ فانظر إلى سعة مملكة هذا الملك (ج) الذى جلب هذا الماء ، وقيل إن ذلك الماء جلب فى ٤٠ سنة (ج) ، ولو قيل فى ٤٠٠ سنة لكان أعجب .

قال أبو جعفر أحمد بن ابراهيم المتطبب [2] ، فى كتاب مغازى إفريقية ، إن موسى ابن نصير لما فتح جزيرة الأندلس ، قال لهم : « دلونى على أسن شيخ عندكم » . قال ، فأتى بشيخ قد رفعت حاجباه عن عينيه بعصابة من الكبر ، قال له موسى : «من أين أنت ياشيخ» ، قال : «من إفريقية من مدينة قرطاجنة» . فقال له موسى : « فما الذى سيرك هنا وكيف كان خبر قرطاجنة » ، قال له الشيخ : « بناها قوم من بقية العاديين ، فسكنوها ما شاء الله ، ثم خربت ألف سنة ، فبناها أرمين الملك ابن الأزد بن نمرود الجبار ، وجلب إليها الماء بالقناطر على الأودية ، وشق (د) لها الجبال حتى أوصلها إلى مدينة قرطاجنة ، فسكنها قومى ما شاء الله أن يسكنوها ، إلى أن حفر إنسان أساس تلك القناطر ، فوجد حجر عليه كتابة هى : « ان هذه المدينة ستخرب إذا ظهر فيها الملح » . قال الشيخ فبينما نحن فى ندى (ر) قومنا جلوسا ، إذا ملح على حجر قد عقد عليه ؛ قال : « فتأملنا فإذا ذلك فى جميع المدينة ، فعند ذلك رحلت إلى هنا » . وروى الثقات عن عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم [3] قال : «كنت أمشى مع عمى بقرطاجنة تتأمل آثارها ، ونعتبر

---

(أ) ب ، ج : قناطير . (ب) ج ، ك : ساقية ، ولكن القراءة «حنية» فى ب هى الصحيحة ومعناها قوس أوعقد . (ج) الجمل الواقعة بين (ج)،(ج) ناقصة فى ب.
(د) ك : وشوها . (ر) «ندى» ناقصة فى ك .

---

[1] البكرى ، ص ٤٤ ؛ الإدريسى ، ص ١١٣ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٢٣ – ١

[2] يعرف هذا الكاتب بابن الجزار (توفى حوالى سنة ٤٠٠=١٠٠٩) (أنظر فيما سبق ص ١١٦) قارن البكرى ، الترجمة ، ص ١٠٢ وهامش ١

[3] كان قاضى قضاة إفريقية على عهد المنصور العباسى . البكرى ، الترجمة ، هامش ٢ ص ٥٥

عجائبها ، فإذا بقبر عليه مكتوب بالحميرية : أنا عبد الله رسول الله صالح ، بعثنى الله إلى أهل تلك القرية أدعوهم إلى الله ، فقتلونى ظلما ، فحسبهم الله وهو نعم الوكيل . فهذا لا شك خراب قرطاجنة .

مدينة بَنْزَرْت [1] : هى مدينة على البحر ، بينها وبين تونس نحو يومين ، وفيها آثار للأول وسور صخر قديم ، ولها نهر كبير يصب فى البحر ، وفيه حوت كثير . وبالقرب منها بحيرة كبيرة تنسب إلى بنزرت ، يدخل إليها ماء البحر ، وهى ملحة وفيها من أنواع الحوت ما لا يحصى ؛ يصطاد فيها فى كل شهر من الشهور الأعجمية نوع من الحوت لا يوجد ذلك النوع إلى ذلك الشهر بعينه فى العام القابل ؛ ولها غلة عظيمة فإن منها يحمل الحوت إلى جميع بلاد إفريقية . وأكثر حوت تونس إنما هو من بنزرت ؛ وأجناس هذا الحوت وأنواعه تتصير ، فتبقى أعواما صحيحة الجرم لذيذة الطعم . وأكثر ما يتمكن من (ا) صيد الحوت ما بين البحر وهذه البحيرة ، وذلك أن الحوت يتوالد فى البحر ويخرج منه صغيرا كالذر (ب) فيتربى فى هذه البحيرة ؛ ثم يرجع فى وقت سفاده وولادته إلى البحر ، فيصطاد (ج) فى البحر الذى بينهما ؛ ومنه ما يصطاد (ج) بالنقّازة كما يصطاد الحمام . وهذه النقّازة ؛ هى أنثى الحوت المعروف بالبورى . فيأتى التاجر إلى الصياد ، فيتفق معه على عدد معلوم ، فيخرج النقازة ويرسلها وقد ربط خيطا فى خرص (د) وثيق فى شفتها ؛ فتسير فى البحر ويتبعها بزورقه وشبكته ، فتدور عليها الذكور فيطرح عليهم شبكته ويخرج ما قدر له (ر) ؛ ويعيد أبدا حتى يستوفى أربه . وعلى مقربة من هذه البحيرة إلى جهة البر بحيرتان : إحداهما حلوة والأخرى ملحة من غير أن يدخلها ماء البحر ، تنصب كل واحدة منها بالأخرى ستة أشهر على التوالى لا يتغير لواحدة منها طعم ، فلا الحلوة تصير ملحة ولا الملحة تصير حلوة .

---

(ا) ك : يتمكن من . (ب) ك : كالوز . (ج) الجمل الواقعة بين (ج) ، (ج) ناقصة فى ب ، ك .

(د) ب ، ج : جرس ، ك : خرش . (ر) ج : ما قدر عليه .

(1) البكرى ، ص ٥٨ (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٤٥) ؛ الإدريسى ، ص ١١٤ – ١١٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩٦

مدينة طَبَرْقة (ا) [1]: هي مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للأول، وهي على نهر كبير. بقرب البحر، تدخل السفن حتى إلى باب المدينة. وبالقرب منها مرسى الخَزَر [2]، وهي مدينة قديمة قد أحاط بها البحر من كل جهة إلا مسلك لطيف، وربما قطعه البحر في زمن الشتاء، وعليها سور قديم، وبها كانت تنشأ المراكب لغزو بلاد الروم. وفيها يخرج المرجان، ومنها يحمل إلى بلاد الدنيا. وهناك قوم لهم مراكب وزوارق ليس لهم حرفة إلا إخراج المرجان من قعر البحر؛ وهو نبات مشجر له أغصان. وصورة إخراجه من البحر [أن] لهم خشبا قد صلب بعضها على بعض، ويلقون عليها جرات(ب) الكتان أو القنب(ج)، يثقلونها بمراسي، ويلقونها في البحر ويمشون بالزوارق، فينجر(د) ذلك الكتان على قعر البحر فينكسر المرجان ويتعلق بالكتان، فيتفقدونه ويأخذون ما تعلق منه. ويقال إن المرجان إذا كان في قعر البحر إنما هو رطب لين فإذا مسه الهواء اشتد. ويخرج منه في ذلك البحر كل سنة من القناطير؛ وهو أنفس مرجان الدنيا، وهو أنفق شيء بالهند والصين. ويكون في بحر الزقاق بساحل قرية بَلْيُونَش(ر) [3] من قرى سبتة؛ وهو مثل هذا في الطيب أو أجل، ويكون في بحر الأندلس، ويكون في بعض جزائر البحر الأخضر، وهذا أنفذها.

وبالقرب من مدينة طبرقة، بينها وبين مدينة باجة، بحيرة عظيمة في دورها نحو أربعين ميلا تصب في البحر، ويصب البحر فيها، وماؤها لا ملح ولا حلو وفيها أنواع كثيرة من الحوت. وبها بوري ليس له في الدنيا نظير، يقال إنه يوجد في الحوت الكبير منها ١٠ أرطال وأزيد؛ وأهل تلك النواحي يستخرجون دهنه ويستعملونه في مصابيحهم (س) [4].

---

(ا) ك: طرفه. (ب) ب: حراب. (ج) النص: القنم.
(د) ك: فينجو. (ر) ب، ج: بليوانش.
(س) القراءة في ك: وأهل تلك النواحي يستخرجون منه ويستعملونه في مصالبهم.

(1) أنظر البكري، ص ٥٧؛ الإدريسي، ص ١١٥؛ الدمشقي، ص ٢٣٥؛ ابن حوقل، ص ٥٠؛ المقدسي، ص ٢٢٦؛ مراصد الاطلاع، ج ٢ ص ١٩٤

(2) البكري، ص ٥٥؛ الإدريسي، ص ١١٦؛ ابن حوقل، ص ٥٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ١ ص ٧٦٤. خربت المدينة في سنة ١٢٨٦ ميلادية وتقوم محلها الآن المدينة المعروفة باسم La Calle. أنظر G. Marçais, La Berbérie, Musulmane, p. 226

(3) البكري، ص ١٠٦؛ الإدريسي، ص ١٦٧؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ١ ص ٧٦٤

(4) هذا الفصل الأخير لا يوجد في كتاب البكري.

مدينة بُونَة [1] : مدينة قديمة من بناء الأول وفيها آثار كثيرة ؛ وهى على ربوة مشرفة على فحوصها وقراها (ا) ؛ وهى من أنزه البلاد وأكثرها لبنا ولحما وعسلا وحوتا . والبحر يضرب فى سورها ، وفيها بئر على ضفة البحر منقورة فى حجر صلد ، ماؤها أعذب ماء وأنفقه ؛ ومنها يشرب أكثر أهلها لعذوبة مائها . وبغرب هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتينها وأرضها ؛ وموضع جنانها منتزه حسن مشرف على البحر . ويطل (ب) على مدينة بونة جبل زغوغ وهو كثير الثلج والبرد ، ومن العجائب أن فيه مسجدا قديما لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج ؛ فإذا عم الثلج الجبل كله رأيت المسجد فى وسطه كأنه شامة . وبغربى مدينة بونة بركة فى دورها نحو ١٠ أميال ، وفيها سمك كثير جليل . وفيها طائر يعرف بالكَيْكَل ويسمى بالحَوّاص [2] ، وهو يعشش على وجه الماء ويفرخ ، فإن أحس بحيوان أو إنسان يروم أخذه ، رفع عشه بفراخه برجليه حتى يصيره فى وسط البركة حيث يأمن . وهو طائر حسن وهو الذى يسمى بمصر بالحواص ، ويتخذ بمصر من جلوده ثياب للينها وجمالها ؛ وتباع بالأثمان الغالية . ومرسى مدينة بونة يسمى مرسى الأزقاق ، وهو من المراسى المشهورة (ج) . وبونة فى جون (د) من البحر يسمى جون الأزقاق ، وهو صعب ، وفيه عطب مركب القيطانى ومركب الفخرى ومراكب كثيرة .

مدينة القُل [3] : مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للأول من الروم ؛ وهى على ضفة البحر ، وهى مرسى مدينة القسطنطينة . وهى كثيرة الفواكه والخيرات والعنب فيها كثير ، وفيها تفاح جليل ؛ ولها نظر وجباية عظيمة (ر) وهى برية بحرية .

---

(ا) « وعلى فحوصها وقراها » ناقصة فى ك .
(ب) ك : يطيل . (ج) القراءة فى ب ، ج : ومرسى بونه يسمى مرسى منيع وهو من المراسى المشهورة . (د) ك : جوف . (ر) ك : فوائد عظيمة .

(1) البكرى ، ص ٥٤ وتابع ؛ الإدريسى ، ص ١١٦ – ١١٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٦٤ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٥ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٢١ – أ ؛ ابن حوقل ، ص ٥١

(2) يتكلم البكرى (ص ٥٨ والترجمة ، ص ١٤١ ) عن هذا الطائر عند ما يصف بنزرت . وكذلك الأمر بالنسبة للإدريسى (ص ١١٥) .

(3) البكرى (ص ٨٣) لا يقول شيئا عن هذا الميناء ؛ الإدريسى ، ص ١٠٢ – ١٠٣

مدينة جيجل[1] : مدينة قديمة على البحر وكان لها سور قديم يضرب البحر فيه ؛ وهي على نظر كبير . وهي كثيرة العنب والتفاح والفواكه ، ومنها تحمل الفواكه والعنب والرّب إلى مدينة بجاية . وعلى هذه المدينة جبل كتامة ، ويسمى جبل زَلْدوي (ا) [2]، وهو كثير الخصب فيه قبائل كثيرة من البربر ؛ وفيه كانت دعوة [أبي] عبد الله الداعي . وبين جيجل وبجاية ، على ساحل البحر ؛ موضع يسمى بالمنصورية [3] عليه جبل عظيم ، مما يلي البر منه حافة مثل الحائط ، فيها ثقب في غلظ حجر الربع الموزون به ، ينبعث منه ماء في كل وقت من الأوقات المعهودة بالصلوات الخمس (ب) ، يسمع قبل انبعاثه دوى كدوى الرحى الفارغة ، ينبعث الماء هكذا ليلا ونهارا في أوقات الصلاة خاصة . أخبر بذلك من شاهده وسهر الليل كله .

مدينة بجاية[4] : هي مدينة عظيمة على ضفة البحر ، والبحر يضرب في سورها . وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة ، أصحاب قلعة أبي طويل ، وتعرف بقلعة حماد اليوم . وكان سبب بنائها ، أن العرب لما دخلوا إفريقية وأفسدوا القيروان وأكثر مدن إفريقية ، هرب منهم صاحب القيروان الصنهاجي ، وتحصن بمدينة المهدية . وكان ابن عمه صاحب القلعة ، المنصور بن حماد ، أشد

---

(ا) أنظر Fagnan ، ص ٣١ (ب) القراءة في النص : فيها ثقب ينبعث منه ماء في غلظ حجر الربع الموزون به في كل وقت من الأوقات المعهودة للصلوات الخمس.

(١) البكرى ، ص ٦٤ ؛ الإدريسى ، ص ٩٧

(٢) قارن ابن خلدون ، الترجمة ( Berbères ) ، ج ١ ص ٢٩٢ ؛ الإدريسى (سوق بنى زندوى) . أنظر Fagnan ، هامش ٤ ص ٣١

(٣) الإدريسى ، ص ٩٨ (حصن المنصورية) ؛ البكرى (ص ٨٢) يتكلم عن الينبوع المتقطع ولكنه يذكر سيبية بدلا من المنصورية . قارن Fagnan ، هامش ٢ ص ٣٢

(٤) لا يخصص البكرى لبجاية (ص ٨٢ والترجمة ، ص ١٩٢) إلا عدة أسطر . قارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٣١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٩٥ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩١ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٥ - ا ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ١٢٧ . عن الواقعة بين العرب والحماديين فى سيبية على عهد الناصر والد المنصور ، وعن بناء مدينة بجاية ( الناصرية ثم المنصورية ) أنظر G.Marçais, Les Arabes en Berbérie du XI au XIV siècles, p. 137 sq., La Berbérie Musulmane, pp. 199, 200 et notes.

شوكة من صاحب القيروان وأكثر جيشا ، فخرج لنصرة ابن عمه وجيش جيشا كبيرا . فلقيته العرب بجملتها بفحص (ا) سَبِيبَة ، على مقربة من القيروان ، فكان بينهم يوم عظيم حتى هزم المنصور وقتل أخوه وأكثر صنهاجة . وذلك أن أخاه كان أسن منه فنهاه عن مقابلة العرب ، وقال له : « أقم أنت ببلادك وابعث إليهم وصانعهم يأتوك خاضعين وفى جبائك طامعين ، فهذا من خلق العرب قديما فلا تلقاهم » (ب) . فلما كان ذلك اليوم ، وهزم ، قال له أخوه : «ألم أنهك أن تلقاهم بنفسك ، ولكن اعطنى تاجك والراية أقم على الجيش ، وانج بنفسك ، فإن كانت السلامة فمن الله ، وإلا بقيت أنت للناس ، فليس منك الخلف » . وهذا من أغرب ما يصنع الأخ مع أخيه والولى مع وليه . فأعطاه عمامته ورايته وكانت مشهورة ، فسار بالجيش حتى لحق وقتل . وكانت لملوك صنهاجة عمائم شرب (ج) مذهبة يغلون فى أثمانها ، تساوى العمامة الـ ٥٠٠ دينار والـ ٦٠٠ دينار وأزيد . وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتى تيجانا (د) وكان (ر) ببلادهم صناع لذلك ، يأخذ (س) الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد . وكانت لهم قوالب من عود فى حوانيتهم ، يسمونها الرؤوس ، يعممون عليها تلك العمائم . فلما نجا المنصور إلى القلعة ، نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا [عليه] ببلاده ، فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم ، وكان لا يقدر على التصرف فى بلاده ؛ فطلب موضعا يبنى فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب (ص) فدل على موضع بجاية وكان مرسى . ويقال إنه كانت فيه آثار قديمة وإنها كانت مدينة فيما سلف ، فبناها المنصور ، وسماها المنصورية ، وانتقل ملكهم من القلعة إلى بجاية ، واتخذها دار مملكتهم ؛ وبينها وبين قلعة حماد مسيرة أربعة أيام .

وهى مدينة عظيمة ، ما بين جبال شامخة قد أحاطت بها ، والبحر منها فى ٣ جهات : فى الشرق والغرب والجنوب . ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادى الكبير ، وطريق القبلة إلى قلعة حماد على عقاب وأوعار ، وكذلك طريقها إلى الشرق . وليس لها طريق

---

(ا) ب ، ك : بأهل .

(ب) القراءة فى ك : وفى جبائك طائعين .. الا تلقاهم . وفى ب : طامعين .. فانى لا ألقاهم .

(ج) «شرب» ناقصة فى ك .

(د) ب ، ك : تاجان ، ج : تاج .

(ر) «وكان» ناقصة فى ب ، ك .

(س) ك : فأخذ .

(ص) القراءة فى ك : ولا يلحقها العرب .

سهلة إلا من جهة الغرب ، فلم يكن للعرب إليها سبيل ، ولا كان يدخل من العرب إلا من يبعث إليه(ا) الملك لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها ؛ فيدخلها أفراد وفرسان(ب) دون عسكر . فبقى صاحب بجاية فى ملك شامخ وعز باذخ (ج) يضاهى فى ملكه صاحب مصر ، فإن بجاية على نظر كبير وفائد عظيم . وبجاية معلقة من جبل وقد دخل فى البحر يسمى مسيون (د) ، وعليها سور عظيم ، والبحر يضرب فيه . و لها داران لصناعة المراكب ، و إنشاء السفن ، ومنها تغزا بلاد الروم فإنها ليس بينها وبين صقلية غير ٣ مجار (ر) . وهى مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم ، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر ، وبلاد اليمن ، والهند ، والصين ، وغيرها . ومدينة بجاية كثيرة الفواكه والأثمار ، وجميع الخيرات . وهى مشرفة ، نزيهة ، ومطلة على البحر وعلى فحص قد أحاطت به جبال دوره نحو ١٠ أميال ، تسقيه أنهار وعيون ، وفيه (س) أكثر بساتينهم . ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين أو دونهما ، وعليه كثير من جناتهم ، وقد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر ، وله منتزه عظيم . وفى بجاية موضع يعرف باللؤلؤة ، وهو أنف من الجبل قد خرج فى البحر ، متصل بالمدينة ، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون أحسن منها بناء ، ولا أنزه موضعا ؛ فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية ، والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها ؛ قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب واللازورد ، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة ، وصورت فيها الصور الحسنة ، فجاءت من أحسن القصور وأتمها(ص) منتزها وجمالا . وهذا الجبل مسيون(ط) ، الذى فيه بجاية ، جبل عظيم عال قد ذهب فى الجو ، وقد خرج فى البحر ، وفيه مياه سائحة ، وعيون كثيرة وبساتين ، وهو كثير القردة ؛ ويكون فيه الحيوان المشوك المسمى بالذرب(ع) .

---

(ا) ب ، ج : يبعث عند . (ب) ك : فارس أو فارسان . (ج) «فى ملك شامخ وعز باذخ» ناقصة فى ك . (د) النص أمسيول . أنظر Fagnan ، ص ٣٥ (ر) ب ، م ، ك : بحار . (س) ك : وفيها .
(ص) «وأتمها» ناقصة فى ك . (ط) ب : أمسيول ، ك : أمسيون .
(ع) ب : الذى يسمى الدوب .

قال الناظر : لما كانت هذه المدينة على ما وصفت ، وكان فيها بقية صنهاجة الموتورين (ا)، جعلوا يداخلون أمثالهم ممن وترت دنياه وأخراه، كأهل ميورقة المنقطعين فيها من أبناء جنسهم ، فدهم بجاية منهم على بن اسحق بن محمد بن غانية المسوفى (ب) سنة ٥٨٠ [=١١٨٤] أول ولاية الخليفة أمير المؤمنين أبى يوسف ، أيد الله أمره وأعز نصره . وعاث فيها وفى ذواتها (ج) ودرج منها إلى قسطنطينية فطردته منها عساكر الموحدين ، فتوغل فى بلاد الجريد ، وعاث فيها ، وسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وأباح الحريم ، وفعل ما هو لائق بجدته (د) ووخامة مولده (ر) . فسارع لغزوه أمير المؤمنين ، واستأصل شأفته (س) ، ومات — لعنة الله عليه — برشقة سهم على توزر ، عقب سنة ٥٨٤ [=١١٨٩][١].

مدينة مرسى الدجاج[٢] : مدينة أزلية على شاطئ البحر ، والبحر يضرب فى سورها . وهى قديمة البناء وفيها آثار عجيبة للأول ، ولها بساتين وجنات ، وبها الطير المسمى بالسمانى كثير من البحر ، ويقابلها (ص) جزيرة ميورقة .

---

(ا) ب : الموروثون ، ج : الموترين ، ك : المؤثرين .

(ب) القراءة فى ب : كأهل ميورقة جنسهم فنهم على بجاية على بجاية منهم على بن اسحاق ابن غانية ، وفى ج : بن غانية المسرف ، وفى ك : . . جنسهم على بجاية منهم محمد بن اسحاق بن غانية المتوفى .

(ج) ب : دارتها ، ك : دورانها . (د) ب : متحددة . والظاهر أن المؤلف يريد بهذا التعريض بجدة العائلة الميورقية وهى غانية . (ر) « وفعل ما هو لائق بجدته ووخامة مولده » ناقصة فى ك . (س) ك : شأنه .

(ص) ك : ونقار بابها .

(١) عن فتح بجاية سنة ٥٨٠ (١١٨٤) وغزو إفريقية على أيدى بنى غانية أنظر E. Lévi-Provençal , Lettres officielles almohades (مجموعة رسائل موحدية ، الرسائل رقم ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥) ، Etudes, p. 58 sq. ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٥ ؛ ابن عذارى (Anonimo) ص ٤٣ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٣٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٠ ؛ A. Bel, le Banu Ganiya .

(٢) قارن البكرى ، ص ٦٥ ، ٨٢ ؛ الإدريسى ، ص ٨٩ ؛ ابن حوقل ، ص ٥١ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٦

مدينة جزائر بنى مَزْغَنَّاى (ا) [1] : مدينة أزلية على ضفة البحر ، والبحر يضرب فى سورها . وهى قديمة البناء أزلية فيها آثار عجيبة تدل على أنها كانت دار مملكة لسابق الأمم ؛ وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملونة(ب) مثل الفسيفساء ، فيها صور الخيل والحيوان بأحكم صناعة ، وأبدع عمل . ويتصل بجزائر بنى مزغناى فحص كبير يسمى فحص مَتيْجة ، وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقه الأنهار ؛ وهو مرحلتين فى مثلها قد أحدقت به جبال مثل الإكليل . وفى آخر هذا الفحص جبل عليه الطريق ، وهو وعر المجاز ، يسمى حلق واجر(ج) ، ويسميه أهل البلاد باب الغرب ؛ وليس يدخل إلى بلاد الغرب إلا منه . وكانت بمدينة بنى مَزْغَنَّاى كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان ، بقى اليوم منه جدار هو قبلة الشريعة للعيدين(د) ؛ وهو كثير النقوش والصور . ومرساها مأمون ، وفيه عين عذبة يقصد إليها أصحاب السفن ؛ ويقابل هذا المرسى من الأندلس مرسى شكله . وتليها بجهة الغرب مدينة لغانية .

مدينة لغَانِية[2] : هى مدينة كبيرة قديمة فيها آثار كثيرة للأول ؛ وهى غير مسكونة ، ولها نهر يصب فى البحر . ويقابل هذا المرسى — فى بر الأندلس — مرسى مدينة دانية أو هو أوسع بوسطه فى هذا البحر .

مدينة شَرْشَال[3] : مدينة كبيرة فيها آثار للأول ، وهى غير مسكونة . وفيها بنيان عجيب (ر) يسمى محراب سليمان قد علا فى الهواء ؛ ويقابله من الأندلس مرسى ألاقَنْت(س) .

---

(ا) ب : مزغنة . (ب) ك : ملفقة .
(ج) ك : حلق واحد . أنظر البكرى ، ص ٦٥
(د) هنا يوجد خرم فى ك مقداره عدة صفحات . (ر) ج : عظيم .
(س) ب : لطنت .

(1) قارن البكرى ، ص ٦٤ — ٦٥ ؛ الإدريسى ، ص ٨٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٦٤ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٥ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢٥٢ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٥ — ١ .

(2) البكرى (جنابية) ، ص ٨٢

(3) البكرى ، ص ٨١ — ٨٢ ( هذه المدينة تقع بالنسبة للأندلس أمام المرية ، أما لقنت فهى واقعة أمام مدينة أكور على بعد ٢٠ ميلا شرق تنس ) ؛ الإدريسى ، ص ٨٩ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٢ . قارن Fagnan ، هامش ١ ص ٤٠

مدينة تنَّس[1] : بينها وبين البحر ميلان ؛ وهي مدينة مسورة حصينة ، وداخلها قصبة صعبة المرتقى ينفرد بسكناها عامل تنس لمنعها . وبها مسجد جامع وأسواق حفيلة كثيرة ؛ ولها نهر يسمى تامَسَن يأتيها من جبال القبلة ثم يستدير بها من جهة الشرق والجوف ، ويصب في البحر . وهي كثيرة الزرع ، رخيصة الأسعار ، منها يحمل الطعام إلى الأندلس وإلى بلاد إفريقية وإلى بلاد المغرب لكثرة الزرع عندهم . ولكنها وبيّة ، من يدخلها لا يسلم من المرض ، وكثيرا ما يموت بها الغرباء . ولذلك قال بعض الشعراء فيها :

| | |
|---|---|
| أيها السائل عن أرض تنس(ا) | بلد اللؤم لعمرى والدنس |
| بلد لا ينزل القطر بها | للندى فى أهلها حرف دَرَس |
| فصحاء النطق فى لا أبدا | وهم فى نعم بسكم خُرُس |
| ماؤها من قبح ما خصت به | نجس يجرى على أرض نجس |
| فمتى تلعن بلادا مرة | فاجعل اللعنة اذا بالتنس |

وأعلمني الثقة أن بها فيران ضخمة .

مدينة قصر الفُلُوس[2] : هي مدينة كبيرة ، مرسى للمراكب ، فيها آثار كثيرة للأول تنبىء أنها كانت دار مملكة ؛ وهي اليوم خراب . وفيها ماء مجلوب على قناطر(ب) بأغرب ما يكون من البناء القديم .

مدينة وَهْرَان[3] : هي مدينة على ضفة البحر بناها جماعة من الأندلسيين البحريين بسبب المرسى ، بالاتفاق (ج) مع قبائل البربر المجاورين لها ؛ فسكنوها مع قبائل من البربر يقال لهم بنو مَسْكين نحو ٧ أعوام . ثم إنه

---

(ا) ب : تونس . (ب) النص : قناطير . (ج) النص : بالتفاق .

(1) البكرى ، ص ٦١ وتابع (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٧٧) . قارن الإدريسى ، ص ٨٣ ؛ الدمشق ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٢ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢١٥

(2) البكرى ، ص ٧٩ ، ٨١ ، قارن ابن حوقل ، ص ٥٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١١٨ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٤٢٢

(3) البكرى ، ص ٧٠ — ٧١ . قارن الإدريسى ، ص ٨٤ ؛ الدمشق ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٢ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٧٢ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ٢٩٩

زحف إليهم قبائل كثيرة من البربر يطلبون ثأرا بينهم وبين بني مَسْكين فأبى من كان فيها من الأندلسيين، وكان عندهم جماعة منهم، فنصبوا عليهم الحرب. فلما ضيقوا عليهم هربوا بني مسكين في الليل؛ وتغلب البربر المحاصرون لها عليها وأخرجوا من كان فيها، وأضرموا نارا فخربت وهران عند ذلك، وبقيت سنين خربة؛ ثم تراجع الناس إليها وبنوا فعادت أحسن مما كانت. وهي مدينة كثيرة البساتين والثمار، ولها ماء سائح وأنهار كثيرة وأرحاء وعيون، وهي من أعز البلاد. ولها نظر كبير فيه قرية كبيرة فيها آثار قديمة؛ وأهلها موصوفون بعظم الخلق وكمال القامة والإباء (ا) والشدة.

قال أبو عبيد البكري: أخبرني غير واحد ممن دخل هذه القرية ورأى أهلها أن الرجل الكامل من غيرهم يكون إلى منكب الرجل منهم. وأنه كان رجل منهم أراد أن يقيم بيتا، فاقتطع ألف كلخة وحملها على ظهره وسوى منها بيتا كبيرا وسكنه. ولوهران مرسى كبير، مشتى للسفن، يُكن من الريح لأنه في حوز(ب) جبل مطل على وهران مرتفع.

مدينة أرْشْجُول (ج) (1): مدينة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة؛ وهي على نهر تافْني (د) وهو نهر كبير تدخل فيه السفن. والمدينة قريبة من البحر تصل إليها المراكب اللطاف. وهي ساحل تلمسان، بينها وبين تلمسان فحص زَيْدُور لحرث القمح (ر) وهو مبارك مشهور البركة.

مدينة أسْلي (2): وهي بشرقي أرشجول بمقربة منها؛ وكانت مدينة قديمة عليها سور من صخر؛ وكانت حصينة، ولها نهر يسقي بساتينها وثمارها.

---

(ا) ب: الأبد. (ب) ج: جوف. (ج) ج: أرشكول.
(د) ج: بأرق، ب: بأدنى. قراءة البكري هي الصحيحة أنظر ص ٧٧
(ر) ب، ج: فحص تربة لحرث القمح.

(1) البكري، ص ٧٧ – ٧٨. قارن الإدريسي (أرشقول)، ص ١٧٢؛ الدمشقي، ص ٢٣٥؛ ابن حوقل (أرشكول)، ص ٥٣؛ أبو الفدا، الترجمة، ج ٢ ص ١٧١
(2) البكري (أسلن)، ص ٧٩

مدينة فَكّان (ا) (١) : هي مدينة أزلية كبيرة فيها آثارة كثيرة للأول ، ثم إنها خربت ، فبعث إليها المنصور بن أبي عامر من بناها وعمرها . وهي قريبة من البحر .

حصن زَيّان (٢) : له نهر كثير الثمار والأشجار ؛ وبالقرب منه حصن الفُرُوس وهو على قنة جبل على ضفة البحر ؛ وبالقرب من هذا الحصن ؛ الوردانية ، وحصن وهنين (ب) ، ومرساه مقصود وله بساتين كثيرة .

مدينة نَدْرُومة (ج) (٣) : من طرف (د) جبل تاجرّا ؛ وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار . ولها بسائط خصيبة (د) ومزارع كثيرة ؛ وبينها وبين البحر نحو ١٠ أميال . وبساحلها نهر ماء يسيل ؛ وهو نهر كثير الثمار ، وله مرسى مأمون مقصود ، وعليه رباط حسن فيتبرك به . وقيل إنه من أتى [فيه] منكرا لم تتأخر عقوبته ؛ وقد عرف ذلك من بركته ، وحسن صنع الله فيه .

مدينة ترْنانا (٤) : كانت مدينة كبيرة مشهورة على ساحل البحر ، وكانت محطا للسفن ومقصدا لقوافل سجلماسة وغيرها . وكان سكانها من قبائل البربر ومطغرة(س) ، وهم أعدل من هنالك من البربر . وعلى هذا الساحل مدن كثيرة قد خربت ، وكانت في سالف الأزمان آهلة كثيرة الخصب ، مثل مدينة تاجْريت (ص) وهي ساحل ، وبه مدينة مَليلْة (٥) ، وهي مدينة قديمة

---

(ا) ج : فا كان . (ب) ب : حصن حصين . (ج) ب : ندوم .
(د) ب : من قرب . (د) ج : مفيدة . (س) ج : من قبائل البربر مطغرة .
(ص) قراءة البكري (ص ٢٠٤) تافرجنوت ، الإدريسي (ص ٢٠٥) تافرجنوت ؛ أنظر Fagnan هامش ٣ ص ٤٤

(١) البكري ، ص ٧٩ ( يعزى بناء أسلن من جديد الى بن أبي عامر بينما ينسب تأسيس فكان الى يعلى بن محمد محمد بن صالح . أنظر Fagnan ، هامش ٢ ص ٤٣ . قارن الإدريسي (أفكان) ، ص ٨٢ — ٨٣
(٢) البكري (حصن ابن زينا) ، ص ٧٩
(٣) البكري ، ص ٨٠ . قارن الإدريسي ، ص ٨٠
(٤) البكري ، ص ٨٠ ؛ الإدريسي ، ص ٨٠
(٥) البكري ، ص ٨٨ — ٨٩ ؛ الإدريسي ، ص ١٧١ — ١٧٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٤١ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٣ ؛ العبدري (ملاله) ، المخطوط ، ص ١٤٧ — أ

مشهورة ولها سور صخر وداخلها قصبة مانعة . ودخلها الناصر سنة ٣١٤ [=٩٢٦] ، وبنى سورها .

مدينة عَجْرود[١] : مدينة قديمة على البحر فيها آثار كثيرة ومرسى مقصود .

مدينة نُكُور[٢] : وهي مدينة كبيرة ، بينها وبين البحر نحو ١٠ أميال ؛ وهي بين رواب (ا) وجبال ، ولها نهران أحدهما يسمى(ب) نُكُور وبه سميت ، ومخرجه من بلاد كزناية(جـ) من جبل كوين (د) ؛ ومن هذا الجبل ينبعث النهر المعروف بوَرْغة ، وهو نهر كبير مشهور من أنهار المغرب . ومدينة نكر كثيرة البساتين طيبة الفواكه لاسيما الكمثرى والرمان ، فليس يوجد مثلها في بلدة . وهي قديمة أزلية افتتحها سعيد(ر) بن إدريس بن صالح الحميري ، وهو المعروف بالعبد الصالح ، في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان . وكان دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول قبل موسى بن نصير ، وعلى يديه أسلم البربر المجاورين (س) لهذه المدينة ، وهم صنهاجة وغمارة . ثم ارتد منهم بشر كثير لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام ، ثم تلافاهم الله بهدايته(ص) ؛ ومات سعيد المذكور ودفن بقرية أقطى (ط) على شط البحر ، وولي ذلك البلد بنوه . وكانت لهم حروب كثيرة مع قبائل البربر ، وكانوا قد تصاهروا مع الحسنيين من بني إدريس ملوك المغرب . ويجاور مدينة نكر جبل غمارة ، وتحته مراسي كثيرة ، منها مرسى باديس(ع) ، عليه عمارة كثيرة من البربر ، وفيه السعر رخيص ومنه تحمل المراكب الطعام .

---

(ا) ب : دوايب . (ب) «يسمى» ناقصة في ب .
(جـ) ب : كرانية . (د) أنظر Fagnan ، ص ٤٥
(ر) النص : سعد . أنظر Fagnan ، ص ٤٥ (س) ب : المجاورة .
(ص) القراءة في ب : ثم تلا بهم الله بعد لايته . (ط) ب : الطي ، ج : أكضر
أما اقطى فهي قراءة البكري : أنظر Fagnan ، ص ٤٥
(ع) ب : مراسي بادس ، ج : مرسى بايدس ، البكري (ص ٩٠) : باديس
وانظر Fagnan ، ص ٤٦

(١) البكري ، ص ٨٩ ؛ الادريسي ( ص ١٦٣ — ١٦٤ ) لا يتكلم إلا عن موقف على الطريق من مصر الى المدينة يسمى عجرود .

(٢) البكري ، ص ٩٠ وتابع . قارن الادريسي (بزكور أو نكور) ، ص ١٧١ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٣

مدينة تِيطَّوَان [1] : وهي مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع ، طيبة الهواء والماء .

مدينة سَبْتَة [2]: وهي على ضفة البحر ، وهو بحر الزقاق ؛ والبحر قد أحاط بها شرقا وجوفا وقبلة ،وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب ، لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه (ا) . ولها بابان أحدهما محدث (ب)، ولها من جهة البحر أبواب كثيرة . وفي آخر المدينة بشرقها جبل كبير في شعراء كثيفة يسمى جبل المينا (ج) ، وقد كان محمد بن أبي عامر (د) أمر أن يبني بهذا الجبل مدينة وينقل إليها أهل سبتة ،فبنى سورها ومات ولم يتم ما أراد ؛ والسور باق إلى وقتنا هذا كأنه مبني بالأمس ؛ وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه . ومن غريب ما في ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها مبنية بالزيت عوضا من الماء ، وكان غرضه إتمام عمله (ر) على هذا لولا الإنفاق الكثير ، فان البناء بالزيت أصلب وأبقى على مرور الدهور (س) والأزمان ، فلم يساعده الأجل رحمه الله .

ومدينة سبتة مدينة قديمة سكنها الأول ، فيها آثار كثيرة وكان لها ماء مجلوب من نهر قرية أويات (ص) على ٣ أميال منها ، يجرى الماء في قناة مع ضفة البحر القبلي الذي يعرف ببحر بسول (ط) ؛ وكان يدخل كنيستها التي هي اليوم جامع سبتة. وأمر الخليفة أمير المؤمنين أبو يعقوب رضه سنة ٥٨٠ [= ١١٨٤] بجلب الماء إليها من قرية بَلْيُونَش المذكورة (ع)، على ٦ أميال من سبتة ، في قناة تحت الأرض

(ا) «لقطعوه» ناقصة في ج . (ب) ب : تحدث . (ج) أنظر Fagnan ، ص ٤٦ (د) ب : عبد الملك بن مروان ، ج : عبد الملك بن أبي عامر. أنظر الإدريسي ، ص ١٦٧ ؛ البكري ، ص ١٠٣ (ر) ينتهي هنا الخرم الموجود في ك . (س) ك : مر . (ص) ماويات .
(ط) ب ، ك : بسوال ، ج : ببوال ولكن قراءة البكري هي الأصح (ص ١٠٢)، أنظر Fagnan ، ص ٤٧ (ع) ب ، ج : بليوانش .

(1) قارن الإدريسي (تطاوان تسكنها قبيلة تسمى مجكة) ، ص ١٦٧

(2) البكري ، ص ١٠٢ وتابع ؛ الإدريسي ، ص ١٦٧ – ١٦٨ (حسب الإدريسي بنى ابن أبي عامر سورها وأمر بنقل المدينة إلى سفح الجبل) ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٣ ؛ المقدسي ، ص ٢٢٩ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦٩ ، ١٨٦ وهامش ٤ ص ١٨٥ (عن قصر المجاز) . يتكلم البكري عن جبل القردة عند ما يتكلم عن مدينة طنجة (ص ١٨٣) .

حسب ما جلبه (ا) الأوائل فى قرية قرطاجنة وغيرها . وشرع العمل فعرضت أمور أوجبت التربص إلى حين يأذن الله تعالى بذلك ، والرجاء الآن مؤمل ونحن فى سنة ٨٧ [٥][=١١٩١] . وعلى قرية بَلْيُونَش المذكورة جبل عظيم فيه القردة ، عبر من تحته موسى بن نصير إلى ساحل طريفة فسمى به وهو الصحيح . وكان عليه حصن هدمه مصمودة المجاورون له ، ثم بناه الناصر عبد الرحمن المروانى ، فهدموه ثانية . وتحته أرض خصيبة فيها مياه عذبة ، ومنه إلى مرسى باب اليم (ب) ، وعليه قرية تعرف بقصر مصمودة ، ولها نهر يصب فى البحر عذب ؛ ومنه يقرب الجواز إلى جزيرة طريفة ١٨ ميلا .

مدينة طَنْجة [١] : هى مدينة كبيرة أزلية ، فيها آثار كثيرة للأول وقصور وأقباء وغيرها . وكان فيها ماء مجلوب فى قناة كبيرة ، وبخارجها ماء طيب (ج) يسمونه بَرْقَال حل(د) شناعة الحمق فهم يعبرون بشربه ؛ فيقال لمن تهافت منهم : « شربت ماء بَرْ قال لا جناح عليك » ؛ وفيه يقول الشاعر :

بطنجة عين ماء وسط رمل ... لذيذ ماؤه كالسلسبيل
خفيف وزنه عذب ولكن ... يطير بشاربه (ر) ألف ميل

وكان فيها رخام وصخر منجور جليل ؛ منها كانت القنطرة على بحر الزقاق إلى ساحل أندلس التى لم يكن فى العالم مثلها . وكانت تمر عليها القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس ؛ فلما كان قبل فتح المسلمين جزيرة الأندلس بنحو ٢٠٠ سنة ، طغى ماء البحر وخرج من البحر المحيط إلى بحر الزقاق ، فغرق هذه القنطرة وغيرها من المواضع المجاورة لها . ويذكر أن طولها كان ١٢ ميلا ، وسعة المجاز اليوم فى موضعها ٣٠ ميلا ونحوها . وتبدو هذه

---

(ا) ك : جافة . (ب) ب : باب البحر ، ج : باب البرّ ، ك : باب اليم ، البكرى : باب الميم . أنظر Fagnan ، ص ٤٨
(ج) ج : ودجاجها عيى ، ك : وصهاريج ولها عين ماء . (د) ب : حصل .
(ر) ب : يطير شاربها ، ج : شرابه .

(١) البكرى ، ص ١٠٤ ، ١٠٩ ؛ الإدريسى ، ص ١٦٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٨ (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٥٥٩) ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٥ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٢١٢ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩٨

القنطرة للمراكب فيتحفظون منها ؛ ويقال إنها تنكشف فى آخر الزمان ويجوز عليها الناس ، والله أعلم بغيبه .

وقيل(ا) إن طنجة آخر حدود إفريقية فى المغرب ؛ ومسافة ما بين طنجة والقيروان ١٠٠٠ ميل . وهى طنجة البيضاء المذكورة فى التواريخ . وقيل إن عمل طنجة كان مسيرة شهر(ب) فى مثله ، وإن ملوك المغرب من الروم وغيرهم من الأمم كانت دار مملكتهم مدينة طنجة ، وذلك من أجل القنطرة لئلا يفجأ العدو إحدى الجهتين ، والله بغيبه أعلم . وإذا حفرت خرائب طنجة وجدت فيها أصناف الجوهر ، فيدل ذلك على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة . وقيل إنه يسامت طنجة فى البحر المحيط الأعظم الجزائر المسماة قرطناقش(ج) ومعناه السعيدة ، سميت بذلك لأن أرضها تحمل الزرع دون حرث ، وشعراؤها وغياضها كلها أصناف الفواكه الطيبة العجيبة دون غراسة(د) ، وفيها أصناف الرياحين العطرة بدل الشوك . وهى متفرقة فى البحر متقاربة بغربى بلاد البربر ، يذكر ذلك أهل سواحل المغرب ؛ وقد رأيت من امتحن فى طلبها . ويقال ، لطنجة نهر كبير تدخل فيه السفن يصب فى البحر ، وهو يأتى من جبال طنجة وتأتى فيه سيول عظام تذهب ببعض دورها .

مدينة أصيلا (ر) (١) : كانت مدينة كبيرة أزلية عامرة آهلة كثيرة الخير والخصب . وكان لها مرسى مقصود ، وكان سبب خرابها أن المجوس إذا خرجوا من البحر الكبير فأول ما يلقون مدينة أصيلا ، فينزلون بمرساها ويخربون ما قدروا منها ، فيجتمع البربر فيحاربونهم ؛ فكانوا معهم على ذلك مع ما كان بين أهل تلك البلاد من الفتن . ويقال إن المجوس قصدوا إليهم مرة فاجتمع البربر لقتالهم ، فقالوا لهم : « ما جئنا لقتال وإنما لنا ببلادكم أموال وكنوز ، فتنحوا عنا حتى نستخرجها ونشاطركم فيها » . فرضى البربر بذلك واعتزلوا عن الموضع

---

(ا) ك : وقال . (ب) ب : كان مسير شهرا . (ج) ب : قرطناقس وقرطاقس ، ك : قرطناش . أنظر البكرى ، ص ١٠٩

(د) «دون غراسة» ناقصة فى ب ، ج . (ر) البكرى (ص ١١١) : أصيلة وأصيل ؛ الإدريسى (ص ١٦٩) أزيلا ؛ ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٣٥) : أزيل .

(١) أنظر البكرى (أصيلة وأصيل) ، ص ٨٦ ، ١١١ ، ١١٢ . قارن الادريسى (أزيله ، وأزيلا) ، ص ١٦٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان (أزيله) ، ج ١ ص ٢٣٦ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٥ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٥٥

الذى ذكروا لهم ، فحفر المجوس موضعا من تلك المواضع التى زعموا فوجدوا على الخبء مطامير من الدخن فاستخرجوه ؛ فلما نظر البربر من بعيد إلى صفرة الدخن ظنوه تبرا ؛ فبدروا إليهم ونقضوا عهدهم وهرب المجوس إلى مراكبهم . فلما أصاب البربر الدخن ندموا فرغبوا إلى المجوس أن يرجعوا إلى استخراج المال فأبوا ؛ وقالوا : « قد رأينا منكم نقض العهد فلا نأمنكم أبدا » .

مدينة تُشُمُّس(ا)[1] : وهى مدينة قديمة أزلية فيها آثار للأول ؛ وهى على نظر واسع كثيرة الخصب والزرع والضرع . وهى تشبه بلاد الأندلس ، وبقربها بحيرة كبيرة تسمى أمسنا ، يصب فيها البحر ٧ أعوام وتصب هى فى البحر ٧ أعوام ؛ وينقطع البحر عنها فتظهر فيها جزائر بينها غدران يتصيد فيها أنواع السمك . وبين البحر والبحيرة مسجد مقصود يسكن حوله النساك وأهل الخيرة ، وأمرهم مشهور بتلك الجهات معروف .

مدينة سَلاَ[2] : اسمها بالعجمى شلّة (ب) ؛ وهى مدينة أزلية فيها آثار للأول . وهى معروفة بضفة الوادى ، متصلة بالعمارة التى أحدثها الخليفة الإمام أمير المؤمنين وآباؤه المكرمون . وقد كان اتخذ أرباب البلد العشريون وأولياؤهم مدينة بالعدوة الشرقية ، وهى المعروفة الآن بسلا ، فيها ديارهم بحومة الجامع ؛ ولم يبق منه سوى المنار ، وأما السقف كله فتهدم واحتمى الغرباء فى بنائه فى سنة ٥٧٤ [ = ١١٧٨ ] . وأمر الخليفة أبو يعقوب رضه ببناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة التى أحدثها الإمام أمير المؤمنين ، وفى هذه القصبة جامع وقصور ، وصهاريج الماء أمام الجامع وهو مجلوب من نحو ٢٠ ميلا . وفى هذه المدينة المحدثة قيصارية عظيمة وحمامات وفنادق(ج) وديار كثيرة ومياه مطردة وسقايات ومنافع

---

(ا) ك : نشوس .    (ب) ب : شلا .    (ج) ك : وحمام وفندق .

[1] البكرى ، ص ١١٣ ؛ قارن الإدريسى ( تشمش ) ، ص ١٦٩ ؛ ابن حوقل ( وادى تشمس) ، ص ٥٤

[2] البكرى ، ص ٨٧ ؛ الإدريسى ، ص ٧٢ — ٧٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٠٩ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٥ ، أبو الفدا ، الترجمة ، ص ١٨٣ . هنا تعتبر المعلومات التى يمدنا بها المؤلف أصيلة كبيرة الأهمية .

أعدت لورود المحلات عليها — إذ [أن] وضعها على المجاز والمعبر (ا) — إلى حضرة مراكش كلأها الله . وعلى هذا المعبر قنطرة مركبة على ٢٣ معدية ، مدت عليها أوصال الخشب وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذى لا يؤثر فيه الحافر ، تجوز عليها العساكر والمسافرون ؛ وحولها يتصيد أنواع السمك والشابل(ب) . ويمد البحر فترتفع القنطرة ويتغطى الجسر ، فتعوم عليه المراكب وترسو دونه الأجفان الكبار ؛ وقل ما تسلم عند دخولها وخروجها لصعوبة (ﺟ) المدخل ، وهو مشهور عند أهل صنعة البحر . ويقابله من مراسى بر الأندلس وادى شلب(د) ، وبينهما فى البحر يوم وليلة . وهذه المدينة قد شرفها هذا الأمر العزيز وكرمها بما أحدثه فيها من المبانى الرفيعة والمنارة البديعة ، وما هى وقت مرور المحلات عليها إلا من عجائب منتزهات الدنيا ، لاسيما فى الأعوام الخصبة والفصول المعتدلة . وناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء بالبشر ، والزوارق فى الوادى ركابها ، والمنارة المطلة ، وعلاقات الثمار ، وعقد الزيتون ، وجدر الكرمات ، وقبب(ر) الجلوس للسادات أيدهم الله ظاهرة ، وقبلة الجامع وأكثر منارة ذلك الحصن المشرف ظاهرة من المدينة . وماهى فى أوقاتها إلا أملح(س) من ديار مصر ، وما يحكى عن دجلة والفرات ؛ فإنا لله على الفناء والممات ؛ ولله در من قال :

| | |
|---|---|
| الناس مثل حباب | والدهر بركة ماء |
| فعالم فى طفو | وعالم فى انطفاء |

وقد ذكرت البلاد الساحلية والتى تقرب من الساحل أو دونهما ، مثل القيروان ، للضرورة الباعثة على ذلك . ومن الناس من يرى أن طنجة آخر بلاد الساحل ، ويعتقد أن بحر أقناش إنما مدخله من هناك حيث أشبر تيال (ص) [1] ؛

---

(ا) ب : إذا وضعت عل الحاجز والمعبر .
(ب) ب ، ج : الشوابل . (ﺟ) ك : بصعبة .
(د) ك : ثملب . (ر) ج : قباب . (س) ك : أحسن .
(ص) ك : اشرفتيال . أنظر Fagnan ، ص ٥٤

[1] اشبرتيال عبارة عن تحريف كلمتى «الطرف الأغر» . قارن أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ هامش ٢ ص ٢٦٩ ؛ Fagnan هامش ١ ، ٢ ص ٥٥

وأنا أقول إن مدخل هذا البحر إنما هو من طرف ايغير (ا) الذى خلفه بلد نُول ، ويقابله طرف الريحانة (ب) حتى لو قطعه مركب بريح مصطحبة لأخذ أحدهما من مقابله (ﺟ) .

# ذكر البلاد الصحراوية
## والتى تقرب من الصحراء بمرحلة أو أكثر من الإسكندرية إلى آخر بلاد المغرب

مدينة المُـــنى[1] : هى أول مدينة تلى الاسكندرية على طريق الصحراء ، وهى ٣ مدن قائمة البناء خالية ، فيها قصور شريفة فى صحراء رمل ، يقطع فيها العرب على القوافل . ويسكن فى بعض تلك القصور الرهبان ، وبعدها كنيسة غريبة البناء فيها عجائب من الصور والنقوش ، توقد قناديلها ليلا ونهارا لاتطفأ ، وفيها صور الأنبياء عليهم السلام وصورة مريم عم فى عمود من رخام . وخارج الكنيسة صور جميع الحيوان والصناع والتجار ، ومن جملتها صورة تاجر الرقيق ، وبين يديه خريطة مفتوحة فى الأسفل ، تنبىء أن التاجر فى الرقيق لا ربح له . وفى وسط الكنيسة قبة فيها ٨ صور يزعمون أنها صور الملائكة (د) ، وفى جهة من الكنيسة مسجد محرابه إلى القبلة يصلى فيه المسلمون . وبقربها مدينة خربها الروم فيها قصور تعرف بقصور أبى معد (ر) ، يسكنها من قريش نحو ٢٠ بيتا ، وحواليها (س) قبائل كثيرة من العرب من بنى مُدْلِج وغيرهم ، وقبائل كثيرة من البربر . ويذكر أن كثيرا ما تتبدل صورة المولود عندهم

---

(ا) «ايغير» ناقصة فى ب . (ب) ك : أبى بحانة .

(ﺟ) القراءة فى ك : حتى قطع مركبان بريح مصطحبة لآخرها من مقابلة الآخر .

(د) ك : الملكية . (ر) ج : ابيعد . (س) ك : ومواليها .

[1] البكرى (منا وأبو مينا) ، ص ٢ ، ٣ ، ٤ ؛ أنظر Quatremère, Notice d'un Manuscrit..., p. 9 — 10

فيصير فى خلق الغول والسعلاة ، وإن عاش (أ) يعدو على الناس حتى يغل ويقيد . ولأجل ذلك يشتم أهل تلك البلاد وأهل إفريقية بعضهم بعضا يقولون : يامبدول(ب) . وقد أخبر الثقاة أنهم عاينوا ذلك وتحققوه .

مدينة بَرْقة [1] : وهى مدينة كبيرة أزلية قديمة ، فيها آثار كثيرة للأول ؛ وهى فى صحراء حمراء التربة والمبانى فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها ؛ وعلى ٦ أميال منها جبل كثير الخصب والفواكه والمياه السائحة . وأرض برقة كثيرة الخصب تصلح السائمة فى مراعيها ؛ وأكثر ذبائح أهل مصر والإسكندرية من غنم برقة لعظم خلقها وكثرة شحمها ولذة لحمها (ج) . واسمها باللغة الإغريقية بنطابلس (د) ، تفسيره ٥ مدن (ر) . ويذكر أن فى تلك الخرائب التى ببرقة والآثار القديمة دار منقورة فى حجر صلد ، عليها باب من حجر صلد كذلك ، من أغرب ما يكون فى الدنيا ، لا تدخل الذرة بين العضادة والباب ، ولا بين العتبة والباب ، ولا يفتح الباب إلا للداخل ، ولا يقدر أحد على الخروج منه إلا أن يدخل عليه آخر ، ويقال إنه كان مفتوحا لا قفل له . وأخبرنى بعض من دخل ذلك الطريق أن رجلا دخل فيه ليرى الدار ، فرأى دارا منقورة فى حجر صلد ، وفيها من عظام الناس كثير ، فهاله ذلك فأراد الخروج فوجد الباب قد انغلق ولم يقدر على فتحه ، وأيقن بالهلكة حتى طلبه بعض أصحابه فجاء إلى ذلك الباب فسمع صوته يستغيث بفتح الباب ، ففتحه فخرج الرجل . وفى تلك الآثار عجائب لمن يتأملها .

---

(أ) ك : يعاشر .
(ب) هنا يوجد اضطراب فى ب (ص ٦٦ – ب) إذ تأتى صفحة خاصة بمدينة فاس (أنظر طبعة Kremer ص ٧١ ) . أما عن بقية الحديث عن برقة فهو يوجد فى ص ٨٩ – ب ( السطر قبل الأخير وتابع ) . (ج) « لذة لحمها » ناقصة فى ك . (د) ك : بناطابلس . (ر) ك : تفسيره حسن .

(١) البكرى ، ص ٤ ؛ ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٥٧٣ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٤٧ – ب) . قارن الإدريسى ، ص ١٣١ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٩٧ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٧٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٤٣ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٤٣

مدينة أجدابية[1] : هي مدينة كبيرة فى صحراء صفا ، وآبارها منقورة فى ذلك الصفا (ا) ؛ طيبة الهواء والماء وبها عين ثائرة عذبة (ب) ، ولها بساتين ونخل يسير (ج) ؛ وبها جامع حسن البناء بناه الشيعي ؛ وله صومعة مثمنة بديعة العمل . وبها حمامات وفنادق كثيرة ، وأسواق حافلة مقصودة ، وأهلها ذو يسار وأكثرهم أقباط (د) ؛ وبها نبذ من صرحاء لواته . وليس لمبانيها سقوف من خشب ، وإنما هي أقباء من الطوب لكثرة الرياح بها . ثم كذلك قبائل البربر والعرب إلى جبل نفوسة[2] وطوله من المشرق إلى المغرب ٦ أيام ؛ وبينه وبين القيروان ٦ أيام ، وفيه مدن كثيرة . وفى هذا الجبل مواضع كثيرة فيها آثار قديمة للأول ، عجيبة فيها غرائب لمن تأملها . ووصل عمرو بن العاص — رحمه الله — إلى جبل نفوسة وافتتحه وكان أهله نصارى ، وفى جبل نفوسة رجع بكتاب عمر بن الخطاب رضه . وفى وسط هذا الجبل مدينة جادوا (ر) [ وهى ] مدينة كبيرة لها أسواق حافلة وأكثر أهلها يهود ، وهى أم قرى جبل نفوسة .

مدينة شَرُوس[3] : وهى مدينة كبيرة جليلة قديمة ، فيها آثار للأول ، وأهلها إباضية (س) ، وليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى ؛ وفى نظرها أزيد من ٣٠٠ قرية . ولا يرون فى مذهبهم الجمعة ، وفى هذا الجبل أمم كثيرة على مذاهب شتى ، وأكثرهم إباضية (ص) . وليس لهم أمير يرجعون إلى أمره وإنما

---

( ا ) « وآبارها منقورة فى ذلك الصفا » ناقصة فى ك . (ب) هنا لا توجد الجملة السابقة فى ك (أنظر هامش ( ا ) السابق) . (ج) ج : كثير . ( د ) النص : انباط . انظر Fagnan ، ص ٥٥ وهامش ٤ ؛ هامش ٢ ص ١٤٩
( ر ) «جادوا» لا توجد إلا فى ب فقط . (س) ك : وعليها خوارج .
(ص) ك : خوارج .

(١) البكرى ، ص ٥ (Quatremère, Notice d'un Manuscrit, P. 14). الشيعي هو أبو القاسم القائم الخليفة الفاطمي الثانى . قارن الإدريسى ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٣٢ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٧٨ — ١٨٠ .

(٢) قارن البكرى ، ص ٩ (Quatremère, Notice d'un Manuscrit, P. 19) ؛ الإدريسى ، ص ١٠٤ (طول هذا الجبل مسير ثلاثة أيام) ، ١٢٢ — ١٢٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٠٠ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٩ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ٢٢٢

(٣) البكرى ، ص ٩ (Quatremère, Notice d'un Manuscrit, P. 20) ؛ قارن الإدريسى ، ص ١٠٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان (شروس) ، ج ٤ ص ٨٥ ؛ الدمشقى ، ص ٢٢٨

لهم شيوخ وفقهاء فى مذاهبهم يرجعون إلى أمرهم، ولهم رخص كثير فى مذاهبهم. أخبرنى الثقة قال: رأيت رجلا دخل بلادهم فرأى إنسانا قد أراد التطهر، فنزل على ماء ونزع ثيابه وجعل يشبر كأنه يغتسل، وكأنه يتوضأ، وكأنه يريق على رأسه وعلى جسده الماء. فقال له الرجل ما هذا، فسكت عنه حتى فرغ، فأخذه الرجل الغريب وحمله إلى حاكم البلد، وقال له رأيت هذا يفعل كيت وكيت. فقال له الحاكم: من أين أنت، فقال من المغرب؛ فقال والله لولا أنك غريب ببلدنا لأدبتك، وما يدريك لعل له عذرا؛ قال الله تعالى: «يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»[1]. وهذا أفضل مذاهبهم (ا) فإن فيهم من لا يرى الاغتسال بالماء جملة؛ وإذا كان على أحدهم غسل يتمرغ فى التراب ويتيمم مكان الوضوء؛ وببلاد إفريقية من هذا المذهب كثير. والزنا الحرام (ب) بجبل نفوسة فى مذهبهم: ما منهم رجل غنى إلا وله وصائف (ج) كثيرة يلبسهن فاخر (د) الثياب ويحليهن بالحلى، ويبرزهن على الطريق للفواحش (ر)؛ ولهم ديار معدة لذلك، وهذا عندهم معروف لا ينكر. ومن جبل نفوسة إلى بلد غدامس ٧ أيام فى الصحراء؛ والماء منها على مسيرة ٣ أيام وأكثر. وبلد غدامس بلد كبير ونظر واسع كثير النخل والمياه؛ وأهلها بربر مسلمون لا يلتثمون على عادة بربر الصحراء من لمتونة ومسوفة وغيرها.

مدينة غدآمس[2]: مدينة لطيفة قديمة أزلية، وإليها ينسب الجلد الغدامسى. وبها دوامس وكهوف كانت سجونا للملكة الكاهنة التى كانت بإفريقية؛ وهذه الكهوف من بناء الأولين، فيها غرائب من البناء والآزاج المعقودة تحت الأرض ما يحار الناظر إليها إذا تأملها، تنبيء أنها آثار ملوك سالفة

---

(ا) ب: وهذا أفضل من مذهبكم. (ب) ب، ج: الخدم.
(ج) ك: بنات. (د) ك: بأفخر. (ر) ك: الفواحش.

(1) القرآن: سورة ٢، آية ١٨١

(2) أنظر البكرى، ص ١٨٢؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ٣ ص ٧٧٦؛ مراصد الاطلاع، ج ٢ ص ٣٠٣

وأمم دارسة ؛ وأن تلك الأرض لم تكن صحراء وإنما كانت خصيبة عامرة . وأكثر طعامهم التمر، والكمأة تعظم بتلك البلاد حتى تتخذ فيها اليرابيع والأرانب أحجارا . ومن غدامس يدخل إلى تادْمكّة (ا) [١] وغيرها من بلاد السودان .

مدينة زَوِيلة [٢] : مدينة كبيرة قديمة أزلية فى الصحراء ، تقرب من بلاد كانم (ب) وهى من السودان ؛ وقد أسلموا بعد الـ ٥٠٠ من الهجرة [ =١١٠٦] وهى مجتمع الرفاق وإليها يجلب الرقيق ، ومنها يخرج إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد . ولما فتح عمرو بن العاص برقة وجبل نفوسة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وافتتحها ؛ وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين . وبلد زويلة كثير النخل والثمار ، ويقربها قصر واجان [٣] ، وهو قصر عظيم على رأس جبل فى طرف المغازه ، وهو مثل المدينة ؛ فسار إليه ١٥ يوما فنزل عليه وحاصره نحو شهر ، فلم يقدر . فمضى أمامه على قصور كُوار ففتحها ، وأخذ ملكها فقطع أصبعه ؛ فقال : لم فعلت فى هذا ؛ قال عقبة : إذا نظرت إلى أصبعك لم تقاتل العرب (جـ) . وفرض عليهم ٣٦٠ رأسا ثم سألهم : هل وراءكم أحد فلم يعلموا ما وراءهم ، فكر راجعا على قصور واجان ولم يتعرض له ولا نزل عليه (د) ، وسار ٣ أيام . فلما رأوا أنه لم يتعرض لهم أمنوا وانبسطوا ، فأقام عقبة بموضع يسمى اليوم ماء الفرس [٤] ، فنفذ ماؤهم وأصابهم العطش حتى كاد يهلكهم .

---

(ا) ج : تامدة ، البكرى (ص ١٦٢) : تادمكت .   (ب) ك : كاغ .
(جـ) ك : السرب .   (د) ك : ولم يمض له وما يدل عليه ، ب : .. ولا نزال .

[١] أنظر البكرى ، ص ١٨١ — ١٨٢ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٩ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٩

[٢] البكرى ، ص ١٠ وتابع ( Quatremère, Notice d'un Manuscrit. p. 20 ) . قارن الإدريسى ، ص ١٠٩ ؛ يسرد ياقوت (معجم البلدان ، ص ٩٦٠ — ٩٦١) رواية البكرى ويتكلم فى نفس الوقت عن زويلة ضاحية المهدية التى بناها عبيد الله المهدى ؛ مراصد الاطلاع (ج ١ ص ٥٢٣) يقول إن زويلة اسم يطلق على عدد من القرى بين بلاد السودان وافريقية وهى واقعة إزاء جدابية ، ثم يفترض أن هذا اسم مدينة صحراوية أخرى قليلة الأهمية . وبعد القرى يذكر زويلة التابعة للمهدية ، وينهى حديثه بذكر زويلة من أحياء القاهرة . اليعقوبى ، ص ٣٤٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٧٨

[٣] قارن البكرى (قصر جوان) ، ص ١٣ . وانظر Fagnan ، هامش ١ ص ٦٢

[٤] قارن البكرى ، ص ١٤ ( Quatremère, Notice, d'un Manuscrit, p. 27 ) .

قال فصلى عقبة بأصحابه(أ) ركعتين ودعوا الله تعالى؛ فجعل فرس عقبة يبحث بيده(ب) فى الأرض حتى انكشفت صفاة تنبعث ماء(ج)؛ فنادى عقبة فى الناس أن احتفروا ، فاحتفروا فوجدوا ماء معينا زلالا يسمى ماء الفرس .

وكان يقال له عقبة المستجاب لأنه قل ما دعا فى نيل شىء إلا استجيب له ثم كر راجعا إلى قصر واجان من غير طريقه الذى أقبل منه ، فلم يشعروا حتى طرقهم ليلا فوجدهم مطمئنين ، فاستباح ما فى مدينتهم من ذرارى وأموال ونساء ، وقتل مقاتليهم ثم انصرف راجعا إلى زويلة . ومن زويلة كر إلى غدامس بعد خمسة أشهر ، وسار متوجها إلى المغرب . وجانب طريق الجادة ، وأخذ أرض مزّاته [1] وهم قبيل كبير (د) من البربر ، فافتتح قصورهم إلى قفصة (ر) فافتتحها وافتتح بلاد قسطيلية ، ثم انصرف إلى القيروان . ثم مضى فى بلاد المغرب حتى انتهى إلى أقصى(ر) بلاد السوس ، ثم انصرف راجعا فتوفى شهيدا بتهودة من بلاد الزاب .

بلاد الواحات (س) [2]: وهى بلاد كثيرة فى الصحراء ما بين بلاد إفريقية وبلاد مصر؛ ولولا قلة الماء فى هذه الصحراء لكان الطريق من إفريقية إلى مصر على الواحات أقرب . والدخول إلى بلاد الواحات من أوجلة ، وزّلى(ص) ، وغيرها ، التى فى صحراء مدينة طرابلس . وبلاد الواحات(ط) كثيرة التمر والنخل ، وفيها مدن كثيرة مسورة وغير مسورة ؛ وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى الواح :

---

(أ) ك : بالصحابة . (ب) ج ، ك : بئرا . (ج) القراءة فى ك : حتى انكشف صفاة مشبعة ماء .

(د) ك : قبائل شتى . (ر) الجمل الواقعة بين (ر) ، (ر) ناقصة فى ب .

(س) ب : بلد الواحات ، ك : بلد الوقات . (ص) أنظر أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٠ ؛ Fagnan ، هامش ١ ص ٦٣

(ط) ك : وبلاد الروم الواح .

[1] عن مزاته وهم قبائل من البربر استعربوا ، أنظر الادريسى ، ص ٥٧ ، ٨٦ ، ١٢٠ ، ١٣٣

[2] البكرى ، ص ١٤ وتابع ؛ الادريسى ، ص ٤١ ؛ ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٧٣) يظن أن كلمة واح كلمة قبطية ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٢ ؛ ابن دقماق ، ص ١٣ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٣ والهوامش . قارن J. Maspéro et G. Wiet, Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, t. 36 p. 219 sq.

أريس الواح(ا) ، وتنيس الواح ، والواح الخارج ، والواح صبْروا ؛ كلها لها اسم مثل هذا وأهلها مسلمون . وهي آخر بلاد الإسلام ، بينهم وبين بلاد النوبة مراحل . وفى بعض مدن الواحات قبائل من لواتة ، وإنما أهلها أقباط(ب) .
وزعموا أن فى أقصى بلاد الواحات بلد يقال له واح صبروا ، لا يقع عليه إلا من ضل فى الصحراء ، وفى النادر من الزمان . وأنه بلد عظيم كثير الخيرات من النخل والزرع وجميع الفواكه ومعادن الذهب ، وأنه أخصب بلاد الدنيا وأن الواقع عندهم يكون (ج) فى أخصب عيش ؛ فإذا أرادوا خروجه(د) من بلادهم ، أروه (ر) طرف بلاده (س) فتاقت(ص) نفسه إليها ؛ فلم يلبث عندهم ورحل كيفما (ط) استطاع . وقد وقع فى هذا البلد رجل من عرب بنى قرة ، وبقى فيه مدة ورجع إلى بلاده ، وأخبر بما رأى فيه من الخيرات وعما فى أيدى أربابه من الأموال ، وليس لها مدافعة ولا بصر بالحرب ولا سلاح لأنهم لم يعهدوا الحرب . فأهاج(ع) ذلك أمير بنى قرة وكان اسمه مقرب بن ماض[1] ، وعزم على النهوض إليهم . فأعد أزودة كثيرة وماء كثيرا ، وذهب فى الصحراء يطلب واح صبروا ، وضل(ف) به الرجل الذى دخل ذلك البلد فوصل مدينة الواح الخارج فسأل عن واح صبروا . فقالوا كلهم : ما نعرف له طريقا ولا يجده إلا من ضل فى الصحراء فى النادر من الزمان ، وهو كما ذكر لك وأكثر . فخرج من الواح الخارج يطلب واح صبروا ؛ فبقى يجول فى الصحراء مدة فلم يجده ولا قدر على الوصول إليه ، فخاف نفاد الزاد فكر راجعا . فنزل فى رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض فى بهاء (ك) تلك الصحراء ، فوجد بعض أصحابه فى نواحى تلك الربوة بيتا للأول ، فبحثوا عليه فإذا هو لبن من نحاس أحمر ، فزادوا فى البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمر للأول . فأوقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك اللبن ، وساروا حتى أتوا مدينة الواح الخارج فباعوا

---

(ا) ك : أرسيس . (ب) النص : انباط أنظر هامش (د) ص ١٤٤
(ج) «يكون» ناقصة فى ك . (د) ك : اخراجه .
(ر) «أروه» ناقصة فى ك . (س) ب : ضرب .
(ص) ب : فتقات ، ك : فاشتاقه . (ط) ك : كيف . (ع) ك : فأباح .
(ف) النص : ودل . (ك) «بهاء» ناقصة فى ج .

(١) وقعت هذه الحادثة ، حسب البكرى ، حوالى سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م ؛ انظر الترجمة ، ص ٤١ والهوامش . وابن دقاق (ص ١٣) يروى قصة مشابهة .

ذلك النحاس بأموال كثيرة . ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التي وجدوا فيها النحاس ، فلم يقدروا عليها وضلوا طريقها ؛ ولو وجدوها لكان فيها غناهم إلى آخر الدهر .

قيل أتى رجل من أهل الواح الخارج إلى مقرب بن ماض فأخبره أنه دخل حائط (ا) نخل كان له فوجد أكثر تمره قد أكل ، ووجد فيه أثر قدم إنسان لايشبه هذا الخلق فى العظم . قال فاحترسه هو وأهله (ب) ليال حتى طرقهم ذلك الشخص فرأوا خلقا عظيما لم يعهد مثله : فجعل يأكل التمر ، فلما هموا به فاتهم فلم يعلموا به أمرا . قال فنهض معهم حتى وقف على أثر ذلك الشخص فاستعظمه ، وأمرهم أن يحفروا زبية فى الموضع الذى كان يدخل فيه ، وغطوا أعلاها بالحشيش ورقبوه . ففعلوا ذلك ورقبوه ليال (ج) متتابعة ؛ فلما كان ذات ليلة أقبل ذلك الشخص على عادته ، فتردى فى الزبية فبادروا إليه بجميعهم وغلبوه بكثرتهم حتى أخذوه ، فإذا بامرأة سوداء عظيمة الخلقة مفرطة الطول والعرض لا يفقه منها كلمة . فرآها مقرب بن ماض فهاله أمرها ، فكلموها بكل لغة علموها من لغات (د) السودان فلم تجاوب بواحدة منها ، وتكلمت بكلام لايفهم . وبقيت عندهم أياما يأتمرون فى أمرها ، فقال لهم مقرب : نرى أن ترسل ، وتركب الخيل العتاق السوابق والنجب العشار (ر) فى إثرها إلى أن يوقف على موضعها ويعلم حقيقة أمرها (س) . فلما أرسلت ، فاتت الخيل والنجب وبارت الرياح فلم يقفوا على حقيقة خبرها (س) [1] . ويذكر أن بين بلاد الواح وبلاد الجريد من إفريقية رمال عريضة فيها بقاع تعرف بالجزائر وهى كثيرة النخل والعيون ، لا عمران فيها ، ولا أنيس بها . ويقال إنه يسمع فيها أبدا عزف الجن ، ولاشك أنها كانت بلادا عامرة . ويتكدس (ص) هناك من التمر تحت النخل أكوام لا يقع عليها أحد إلا الطير والوحش ، وربما انتجعه الناس فى السنين (ط) الجدبة وعند الضرورة .

---

(ا) ك : غائط . (ب) ك : وأهاليه . (ج) ك : ليـلا .
(د) ك : لغة . (ر) ك : والبحث العار . (س) الجمل الواقعة بين (س) ، (س) ناقصة فى ك . (ص) ك : يتكردس . (ط) ك : السير .

(1) البكرى ، ص ١٦ والترجمة ، ص ٤٢

قال الناظر : وصح عندنا أن قبيلة سليم المنقطعين فى صحراء طرابلس ينتجعون تمر هذه المواضع ، ومنهـا يتعيشون ، وإليها يلجأون عند المطالبة لهم وفيهـا يعتصمون ، وسمعت هذا قبل الوقوف عليه بمنه (١).

## ذكر بلاد الجريد من إفريقية

وإنما سميت بلاد الجـريد لـكثرة النخيل بهـا ؛ وهى مدن كثيرة وأقطار (ب) [١] واسعة وعمائر متصلة : كثيرة الخصب والتمر والزيتون والفواكه وجميع الخيرات . وهى آخر بلاد إفريقية على طرف الصحراء . وفيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة . فأولها من جهة الساحل مدينة قابس وقد ذكرناها فى البلاد الساحلية .

مدينة حامّة مَطْمَاطة [٢] : وهى مدينة قديمة مسورة ، وعليها هزم الخليفة أبو يوسف — أدام الله تأييده — شقّ ميورقة وأستأصل شأفته (ج) ؛ وسكانها قوم من البربر يعرفون (د) بمطماطة . وهى كثيرة التمر والزيتون والفواكه ؛ وفى المدينة عين كبيرة شديدة الحرارة فإذا استقى منها الماء برد لحينه ، ومنها يشربون ويسقون غابتهم وغلاتهم .

مدينة قَفْصَة [٣]: مدينة كبيرة قديمة أزلية ، كان لها سور حصين من صخر جليل بأحكم صناعة يخال لرائيه أنه كما فرغ من عمله . ويقال إن الذى بناه شيبان (ر) غلام النمرود بن كنعان الجبار ، وكان اسمه منقوشا على باب

---

(١) ب : بمنا ، ج : يمنى . (ب) ب : وانظار . (ج) ك : شوكته .
(د) ك : يوفون . (ر) ك : شبان ، البكرى (ص ٤٧) : شنتيان .

(١) الإدريسى (ص ١٠٣) يسميها بلاد التمر .

(٢) لا يتكلم البكرى (ص ٤٨) إلا عن الحمة . قارن الإدريسى ، ص ١٠٤ ؛ اليعقوبى (حمة تقيوس) ، ص ٣٥٠ ؛ وعن هزيمة بنى غانية فى حمة مطماطة أنظر E. Lévi-Provençal, Lett. off. alm. No. 30 p. 187, étude, p. 60 ؛ التيجانى ( حمة تقيوس وحمة بهلول ) ، J. A. 1852 II, 185 trad., p. 124 . وهنا يخطئ عبد الواحد المراكشى (المعجب ، ص ١٩٦) عند ما يقول إن هذه الوقعة حدثت فى حمة تقيوس .

(٣) قارن البكرى ، ص ٤٧ ؛ الإدريسى ، ص ١٠٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٥١ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٨ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٤٧ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ =

من أبوابها ، وكانت له أربعة أبواب. فلم تزل أهواء أهلها تضطرب وقلوبهم تتقلب من حين توحيدهم بزعمهم سنة ٥٥٥[ = ١١٦٠ ](ا) ، فثاروا على الموحدين وسفكوا دماءهم وقدموا على أنفسهم رجلا منهم يعرف بعلى بن الرند (ب) ، فملكهم إلى سنة ٥٧٦[ه] [ = ١١٨٠ ] وأخرجه منها الخليفة أبو يعقوب بن الإمام الخليفة أمير المؤمنين وولاه عمل مدينة سلا ، فمات بها . وبقى أهل قفصة إلى سنة ٥٨١ [ ه ] [ ١١٨٥ ] فرعليهم الغاوى الشقى الميورقى ، فأدخلوه البلد وملكوه. وترك بها جماعة من الأغزاز الموالين له ، فحصرهم بها الخليفة أبو يوسف – رضى الله عنه – فرغبوا فى عتق رقابهم (ج) على أن يكونوا عبيدا للأمر العزيز مماليكا للخليفة ، وأسلموا من سواهم ، فعفا الخليفة عن جرمهم (ج) وأعتقهم ، وترك أهل قفصة فى بلدهم ، وقتل المارقين الميورقيين لنفاقهم وشقاقهم كما قيل :

يا ذلة التلثم عند النكر (د) إذ يبتغون عـودة للأمر

ولما تقرر نفاق أهل قفصة وترددهم وشكهم وعتوهم وإفكهم ، رأى الإمام أمير المؤمنين رضه أن كف شرهم وخسف مكرهم لا يكون إلا بهدم سورهم ، وكشف ستورهم . فأمر للحين بهدمه فلم يكن فيه للمحلة إلا من ظهر يوم العصر الثالث منه ، ولم يبق إلا أساسه وبرج بقرب برج بن زوّاج شاهدا

---

(ا) القراءة فى ك : من حين توحيدهم الى سنة خمس وخمسين .
(ب) ك : ابن الزبير . (ج) الجمل الواقعة بين (ج) ، (ج) ناقصة فى ك .
(د) ك : الكد .

= ص ١٩٧ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٤٣٧ . رواية صاحب الاستبصار مفصلة هنا أكثر من غيرها .

عن ابن الرند وثورة قفصة الأولى على عهد الموحدين أنظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٧ ؛ ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٣٠٩ ؛ ابن خلدون ، الترجمة ( Berbères ) ، ج ٢ ص ٣٤ ، ٢٠٣ ؛ الزركشى ، ص ٩

وعن ابن غانية وافتتاح المدينة على عهد المنصور وهدم أسوارها ، أنظر E. Lévi-Provençal ( مجموعة رسائل موحدية ) النص رقم ٣١ ، ٣٢ والدراسة ص٦١ وتابع ؛ ابن الاثير ، ج ١١ ص ٣٤٢ – ٣٤٣ ؛ عبد الواحد المراكشى، المعجب ، ص ١٩٧ – ١٩٨ ؛ ابن عذارى ( Anonimo ) ، ص ٥٣ ؛ التيجانى ، الرحلة ( الترجمة ) ، ص ١٣٢ ؛ ابن خلدون ، الترجمة ( Berbères ) ، ج ٢ ص ٢١١

على عتاقه بنيانها وعظم شأنها(ا) ، وإنه لمن آيات هذا الأمر العزيز التى تتبين بها عظمته لذى الفحص والتزليم(ب) .

وكان اسم مدينة قفصة مدينة الحَنِيَّة لأن فيها بنيانا قديما مثل الحنية فكانت تسمى بها ؛ وهى متوسطة بين القيروان وبين مدينة قابس . وفى داخلها عيون كثيرة منها عينان كبيرتان معينتان ليس لهما نظير فى عذوبة مائهما وصفائه وكثرته ؛ إحداهما عند باب الجامع تسمى بالوادى الكبير ، وهى عين عظيمة مبنية بالصخر الجليل من بنيان الأول سعتها نحو ٤٠ ذراعا فى مثلها ، وفوقها عين أصغر منها تسمى رأس العين ، وبينهما قنطرة من بنيان الأول ، ولا شك أن ماءهما واحد . وماء هذه العين الأولى أزرق شديد الصفاء يرئى قعر العين من أعلاها وفيها الماء نحو ٧ قيام ؛ والعين الأخرى تحت قصر قفصة وتسمى بالطَرْميد ، عليها بنيان عجيب قديم ؛ وبإزائها مسجد يعرف بمسجد الحواريين . ومنبع هذه العين من حجر صلد من ثقب وسع فم الإنسان(ج) ، وينبعث منه بقوة عظيمة . وقد بنى له صهريج عليه دكاكين مبنية بالحجارة وعليه أقباء ، وقد بنى فوقه مسجد عظيم . فإذا اجتمع ماء هذه العين مع ماء العين الكبيرة ، التى عند الجامع ، جاء منها نهر كبير تطحن عليه أرحاء كثيرة ، ويسقى نصف غابة قفصة ونصف أرضها ومزدرعاتها . والنصف الثانى من غابة قفصة يسقى من عين عظيمة خارج(د) المدينة يسمى عين المنستير ، وهى عين كبيرة معينة عذبة يخرج منها نهر كبير . وهذه العين من أحسن ما يرى من العيون ، وهى فى جانب النهر الكبير المسمى بوادى بايش(ر) ، وهو يشق غابة قفصة (س) ويسقى بعض بساتينها ، وهو نهر مشهور يأتى من جبال شرقى قفصة (س) لكنه فى أيام الصيف يقل جريانه ولا ينشع(ص) ، وأرض هذا الوادى كله تنشع(ص) . وفيه تورد العرب إبلها ، تحفر فيها احساء فتخرج ماء عذبا معينا . ولأهل قفصة فى سقى جناتهم هندسة عظيمة وبرشام شديد(ط) وتدقيق(ع) حساب . يقول أهل قفصة : إذا رأيت قوما يتخاصمون وقد علا بينهم الكلام

---

(ا) القراءة فى ك : فأمر للحين بهدمه فلم يكن إلا كلمح البصر حتى لم يبق غير خبره وأنها . (ب) ك : التكزيم ، ب : التكريم .

(ج) القراءة فى النص : تسع فم الانسان . (د) ك : خارجة .

(ر) ب ، ك : يايش ، ج : بانيش ؛ أنظر Fagnan ، ص ٧٢ وهامش ٢

(س) الجمل الواقعة بين (س) ، (س) ناقصة فى ك . (ص) ك : تتشبع.

(ط) ب ، ج : «برشام شديد» دون الواو . (ع) ك : توفيق .

فتعلم أنهم فى أمر الماء . وكان على أحد أبوابها كتابة منقوشة فى حجر من عمل الأول ترجم فإذا هو : هذا بلد تحقيق وتدقيق .

وكذلك ليس بإفريقية حريم أجمل من حريم قفصة مع ملاحة أخلاقهن ورخامة منطقهن(ا) ؛ ويسمون الماء الذى يخرج من المدينة فيسقى نصف جناتهم « الماء الداخل » ،ويسمون الماء الذى خارج المدينة ،وهو عين المنستير وماء وادى بايش « بالماء الخارج » . ولهم مياه غير هذه تسمى بالماء الصغير(ب) ، وهى عيون كثيرة بقرب المدينة تسقى بعض جناتهم . وسقيهم بها بالساعات ؛ وترى خدام تلك الجنات والبساتين أعرف الناس بأوقات النهار . إذا سألت رجلا منهم لا يفقه شيئا عما مضى من ساعات النهار ، وقف ونظر إلى الشمس واكتال بقدميه فى موضع ظله ، ويقول لك مضى كذا وكذا ساعة وكذا وكذا سدس من الساعة . وأهل قفصة يتنافسون فى هذه المياه،ويتابعون سقيها بأغلى ثمن . ولمدينة قفصة غابة كبيرة قد أحاطت بها من كل ناحية مثل الإكليل ، فى تكسير دائرتها نحو ١٠ أميال (ج) ، فيها من المنازل التى تعرف بالقرى ١٨ منزلا . وعلى الغابة والمنازل والكل حائط يسمونه «سور الغابة» . وفى ذلك السور أبواب عظام عليها أبراج مسكونة ،يسمون تلك الأبواب :الدروب . وغابة قفصة كثيرة النخل والزيتون وجميع الفواكه التى ليس فى بلد مثلها : فيها تفاح عجيب جليل زكى الرائحة يسمونه السدمى ، لا يوجد فى بلد مثله ؛ وكذلك الرمان والأترج والموز لا يوجد مثلها (د) فى بلد . وفيها نوع من التمر يسمى بالكسبا ،ليس مثله فى بلد وهو أكثر تمرهم ؛ يكون فى التمرة فتر فى جرم بيض الدجاج ، تكاد تنفذها ببصرك لصفاء لونها ورقة بشرتها . وهم يجعلونه فى أزيار ، فإذا أخرجوه منها بقى فى قعر الزير عسل ألذ من عسل النحل وأعطر ؛ وهم يصرفونه فى طعامهم كما يصرف العسل عندنا وتعمل منه الحلاوات(ر) . وقفصة أكثر البلاد فستقا حتى إنى أظن(س) أنه ليس بإفريقية فستق إلا فيها ؛ ومنها يجلب إلى إفريقية وبلاد المغرب ، وبلاد الأندلس وبلاد مصر . فإن الذى يجلب من بلاد الشام صغير الجرم ليس مثل

---

(ا) ج : أخلاقهم ومنطقهم ، ك : اخافها ورخامه منطقها . هذه الجمل الخاصة بنساء قفصة ناقصة فى ب . (ب) ج : العقيد . (ج) ب : خمسة ميلا .

(د) ك : مثلهم .

(ر) ك : الحلوات . (س) «انى أظن» ناقصة فى ج ، والكلمتان محرفتان فى ب إلى «انما ظنه» .

القفصي ، فإن القفصي يكاد أن يكون في جرم اللوز . وهو إذا كان في شجره أجمل ثمرة خلقها الله تعالى ، فإنه يكون عناقيدا مثل عناقيد العنب ، وهو زكي الرائحة حتى إنه لا يقدر أحد أن يسرق منه شيئا ، فإنه تشم عليه رائحته . وفي بساتين قفصة من الرياحين كثير : مثل الآس والياسمين والنارنج والنرجس والسوسان والبنفسج وغير ذلك . ووردها أكثره أبيض ، وماؤه أزكى ماء يكون للورد ، يشبه الجوري (أ) الذي يجلب من بلاد مصر .

ويصنع بقفصة أردية وطيابس (ب) وعمائم من صوف في نهاية الرقة تضاهي ثياب الشرب (ج) ، وتصنع بها أوان للماء من خزف تعرف بالريحية ، شديدة البياض في نهاية من الرقة (د) ليس يعلم لها نظير في جميع البلاد . ويصنع بها زجاج حسن ، وأوان عجيبة (ر) وأوان مذهبة غريبة . وهي حاضرة في جميع أمورها ، وأهلها ذوو يسار وفيهم خير كثير ولهم صدقات ، وهم يعظمون يوم عاشوراء تعظيما كثيرا وهو عندهم مثل الأعياد ؛ ولهم فيه صدقات كثيرة وكساء للمساكين . وكانت مدينة قفصة أعظم بلاد إفريقية نظرا : كان حولها نحو ٢٠٠ قصر آهلة عامرة ، فيها الأشجار والنخل والزيتون والفستق وجميع الثمار ؛ وفيها العيون والأنهار والآبار (س) ، وتسمى قصور قفصة . ومن قصورها مدينة طوارق (ص) ، وهي في منتصف الطريق من قفصة إلى فج الحمار وأنت تريد القيروان ؛ وكانت مدينة آهلة كبيرة فيها جامع . وكانت القوافل إذا خطرت بين هذه القصور تكم إبلها ودوابها لئلا ترعى ورق الشجر لكثرته على ذلك الطريق . وهي اليوم خربة لا أنس (ط) بها من وقت دخلت العرب بلاد إفريقية ، وأفسدت بلاد القيروان وغيرها من البلاد والقرى والعمائر وكثيرا من المدن بإفريقية [1] .

---

(أ) ك : الجاوري . (ب) ك : طيالس .
(ج) ك : الشرف . (د) الجمل الخاصة بصناعة الخزف ناقصة في ج .
(ر) ب : وأواني حنتم عجيبة . (س) النص : آثار . أنظر Fagnan ص ٧٦ وهامش ٢ (ص) ب : طوراق ، البكري (ص ٤٧) : طراق .

(١) أنظر البكري ، ص ٤٨ — ٤٩ ، ص ١١٦ ؛ ويقول الإدريسي (ص ١٠٤) إن قسطيلية تسمى توزر . قارن ياقوت ، معجم البلدان (توزر) ، ج ١ ص ٨٩٢ ، (قسطيلية) ج ٤ ص ٩٧ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٧ ؛ اليعقوبي ، ص ٣٥٠ ؛ التيجاني ، الرحلة (الترجمة) ، ص ١٤٣ وتابع . وعن موت علي بن غانيه أنظر التيجاني ، الترجمة ، ص ١٤٨ ؛ عبد الواحد المراكشي المعجب ، ص ١٩٧

## ذكر كورة "قسطيلية" من بلاد الجريد

وهو قطر كبير فيه مدن كثيرة قاعدتها "توزر" كلاها الله . وهي المدينة السعيدة التي هلك عليها عدو الله شقي ميورقة . رشقه سهم في ترقوته فقضى نحبه . ولها هذه الفضيلة التي اختصت بها . وكان قد انتقم من أهلها سنة ٨٢ [٥] [=١١٨٦] ، وحصرها مدة وضيق عليها حتى دخلها ثم أخرجه عنها الأمر العزيز ، وفر إلى الصحراء على وجهه واتصل ببني قرة(ا) فعند قفول(ب) المحلة المنصورة عن بلاد إفريقية أقبل إليها وظن أن كل بيضاء شحمة ، فأتاه الموت من حيث لم يحتسب . وقيل إنه كان سهم قوس اللولب (ج) .

وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور مبني بالحجارة والطوب ، وحولها أرباض واسعة ، ولها ٤ أبواب وعليها غابة كبيرة . وهي أكثر بلاد الجريد تمرا ومنها تمتار (د) جميع بلاد إفريقية وبلاد الصحراء التمر لكثرته بها ورخصه . ولأنها على طرف الصحراء لا يعلم ما وراءها ولا قدر أحد على الدخول في الصحراء التي في قبلتها ؛ ويقال إن في تلك الصحراء وادي رمل يجري كما يجري الماء ؛ وهذا مستفاض . وأهلها من بقايا الروم الذين كانوا قبل استفتاح المسلمين لها ؛ وكذلك أكثر أهل قسطيلية وبلاد الجريد ، لأنهم في حين دخول المسلمين إفريقية أسلموا على أموالهم . وفيهم من العرب الذين سكنوا فيها من المسلمين عند استفتاحها . وفيهم من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان عند خروجهم من بلادهم وانجلائهم عنها . وذلك أن بلاد البربر إنما كانت أرض فلسطين من ديار الشام ، وما جاور تلك الأصقاع ، وكان ملكهم جالوت الجبار العنيد(ر) (١) ، وجالوت سمة لسائر ملوك البربر ، إلى أن قتل داود عم جالوت كما ذكر الله تعالى في محكم كتابه ، ودخلت بلادهم تفرقوا في البلاد . فمشى أكثرهم نحو المغرب ونزل بعضهم بالقرب من بلاد مصر ، وتفرقت البرابر في بلاد إفريقية وبلاد المغرب حتى وصلوا إلى أقاصي بلاد المغرب ، على أزيد من ١٠٠٠ ميل من بلاد القيروان ، واستوطنوها إلى وقتنا هذا . وكانت بلاد إفريقية للافرنج فأجلتها البربر عنها إلى جزائر

---

(ا) ب ، ج : بني دمر . (ب) ك : قبول . (ج) ك : لولب .
(د) ك : تمتاز . (ر) ج : العبيد .

(١) يظهر هنا أن المؤلف متأثر بالإدريسي . قارن الإدريسي ، ص ٥٧ ( التيجاني : يعطي نفس المعلومات ) . ( J. A., 1852, II , 200 )

من البحر مثل صقلية وغيرها ثم تراجعت الإفرنجة إلى مدنها وعمائرها على موادعة (ا) وصلح مع البربر ، واختارت البربر سكنى الجبال والرمال والبرارى وأطراف البلاد ، فصارت الروم بالمدن والعمائر حتى افتتح المسلمون إفريقية فانجلت الروم أمام المسلمين مرة ثانية إلى جزائر البحر وغيرها إلا من أسلم وبقى فى بلاده على ماله مثل أهل قسطيلية وغيرهم من البلاد . وأهل توزر يبيعون زبل مراحضهم وهم يعيرون (ب) بذلك لأنهم لا يدخلون المراحض بالماء لئلا يفسد الزبل ؛ فإذا دخل أحدهم المرحاض مشى إلى بعض السواقى التى تشق مدينتهم أو الوادى فاغتسل . ويمشى عندهم دلال المرحاض بالزبل فى الإناء ، فإذا كان جافا حرص عليه ، وإذا كان رطبا زهد فيه . ويضعون فى جناتهم مراحض على الطرق العامرة لمن كان مضطرا أو غريبا ليس من أهلها . وأما البلدى فلو أمسك ذلك يوما أو يومين ما رماه إلا فى مرحاضه . وإنما ذلك لتدمين أرضهم لأنها فى غاية الجفوف لقربها من الصحراء ؛ وتتفاضل بلاد الجريد فى رطوبة الأرض ودهنيتها وتوزر أيبسها .

ومن بلاد قسطيلية مدينة نَفْطَة (ج)[1] : بينها وبين تَوْزَر ٢٠ ميلا . وهى مدينة كبيرة قديمة عليها سور من بناء الأول ، ولها غابة كثيرة (د) النخل والبساتين وجميع الفواكه . وهى كثيرة الخصب ولها نهر يسقى بساتينها ؛ وهى قديمة خصيبة وأهلها ذوو يسار . وهم من بقايا الروم كما ذكرنا .

ومن بلاد قسطيلية بلد تَقْيُوس[2] : وهى ٤ مدن متقاربة عليها أسوار ، يكاد يكلم بعض أهلها بعضا لتقاربها . ولهم غابات كثيرة النخل والزيتون وجميع الفواكه ؛ وهى أكثر بلاد قسطيلية زيتونا وأكثر جباية وأحسن هواء ؛ فيها العيون الكثيرة العذبة ، والمياه السائحة .

---

(ا) ك : مواعدة (ب) ك : يعبدون

(ج) ب نبط . (د) « كثيرة » ناقصة فى ك

(١) قارن البكرى ، ص ١٠٥ ؛ الإدريسى ، ص ١٠٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٠٠ ؛ الدمشقى ، ص ٢٢٨ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٥٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ٢٢٢ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٢٦ – ب .

(٢) لا يتكلم البكرى عن هذه المدينة . قارن الإدريسى ، ص ١٠٤ ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٦٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٥٠

ومن بلاد قسطيلية مدينة الحامّة (١) : وتعرف اليوم بحامة بنى بهلول ، وبنى بهلول من سادات بلاد قسطيلية بل هم أغنى من فيها ، وهم من بقايا الروم الذين أسلموا على أموالهم . وعندهم كرم كثير وبر بالأضياف وحرص على التضييف ، وهو الذى رفع ذكرهم فى تلك البلاد . وهذه المدينة لها حصن يسمونه القصر ؛ وهو مختص ببنى بهلول(١) وحاشيتهم . ولها أرباض واسعة يسكنها الناس ؛ وهى كثيرة التمر والزيتون وجميع الفواكه ؛ ومن مدن نفزاوة ما يضاهيها . ومياه هذه المدينة كلها حامة حارة . وليس ببلاد الجريد أكثر عنبا منها ولا أطيب ، وشرابه أطيب من كل شراب وأعطر . ويزعم أهلها أنه يسرج به السراج كما يسرج بالزيت . وفيها نوع من التمر يسمونه الخنفس ، وهو أسود اللون شديد الحلاوة كبير الجرم . وفى قسطيلية قصور كثيرة وعمائر متصلة أعرضنا عنها وعن ذكرها .

ومن بلاد الجريد بلاد نفزاوة (٢) : وهو قطر مثل قسطيلية فيه مدن وقصور وعمائر كثيرة متصلة آهلة .

فمن مدن نفزاوة مدينة طرة (٣) : وهى مدينة مسورة حصينة ، لها غابة كثيرة النخل والزيتون وجميع الفواكه .

ومن مدن نفزاوة أيضا مدينة بشرى (٤) : وهى مدينة مسورة قديمة ، لها غابة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وجميع الفواكه .

---

(١) هنا يوجد خرم كبير فى ب يقدر بحوالى ٣٠ صفحة من طبعة كرمر (٤٤ – ٧٧) أنظر (Fagnan) ، ص ٨١ هامش ١

(١) الدمشقى (حامة بنى بهلول) ، ص ٢٣٨ ؛ التيجانى (ص ١٢٩) يحذر من الخلط بين حامة البهاليل التابعة لتوزر و حامة مطماطة .

(٢) قارن البكرى ، ص ٤٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٧٩٩ ؛ الإدريسى ، ص ١٠٦ ، ١١٠ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٨ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٥٠

(٣) أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢٠١ (مدينة تابعة لتوزر .) أنظر التيجانى ، الترجمة ، ص ١٩٣

(٤) اليعقوبى ، ص ٣٥٠ (بشارة من أكبر مدن نفزاوة) . قارن (Fagnan) هامش ٤ ص ٢

ومن مدن نفزاوة أيضا مدينة أيتِمَلين(ا) (١) : وهي مدينة لطيفة حصينة لها أرباض ولها غابة نخيل وزيتون وجميع الفواكه. قال بعض الأدباء: ايتِمَلين سبعة أحرف على لطفها وخمول ذكرها ، ومصر ثلاثة أحرف على عظمها وسمو ذكرها .

وبنفزاوة مدن وقصور وعمائر مثل قسطيلية ، وهي كثيرة النخل والبساتين كثيرة الخصب . وفى بلد نفزاوة عين كبيرة تسمي بالبربرية تاوَرْغي (٢) ، وهي من بناء الأول ؛ وليس ببلاد الجريد عين أعظم منها ، لا يدرك لها قعر . وبقرب نفزاوة مدينة أزلية غير مسكونة فيها آثار كثيرة للأول تعرف بالمدينة(٣) . وبين نفزاوة وقسطيلية مرحلة ، والطريق بينهما فى أرض سواخة وسباخ وملاحات لا يهتدى للطريق (ب) بها إلا بخشب قد نصبت فى دهس تشبه الصابون فى الرطوبة . فإن أخطأ أحد طريق تلك الخشب المنصوبة على الطريق سلك فى تلك السباخ . وقد هلك فيه العساكر والجماعات على قديم الزمان ؛ ممن دخلها ولا يعرف أمرها أو خانته تلك الخشب (٤) وتلك السباخ لا يعلم لها آخر ، إنما هى قد اتسعت فى تلك الصحارى ، ولا يسلك منها إلا الطريق إلى توزر ، وإلى بلاد قسطيلية ما يقرب من البر بتلك العلامات . ويقال إنها متصلة ببلاد غَدامس . وهذه السباخ كلها ملاليح (ج) وفيها موضع بين نَفْطة والحامّة يعرف «بالسبع سباخ» . وفى وسط الطريق المار من مدينة توزر إلى نفزاوة جزيرة صغيرة فيها عين عذبة يشرب منها من يسير على ذلك الطريق . وإذا دخل المسافرون هذا الطريق فى أيام الصيف يكادون يهلكون من حرارة الملح (د) ويرجع ماؤهم وهو فى الزقاق ملحا ، ولا تقدر على شربه إلا أن يمزج بسكر أو بعسل ، رأيت ذلك وشاهدته .

---

(ا) ك : اينمليمن ، ج : ايتميمن . أنظر Fagnan ، ص ٢ ؛ وهامش ٤ حيث يقرأها ايتملين

(ب) لا يهدى الطريق . (ج) ملالح . (د) هنا يوجد خرم فى ج يقدر بحوالى صفحتين من طبعة كرمر ( ٤٥ - ٤٧ ) . أنظر هامش ب ص ١٦٣

(١) أنظر Fagnan ، هامش ٤ ص ٨٢

(٢) قارن البكرى ، ص ٤٧ ؛ الإدريسى ، ص ١٢٢

(٣) البكرى ، ص ٤٧

(٤) قارن البكرى ، ص ٤٨

قال الناظر : وعندها هزم الخليفة أبو يوسف رضى الله عنه الشقى الميورقى بظهر مدينة حامة مطماطة المذكورة ، فر الشقى منهزما بخديعة الذهن آخذا على هذه السباخ ، فتبعه الموحدون أعزهم الله ، سالكين أثره قاصين خبره حتى أشرفوا على مدينة توزر ، فلقوه قد توغل فى صحرائها . وخاطب الخليفة رضى الله عنه بلاد المغرب معلما بذلك . فمن فصل من الرسالة (١) : « ... نهض الموحدون — أعزهم الله — من قابس — كلأهما الله — آخذين على صحرائها وقاصدين إلى البلاد الجريدية من ورائها على طرق لا عهد لها بالعساكر ، ولا علم فيها لعابر ، ولا منفذ أمامها لوارد ولا صادر ، بحيث منقطع التراب ، ومتصل القفر اليباب ، ولا ماء ينبع فى الأرض ولا يستقر من صوب السحاب (ا) ، وإن سلوكها لمن العجائب العجاب (ب) ، وآيات هذا الأمر(ج) الميسر للطلاب ... » .

وآخر بلاد الجريد مدينة دَرْجين (د) (٢) : وهى مدينة قديمة بقرب نَفطة ، وهى مدينة كبيرة وفيها تصنع الكسى الدرجينى ، وهو يشبه السجلماسى فى ثوبه ولونه ، ولكنه دونه فى الجودة . وبالقرب منه بلد سُوف ، ولايعرف خلفه عمران ولا حيوان إلا جبال من رمل يصاد فيها الفَنَك الذى لا يوجد بجلده نظير فى الدنيا . وأهل تلك البلاد يخبرون أن قوما أرادوا معرفة ماوراء قسطيلية مثل توزر وغيرها ، فاستعدوا بالأزودة والمياه ، وذهبوا فى تلك الصحارى والرمال أياما ، فلم يروا أثرا لعمران وهلك أكثرهم فى تلك الرمال . قال الناظر : ركب هذه الرمال ، وشق صحراءها هذا الشقى فى حين طلب الموحدين له ، أيام إقامة أمير المؤمنين على قفصة ، وإنما نبه على ركوبها ما تعوده أيام كونه مع أبيه بميورقة ، فإن من أفعال عدو الله ركوب ظهر اللجج طول النهار ، فإذا أقبل العشى طلب أهل البر للفرضه . وكذلك فعل الشقى ،

---

(ا) ك : لا يستقر من السحاب ؛ أنظر مجموعة رسائل الموحدية نشرة ليفى — بروفنسال ، ص ١٩٥

(ب) «والعجاب» ناقصة فى ك .

(ج) القراءة فى ك : وآياتها الأمر .

( د ) أنظر Fagnan ، ص ٨٠ وهامش ١

(١) أنظر مجموع رسائل موحدية ( نشر بروفنسال ) ، الرسالة رقم ٣١ ، ص ١٩٥

(٢) قارن البكرى ، ص ٤٩ ، الترجمة ، ص ١١٩

ركب هذه الصحراء طول إقامة الخليفة ببلاد إفريقية ، فلما أقبل عنها ، رجع إلى أقرب البلاد لها وهي توزر فقضى نحبه عليها ، وإنها من براهين هذا الأمر العلي ، وأخذه الله تعالى بذنوبه المتقدمة من سفك الدماء وإباحة الأموال والحريم في بلاد إفريقية . قال المؤلف : وأهل الجريد يأكلون الكلاب ويستطيبونها ، وهم يسمنونها ، ويعلفونها بالتمر ، فيزعمون أن لحمها يأتي ألذ اللحوم(١) . ولا يجذم أحد ببلاد الجريد ، وإن دخلها مجذوم توقفت عنه علته . ويقول أهل بلاد الجريد إن التمر إذا أكل أخضرا ، وهو الذي يسمى البهر يفعل ذلك ، وإنه من بدت به علة الجذام ، فأكثر من أكل البهر وطبخه وشرب مائه برأ باذن الله .

ومن مدن إفريقية المشهورة مدينة باجة (٢) : وهي مدينة كبيرة أزلية قديمة فيها آثار للأول . ولها حصن حصين أزلي مبني بالصخر الجليل ، أتقن البناء ، يقال إنه من عهد عيسى عم . ومدينة باجة على جبل شديد البياض ، يسمى الشمس لبياضه ، وهي كثيرة الأنهار والعيون ؛ ومن تلك العيون عين كبيرة تسمى عين الشمس ، وهي تحت سور المدينة ؛ وباب المدينة بإزاء العين ويسمى الباب باب عين الشمس . ومدينة باجة رخيصة الأسعار جدا ، فإذا أخصبت البلاد لم تكن للحنطة بها قيمة . وتسمى باجة هرى إفريقية ، فإن بها تمتاز(ا) جميع البلاد ، عربها وبربرها ، لكثرة طعامها ورخصه . وباسمها سميت باجة الغرب بجزيرة الأندلس . وباجة إفريقية على مقربة من فحص قُلّ(٣) المشهور بكثرة الزرع ، وأرض هذا الفحص أرض مشققة سوداء ، يجود فيها جميع البذر ، ويكون فيه حمص وفول قل ما يوجد مثله في موضع . ومدينة باجة نظر كبير ، ولها قرى كبيرة عامرة ومن بعض قرى باجة ، قرية تعرف بالمغيرية(ب) وهي كبيرة وبها آثار كثيرة للأول ، من كنائس قائمة

(ا) ك : تمتاز . (ب) ك : المغيرة .

(١) قارن البكري ، ص ٤٩ ؛ أنظر Fagnan هامش ١ ص ٨٦

(٢) البكري ، ص ٥٦ ؛ الإدريسي ، ص ١١٥ — ١١٦ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ج ١ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٧ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ١٩٤ — ١٩٥ ( لا يجب الخلط بينها وبين باجة الموجودة في البرتغال) ؛ مراصد الاطلاع ، ص ١١٥

(٣) قارن الإدريسي ، ص ١٠٢ — ١٠٣ ؛ وأنظر البكري ، ص ٥٦

البنيان ، محكمة العمل ، كأنها رفعت عنها الأيدى بالأمس ؛ وكلها مفروشة بالرخام النفيس . وفى هذه الكنائس أعجوبة ، يجتمع على حيطانها من الغربان عدد لا يحصى ، يظن الرائى لها أن غربان الأرض قد جمعت هناك . ويقال إن لها بها طلسم . وكان الولاة يتنافسون فى ولاية بجاية ، ويقولون من يترك قمح عندة وسفرجل دانة وعنب باطة (ا) وحوت درنة . وذرنة محيرة كبيرة ما بين مدينة باجة ، ومدينة طبرقة . وعلى الطريق من القيروان إلى قلعة(ب) أبى طويل وهى قلعة حماد ، مما يلى بلاد الصحراء ، مدن كثيرة خربتها العرب عند دخولهم بلاد إفريقية ، منها

مدينة سبيبة [1] : وهى مدينة قديمة أزلية ، ذات أنهار ، ومياه سائحة تطحن عليها أرحية . وكانت على نظر كبير ومزدرعات كثيرة وقرى عامرة . وفيها اليوم بعض سكنى لقبائل من البربر والعرب ، ويسمى اليوم ذلك النظر القرى (ج) . ولم يكن بإفريقية أخصب أرضا منها ، ولا أكثر بساتينا وثمارا وعيونا جارية . ولمدينة سبيبة عين عظيمة كبيرة ، وهى من بنيان قديم ، من عمل الأوائل ، ويقال إن فيها أخباء كثيرة(د) . ومن أغرب ما يهتف به أهلها ، أنهم يقولون إنه يوجد فيها فى رأس كل شهر دينار كبير ، زنته عشرة مثاقيل(ر) ، ولا يجده إلا من يعرف رقية العين ، ويقولون إن رجلا كان يعرف رقية العين المذكورة ، فكان يبخر ببخور ، ويرقى بكلام غير مفهوم ، فكان يجد فيها كل يوم دينارا من تلك الدنانير ، حتى كسب من ذلك مالا كثيرا .

مدينة مجانة [2] : وتعرف بمجانة المطاحن (س) ، لأن (ص) بها معدنا لقطع حجارة الأرحاء (ط) ليس على الأرض مثله ؛ وهى مدينة قديمة أزلية ذات مياه وعيون .

---

(ا) البكرى ص ٥٧ : (بلطة) . (ب) هنا ينتهى الخرم الموجود فى ج (أنظر هامش د ص ١٥٨) . (ج) م : القوى .
(د) ك : خبا كثيرة . (ر) ك : مثاقل . (س) ك : بالمطاحين .
(ص) ولأنه ناقصة فى ك . (ط) ج : الأرض .

(١) قارن البكرى ص ٤٩ ، ١٤٦ ، الإدريسى ، ص ١١٩ ، ياقوت ، معجم البلدان ج ٣ ص ٣٦ ، ابن حوقل ، ص ٥٨ ، مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ١١

(٢) البكرى ( مجانة المطاحن ) ص ٤٩ (مجانة المعدن) ، ص ١٤٥ ؛ الإدريسى ، ص ١٨٨ ياقوت ، ( معجم ، ج ٤ ، ص ٤١٧ ) يقول إنها سميت قلعة بسر لأن بسر بن أرطأة هو الذى فتحها ؛ الدمشقى ، ص ٢٢٧ ، مراصد الإطلاع ، ج ٣ ص ٤٢

مدينة مَمْرْماجَنَّة[1] : كانت مدينة كبيرة قديمة أزلية . فيها آثار كثيرة للأول ولها عيون سائحة ، وهى على نظر واسع كثير الزرع والخيرات .

مدينة تِبسا[2] : وهى مدينة قديمة أزلية ، فيها آثار كثيرة للأول ومبان عجيبة ، ما بإفريقية بعد قرطاجنة أعظم منها . فيها دار ملعب قد تهدم أكثره ، أغرب ما يكون من البناء . وفيها هيكل يظن الرائى انه كما رفع اليد عنه ، مايكاد يعرف الفرق(ا) بين أحجاره (ب) ، ولو غرست الإبرة بين حجرين من أحجاره ما وجدت منفذا . وفى داخله أقباء معقودة بعضها فوق بعض ، وبيوت تحت الأرض وآزاج كثيرة لها منظر هائل . ويقال إن ذلك الهيكل كان لاستنزال الروحانيات ، لأن فيه أثر الدخان ، وفيه صور جميع الحيوانات وصور شاذة لا يعلم ما هى . وفى وسط المدينة هيكل عظيم ، مبنى على سوارى رخام عظام ، وقد صور خارج حيطان هذا الهيكل من صور جميع الحيوانات بأغرب ما يكون من التصوير ، ويقال إنها كلها طلاسم . وتوجد فى خرائبها طلاسم ، ولقد دخلتها فأعطانى إنسان من أهلها طلسما ، وهو على صورة أسدين من نحاس أحمر ، عجز الواحد منهما إلى عجز الآخر ، قد صورتا بأعجب ما يكون من التصوير .وأخبرنى أن بلدهم تِبسًا كان لا يدخلها عقرب ، ولو أدخل فيها مات ، حتى حفر إنسان أساس داره ، فوجد قدر نحاس فيها عقارب من نحاس ، فسبكها ، وصرفها فيما يحتاج ، فدخلت حينئذ العقارب المدينة ، وأضرت بالناس فيها . والمسكون اليوم من تبسا إنما هو قصرها ، وعليه سور من حجر جليل ، متقن العمل كأنما فرغ منه بالأمس ، وهو حصن عظيم . وفى مدينة تِبسًا أقباء تدخلها الرفاق بدوابهم فى أيام الشتاء ، يسع القبو منها ألفى دابة وأكثر . وبقرب مدينة تبسا ، واد يعرف بوادى

---

(ا) «الفرق» ناقصة فى ك .      (ب) ك : الحجارة .

(1) قارن البكرى ، ص ١٤٥ ، الإدريسى ، ص ١١٩ ، ابن حوقل ، ص ٨٥ ، ياقوت معجم البلدان ، ج ٤ ص ٥٠٢ ( مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٨٣ ) .

(2) البكرى ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ، الإدريسى ، ص ٩١ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٢٣ ( مراصد الإطلاع ، ج ١ ص ١٩٧ ) .

متلاّن. وهو يقل فى أيام الصيف ؛ وهو صعب المجاز كثير الدهس(ا) ، وعليه جبل يسمى ملان (ب) نرى على مسيرة أيام لعلوه ، وذهابه فى الجو . وعلى مقربة من تبسا جبل يعرف بالكتف (جـ) ، وفى أعلاه مغارة لا يقدر على الوصول إليها لا من فوق الجبل ، ولا من أسفله . ويقال إن فيها مالا (د) عظيما ، فإن الطير إذا نزلت فى تلك المغارة وطارت عنها سقطت منها دنانير كبار من ذهب نفيس ، وهذا متعارف فى تلك البلاد . ولمدينة تبسا بساتين كثيرة ، وفواكه عجيبة ، ويجود (ر) فيها الجوز حتى يضرب به المثل بإفريقية

مدينة باغاية (س) (١) : وهى مدينة عظيمة جليلة ، فيها آثار للأول ، ولها أنهار عامرة ، وعيون ، ومزارع ، ومسارح . وهى تحت جبل أوراس ، وهذا الجبل يشق بلاد المغرب وإفريقية : فطرفه من البحر الغربى ايغريطوق (ص) على البحر المحيط ، حيث انتهى عقبة المستجاب ، رحمه الله ؛ وطرفه الثانى فى البحر الشرقى بقرب الإسكندرية ، وهو المسمى بطرف أوثان الذى إذا عبرته (ط) المراكب استبشرت بالسلامة . ومبدؤه بالمغرب ، وهو جبل المصامدة المسمى بجبل درّن ، وهو جبل جزّولة المسمى بانكسيت وهو جبل أوراس هذا ، ويسكنه لواته ، وهو جبل نفوسة . ويدخل طرفه فى البحر نحو ١٠٠ ميل وأزيد . وله جون(ع) عظيم فإذا أدخلت الرياح سفينة من السفن فى هذا الجون ، وعدمت الرياح التى تخرجها منه فلا تجد هناك مرسى لأنه جبل صلد أملس(ف) مثل الحائط ، وهذا الجون من أحد عجائب الدنيا .

---

(ا) القراءة فى ج : كثير الدهس وعرض الخايض . (ب) ج : قلب ملان .
(جـ) ج : بالمكتف . (د) ج : عجال . (ر) «يجود» ناقصة فى ج .
(س) ج : باغتة ، ك : باغانة . (ص) ج : النيس طوف . (ط) ج : عدته
(ع) ك : جوف . (ف) ج : علس .

(١) البكرى ، ص ٥٠ : قارن الإدريسى ، ص ١٠٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٧٣ ، مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ١٢٠ ، اليعقوبى ، ص ٣٥٠

عن جبل أوراس أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠١ ، وعن جبل درن ، أنظر أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٨٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٦٧ ؛ الإدريسى ص ٦٣ — ٦٤ ، الدمشقى ، ص ٢٣٩ ، عن جزولة ، أنظر أبو الفدا ، ج ٢ ص ٨٣ ، عن جبل نفوسة ، أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٠٠ ، الدمشقى ، ص ٢٣٩ ابن حوقل ، ص ٦٧

ويقرب باغاية قبر مادغوس (١) وهو قبر مثل الجبل العظيم مبني بآجر رقيق معقود بالرصاص ، وبنيت بجانبه (ب) طبقات صغار وصورت فيه جميع الصور من الإنس والطير والوحش (ج) . وهو مدرج النواحي ؛ وقد رام كثير من الأمم هدم هذا القبر فلم يقدروا على ذلك لقوة بنيانه ، ولمانع يمنع عنه . ولا يعلم على الحقيقة ما هو : هل هو قبر أو هيكل . إنما هو بناء قديم لا يعلم له أول ، وهو مجمع لكل طائر ؛ ويقال إن لهم هناك طلاسم .

ومن الجبال المشهورة بإفريقية جبل أَوْرَاس (د) (١) : وهو جبل خصيب فيه مدن كثيرة وفيه آثار كثيرة للأول ومدن خربة (ر) مثل مدينة طنغة (س) . وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة . لقد رأيت فيها بيتا له عضادتان من حجرين مثل جبلين (ص) وعليهما عتبة من حجر واحد مثل الجبل الضخم قد قرضت (ط) ونقشت على النوع الذى يعمل عندنا فى العمود بأتقن صناعة وأغربها ، وإنما العجب كيف رفعت تلك العتبة أو زحزحت من الأرض .

مدينة الموس (٢) : فيها كذلك آثار عجيبة ومبانى غريبة تنبئ أنها كانت مدينة عظيمة كبيرة .

مدينة شَقَبْنَارِية (٣) : وهي مدينة كبيرة فيها آثار عظيمة وهي على طرف هذا الجبل أوراس . وكانت فيما يقال من أعظم مدن إفريقية ، وكان لها ماء مجلوب وبقى فيها اليوم مواجل عظام ما تغير منها شئ ، وفيها عين عظيمة عذبة

---

(١) ماد عرس أنظر Fagnan ، ص ٩٣ (ب) «بجانبه» ناقصة فى ج .
(ج) ج : والطيور والوحش . (د) ج : أسروا ، ك : أسرو ؛ أنظر Fagnan ، ص ٣٣ وهامش ٥ (ر) ج : ومدن خربت .
(س) ج : صنغة . (ص) القراءة فى ج : لقد رأيت فيها مبانى كنيسة له عظام ريقان من حجرين . (ط) ج : قربصت .

(١) عن جبل أوراس أنظر ياقوت ، معجم البلدان ج ١ ص ٤٠٠ ، مراصد الاطلاع ج ١ ص ١٠١

(٢) يظن Fagnan (هامش ٣ ص ٩٤) أنها مدينة الأربس ( Laribus ) .

(٣) البكرى ، ص ٣٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٠٦ ، مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ١١٨

ولها سرب (١) كبير تحت الجبل يمشي فيه الفارس بأطول مايكون من الرماح فلا يلحق سماك ذلك السرب . ويقال إن فيه كنوزا وأموالا كثيرة ؛ ويقال إنه كان بمدينة شقبنارية كنيسة وفيها مرآة صنعت من أخلاط عجيبة ؛ إذا اتهم الرجل أهله بأحد ، نظر فى تلك المرآة فيرى وجه الرجل المتهم . فيقال إنه كان فى تلك الناحية رجل بربرى يدعى أنه من أهل الخير والصلاح ، فاتهم ملك (ب) شقبنارية أهله بذلك البربرى فنظر فى المرآة فرأى صورة البربرى مع امرأته ، فأوقف على ذلك الشهود وأخذ البربرى فقتله ، فغضب لذلك أهل البربرى ودخلوا تلك الكنيسة فكسروا تلك المرآة ونزعوها . وفى هذا الجبل مدن قديمة كثيرة خربة فيها آثار عظيمة وهو كثير العمائر والقرى وهو بلد الزرع والضرع .

ومما يقرب من هذا الجبل من المدن المشهورة بإفريقية مدينة قسنطينة (١) : وهى مدينة كبيرة عامرة قديمة أزلية ، فيها آثار كثيرة للأول . وكان لها ماء مجلوب يأتيها على بعد على قناطر تقرب من قناطر قرطاجنة ؛ وفيها مواجل عظام مثل الذى بقرطاجنة . ومدينة قسنطينة حصينة فى نهاية من المنعة والحصانة لا يعرف بإفريقية أمنع منها؛ ليس لها فى المنعة نظير غير مدينة رندة بالأندلس، فإنها تشبهها فى وضعها والخندق المحيط بها والحافة المحدقة بها شبها كثيرا. ولكن قسنطينة أعظم وأكبر وأعلى، على جبل عظيم من حجر صلد، وقد شق الله تعالى ذلك الجبل فكان فيه خندق عظيم يدور بالمدينة من ٣ جوانب . ونهرها الكبير يدخل على ذلك الخندق ويدور بالمدينة فيسمع (ج) لجريانه فى ذلك الخندق دوى عظيم هائل وصوت مفزع لمن يقرب منه . وقد عقد الأولون على هذا الخندق قنطرة عظيمة بل هى ٣ بعضها على بعض . و [هى] بالجو قريبت من أعلى الخندق، وعليها الدخول إلى باب المدينة وهى متصلة بالباب . وقد بنى على طرف القنطرة مما يلى باب المدينة بيت على أقباء يسميه أهل المدينة «العبور» يعنون الشعرى لأنه معلق فى جو السماء ، فإذا كنت فى وسط هذه القنطرة تعبر إلى

---

(١) ج : شرب . (ب) ج : فاتهم مالك . (ج) ك : ويسمع .

(١) قارن البكرى ، ص ٦٣ ؛ الإدريسى ، ص ٩٤ وقابع ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٩٨ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٤١٣ ، الدمشقى ، ص ٢٣٧ ، العبدرى ، المخطوط ، ص ١٨ — ب .

الصفحة الثانية تظن أنك تطير فى الهواء، وترى ماء النهر الكبير فى قعر الخندق البعيد المهوى مثل الجدول الصغير . وهذه المدينة من عجائب العالم قد دخلتها مرارا وتأملت آثارها ودخلت مواضع كثيرة فيها آثار للأول فتأملتها ، وكان لى فى ذلك غرض . وهى على نظر واسع وقرى كثيرة عامرة آهلة ، وهى كبيرة الخصب والزرع ولها بساتين كثيرة الفواكه، لكنها شديدة البرد والثلج كثيرة الرياح لعلوها وارتفاعها. وأقرب بمدينة القسنطينة من رأس البحر مدينة القُل بينهما نحو المرحلتين أو أقل .

مدينة مِيلة [1] : مدينة أزلية فيها بعض آثار للأول تدل على أنها كانت مدينة كبيرة . وهى الآن عامرة آهلة كثيرة الخصب رخيصة السعر ، على نظر واسع وقرى عامرة . وميلة كثيرة الأسواق والمتاجر ، عليها سور صخر جليل من بناء الأولين . وفى وسط المدينة عين خرارة عذبة من بناء الأوائل لها سرب كبير يدخل فيه فلا يوجد له آخر ، ولا يعلم من أين يأتى ذلك الماء . ويقال إنه مجلوب من جبل بالقرب منها يسمى تامروت ، وتعرف هذه العين بعين أبى السباع . وبالقرب من ميلة جبل العَنْصَل يسمى اليوم جبل بنى زلنْدوى (ا) وهم قبائل كثيرة (ب) من البربر سكنوا بذلك الجبل، ولهم خلاف كثير على الولاة بسبب منعة جبلهم، وفيه مدن وعمائر وقرى كثيرة وهو أخصب جبال (ج) إفريقية، فيه جميع الفواكه من التفاح الجليل والسفرجل الذى لا يوجد مثله فى بلد والأعناب الكثيرة . وعلى الطريق من مدينة ميلة إلى قلعة أبى طويل وهى قلعة حماد ، مدينة سِطيف [2] ، بينها وبين ميلة مرحلة . وهى مدينة قديمة أزلية كان عليها سور صخر قديم خربه كتامة مع أبى عبد الله الشيعى . ومدينة سطيف رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه والثمار ، غزيرة المياه والأنهار والبساتين والأشجار .

---

(ا) ج : بنى زلد . (ب) ج : قبيل كثير . (ج) ك : جبل .

(1) قارن البكرى ، ص ٦٣ – ٦٤ ( ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٧٧ ) ، الإدريسى ص ٩٤ ، العبدرى ، المخطوط ، ص ١٨ – ب .

(2) البكرى ، ص ٧٦ ، الإدريسى ، ص ٩٨ ، ابن حوقل ، ص ٦٨ ، الدمشقى ، ص ٢٣٧ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٤١

مدينة الغدير(١) : وهي مدينة كبيرة أزلية بين جبال قد أحدقت بها ، ولها نهر يجتمع من العيون في موضع دهس يخرج منه هذا النهر ، ويسمى نهر سُهر ويمشي من هناك إلى مدينة المسيلة (ا) وهو نهرها . والمسيلة من بلاد الزاب ، وسيأتي ذكرها عند ذكرنا بلاد الزاب إن شاء الله . وبقرب مدينة الغدير فحص عجيسة ، وهو فحص مديد(ب) ، كثير الزرع والضرع إلا أنه شديد البرد والثلج . ولقد دخلت هذا الفحص في زمان الصيف فرأيت الجليد ينزل فيه بالغدو . ومن أمثال تلك البلاد ، برد بلد عجيسة في الصيف وأما الشتاء فسكرات الموت(ج) وعندهم النيلة المشهورة(د) .

مدينة قلعة أبي طويل(٢) : وهي قلعة حماد(ر) وهي مدينة عظيمة قديمة أزلية على نظر عظيم كثير الزرع وجميع الخيرات . وهي في جبل عظيم ، وهي حصينة منيعة لا تمكن بقتال . وكانت دار مملكة بني حماد من صنهاجة ، وهم كانوا ملوك إفريقية [أيام بني عبيد] فلما رحلوا إلى بلاد مصر ، ولوا على إفريقية [بلجين بن(س) زيري بن مناد الصنهاجي ، فكان كذلك على طاعتهم إلى أن مات ثم ولي بعده ابنه حبوس فكان كذلك على طاعتهم إلى أن مات فولي بعده ابنه باديس ؛ ثم ولي بعده إبنه المعز وهو الذي خلع طاعة الشيعة(ص) وقتلهم بإفريقية قتلا ذريعا. وكان سبب ذلك أن هذا المعز بن باديس كان يضمر حب الصحابة رضه ، وكان يظهر التشيع والقليل من أهل إفريقية سنية لكون

---

(ا) ج : مسيلة . (ب) ك : مدير . (ج) القراءة في ج : وأما في الشتاء المشهور كل ليلة عندهم سكرات الموت . (د) الجملة الأخيرة ناقصة في ج

(ر) ك : أبي حاد .

(س) أنظر Fagnan ، ص ٩٩ (ص) ك : الشيعية .

(١) البكري ، ص ٥٤ ، ٦٠ ( عن جبل عجيسة ونهر سهر ، ص ٥٩ ) ، الإدريسي ، ص ٩٢ ، الدمشقي ، ص ٢٣٧ ، مراصد الاطلاع ( الغدير ) ، ج ٢ ص ٣٠٤ . و عن عجيسة ( مدينة المغرب ) أنظر ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٦١٨. قارن Fagnan هامش ٢ ، ٣ ص ٩٨ — ٩٩

(٢) قارن البكري ، ص ٤٩ ؛ الإدريسي ، ص ٨٦ ، ٩١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٦٣ — ١٦٤ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٧ ؛ مراصد الاطلاع (قلعة أبي طويل) ، ج ٢ ص ٤٤١ (قلعة بني حماد) ، ص ٤٤٢ . وعن بني زيري وبني حماد أنظر ابن خلدون (الترجمة) ج ٢ ص ٩ وتابع ؛ ابن عذاري، البيان ، ج ١ ص ٣٠٤ وتابع؛ G. Marçais, Les Arabes en Berbérie ... p. 114 sq. . وعن باجة أنظر هامش٢ ص١٦٠

الدولة للشيعة(ا) ، فقيل إن المعز كان ماشيا يوما بالقيروان ، وكانت دار مملكة إفريقية ، إذ كبت به(ب) دابته فقال «أبو بكر وعمر» ، فلما سمع منه أهل القيروان ذلك قاموا على الشيعة فقتلوهم حيث ما وجدوهم وقتلوا فى جميع إفريقية ؛ ويقال إنه قتل منهم بالقيروان وأحوازها نيف على ٢٠ ألفا . وملك (ج) بنو زيرى ابن مناد الصنهاجي بلاد إفريقية إلى أن دخلها عليهم العرب ، فرجع صاحب القيروان يسكن مدينة المهدية . وقد كان حماد بن حبوس قام على ابن عمه باديس بهذه المدينة ، فسميت قلعة حماد ؛ ونزل عليه ابن عمه فى جيوش لا تحصى فما قدر عليه ، ورجع عنه خاسرا (د) ؛ ويقال إنه مات عليها وحمل منها إلى القيروان . وولى بعده ابنه المعز وهو لم يبلغ الحلم فعند ذلك عظم ملك حماد بقلعة أبى طويل ، وأخذ كثيرا من مدن إفريقية . فلما دخل العرب إفريقية هرب منهم صاحب القيروان إلى المهدية ، وخرج المنصور من بنى حماد لنصرة ابن عمه وهزم الهزيمة المشهورة على مدينة سبيبة ، وقد ذكرنا ذلك فى أخبار بجاية ، وعظم ملك بنى حماد بجهة القلعة ، وبجاية ، وتلك البلاد .

ولبنى حماد بالقلعة مبان عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر ، وقد وضع(ر) فى وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق ، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد . وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسوارى ما يقصر عنه الوصف ، وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة ؛ وفيها آثار للأول عجيبة . ويقال إن حماد بن مناد صاحب القلعة التى تنتسب إليه كان له دهاء وفطنة وتجربة(س) فى الحروب ، وكانت له فراسة حسنة وذكاء وله أخبار مشهورة محفوظة . فمن المحفوظ عنه من الذكاء والفطنة (١) أن رجلا شيخا خرج مع امرأته من بعض البلاد يريد القلعة فصحبه فى الطريق فتى شاب وكان له جمال ، فكلفت به المرأة وكلف بها فتواطآ (ص) على أن يدعى فى زوجيتها وتفعل هى (ط) كذلك ، ويسقط الشيخ ، فلما وصلوا القلعة فعلا ذلك . قال فتعرض الشيخ إلى حماد وشكا إليه

---

(ا) ك : الشيعية . (ب) ج : كبأت ، ك : كفأت . (ج) ك : وملكوا
(د) هنا ينتهى مخطوط الجزائر ج . (ر) ك : فوضع . (س) ك : وممارسة
(ص) ك : فتوطأ . (ط) «هى» لا توجد فى ك .

(١) البكرى (نفس القصة) ، ص ١٨٤

ما دهاه . وكان الشيخ مولعا بالمرأة فأمر حماد بإحضار الفتى والجارية ، فسألها عما ذكره الشيخ فأنكرا ما قال الشيخ وتعارفا أمامه بالزوجية . فجعل حماد يسأل الشيخ من صحبه فى الطريق ، أو هل له بينة أو شبهة ؛ فقال له الشيخ ما صحبنى وامرأتى غير هذا الكلب ، خرج معنا من البلد الفلانى ، وهو تربيتنا ؛ فأمر حماد بربط الكلب إلى شجرة ، ثم أمر المرأة أن تحله ، فقربت منه فهش الكلب إليها ، فحلته ، ثم أمرها فربطته ثم حلته ، والكلب فى ذلك كله يهش إليها ولا ينكر شيئا مما تفعل به . ثم قال للفتى قم إلى الكلب وحله واربطه فلما دنا منه خجته الكلب وأنكره ولم يقدر على الدنو منه . فقال حماد للشيخ قم إلى الكلب ، فقام إليه فهش الكلب كما هش للمرأة ، فأمر بضرب عنق الفتى ، وقال للشيخ شأنك والجارية . وكان له من هذا البـاب كثير . ويذكر أنه قال [1] : ما تداهى على أحد قط ولا خدعنى غير امرأة وكعاء من البربر . قيل له وكيف كان ذلك ؛ قال كان لى صاحب من البربر نشأت معه بالقيروان ولم يفرق بيننا ريب الزمان ، وكنت خالطته بنية نفسى وجعلته محل أنسى ، فلما صرت إلى ما أنا فيه من الرياسة ، فقدته ، فجعلت أطلبه فلا أقدر عليه ، فلما نزلت على مدينة باغاية (ا) ، ودخلتها عنوة واستبحت جميع ما فيها فإذا أنا فى صبيحة ذلك اليوم بصائح يصيح : « أنا بالله وبالأمير » ؛ فقلت : « مالك ومن أنت» . فقال أنا فلان ، فإذا بصاحبى الذى كنت أطلب مع أهل(ب) باغاية ، قد حبسه(ج)عن نسكه ، وغلب على هواه وورعه ؛ فأظهرت البشر بمكانه والجزل بشأنه ، ولو شفع إلى فى أهل باغاية لشفعته . فجعلت أوانسه وهو كالوالد فسألته عن أمره ، فقال إنه فقد بنتا كانت له فيمن فقد من النساء ؛ فقلت له والله لو خرجت إلى بالأمس لحقنت دم أهل بلدك لحرمتك عندى ؛ فقال القدر غالب والمحروم خالب . قال حماد ثم أمرت القواد فأحضروا جميع ما كان فى أخبئتهم من النساء ، فعرف الرجل أن ابنته فيهن . قال حماد فأمرت بسترها وترفيهها وحملها مع أبيها فى أحسن حال ، قال فرفعت صوتها قائلة ، والله يا حماد لا

(ا) ك : باغانة . أنظر Fagnan ، ص ١٠٣ (ب) ك : « وأهل » بدلا من «مع أهل» . (ج) ك : حبس .

[1] البكرى ، ص ١٨٧

رجعت مع أبى ولا مع الذى غصبنى ، قال فقلت لها فما الذى تريدين ؟ قالت إنى لا أصلح إلا للملوك فلاحاجة لى بسواهم ، فلما سمع ذلك أبوها سكن ما كان فى نفسه لها من الإشفاق ، وظن أنها قد فتنت وفسدت . قال حماد ومن أين تقولين أنك تصلحين للملوك ؟ قالت ، لأن عندى علما لا أشارك فيه ولا يدعيه غيرى ، فقلت لها ألا أريتينا شيئا من علمك ، قالت نعم تأمر بقتل إنسان وتحضر أمضى سيف عندك ، أتكلم عليه بكلمات تمنع من تأثيره فى أحد ويعود فى كف حامله أكل من قبله . قال حماد فقلت إن الذى يجرب هذا فيه لمغرور ، فقالت لى ، أويتهم(ا) أحد فى قتل نفسه ؟ قلت لها لا ، فقالت إنى أريد أن تجرب ذلك فىّ حتى تروا عجبا . قال فأتى بسيف ماض فتكلمت عليه وأشارت إلى السماء مرارا ومدّت عنقها ، فضربها السياف ضربة أبان رأسها من جسدها ، فاستيقظت من غفلتى ، وعلمت أنها تداهت على ، وكرهت العيش بعد الذى جرى عليها واستبان لأبيها ذلك فجعل يلقى نفسه عليها ، ويتمرغ فى دمها اغتباطا بما رأى من عظيم أنفاسها ، إذ (ب) اختارت الموت على ما نزل بها ، وقال لاشك أن إشارتها إلى السماء إنما كان ذكرا للشهادة والدعاء لله تعالى أن يغفر لها . وتصنع بمدينة قلعة حماد أكسية ليس لها مثيل فى الجودة والرقة إلا (ج) الوجدية التى تصنع بوجدة ، يساوى كساء عيد من عمل القلعة ٣٠ دينارا .

مدينة أشير (١) : بناها زيرى بن مناد الصنهاجى وتعرف بأشير زيرى ، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة ، وإنما بنى زيرى سورها وحصنها وعمرها فليس فى تلك الأقطار أحسن منها . وهى بين جبال شامخة محيطة بها . وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الأول ، وبالقرب من المدينة بنيان عظيم يعرف بمحراب سليمان لم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم ، فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصر عنه (د) الوصف .

---

(ا) ك : أوتهم . (ب) النص : التى . (ج) ك : لا .
(د) «عنه» ناقصة فى ك .

(١) البكرى ، ص ٦٠ ؛ الإدريسى ، ص ٨٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٨٦ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٧ ؛ ابن خلدون ، الترجمة ( Berbères ) ، ج ٢ ص ٦ . وقارن Fagnan ، ص ١٠٥ والهامش .

مدينة مِليْانة [١] : قريبة من مدينة أشير ، وهي مدينة كبيرة من بنيان الروم جددها زيرى بن مناد أيضا وفيها آثار قديمة . وهي مدينة حصينة في سفح جبل يسمى نكار ، وشعراء هذا (ا) الجبل كلها ريحان ، وينبعث من هذا الجبل عين خرارة عظيمة تطحن عليها الأرحية لقوتها . ولمدينة مليانة مياه سائحة وأنهار وبساتين فيها جميع الفواكه ، وهي من أخصب بلاد إفريقية وأرخصها أسعارا . ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة ؛ وحولها قبائل كثيرة من البربر . ويشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور . وعلى نهر شلف مدينة قديمة أزلية فيها آثار أولية تسمى شلف ، وإليها ينسب النهر الكبير ، وهي اليوم خراب .

مدينة الخضراء [٢] : وإنما سميت الخضراء لكثرة بساتينها ، وكانت مدينة كبيرة قديمة فيها آثار أولية وهي على نهر إذا حل دخل(ب) بعضها ، وأظنه نهر شلف .

ذكر بلاد الزاب [٣] : وهي على طرف الصحراء ، في سمت بلاد الجريد ، وهي مثلها في حر هوائها وكثرة نخلها . وهي مدن كثيرة ، وأنظار واسعة وعمائر متصلة ، فيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة .

مدينة المَسيلة [٤] : أقرب بقلعة حماد من بلاد الزاب مدينة المسيلة ، وهي في بسيط(ج) من الأرض على نهر كبير يسمى بَسُهر ، ومنبعه من مدينة

---

(ا) م : أشماز ، ك : شعار . (ب) «إذا حل دخل» ناقصة في ك . أنظر البكرى ، ص ٦١ . (ج) م : بساط .

(١) البكرى ، ص ٦١ ، ٦٩ ؛ الإدريسي ، ص ٨٤ ، ٨٥ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٧ ابن حوقل ، ص ٦٤ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ١٤٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٤ - ا ، ١٤٧ - ا

(٢) قارن البكرى ، ص ٦١ ؛ الإدريسي ، ص ٨٤ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٧

(٣) قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٩٠٤ ؛ الدمشقي ، ص ٢٢٧ ؛ اليعقوبي ، ص ٣٥٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩٢

(٤) البكرى ، ص ٥٩ (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٥٣٤ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ١٠١ . وهي تسمى حتى الآن المحمدية) ؛ الإدريسي ص ٨٥ - ٨٦ ؛ الدمشقي ص ٢٣٧ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩١ والهامش ، ابن حوقل ، ص ٦٠

الغدير وقد ذكرناه . مدينة المسيلة أحدثها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي منذ سنة ٣١٣ [=٩٢٥] وكان المتولى لبنائها علي بن حمدون بن سماك المعروف بابن الأندلسي ، فلم يزل بها أميرا حتى مات فى فتنة أبى يزيد (ا) ، وبقى ابنه جعفر أميرا فيها ، وولى على بلاد الزاب كلها . وهذا جعفر ممدوح (ب) محمد بن هانئ الأندلسى الشاعر المشهور ، له فيه مدائح كثيرة حسان ، وكان من أكثر أهل زمانه إحسانا . ومدينة المسيلة كثيرة النخل والبساتين تشقها جداول المياه العذبة ، وكانت مدينة عظيمة على نظر كبير ، وحواليها قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوّارة ، وبنى برْزال .

مدينة نِقَاوُس(١) : مدينة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع ، كثيرة شجر الجوز ، منها يحمل الجوز إلى قلعة حماد وإلى بجاية وإلى أكثر تلك البلاد .

مدينة طُبْنَة (٢) : وهى مدينة كبيرة قديمة عليها سور من طوب ولها حصن قديم عليه سور من صخر جليل ضخم متقن البناء من عمل الأوائل ، ولها أرباض واسعة وهى مما افتتح موسى بن نصير حين دخل بلاد إفريقية والمغرب وبلاد الأندلس فبلغ سبيها ٢٠ ألف رأس . ويشق مدينة طبنة جداول الماء العذب ولها بساتين كثيرة النخل والثمار ولها نهر يشق غابتها ، وقد بنى له صهريج كبير يقع فيه وتسقى منه جميع بساتينها وأرضها ، ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها

---

(ا) النص : أبى زيد . أنظر Fagnan ، ص ١٠٧

(ب) النص : وهذا جعفر هو ممدوح .

(د) «وهى» ناقصة فى ك .

(١) الإدريسى ، ص ٩٤ ؛ البكرى ، ص ٥٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٦ ؛ المقدسى ، ص ٢٣٠

(٢) البكرى ، ص ٥٠ ، الترجمة ، ص ١٢٣ وهامش ٢ ؛ الإدريسى ، ص ٩٣ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٩ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٥٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٢

مدينة بَسْكِرَة[1] : وهي مدينة كبيرة ،وحواليها حصون كثيرة وقرى عامرة وهي قاعدتها (ا) ، ولها غابة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وجميع الثمار ، ببسكرة النخل لكثرته بها(ب)، وفي جميع البلاد إنما يصيحون عليه «بسكرة». وأكثر تمرها الجنس المعروف بالكُسْبا وهو المعروف ببلاد المشرق وبمدينة الرسول عم وغيرها بالسيانى (ج) ؛ وببسكرة أيضا جنس من التمر يعرف بالليارى وهو أبيض أملس وكان صاحب القيروان يأمر عماله بالمنع من بيعه ، وبعث ما هناك منه إليه لطيبه وحسنه . ويشق غابة بسكرة نهر كبير ينحدر من جبل أوراس يسقى بساتينها ونخلها، وهو نحو ٦ أميال في غابة متصلة بالمدينة يشق غابتها وقراها . وبسكرة دار فقه وعلم ، فيها العلماء . ومن قرى بسكرة قرية تسمى مَلْسون(د) ، ومنها كان أبو عبيد الله الملسونى ، وكان عالما فقيها يحمل عنه العلم، وهو الذى أخبرنى أن في طريق بسكرة جبلا وفيه كهف فيه رجل قتيل لم يعرف أحد من أى عهد هو(ر) ، ولم تغيره الدهور ولا تقادم الأزمان كأنما جراحه تقطر دما كأنه قد قتل من يومين ، وتخبر الكافة عن الكافة والخلف عن السلف ، أنهم كذا عرفوه منذ كانوا ؛ وقد نقله(س) أهل تلك النواحي ودفنوه بأقبيتهم تبركا به ثم لم يلبثوا أن(ص) وجدوه في الكهف على حاله ، يحدث بذلك ثقات أهل النواحي ، ويقال إنه من الحواريين . ذكر محمد بن يوسف في كتابه أن هذا القتيل في شق جبل بشرقي عين أوّبان ،وهذه العين عظيمة بين مدينة مرماجنة وبين مدينة سبيبة ، وذكر أنه يخيل لرائيه أنه كما ذبح من يومه وإنه هناك من قبل فتح إفريقية ولم(ط) يذكر أمر نقله ودفنه . وقد ذكر المسعودى[2] رحمه الله ، هذا القتيل والله أعلم بحقيقة أمره .

---

(ا) النص : قاعدتهم . (ب) النص : به . (ج) م : السيحانى .
(د) ك : مسلون ؛ البكرى : ملشون . (ر) الجمل الأخيرة مختلطة تماما في «ك» حيث القراءة : والذى أخبر في طريق بسكرة جبلا ، وفيه كهف فيه رجل فقتيل لم يعرف أحد من أين عهد هو . (س) ك : وقد نقلوه .
(ص) ك : ثم يلبثوا الى أن . (ط) «لم» ناقصة في النص ؛ أنظر Fagnan ، ص ١١١ وهامش ١

(1) البكرى ، ص ٥٢ — ٥٣ ؛ الإدريسى ، ص ٩٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٦٢٥ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٨ ؛ المقدسى ، ص ٢٣٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٩٢

(2) البكرى ، ص ٥٣ . هذه الأسطورة لا توجد في كتب المسعودى التى تحت أيدينا ؛ وربما نقلت من أحد كتبه المفقودة .

مدينة تَهُوَدة [١] : بالقرب من بَسْكرَة مدينة تهودة وهي مدينة كبيرة قديمة أزلية عليها سور عظيم مبني بالحجر الجليل ، ولها رياض كبيرة ولها أرباض كثيرة يدور بجميعها خندق ، ولها نهر كبير ينصب إليها من جبل أوراس ، فإذا كانت بينهم وبين أحد حرب ، وخافوا النزول إليهم أجروا ماء ذلك النهر في الخندق المحيط ببلدهم فامتنعوا منه . وهي كثيرة البساتين والزرع والنخل وجميع الثمار . وفي هذه المدينة خبر مشهور عن رسول الله صلعم ، يروى عن شهر بن حوشب أن النبي صلعم نهى عن سكنى هذه البقعة الملعونة التي يقال لها تهودة ؛ وقال له سوف يقتل بها رجال من أمتي على الجهاد في سبيل الله ثوابهم كثواب أهل بدر وأهل أحد ، والله ما بدلوا حتى ماتوا . وكان شهر بن حوشب يقول : واشوقاه إليهم ، وقال شهر سألت جماعة من التابعين عن (ا) هذه الصحابة التي ذكرها رسول الله صلعم ، فقالوا ذلك عقبة بن نافع وأصحابه قتلهم البربر والنصارى بمدينة يقال لها تهودة ، فمنها يحشرون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم حتى يقفوا بين يدي الله تعالى . وروى أبو المهاجر قال : قدم عقبة بن نافع مصر وعليها عمرو بن العاص في خلافة معاوية بن أبي سفيان فنزل منزلا من بعض قرى مصر ومعه جماعة من أصحاب رسول الله صلعم فيهم عبد الله بن عمرو بن العاص فوضعت بين أيديهم سفرة فيها طعام فلما تناولوا من الطعام ، ضربت حدأة على ما بين أيديهم من الطعام فأخذت منه عرقا ، فقال عقبة اللهم دق عنقها ، قال وأقبلت منقضة حتى ضربت بنفسها الأرض فاندقت عنقها ، فاسترجع ابن عمرو فسمعه عقبة يترجع فقال : ما لك يا أبا عبد الله ، فقال بلغني أن قوما يغزون إلى هذه الناحية فيستشهدون بها جميعا ، فقال عقبة اللهم أنا ومنهم ، وكان مستجاب الدعوة . قال ثم إن عقبة بن نافع خرج في أيام يزيد بن معاوية على جيش كبير غازيا إلى بلاد المغرب ، فمر على عبد الله بن عمرو بمصر فقال له : «يا عقبة لعلكم من الجيش الذي يدخل الجنة» (ب) ، قال أبو المهاجر فافتتح عقبة بلاد المغرب حتى وصل إلى أقصاها وعلى ضفة البحر المحيط ، وقد ذكرناها . ويقال إنه أدخل (ج) فرسه في البحر حتى بلغ تلبيب سرجه ، وقال اللهم إني

---

(ا) ك : على .

(ب) القراءة في ك : فقال له عقبه لعلكم الجيش الذي يدخل الجنة . (ج) ك : دخل

[١] البكري ، ص ٧٢ وتابع ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٧ ؛ مراصد الاطلاع ، ص ٢٢٠

أطلب السبب الذى طلب عبدك ذو القرنين ، فقيل له ياولى الله وما السبب الذى طلب ، قال ألا يعبد فى الأرض إلا الله وحده ، وانصرف إلى إفريقية . فلما دنا منها تفرق (ا) أصحابه عنه فوجا فوجا ، فلما وصل إلى مدينة طُبْنة من نظر الزاب ، أذن لسائر جيشه وبقى فى عدة يسيرة من أصحابه ، وقد كان فى دخوله بلاد المغرب خطر على مدينة تهودة وعلى مدينة بادس ، فرأى فيها قوة (ب) كثيرة من النصارى والبربر ، وكانت فى ذلك الوقت أعظم مدن المغرب . فلما رجع قال أمر على مدينة تهودة (ﺟ) وبادس ، أعرف ما فيهما من القوة والجيش ، فلما انتهى إلى مدينة تهودة (ﺟ) اعتمده كُسَيْلة بن أقدم وكان أميرها فى جيوش من الروم ، وقد كان سمع تفرق جيش (د) عقبة عنه ، وأقبلت عليه عساكر من البربر ، فلما رآهم عقبة وأصحابه كسروا أجفان سيوفهم ورجعوا إليهم فقاتلوا حتى قتلوا (ر) جميعا رحمهم الله ؛ وقبر عقبة اليوم بمدينة تهودة على مقربة منها بمرحلة .

مدينة بادس (س) (١) : وهى مدينة كبيرة ، لها حصنان وأرباض واسعة وبسائط كثيرة ومزارع جليلة يزدرعون فيها الشعير مرتين فى السنة على مياه سائحة ونخل كثير وجميع الفواكه والثمار . وهى مدينة قديمة فيها آثار للأولين ولها مياه وعيون كثيرة ، وبالقرب منها قيطون بياضة[٢] وهو أول بلاد سماطة ، ومنه تفترق الطرق إلى بلاد السودان وإلى القيروان وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها . وقيطون بياضة قرية كبيرة كثيرة النخل فيها تجتمع الرفاق ، ومنها تخرج إلى جميع البلاد ، وهى آخر بلاد الزاب .

---

(ا) ك : سار . (ب) ك : نوبة . (ﺟ) الجمل الواقعة بين (ﺟ) ، (ﺟ) ناقصة فى ك . (د) «جيش» ناقصة فى ك . (ر) ك : قوتلوا .
(س) ك : قادس ؛ أنظر Fagnan ، ص ١١٤

(١) البكرى ، ص ٧٤ قارن الإدريسى ، ص ٩٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٥٥٩ (يميز بين بادس الموجودة فى الزاب وأخرى فى منطقة فاس) ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٨

(٢) البكرى ، ص ٧٤

## ذكر المغرب الأوسط[1]

وفيه مدن كثيرة ، وقاعدتها مدينة تِلِمْسان ، وحدّ المغرب الأوسط من وادى مجمع (ا) وهو فى نصف الطريق بين مدينة مليانة ومدينة تلمسان بلاد تازا من بلاد المغرب فى الطول ، وفى العرض من البحر الذى على ساحل البلاد التى ذكرنا فى البلاد الساحلية ، مثل مدينة وهران ومليلة وغيرها من البلاد الساحلية إلى مدينة تنزل (ب) ، وهى مدينة فى أول الصحراء (ج) وهى على الطريق إلى سِجِلْماسة .

مدينة تِلِمْسان[2] : مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبئ أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة ، وهى فى سفح جبل أكثر شجره الجوز ، وكان لها ماء مجلوب من عمل الأوائل من عيون يسمى بُورِيط ، بينها وبين المدينة ٦ أميال ، ولها نهر كبير يسمى سَطْفسيف . وكانت تلمسان دار مملكة زناتة وحوالها قبائل كثيرة من زناتة وغيرهم من البربر . وهى كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة الخيرات والنعم ، ولها قرى كثيرة وعمائر متصلة ومدن كثيرة ترجع إلى نظرها . وفى الجنب من مدينة تلمسان قلعة منيعة كثيرة الثمار غزيرة المياه والأنهار ويتصل بها جبل تاوَرْنَاية ، وهو جبل كبير معمور فيه القرى الكثيرة والعمائر المتصلة . وفى الجنوب (د) من مدينة تلمسان قرية كبيرة تسمى باب القصر ، فوقها جبل يسمى البغل ، كثير الخصب والعمارة ينبعث تحته نهر سَطْفسيف ويصب فى بركة

---

(ا) م : واد يسمى مجمع ؛ أنظر Fagnan ، ص ١١٥

(ب) البكرى : (ص ٧٧) تيزيل . (ج) والصحراء ناقصة فى ك .

(د) النص : ومن الشمال . أنظر Fagnan ، ص ١١٦ وهامش ١

(١) من الصعب تحديد بلاد المغرب حسب تعريف الجغرافيين العرب : فإفريقية تختلط بالمغرب والمغرب يتداخل فى الأندلس . أنظر ياقوت ، معجم البلدان (إفريقية) ، ج ١ ص ٣٢٤ ، (المغرب) ج ٤ ص ٥٨٣ ؛ الدمشقى (إفريقية) ، ص ٢٣٤ ؛ مراصد الاطلاع (إفريقية) ، ج ١ ص ٨٠ ، (المغرب) ج ٣ ص ١٢٦ ؛ المقدسى (المغرب) ، ص ٢١٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦٨

(٢) قارن البكرى ، ص ٧٦ ؛ الإدريسى ، ص ٨٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٧٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ١٩ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٧ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٩ — ١٩٠ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٧ — ا

عظيمة منقورة فى حجر صلد من عمل الأولين فيسمع لوقوعه فى تلك البركة خرير شديد هائل على مسافة أميال ، ثم يخرج من تلك البركة بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المِهْماز(أ) ، فيسقى هناك مزازع وأولاجا كثيرة تسمى أولاج الجنان(ب)؛ وتلك المواضع من أجمل بقاع تلك البلاد ؛ ثم يصب فى نهر أسر(ج) ثم يصب فى نهر ثاني وهو النهر الذى يتصل بمدينة أرْشقُول فى البلاد الساحلية . ومدينة تلمسان مدينة علم وخير ولم تزل دار العلماء والمحدثين . وكان هذا المغرب الأوسط قد تملكه العلويون من بنى إدريس وأمرهم مشهور ، وتملكوا بلاد الأندلس وتسموا بالخلافة .

مدينة وَجْدَة(١) : وهى مدينة كبيرة مسورة قديمة أزلية ، كثيرة البساتين والجنات والمزدرعات ، كثيرة المياه والعيون طيبة الهواء جيدة التربة ، يمتاز أهلها من غيرهم بنضارة ألوانهم وتنعم أجسامهم . ومراعيها أنجع المراعى وأصلحها للماشية ، يذكر أنه يوجد فى الشاة من شياههم مائتى أوقية شحما ، ويصنعون من صوفها أكسية ليس لها نظير فى الجودة مثل العبيدى ، يساوى الكساء الجيد منها ٥٠ دينارا وأزيد . وعلى مدينة وجدة طريق المار والصادر من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب وسجلماسة وغيرها .

مدينة أَجَرْسِيف(٢) : مدينة كبيرة لها بساتين كثيرة وهى على نهر مَلوِيّة وهو نهر كبير من الأنهار المشهورة ، وكانت أجرسيف قرية كبيرة على نهر ملوية حتى خرج الملثمون من الصحراء فنزلوها ومدنوها ، وبنوا عليها سورا من طوب .

---

(أ) النص : بلسان . أنظر البكرى ، ص ٧٧

(ب) البكرى : ولج الحنا . أنظر Fagnan ، ص ١١٦ وهامش ٤

(ج) النص : اسين . أنظر البكرى ، ص ٧٧

(١) قارن البكرى ، ص ٨٧ ؛ الإدريسى ، ص ٥٦ ( لا يقول شيئا عن هذه المدينة ) .

(٢) قارن البكرى ، ص ٨٨ ؛ الإدريسى ( أقرسيف ) ، ص ١٧٢ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٨

ومن مدن المغرب الأوسط المشهورة(ا) ، مدينة تاهرت[1]: وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة ، عليها سور صخر ، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة . ومدينة تاهرت(ب) فى سفح جبل يسمى قرقل ، وهي(ج) على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب ، يسمى منية(د) ، ولها نهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى تانس ، [ومنه] تشرب أرضها وبساتينها ، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار ، وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة . وبلد تاهرت شديدة البرد ، كثيرة الغيوم والثلج ، قال أبو بكر ابن حماد(ر) يصفها(س) :

ما أصعب البرد وريعته … وأظرف(ص) الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا ما بدت … كأنها تنشر من تحت

نفرح بالشمس إذا أشرقت … كفرحة الذمى(ط) بالسبت

ويقال إن رجلا من أهل تاهرت حج فرأى توقد الشمس بمكة فقال لها وقد أحرقته : احرقى ما شئت فو الله إنك بتاهرت لذليلة .

وقرب هذه المدينة (ع) قلعة هوارة[2] : وهي قلعة منيعة فى جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع ، وأعناب ، وتحتها فحص طوله نحو ٤٠ ميلا يشقه نهر سيرات ويسقى أكثر أرضه ، يسمى ذلك الفحص سيرات بأسم النهر . ونهر سيرات نهر كبير مشهور يقع فى البحر عند مدينة أزواوا ، وهي مدينة قديمة رومية . وفحص سيرات يسكنه قبائل كثيرة من البربر ،

---

(ا) الجملة الأخيرة ناقصة فى ك . (ب) ك : «وهي» بدلا من «مدينة تاهرت» .
(ج) ك : وهو . (د) م : منيت . (ر) أنظر البكرى ، ص ٦٧ (يسميه أبو عبد الرحمن بكر) ؛ Fagnan ، ص ١١٨ وهامش ٥
(س) ك : يضفه . ك (ص) : وأطراف . (ط) ك : الرى .
(ع) «وقرب هذه المدينة» ناقصة فى ك .

[1] البكرى ، ص ٦٦ — ٦٧ ؛ قارن الإدريسى ، ص ٨٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨١٣ ؛ الدمشقى ، ص٢٣٧ ؛ مراصد الاطلاع (تاهرت) ، ج ١ ص ١٩٦ ؛ (تيهرت) ، ج ١ ص ٢٢٣ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٧٣ ، ١٩٢ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٥٣ ؛ المقدسى ، ص ٢٢٨

[2] البكرى ، ص ٦٩ . قارن الإدريسى ، ص ٥٨

ومَطغرة وغيرهم من قبائل زناته ، وزناته تتشعب على قبائل كثيرة ، وبلادهم واسعة يخالطهم من جهة إفريقية بنو زُغبةَ من العرب من بنى هلال بن عامر ، ومن جهة المغرب بلاد مسوفة ، وهم القبائل كثيرة من صنهاجة ، يسكنون بتلك الصحراء لا يستوطنون بلدا ، وإنما عيشهم على اللبن واللحم ، وهم خلق كثير . وفى صحارى بلادهم جبل عظيم يعرف بقَلْقَل وهو كثير الخصب والعيون والأنهار ، وفيه آثار عمائر كثيرة ، وبيوت محصنة وقرى واسعة لا أنيس بها ولا يسكنها خلق ، ويقال إن الجن أخلت تلك العمائر والبلاد . ويرى فى تلك الصحارى بالليل نيران (١) الجن ، ويسمع عزفهم وغناؤهم وهم كثيرا ما يختطفون الإناس ويحملونهم معهم وربما يفلت الإنس من بينهم فيرجع إلى أهله فيحدث بما رأى عندهم ؛ وهذا متعارف . ويقال إنهم يبدلون أولاد الإنس ، ولذلك يقول أهل إفريقية : يامبدول ، وقد ذكرنا السر فى ذلك . وبقرب تلك البلاد أرض فجيج ، وهى بلاد خصبة ، وفيها نخل كثير وتسكنها أمم شتى . وللمغرب الأوسط مدن كثيرة قد ذكرنا أكثرها فى البلاد الساحلية ، وهى كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم والماشية ، طيبة المراعى ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها .

## ذكر بلاد المغرب (١)

فيه مدن كثيرة ، وأقطار واسعة ، وعمائر متصلة ، يحد بلاد المغرب من آخر المغرب الأوسط إلى بلاد تازا ، إلى آخر بلاد المغرب على ساحل البحر الكبير الداخل من البحر المحيط عند مرسى أزمور طولا . وأما عرضا من بلاد طنجة وسبتة إلى بلاد ملوية وأحوازها ، وهو أول بلاد سجلماسة إلى الصحراء ، وآخر بلاد المغرب .

---

(١) ك : نير .

(١) أنظر هامش ١ ص ١٧٦ . عن بلاد تازا قارن العبدرى ، المخطوط ، ص ١٤٧ — أ ؛ الدمشق ، ص ٢٣٧ . وعن أزمور قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٢٣ ؛ الدمشق ، ص ٢٣٦ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٤٨ — ب . وأنظر Fagnan هامش ٢ ص ١٢٠

وقاعدة بلاد المغرب مدينة فاس — كلأها الله [1]: هى أعظم مدينة من مصر إلى آخر بلاد المغرب ، ومدينة فاس مدينتان كبيرتان مفترقتان ، يشق بينهما نهر كبير يسمى بوادى فاس ، يدور عليها سور عظيم . وبين المدينتين قناطر كثيرة ، وتطرد فيها جداول ماء لا تحصى ، تخترق كلتى المدينتين تسمى بالسوانى (ا) لابد لكل دار من ديار المدينتين منها . وفيها عيون كثيرة لا تحصى عددا ، وفيها من أرحية (ب) الماء نحو ٣٦٠ رحى ، وهى فى المزيد ، وربما وصلت ٤٠٠ ؛ والنهر الذى يخترق مدينة فاس ينبعث من عين عظيمة لها منظر عجيب ، فيها نحو أل ٦٠ فوارة ، فى دائرة ، يجتمع منها هذا النهر الكبير ، بينها وبين المدينة نحو ١٠ أميال فى بسيط من الأرض ، يكاد لا يتبين جرى الماء فيه لاستواء أرضه .

ومدينة فاس محدثة ، أسست عدوة الأندلس فى سنة ١٩٢ [=٨٠٨] ، وعدوة القرويين فى سنة ١٩٣ [=٨٠٩] فى ولاية إدريس بن إدريس الفاطمى ؛ ومن ذريته بفاس إلى اليوم ونحن فى سنة ٥٨٧ [=١١٩١] . ومدينة فاس اليوم فى نهاية العمارة والصلاح ، قد بنيت أكثر جناتها الملاصقة لها دورا ، وأضيفت إليها . وفيها اليوم ٣ جوامع للخطبة : جامع عدوة الأندلس ، وهو جامع كبير متقن البناء ، يقال إن ابن عامر زاد فيه ، وجامع عدوة القرويين ، جامع كبير أكبر من جامع الأندلس ، وزيد فى (ج) هذه المدة فى هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر ، [و] من جهة الجوف سقاية متقنة البناء ملاصقة له ، ماؤها من الوادى ، وجلب لها ماء عين هو فى أيام الحر فى نهاية البرودة ، وفى أيام البرد فيها بعض الحرارة . وكذلك صنعت فى جوف جامع القرويين سقاية متقنة البناء ، ومياه جارية مع عتبة الباب الجوفى (د) ، وفوارة فى بيلة (ر) مرتفعة نصف قامة داخل

---

(ا) م : بالسواقى . (ب) م : أرحى . (ج) النص : وزيد فيه فى .
(د) ك : فى عتبة الجوف . (ر) ك : سبيله .

[1] إلى جانب المعلومات المعروفة يمدنا المؤلف بتفصيلات دقيقة عن مدينة فاس على عهده . قارن البكرى ، ص ١١٥ وتابع ؛ الإدريسى ، ص ٧٥ — ٧٦ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٥ ؛ المقدسى ، ص ١٢٩ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٧ ، أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦٦ — ١٦٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٤٢ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٣٣١ . هذا ويلاحظ أن صاحب كتاب روض القرطاس ( القرن ١٤ م ) عرف كتاب الاستبصار وأخذ منه بعض المعلومات عن فاس ( ص ١٥ وتابع ) .

الصحن (ا) ، وزيد فيه من جهة الغرب باب كبير ، مرتفع البناء عالى السناء يسمى باب النجارين (ب) ، كل ذلك فى حدود سنة ٥٧٨ [=١١٩١] ، فكملت منافع هذا الجامع المكرم وشرفت حومته بما شرفه الله تعالى به . وكذلك بقصبة السلطان جامع شريف معظم فيه الخطبة ، وأحدثها فيه هذا الأمر العزيز — أدام الله اعتلاءه — لأن القصبة منحازة عن البلد (ج) بسور ، فوجب أن يكون فيها جامع وفى كل عدوة شريعة لخطبة العيدين . ومدينة فاس كثيرة الخصب والرخاء ، كثيرة البساتين والمزدرعات والفواكه ، وجميع الثمار ، ولها أقطار واسعة متصلة العمائر . وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثرها بساتين وأشجار ومياه وعيون من عدوة الأندلس ، وكلاهما خصبة (د) عظيمة القدر ، جليلة الخطر ويقال إن رجال عدوة الأندلس أشجع (ر) وأنجد من رجال عدوة القرويين ، ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ، ورجال عدوة القرويين أجمل من رجال عدوة الأندلس . ويقال إن بعدوة الأندلس تفاح حلو يعرف بالأطرابلسى ، جليل حسن الطعم والرائحة ، يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين . وكذلك بعدوة القرويين أترج جليل ، يجود بها ولا يجود بعدوة الأندلس ، وكذلك سميد عدوة الأندلس أطيب من سميد عدوة القرويين . وهذه المدينة قصبة بلاد المغرب . بل وبلاد المشرق والأندلس ، لاسيما فى هذا الأمر العزيز — أيد الله دو[illegible] [illegible]ها يتجهز إلى بلاد السودان وإلى بلاد المشرق ، ومنها يحمل النحاس ال[illegible] [illegible]ميع الآفاق . قال الناظر هذه المدينة العظيمة ، لما كانت على هذ[illegible] [illegible] ، وفاضت عليها بركة الواضع لها ، وهو إدريس بن أدريس [illegible] [illegible] رضه ، ترتب على هذا اتساع مكاسب (س) أهلها ، ورغد عيشهم ، وكثرة تنعمهم ، لجمال المدينة ، وعظم حماماتها (ص) وكثرتها ، وهى أصل التنعيم . قال الشاعر :

إذا زفر الحمام ، واشتد غيضه … وهاجت لواعيج به وحميم (ط)
رأيت نعيما فى الحميم (ع) وراحة … وذاك غريب فى الجحيم نعيم

---

(ا) القراءة فى ك مختلطة : مرتفعة نصفها متداخل الصحن .
(ب) م : الفخارين . (ج) م : البلاد .
(د) ك : خطبة . (ر) ك : أشجاع . (س) ك : مكايسة .
(ص) ك : حماماتهم . (ط) ك : حيم بدلا من وحيم . (ع) م : الجنان .

فعطفت نفوس أربابها ، وشمخت أنوفهم ، وكبرت هممهم . وكان فيها من الولاة الملثمين رجال عظماء ، عقلاء فضلاء ، بادروا إلى مخاطبة الخليفة أمير المؤمنين رضه(ا) ؛ وتساعدوا مع الوالى المتصرف بها(ب) ، فأدخلوا الموحدين أعزهم الله ، يوم الأثنين فى العشر الأول من ذى حجة سنة ٥٤٠ [ ٢٣ مايو ١١٤٥ ] ،[1] وسلمت لهم أملاكهم وأموالهم ، ولم تزل أحوالهم تنعم ، (ج) وأموالهم تتزايد مع الأمن والدعة والسكون فى ظل أمن هذا الأمر العالى بهدى الله . ومن شأن النفوس استدعاء الخيرات لذواتها ، وجلب المكاسب والمنافع والمحاماة عليها ، والرغبة فى تحصيلها ، وهذا كله من دواعى الشح (د) ، والبخل ، والمنع ، وقلة الجود ، وترك البذل ، ولو كان الجود موجودا مع استجلاب المنافع الجسمانية ، لما تمكن تحصيلها لطالبها ، للمتابعة اللازمة بين الضدين . فلما أحس بهذا من له نباهة ، وخاصة الأدباء أظهروا أساليب القوم وأفشوها (ر) وخلدوا فيهم (س) عجائب القبائح ، مثلما (ص) فعل أبو بكر البكى (ط)[2] عفا الله عنه ، فمن أعجب ما حكى الشيخ العالم الصوفى الزاهد أبو الحسن بن حرزهم رحمة الله عليه ، عتبه على ما خلده فيهم من القبائح ، فأطرق البكى ساعة وأنشده .

| | |
|---|---|
| رأيت جنان(ع) عدن فى منامى | وحور العين فى أسنى لباس |
| فقلت بما أحصل(ف) بعض هذا | فقال(ك) إذاً هجوت لأهل فاس |
| فدع عنك الصلاح وكل بر | فهجوهم يؤمن كل بأس |

(ا) هنا تبدأ «ب» من جديد بعد نقص ملحوظ . (ب) ب : مع المتصرف الوالى بها . (ج) ب : نتمنى . (د) ب : دواعى الشيخ .
(ر) ب : تطمى أساليب القوم ، ك : تظهر أمثالها القوم وأفشوهـا .
(س) ك : خلدوا منهم . (ص) ك : مثال ما . (ط) أنظر Fagnan ، ص ١٢٥ وهامش ٣ .
(ع) ك : طنان . (ف) ب : أحل . (ك) ب : وقيل .

(١) عن سقوط فاس بين أيدى الموحدين أنظر روض القرطاس ، ص ٣٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ( الترجمة .Berb ) ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠ ؛ الزركشى ، ص ٥ وقارن مجموعة الرسائل الموحدية ، دراسة بروفنسال ، ص ٤٥ ؛ البيدق ، الترجمة ، ص ٢٢٧

(٢) أصل هذا الشاعر الهجاء من بكة من قلاع شرق الاندلس — توفى بعد ٥٦٠ = ٤ — ١١٦٥ . أنظر Fagnan ، ص ١٢٥ وهامش ٣

فانظر يا أخى تحديه وتهديه إلى استنزال الشيخ الزاهد(ا) بذكره لجنان عدن ، وحور العين ، إلى أن أصغى له حتى دس فى سمعه هذه الإبرة ، وسرت إلى فهمه هذه السمعة الفاسدة ، ولو كان عمل الشرّ(ب) مهلكا لفاعله لمجرد لهلك البكى لحينه بأقل منظوماته فيهم(ج) ، لأن نفوس أهل المغرب مجبولة على الاستنصار ، وقيل الحقد مغربى(د) . وعلى الحقيقة فلا يجب أن يعاب أحد بشىء وضع فى جِبلته(ر) وإنما يعاب المرء بما يحمله عليه نظره السىء(س) الفكرة وتخلقه العقربى(ص) الكسبى . فهؤلاء قوم وضعوا فى مدينة عظيمة النعم ، رغدة المعايش ، ومن شأن النفوس جلب المنافع لذاتها ، وتحصيل شهواتها ولذاتها ، فهم يتأبدون على التحصيل لجميع منافعهم الشهوانية الجسمانية ، فمن كان مثلهم طلبهم بأن يُسَيِّموه منها وقدمنا [أن] المنع الجبلى فى طباع البشر ، كما فى دفع المطالب له ، فلزم طرده وزجره ، فنتج من هذا تخليد هذه الشناعات(ط) ، وقبلتها النفوس المناسبة لها فخلدت ، ولو كان الذى يطلبهم(ع) غير(ف) مثلهم ، لما عرج ولا ألتفت إليهم ، وهو كما قيل :

| | |
|---|---|
| حسدوا الفتى إذ لم ينالوا(ك) سعيه | فالناس أعداء له(ل) وخصوم |
| كضرائر(م) الحسناء قلن لوجهها | حسدا وبغيا إنه لدميم |

وذكرنا أنه كان فى الدولة اللمتونية رجال فضلاء ، عقلاء علماء حلماء ، وشهرتهم فيها أغنت عن ذكرهم(ن) . لكنى أردت أن أذكر شيئا من المدح ، وأوصاف المدح والخير ، وشيئا من الذم وأوصاف المذمومين ، فمن محبيهم أبو بكر البكى ، فهو ممن مدحهم ، والجوزى ، وغيرهم من الأحباء ؛

---

(ا) ك : للزاهد . (ب) ب : العمل السىء . (ج) ك : منطق ما يفهم .
(د) الكلمات من «مجبولة» الى «مغربى» ناقصة فى ك . (ر) ك : مثله .
(س) ك : السبيل . (ص) ك : العقرب . (ط) هنا نلاحظ أن النص مختلط بشكل مخل . فالقراءة فى ب ، م : وقدمنا المنع الجبلى فى طباع البشر فى طبع كما فى دفع المطالب لهم فلزم طرده وزجره فنتج من هذا تخليد هذا الشفاعات . أما فى ك فهى : منها المنع الجبلى فى طبائعهم ... البشر من هذا تخليد هذه الشفاعات.
(ع) ب : يتليهم. (ف) النص : غيرهم. (ك) ك : يبذلوا.
(ل) ب : لهم . (م) ك : كقرائر ويمكن التفكير فى كلمة «قرائن» .
(ن) نلاحظ أن الفصل التالى يختلف فى م ، ك من جهة عنه فى ب من جهة أخرى .

ومن هجاهم كثيرا وأكثرت الرواة لذلك . وقد قدمت السبب فى ذلك أن من شأن النفوس استدعاء الخيرات لذواتها ، وجلب المكاسب والمنافع ، والمحاماة عليها ، والرغبة فى تحصيلها ، وهذا كله من دواعى البخل والمنع وقلة الجود ، وترك البذل . قال الشاعر :

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم … واستوثقوا برتاج الباب فى الدار
قوم إذا استنبح(ا) الأضياف كلبهم … قالوا لأمهم بولى على النار[1]

قال المؤلف ، وموضع (ب) وادى فاس بوادى سُبو على ٣ أميال من المدينة (ج) . وهذا الوادى نهر عظيم من أعظم أنهار بلاد المغرب ، ومنبعه من جبل فى بلاد بنى وارتين(د) ، ورأس العين فى بئر (ر) غامضة يهاب الدخول فيها ، وهى دهسة عظيمة لا يدرك لها قعر (س) . وللبربر المجاورين لذلك الموضع (ص) تجارب منها أن المريض إذا أرادوا أن يعلموا هل هو يستريح أو يموت ، حملوه لرأس العين بذلك الموضع المهول ، فيغطسونه(ص) فيه حتى يقرب أن يطفى ، ثم يخرجونه ، فإن خرج على فمه دم فيستبشرون بحياته ، وإن لم يخرج من فمه دم ، أيقنوا بهلاكه ؛ وهذا عندهم متعارف (ط) لا ينكر .

قال الناظر ، ويُتصيَّد فى هذا الوادى الشابل الكثير (ع) ، ويطلع إلى رأس العين أو قرب منه ، ويدخل فى هذا الوادى الحوت الكثير ، ويتصيد فى بعض الأحيان البورى الكبير (ف) ؛ وذكر الثقات أنه بيع واحد بـ ١٣ درهما(ك) ، ورطل كبير منه بدرهم ونصف . ويصل إلى المدينة الحوت الكبير المسمى عندهم بالقُرْب (ل) يحمله الحمار ؛ وأخبرنى الثقة أنه عاين كبيسا

---

(ا) ك : نبح . (ب) ب : وموقع . (ج) القراءة فى ب : على نحو من مرحلتين ثلاثة أميال من المدينة . (د) ب : وايتن ؛ ابن خلدون ، العبر (الترجمة Berb ) ، ص ١١١ ، ١٨٧ (ذرايتن ) .
(ر) ب : شعراء . (س) «الدخول فيها» و «لايدرك لها قعر» ناقصة فى ب .
(ص) الجمل الواقعة بين «ص» ، «ص» ناقصة فى ك . (ط) ب : معتاد .
(ع) ك : الكبير . (ف) ب : الكثير . (ك) ك : بثلاثمائة موز .
(ل) ب : بالغرب .

[1] هذه الأبيات للأخطل . أنظر Fagnan ، ص ١٢٨ وهامش ١

تصيد فيه، زنته ٦٥ رطلا(ا) ، ونازعني في القُرْب والشولى فغلبته(ب).
وأخبرني الثقات أنه كان( ج)بمدينة فاس ومكْنَاسة الحوت الذى يسمى بالشولى،
وهو ألذ ما يوجد من أنواع السمك ، تصنع منه الألوان بأصناف البقل ،
فلا تشم له رائحة سمك . ولو كان هذا النهر يخرج فى البطاح ، لكانت البلاد
التى يسقيها أشرف البلاد وأخصبها ، وما أسهل خروجه فى بعض المواضع لو تنبه
له الأمر العالى ، وهذا لابد منه ؛ وهو(د) عنوان فتح ديار مصر ، فنيل
المغرب مفتاح نيل المشرق ، فيظهر العجائب ، ونيلها بعدله قيوم(د).

قال المؤلف، وبوادى سُبُو فوق فاس نحو مسيرة يوم، مضيق ما بين جبلين،
يسمى ذلك الموضع بتاغيت، معناه بلسانهم الحق(س)، وذلك المضيق نحو مسيرة
يومين ، وكان من يسكن بقرب تلك الحوافى ، إنما يعبر(ص) الوادى فى زنبيل
معلق بين الجانبين فى حبل قد شد (ط) طرفاه فى الحافتين ، يسع ذلك الزنبيل
نفسين وثلاثة ، وعلى ذلك المعبر حبل من الضفتين جميعا ، فإذا دخل الزنبيل
جذبه أهل الضفة الأخرى إليهم ، وبين الزنبيل وبين الماء مهوى بعيد . قال
الناظر ، ورأيت مضيقا فى وادى وانْسيفن(ع)بين معدن عرام وبين قلعة مهدى
ببلد فزاز(ف) ، ينحدر الوادى كله فى سعة بلاط قدره ٢٠ شبرا (ك) أونحوها،
وعليه قنطرة محدثة وعليها لوح كبير ؛ وهذا الوادى هو المعروف بأم ربيع ،
وهو مثل وادى سُبوُ ، ولو عاينه أهل الأمر ، أدام الله نصرهم ، لأحدثوا عليه
قنطرة على قوس واحد مثل قنطرة السيف المشهورة(ل) . وبمثل هذه الآثار
تفتخر الملوك ، فهى من أعظم منافع البشر . قال الناظر ، وبالقرب من مدينة
فاس غربى عدوة القرويين ، موضع يعرف بالشيخ يقال إنه ساخ(م) بأهله.

---

(ا) القراءة فى ك : وأخبرنى الثقات عين سبوا يتصيد فيه سمك زنته ٦٥ رطلا .
(ب) ك : بغلبته . (ج) ك : أكل .
(د) «وهو» ناقصة فى ك. (د) النص : فيظهر بعدله قيوم ؛ ك : وقبلها بدلا
من نيلها ؛ ب ، ك. : القيوم . (س) ك : اليوم ؛ م : الحلوا .
(ص) وانما يعبر» ناقصة فى ك . (ط) «قد شد» ناقصة فى ك .
(ع) وانسيفن هو اسم وادى أم ربيع الأعلى . أنظر Fagnan ، ص ١٣٢ وهامش٢
(ف) ب : فاذر . أنظر Fagnan ، ص ١٣٣ هامش ٣ (ك) ك : منظرا .
(ل) القراءة فى ك مختلطة كالآتى : وعليه قنطرة على قوس واحد مثل قنطرة السيف
المشهورة وكذا هذا المضيق الذى بوادى سبوا . (م) «ساخ» ناقصة فى ك .

وبالقرب منها أيضا قلعة يقال لها قلعة زيد ، فيها مسجد (ا) يقال إن عقبة بن نافع بناها ، وفيها شجر زيتون ، يذكر من يسكن(ب) بقرب ذلك المسجد أن كل دابة من حمار أو ثور أو جمل أو غير ذلك من الدواب ، إذا دخله وأكل من ورق الزيتون مات ، لا يشكون فى ذلك ، وهو عندهم متعارف .

وبين مدينة فاس ومدينة تلمسان ، مسيرة عشرة أيام فى عمائر متصلة. وقد ذكرنا أن آخر بلاد المغرب الأوسط وأول بلاد المغرب بلاد تازا ، وهى جبال عظيمة حصينة كثيرة التين والأعناب وجميع الفواكه ، وأكثر شجرها الجوز ، وهو يجود (ح) بها كثيرا . ويسكنها قبائل من البربر يعرفون بغَمّياتة [1] وقد بنى ببلاد تازا فى هذه المدة مدينة الرباط [2] ، وهى مدينة كبيرة فى سفح جبل مشرفة على بسائطه ، يشقها جداول المياه العذبة ، وعليها سور عظيم ، وقد بنى بالجير والحصى ، يبقى مع الدهر . وهى فى فسحة على ٦ أميال ما بين جبال ينصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة ، وأنهار تسقى جميع بساتينها فى أعلاها وأسفلها ، ولها نظر كبير ، كثير الزرع وجميع الفواكه والخيرات ، ولا أعلم ببلاد المشرق والمغرب بلدا أخصب منها ولا أكثر فوائد . وأسست هذه المدينة من نحو ٢٠ سنة (د) ، فى حين توجه الخليفة رضه إلى فتح بلاد بنى الناصر (ر) وشيدت (س) سنة ٥٦٨ [=١١٧٢–١١٧٣] مدينة الرباط على الطريق المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق ، وتسمى مكناسة تازا . ومكناسة قبيلة كثيرة من البربر سكنوا هناك ، يسمى الموضع بهم . وتحت مدينة الرباط بنحو الميل بركة كبيرة يذكر أنها تتصل بالبحر من تحت الأرض ، وقيل إنه رئى فيها فى بعض الأزمان (ص) دابة من دواب البحر ؛ ويقال إن ماء هذه البركة يحمر فى بعض الأوقات حتى يعود كالدم ، أخبرنى بذلك رجل من الثقات

---

(ا) «فيها مسجد» ناقصة فى ك . (ب) ب : بداية من السكن .
(ج) ك : يوجد . (د) ب : والمدينة نحو العشرين سنة ؛ ك : والمدينة اليوم نحو عشرين سنة . (ر) ك : الناظر .
(س) : ب : وسورت . (ص) : « فيها فى بعض الأزمان » ناقصة فى ك .

[1] قارن الإدريسى ، ص ٧٩

[2] الدمشقى ، ص٢٣٧ ؛ البيدرى ، المخطوط ، ص١٤٧ – ا وأنظر G. Marçais, Mélanges R. Basset, 1925, Note sur les Ribats en Berbérie, p. 411

الساكنين عليها . قال المؤلف ، ومن الجبال المشهورة ببلاد المغرب فازار ، وهو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر ، ويطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي . وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيل ؛ وخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها ، وهي مدورة القدود(ا) حسنة الخلق والأخلاق ؛ ولحوم غنمه أطيب اللحوم وكذلك أسمانها . وفي هذا الجبل أنواع النبات من العقاقير التي تنصرف في العلاجات الرفيعة ، وفيه خشب الأرز العتيق العالي ، وهي مأوى القردة(ب)، عاينتها تثب من الأرزة لأخرى وهي(ج) في الجو الأعلى . وفي هذا الجبل قلعة كبيرة تنسب للمهدي بن توالى الجيفشي (د) [1] ، وهي في نهاية المنعة ، أقام عليها عسكر اللمتونيين(ر) ٧ أعوام ، وبناؤها بالألواح . وإليها كان تغريب المعتمد بن عباد (س) ؛ فقال متمثلا حزينا بنقض العهود لبلد أهله يهود ، وبناؤه عود ، وجيرانه قرود ؛ وكان اليهود في ذلك التاريخ أكثر سكانه(ص) ، لأنهم سوقة فيلجؤون للحصن حيطة على سلعهم .

ومن نظر مدينة فاس إلى جهة (ط) الغرب مدينة مكناسة الزيتون [2] : وهي أربعة مدن وقرى كثيرة (ع) متصلة بالمدن والحصون . المدن منها تاقرارات(ف) وتفسيره المحلة ، وهو محدث البناء وهو مشرف على بطاح وبقاع مملوءة نفيضات (ك) الثمار ، وأكثرها الزيتون فسميت به . وهذه المدينة عليها سور كبير وأبراج عظيمة ، وهي مدينة جليلة فيها أسواق حفيلة ، وأحدث فيها الأمر العالي — أيد الله دوامه — مخازن عظيمة في نهاية من الاتساع ، وجلب لها ماء نهرها ، وأمر بغرسها زيتونا وكروما :

---

(ا) ب : القد . (ب) « القردة » ناقصة في ب . (ج) ك : وهو .
(د) أنظر Fagnan ص ١٣٦ هامش ١ . (ر) ب : الملثمين . (س) القراءة في ك : وإليها كان نفر ابن عباده . (ص) القراءة في ك : وجيرانه قدر ما كان اليهود وتلك التاريخ بنقض العهود . . أكثر سكانه . (ط) ك : الى بلاد
(ع) « كثيرة » ناقصة في ك . (ف) ب : تاجردت . . (ك) ك : بيضات .

(١) قارن روض القرطاس ، ص ٩٠ ؛ ابن خلدون ، العبر (الترجمة Berb.) ج ٢ ص ٧٣ ؛ وقارن Fagnan ، هامش ٢ ، ٣ ص ١٣٦

(٢) لا يقول البكري شيئا عن مكناسة . قارن الإدريسي ، ص ٧٦ وتابع ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦١٥ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ١٣٨ ؛ الدمشقي ، ص ٢٣٦

فزيتها أكثر زيت فى جميع المغرب . وبعده (ا) زيت النظر الكبير المسمى ببني تسيل ومغيلة وجهاتها ، وفيها اليوم تسع خطب : فى الحصن (ب) خطبة ، وفى المدينة المسماة السوق القديم (ج) خطبة ، وفى تاورا (د) خطبة ، وفى أولاد عطوش خطبة ، وفى أولاد برنوس (ر) خطبة ، وفى بنى موسى خطبة ، وفى بنى زياد ، وفى بنى ورزيعة (س) وفى بنى مروان ، ونحن فى سنة ٥٨٧ [ = ١١٩١ ] . وهى من البلاد العتيقة المجيدة لو كان بها (ص) خدمة لغلاتها ، فإن أرضها كريمة ، طيبة المزارع كثيرة المياه ، وبركات هذا الأمر العالى تعيش (ط) الموتى فكيف من فطر على الحياة (ع) الطبيعية . وهى من عز بلاد المغرب لها أنظار واسعة ، وقرى عامرة ، وعمائر متصلة ، تشقها الأنهار والمياه السائحة والعيون الكثيرة ، وتطحن عليها الأرحية ، وتحم (ف) بها الحمامات ، إلا أن فى صبيانها دعارة (ك) وسفاهة لأنهم أكثرهم حاكة يصنعون أشغالهم فى بيوتهم ، فإذا خرجوا إلى الفضاء الواسع حركتهم طباعهم الذميمة ، فلا يعرفون إلا تجرد الشررة ، سيما من كان منهم يجد زعامة فى نفسه أو نجدة فى بدنه . وميتها طعمة للجرذان (ل) .

قال المؤلف ، ومن المدن المعمورة والعمائر من فاس إلى طنجة بلد جنيارة [1] : وفيه قرى كثيرة عامرة زرعا وضرعا فى جبل سهل أبيض مثل الطيلسان ، ويسمى الجبل الأشهب ، وقل ما تخلف أرض جنيارة لا فى خصب ولا فى جدب (م) . سأل رجل أراد أن يقتنى (ن) ضيعة ببلاد المغرب شيخا من العارفين ، فقال له : عليك ببلد جنيارة فإنها مثل الدجاجة إن أصابها ديك أتت بالديك (ه) ، وإن لم يصبها ديك أتت بالبيض ، تحتك بالغبار وتلد . ومنه إلى نهر ردات مرحلة ، وهو نهر كبير فى أصل جبل وفى أعلاه .

---

(ا) ك : بعدها . (ب) ك : «مصر» بدلا من «فى الحصن» . (ج) ك : بسوق القديم . (د) ك : ثور . (ر) ك : بردون . أنظر الادريسى ، ص ٧٨ ؛ Fagnan ، ص ١٢٧ هامش ٤ (س) ك : وفى موسى خطبة وفى بنى زيد وفى وزيغة . (ص) «بها» ناقصة فى ك .
(ط) ب ، ك : تنعش . (ع) ك : الجيدة . (ف) ب : تحكم .
(ك) القراءة فى ك : الا أن فى سكانها ذراعة . (ل) ك : وميله طبمة للجولان .
(م) ك : جزب . (ن) ك : يبنى . (ه) ك : أتت بالبيض .

[1] البكرى ( جنيارة أو حناوه ) ، ص ١١١

مدينة كرْت (د) [١] : وكانت مدينة كبيرة حصينة كثيرة الخير على نظر كبير ، يعمرها قبائل من البربر يقال لهم بَيَّاتة ، وهي اليوم قرية عامرة . ثم منها إلى مدينة البصرة [٢]، مدينة كبيرة على ربوة مشرفة على بسائط ونظر واسع ، كثيرة الزرع والضرع ليس بتلك النواحي أوسع مرعى منها ، وبكثرة ألبانها كانت تعرف ببصرة الألبان(ب) . وتعرف أيضا ببصرة الكتان ، لأن أهلها كانوا يتبايعون بالكتان ؛ وكانت تعرف بالحمراء لحمرة تربتها . وكان عليها سور مبنى بالحجارة والطوب يحمر من بعيد ، وكانت لها ١٠ أبواب . ونساؤها مخصوصات بالجمال الفائق ، والحسن الرائق ، لم يكن ببلاد المغرب أجمل منهن .

مدينة قصر صَنْهاجة [٣]: وهي على تل وتحته نهر لُكُس (ج) تدخله المراكب ، وتعرف بقصر عبد الكريم ، وكان من أشياخ كتامة القاطنين هناك فرأس فيهم وأستوطن ذلك الموضع . وكانت فيه آثار قديمة ، فبنى فيه دارا سميت قصراً لعدم القصور بتلك الجهات ، وأحدث الأمر العالى فى موضعه فى هذه المدة فندقين عجيبين ، وتمدن هذا الموضع ، وشرف وقصده التجار وأستوطنوه . ومَصب (د) واديه فى البحر على ١٥ ميلا أو نحوها ؛ على المدخل حصن كبير قديم يسمى تَشمُسُ قدمنا ذكره (ر) . وكان إدريس بن القاسم بن ابراهيم العلوى (س) قد أحيا رسمه (ص) وأظهره فهو إلى الآن معمور ويسكنه المتعيشون من البحر ، وهو كثير الأمراض وبى الهواء(ط) وخم الماء ، ومنه تشحن المراكب بالزرع .

---

(ا) ك : كرمت ؛ الإدريسى ، ص ١٧٠ (قرث) ؛ أنظر Fagnan ، ص ١٣٩ هامش ١ . (ب) ب ، م : الدبان ؛ أنظر Fagnan ، ص ١٣٩ هامش ٣ (ج) «لكس» ناقصة فى ب ، م . (د) ب : يصب . (ر) أنظر ما قبل ، ص ١٤٠ (س) أنظر Fagnan ، ص ١٤٠ ص ٥ (ص) ب : استحى ؛ م : استحيا . (ط) «الهواء» ناقصة فى ك .

(١) البكرى ، ص ١١١ ؛ الإدريسى (قرت) ، ص ١٧٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٤٧ ؛ أنظر Fagnan ، هامش ١ ص ١٣٩

(٢) قارن البكرى (بصرة الدبان) ، ص ١١١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٦٥٣ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٤٥

(٣) قارن البكرى ، ص ١١٠ ؛ الإدريسى ، ص ٧٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ( قصر عبد الكريم ) ، ج ٤ ص ١١٦ ؛ الدمشق ، ص ٢٣٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٤ — ١٨٥

قلعة ابن جُنْدوب (ا) (١) : وكانت مدينة كبيرة فيها أسواق ، ولها جنات وأشجار ، وهى كثيرة الزرع والضرع ومنها إلى طنجة وقد ذكرناها. قال المؤلف ، وهذه البلاد كلها فى هذا الأمر العزيز بحمد الله مشحونة بالعمائر ، متصلة المحارث والمزارع فى السهول والجبال ، منها جبل زالغ وهو مشرف على مدينة فاس ، كان فيه حصن بناه المظفر بن (ب) المنصور بن أبى عامر. ثم إلى عقبة الأفارق ، ثم إلى نهر سُبُو حيث محجة القوافل ، وهو نحو الـ ٣٠ ميلا فى عمائر متصلة ، وقرى حصينة مانعة كثيرة الزرع والضرع ، ثم من نهر سبو إلى نهر وَرْغة إلى قصر كتامة المذكور فى عمائر متصلة. وطريق أخرى على جبل غُمارَة ، وذلك أنك إذا أقمت من وادى سبو ، أخذت على يمينك فى عمائر متصلة إلى مدينة تاوْدَا (٢) ، وكانت مدينة كبيرة أسسها الملثمون ، ليملكوا منها جبل غمارة لتتابع نفاقه عليهم ، وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر. وكانت فى أيامهم معمورة بالمبانى الحسان والقصور المنيعة. وهى على وادى ورغة وحواليها قبائل ، وهى على قطر واسع كثير الزرع والضرع ، وعليها جبل منيف فيه حصن كبير من بناء الملثمين (حـ) يسمى أمرجوا ، وهو مبنى بالحجارة والجير لا يقدر أحد على هدم شئ منه إلا بالمشقة ؛ وفى أعلى الجبل الماء الكثير. وجبل غُمارَة (٣) من أخصب جبال المغرب ، وهو من الجبال المشهورة ، يسكنه قبائل كثيرة من غُمارَة وهم أمم لا تحصى ؛ وفى هذا الجبل بسائط كثيرة لا تحصى للحرث ، ومدن قديمة ، وآثار كثيرة للأوائل ، تنبئ أن عمارته قديمة أزلية. وطول هذا الجبل مسيرة ٦ أيام وعرضه نحو ٣ أيام ، وهو الآن كثير العمارة تشقه الأنهار والمياه السائحة ، ففيه غياض وأودية ومتنزهات لا توجد فى غيره من الأماكن ، وهو كثير الأعناب والفواكه

---

(ا) البكرى (ص ١٠٩) : ابن خروب ؛ أنظر Fagnan ، ص ١٤١ هامش ١
(ب) «ابن» ناقصة فى ك . (حـ) ك : المسلمين .

(١) قارن البكرى (قلعة ابن خروب) ، ص ١٠٩ – ١١٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٤٤٠ – ٤٤١ ؛ أنظر Fagnan ، هامش ١ ص ١٤١

(٢) الإدريسى ، ص ٨١

(٣) البكرى ص ١٠٠ وتابع ؛ قارن الإدريسى ، ص ١٧٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ، ص ١٠١ وتابع ، الترجمة (Berb.) ، ج ٢ ص ١٣٤

والعسل والضرع ؛ وفيه جبال قد لحقت بأعنان السماء علوا ، وحصون كثيرة تمتنع فيها غُمَارة ، وتنفق على الولاة ، بذلك عرفوا حتى كسر الأمر العزيز شوكتهم ، وأباد شرارهم واستأصل شأفتهم . ولأهل هذا الجبل مذاهب شتى ، وسير مختلفة ، وقد تنبأ عندهم إنسان يعرف بحاميم بن مَنّ الله ولقب بالمفترى (ا) [١] . والجبل الذى تنبأ فيه ينسب إليه وهو جبل حاميم على مقربة من تيطاوان ، وأجابه بشر كثير من غمارة ، وأقروا بنبوته . ووضع لهم قرآنا بل شريعة أستهواهم برخصها ، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها ، يسجدون على ظهور أكفهم(ب) . ووضع لهم قرآنا بلسانهم تفسيره : خلنى من الذنوب يا من يخلى النظر ينظر فى الدنيا ، خلنى من الذنوب يا من أخرج من موسى من البحر . وفيه(ج) : آمنت بحاميم وآمنت بأبى يَخْلُف وهو والد حاميم واسمه مَنّ الله ، وفيه (ج) : آمنت بتاليت (د) ، وكانت عمة حاميم كاهنة ساحرة . وكان لحاميم أخت تسمى دَبُّو(ر) ، وكانت ساحرة كاهنة وكانوا يستغيثون بها فى كل حرب وضيق.وكان حاميم فرض عليهم صوم يوم الخميس كله ، وصوم يوم الأربعاء إلى الظهر ، فمن أكل فيهما غرم ٥ أثوار لحاميم . ووضع لجميعهم صوم ٢٧ يوما (س) من رمضان ، وجعل عيدهم فى ثانى يوم فطرهم ، وفرض عليهم الزكاة العشر من كل شيء ، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء ؛ وأحل لهم أكل أنثى الخنازير وقال لهم إنما حرم قرآن محمد (ص) الذكر ، وحرم عليهم الحوت حتى يذكى ، وحرم بيض كل طائر (ط) . ونظم عبد الله الكفيف (ع) الطنجى يهجوه :

(ا) النص : بالمقتدى ؛ أنظر Fagnan ، ص ١٤٣ هامش ١
(ب) أنظر Fagnan ص ١٤٣ هامش ٢ . (ج) الجمل الواقعة بين (ج) ، (ج) ناقصة فى ك . (د) البكرى (ص ١٠٠) بتانثيت ؛ أنظر Fagnan ، ص ١٤٤ هامش ١ . (ر) البكرى ، ص ١٠٠
(س) ب : سبعة عشر يوما . (ص) م : حرم فى قرآن محمد .
(ط) هنا تنتهى طبعة كرمر ؛ ب ، م : وحرم عليهم البيض من كل طائر .
(ع) أنظر Fagnan ، ص ١٤٥ هامش ١

(١) البكرى ، ص ١٠٠ ؛ ابن عذارى البيان ، ج ١ ص ١٩٨ ؛ ابن خلدون ، العبر (الترجمة .Berb) ، ج ٢ ص ١٤٣

وقالوا افتراء إن حاميم مرسل | إليهم بدين واضح الحق باهر
فقلت كذبتم بدد الله شملكم | فما هو إلا عاهر وابن عاهر
فإن كان حاميم رسولا فإنني | بإرسال حاميم لأول كافر
روى عن عجوز ذات إفك(ا) ذميمة | تقارن فى أسحارها كل ساحر
أحاديث إفك حاك إبليس نسجها | يسرونها كتما وبئس السرائر

وجهز إليه الناصر المروانى من قرطبة عسكرا ، فالتقت معه بأحواز طنجة سنة ٣١٥ [ = ٩٢٧ ] فهزم وقتل لعنه الله ، وحمل رأسه لقرطبة .

ويقال إنه كان فى بعض جبال مجسكة من بلاد غمارة (ب) رجل كان من السحرة المهرة يعرف بأبى كُسيَّة ، وكان أهل موضعه يسمعون (ج) منه ولا يعصونه طرفة عين ؛ فإن عصاه أحد منهم أو خالفه ، حول كساه الذى يلتحف به فيصيب ذلك الإنسان فى ماله أو بدنه أو كليهما صائبة وعاهة ، وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك ، وكان يخيل إليهم كأن برقة تلوح من تحت كسائه . ولبنيه اليوم وعقبه فى تلك الناحية مزية وحظوة على من سواهم . ومن عجائب غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرقّادة ، يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ ، ولو بلغ به أقصى مبلغ من العذاب حتى يقطع قطعا ؛ فإذا أستيقظ من غشيته كان كالسكران طول يومه لا يتجه لشئ ولا يخبر بشئ ، فإذا كان بعد يوم ، وصح (د) ، أتى بعجائب وغرائب مما يكون فى ذلك العام من خصب أو جدب أو فتنة أو هدنة ، وغير ذلك من الكوائن والأحداث ، وهذا عندهم مستفيض مشهور .

وكان ببلد غمارة المُوَارَبة مشهورة متعارفة يفتخر بها نساؤهم (ر) ، وذلك أن الرجل إذا دخل بأمرأته البكر واربها شبان أهل ناحيتها ، فإن رأوها جميلة حسنة احتملوها وأمسكوها عن زوجها شهرا أو أكثر ثم ردوها ، وربما فعل ذلك مرارا على قدر جمالها ومقدار الرغبة فيها . ولا يتم إكرام الضيف عندهم إلا بأن يؤنسه بنسائهم الأيامى منهن : يبيت الرجل مع ضيفه أخته إذا كانت ثيبا أو ابنته أو من لم تكن ذات زوج من نسائه . وهم يرغبون فى الرجل الجميل أو الشجاع أن يأخذوا منه نسلا ، ولا يتركون ذا عاهة يستقر ببلدهم ،

---

(ا) «ذات إفك» ناقصة فى ب . (ب) القراءة فى ب كالآتى : كان فى بعض الأجبال عملة من بلد غمارة . (ج) ب : يسعون . (د) وأصبح .
(ر) ب : «فى الروم» بدلا من «نساؤهم» .

ويقولون إنه يفسد النسل . وبلد غُمارة جبل كبير ، وكانت لهم فيها سلف شعور طوال يسد لونها ( ا ) كشعور النساء ، ويتخذوها ضفائر ويطيبونها ويهتمون بها كثيرا حتى دخل الإسلام بلادهم وتخللها فألجأتهم الضرورة إلى التشمر والتوعر فى الجبال الشامخة فحلقوا رؤوسهم ،وورث ذلك الأبناء عن الآباء (ب) .

قال المؤلف ،ومن المدن والعمائر من مدينة فاس إلى سجلماسة حرسها الله ، مدينة صَفْرَوِي[1] : وهى مدينة لطيفة قديمة عليها سور ، ذات أنهار ومياه جارية ولها جنات كثيرة الفواكه والأعناب ، وأكثر شجرها اللوز ومنها يحمل إلى فاس وغيرها . ومنها إلى فاس ( ج ) مرحلة ، ومنها إلى تاسغمرت ( د ) وهو بلد خصب فيه قرى كثيرة وعمائر متصلة ، ومنه يدخل إلى بلاد سجلماسة بعد أيام . ولها طريق آخر من قابس إلى لُوَاتة مدين ، وهو بلد خصيب على نهر سُبوُ ، وله قصبة منيعة ، منها إلى فاس مرحلة ؛ ثم إلى مَغيلة القاط[2] ، وهو حصن كبير له سوق حافلة وجامع ، وهو كثير الأنهار ومنه يحمل التين المزبب إلى مدينة فاس وغيرها ؛ ومنه إلى مَطاطة أمكسور[3] ، وهو بلد كبير على نهر مَلوِية ، كثير الزرع والضرع . ونهر ملوية كبير مشهور فى أنهار بلاد المغرب ، وعليه نظر واسع ، وفيه قرى كثيرة ، وعمائر متصلة تسقى كلها من نهر ملوية ، وبعده نظر سجلماسة . وكانت مدينة فاس دار مملكة بنى إدريس العلويين ، وملكوا منها بلاد المغرب إلى أقصى بلاد السوس طاعة فى معصية ، وكانت فى أيامهم دولة بَرْغُوَاطة الذين تدينوا بديانة الغوى صالح بن طريف البرباطى ، وسيأتى ذكره بعد هذا . وملك العلويون بعض بلاد الأندلس ، وتسموا فيها بأمير المؤمنين ، وخطب لهم فيها بالإمامة ( ر ) .

---

( ا ) ب ، م : يسود لونها . ( ب ) القراءة فى ب : عن للأنبياء عن الأنبياء .
( ج ) «وغيرها ومنها الى فاس» ناقصة فى ب. ( د ) م : ايسغمرت ؛ أنظر البكرى (ص ١٤٧) : تاسغمرت . ( ر ) ب : بالسلامة .

(١) قارن البكرى ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ؛ الإدريسى ، ص ٧٦
(٢) البكرى ، ص ١٤٧ — وقارن الإدريسى (مغيلة) ، ص ٧٦
(٣) البكرى ، ١٤٧

ذكر أبو الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى (١) أن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضه انهزم فى وقيعة فخ سنة ١٦٩ [ = ٧٨٦ ] ، فاستتر مدة ، وألح السلطان فى طلبه وضاقت عليه المذاهب ، ورغب فى الخروب من بلاد المشرق فخرج معه راشد ، وكان من موالى العلويين ، وأصله من البربر ليثويه(ا) فى قومه ، ويأمن من عدوه . وكان(ب) راشد عاقلا شجاعا أبدا ، ذا فهم ولطف وحزم ، فخرج به فى غمار الحاج وغيرّ زيه وألبسه مدرّعة من وخش الثياب وصيّره كالغلام يخدمه ، وإن أمره أو نهاه أسرع . فسار به مستخفيا من موضع إلى موضع حتى قربا من بلاد إفريقية ، فترك الدخول به فى بلاد إفريقية(ج) ، وسار به إلى بلاد البربر حتى انتهى إلى بلاد فاس وطنجة ، فنزل به فى مدينة وليلى (٢) ، وكانت مدينة رومية قديمة بطرف جبل زرْهون فى الغرب منه ، وتسمى الآن تيَنْسرة . فنزل بها على اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأورْبى ، وكانت أورْبة آنَ ذاك من أعظم قبائل بلاد المغرب ، وكانت لها (د) مدن كثيرة منها مدينة سكُوما (٣) ، وكانت على مقربة من فاس ، وكانت مدينة عظيمة لم يكن بالغرب أعظم منها . يقال إن موسى بن نصير لما دخل بلاد المغرب ، نازل مدينة سكُوما وحصرها حتى افتتحها عنوة ، وأخذ فيها سبيا كثيرا ، وكتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان يقول له : قد بعثت إليك بسبى مدينة سكوما ، وهو مائة ألف رأس (ر) ؛ قيل فكتب إليه الوليد بن عبد الملك : ويحك أظنها من بعض كذباتك ، فإن كنت صادقا ، فهذا حشر الأمم ؛ وكذلك يقال إنه قتل فيها ما لا يحصى له عدد (س). وكان اسحاق

---

(ا) ب : ليثور به . (ب) ب : والآن .

(ج) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب . (د) القراءة فى النص : وكانت فيها .

(ر) ب : فارس . (س) القراءة فى ب مضطربة كالآتى : وكذلك يقال له انه لما قتل فيها ما لا يحصى له عدد .

(١) أنظر البكرى ، ص ١١٨ وتابع (وعن وقعة فخ ، ص ١٢١ ) .

(٢) البكرى ، ص ١١٨ ؛ ابن عذارى البيان ، ج ١ ص ١٢٧ . وعن وليل أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٩٤١

(٣) البكرى (سكودا) ، ص ١١٧ — ١١٨ ؛ وينقل ياقوت نفس القصة عن البكرى ( معجم البلدان ج ٣ ص ١٠١ ) .

ابن محمد الأوربي معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه ، وأقام عنده ، وأمر إسحاق قبيلته بطاعته وتعظيمه . وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد أمير المؤمنين ، فوصله خبره ، فغمه ذلك ، فشكا ذلك إلى يحيى بن خالد ، فقال له أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين . ثم أرسل إلى سليمان بن جرير الجزيري(ا) وكان رجلا من ربيعة متكلما ممن يرى رأى الزيدية متعصبا لآل أبي طالب ، وكان جلدا شجاعا ، أحد شياطين الإنس وكانت له إمامة في الزيدية ، وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن عبد الحكم حين ناظره في أمر الإمامة ، ولذلك قصة طويلة . قال فأرغبه يحيى بن خالد في المال ووعده عن نفسه وعن أمير المؤمنين بمواعد عظيمة ، ودعاه إلى قتل إدريس ، والتلطف في أمره . فأجابه إلى ذلك وأعطاه مالا جزيلا ودفع إليه قارورة فيها غالية مسمومة ، ووجه معه رجلا من ثقاته . فانطلق سليمان مع صاحبه ، فلم يزالا يتغلغلان في البلاد حتى وصل إلى إدريس ، وكان إدريس عالما برياسة سليمان بالزيدية(ب) ، فلما وصل إليه قال : إنما جئتك بنفسي وحملتها على ما حملتها عليه لمذهبي فيكم أهل البيت ، فجئتك لا في حاجة إليك إلا لأنصرك بنفسي ؛ فُسرَّ (ج) إدريس بقوله ، وقبله أحسن قبول ، فأحسن نزله وأكرم مثواه وأنس به . فكان سليمان يجلس في مجالس البربر ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلعم ، ويحتج لأهل البيت كاحتجاجه بالعراق . فأعجب ذلك إدريس منه ، ومكث عنده مدة ، وهو يطلب الغرة فيه ويترصد الفرصة في أمره ، فدخل عليه سليمان ومعه القارورة ، فلما انبسط إليه إدريس وأخلى له وجهه ، قال له سليمان : جعلني الله فداك ، هذه القارورة فيها غالية رفيعة أوصلتها معي وأعلم أنه ليس ببلدك طيب فجئتك بها ، ووضعها بين يديه ؛ ففتحها إدريس وشمها وتخلق بها . وقيل أخرج سكينا ، وقطع به تفاحة ، وأعطاه النصف الذي يلي الجهة المسمومة من السكين ، ثم انصرف سليمان إلى صاحبه وقال له قم ، قد تم مرادنا لنا ، وقد كان أعد فرسين فركباهما ، وخرجا يطلبان (د) النجاة . فلما وصل السم إلى خياشيم إدريس ، وتغلغل في دماغه سقط مغشيا عليه لا يعقل ، ولا يدري من يحتضر به من أهله وحاشيته ما شأنه . قال فبعثوا إلى راشد فجاء مسرعا

(ا) النص : الجوري . أنظر Fagnan ، ص ١٥٠ هامش ١ .

(ب) ب : بالبربرية . (ج) ب : فبشر . (د) ب : يركضان .

وتشاغل فى معالجته ، وتحيروا فى أمره . وقطع سليمان مع صاحبه بلادا كثيرة فى تلك المدة ، قيل فبقى إدريس فى غشيته عامة نهاره وليله ؛ تضرب عروقه حتى مات رضى الله عنه . فتبين لهم أمر سليمان بن جرير ، قال فركب راشد فى طلبه مع جماعة من أصحابه فجد السير حتى لحقهما وجدة ، لأن فرسه صبر أكثر من خيل أصحابه فأدركهما ؛ فشد عليهما راشد ، ففر صاحب سليمان ولم يغن شيئا ، فضرب راشد سليمان ثلاث ضربات بالسيف على وجهه ورأسه ، كل ذلك لا يصيب مقتلا ، مع دفع سليمان عن نفسه ، وعجز فرس راشد عن إدراكه . فلما رجع عنه راشد، نزل فعصب جراحاته ، وسار حتى لحق بالمشرق . قال أبو الحسن النوفلى : فحدثنى من رآه بالعراق بعد ذلك مكتّع اليد . قال النوفلى : كانت مدة إدريس الواصل من المشرق التى أجابته فيها البربر إلى أن مات بوليلى سنة ١٧٥ [ =٧٩١ ] [١] ثلاثة أعوام وستة أشهر .

قال أبو الحسن : ومات إدريس ولا ولد له وترك جارية من جواريه حبلى ، فقام راشد بأمر البربر حتى ولدت الجارية غلاما فسماه باسم أبيه ، وقام بأمره ، وأحسن تأديبه . وتوفى راشد فقام بأمر الغلام أبو خالد يزيد بن الياس ، وأخذ له بيعة البربر سنة ١٩٢ [ = ٨٠٨ ] [٢] ؛ ثم مشى إدريس بن إدريس نحو فاس فاستوطنها واتخذها دار مملكة . وتوفى إدريس بن إدريس وهو ابن ٣٣ سنة ، وكانت منيته بحبة عنب اختنق بها ، فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات . وترك من الولد ١٢ ذكرا ، فكان المتولى للأمر من بعده ابنه محمد بن إدريس ، فاستوطن مدينة فاس ؛ وفرق البلاد على إخوانه ، وفعل ذلك برأى جدته كنزة أم إدريس . ويقال إنه خالف عليه بعض إخوانه ، وكانت بينهم حروب يطول وصفها . ثم توارث الملك بنو إدريس بالمغرب ، يأخذه الخلف عن السلف ؛ وجاز منهم إلى جزيرة الأندلس على بن حمود (أ) . وكان فيما يذكر يميل إلى الفتوة ، فاغتاله فتيان من الصقالبة فى حمام قرطبة فقتلوه [٣] ،

(أ) النص : جاز منهم الى جزيرة الأندلس بنو حمود . أنظر البكرى ، ص ١٣٣

[١] البكرى ، ص ١٢٢ . قارن ابن عذارى البيان ، ج ١ ص ٢١٧

[٢] يحدد البكرى لاعتلاء ادريس ابن ادريس العرش سنة ١٨٧ = ٨٠٣/٢ ؛ أنظر روض القرطاس ، ص ١٠ وتابع ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص ١٢ وتابع .

[٣] البكرى ، ص ١٢٣

وقتلوا به . وترك من الولد يحيي وإدريس ، فولى عهده يحيي وكان صاحب بلاد المغرب : فاس وغيرها ، وجعل إدريس بمدينة مالقة . فلما قتل علي بن حمود وكان الابنان غائبين ، استدعى البربر أخاه القاسم بن حمود ، وأدخلوه القصر بقرطبة ، وبايعه الناس وخطب له بالخلافة ، فوصل الجند إلى ابن أخيه يحيي وهو بالمغرب ، فأنف من ذلك لما كان عهد إليه أبوه ، فبعث إلى أخيه إدريس بمالقة (ا) وجاز إليه فتركه مستخلفا بمدينة فاس وبلاد المغرب ، وعبر يحيي إلى الأندلس لطلب حقه عند عمه القاسم . فلما قرب من قرطبة هرب عمه القاسم وبويع يحيي بقرطبة ويسمي بالمعتلي ؛ ثم إن البربر اضطربوا فهرب من قرطبة إلى مالقة ، ورجع عمه القاسم إلى قرطبة وتسمى بالمأمون . ثم أخرجه ابن أخيه يحيي من قرطبة مرة ثانية ، فمشى إلى إشبيلية ، وسكن بها حتى أخرجه محمد بن عباد ؛ فسار إلى شريش ، ونزل عليه يحيي ، وحصره بها حتى أخذه بها مع بنيه وسجنه . واستوثق الأمر ليحيي بن علي حتى قتل سنة ٤٢٧ [ = ١٠٣٦ ] ، وقام زناتة على أخيه إدريس بالمغرب ، وملكوا مدينة فاس وغيرها فسكن إدريس بسَبْتَة ، فلما وصله موت أخيه يحيي خطب له بالخلافة وتسمى بالعزيز بالله ، ثم عبر البحر إلى مالقة ، وخطب له بالخلافة فيها ، ثم اتصلت الفتن حتى انقطعت دولة بني إدريس من بلاد المغرب .

## ذكر ارتداد برغواطة [1] ومن دخل معهم من قبائل البربر في (ب) الإسلام ، والسبب (ج) في ذلك

قال الناظر ، دخل بلاد تامَسْنا رجل اسمه صالح بن طريف ، وأصله من برباط الأندلس يهودي النسب من سبط شمعون ، وكان رحل إلى المشرق ، وقرأ على غيلان القدري ورأى من السحر كثيرا ، فدخل إلى بلاد تامَسْنا ، فوجد فيها من زناتة قوما جهالا ، وكان ذلك سنة ١٢٣ [ = ٧٤١ ] . فأظهر الإسلام والنسك حتى استفز عقولهم ، فولوه على أنفسهم ، فلما ولي شرع الديانة التي أخذوها عنه ، وأنا أذكرها .

---

(ا) النص : فبعث الى أخيه ادريس الى مالقه . (ب) كلمتا « البربر في » ناقصتان في ب . (ج) ب : والمب .

[1] البكري ، ص ١٣٤ وتابع ؛ لايذكر الإدريسي (ص ٧٠) شيئا عن ذلك ؛ قارن ابن حوقل ، ص ٥٦ — ٥٧ ؛ روض القرطاس ، ص ٨٢ وتابع ؛ ابن خلدون ، العبر ( الترجمة Berbères ) ، ج ٢ ص ١٢٥

قال المسعودى والبكرى (ا) وغيرهما من المؤرخين إنه كان يقول إنه صالح المؤمنين الذى ذكره الله فى قرآن محمد . وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته وعلم شرائعه وفقهه فى دينه ، وأمره بألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره وينتشر ذكره فيقتل حينئذ من خالفه ، وأمره بموالاة أمراء الأندلس . وخرج صالح إلى المشرق ووعد ابنه أنه يرجع فى دولة السابع من ملوكهم ، وزعم أنه المهدى الأكبر الذى يكون فى آخر الزمان لقتال الدجال ، وأن عيسى بن مريم يصلى خلفه ، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . وذكر فى ذلك كلاما نسبه إلى موسى ، وإلى سطيح الكاهن وإلى ابن عباس وزعم أن اسمه بالعربى صالح وكذلك فى السريانى ، وأوْرَبا بالعبرانى وورى ورابا بالبربرى . وتأول قول رسول الله صلعم : « لا نبى بعدى » فأوله بضم الياء(ب) من نبى ، وقال اسمى لا وأنا نبى بعده . فولى إلياس الأمر بعد خروج أبيه إلى المشرق بدعوة الإسلام وكتم الشريعة التى عهد إليه أبوه خوفا وتقية ، ولم يظهر شيئا من ديانته إلى سنة ٧٣ [ ١ ] [ = ٧٨٩ — ٧٩٠ ] ، فكان ملكه ٥٠ سنة . فولى بعده ابنه يونس ، فأظهر ديانتهم ودعا إليها ، وقتل من خالفها إلى أن مات سنة ٧٥ [١] [= ٧٩١ — ٧٩٢] ، فولى بعده أبو عفير معاد بن يونس ابن إلياس بن صالح بن طريف ، وأظهروا ديانتهم واشتدت شوكته ، وكانت له وقائع كثيرة فى البربر ، وكانت له من الزوجات ٤٤ زوجة . ومات أبو عفير سنة ٢٣٠ [= ٨٤٤ — ٨٤٥] وولى ابنه أبو جعفر حفص ، ولم يزالوا يتداولون هذه الديانة إلى غزو عبد الله بن ياسين الجزولى إياهم ، فملك منهم سبعة وفنيت دولتهم سنة ٤٩٩ [= ١٠٥٧] . ولما كان أصل هذا الشيخ الملعون من بَرْباط قيل لكل من دخل فى دينه بَرْباطى فأحالتها العرب بألسنتها فقالت بَرْغواطى ، فمن أجل هذا سموا برغواطة ، وإنما أصلهم زناتة وهم أعلم عباد الله بالسحر مما أخذوا عن أسلافهم .

وأما الضلال الذى شرع لهم فإنهم يقرون بعد الإقرار بالنبيين بنبوة صالح ابن طريف ومن يتولى الأمر من بعده ، وأن الكلام الذى وضع لهم وحى من الله لا يشكون فيه ؛ ويصومون رجب ، ويأكلون رمضان ، وأن الفروض عليهم

---

(ا) كلمات «قال المسعودى والبكرى» ناقصة فى ب .

(ب) يوجد هنا خرم فى المخطوط «ب» يقدر بعدة صفحات (أنظرفيا بعد هامش ب ص ٢٠١) .

خمس صلوات بالليل و٥ صلوات بالنهار ، وأن الأضحية واجبة فى ١١ من المحرم ، وفى الوضوء غسل السرة والخاصرتين ، ثم الاستنجاء ثم المضمضة ثم غسل الوجه ثم غسل العنق والقفا ثم غسل الذراعين من المنكبين وغسل الرأس ٣ مرات ، ومسح الأذنين ثم غسل الرجلين ؛ وبعض صلاتهم إنما يسجدون وبعضها على هيئة صلاتنا . ويسجدون ٥ سجدات ، ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض ويضع يده اليمنى على اليسرى ويقولون باسم باكش (ا) تفسيره : باسم الله ؛ مقر ياكش مقر يتجتن ، تفسيره : العظيم الله العظيم الأعمال. ويضعون أيديهم مبسوطة على الأرض طول ما يشتهون ، ويقرأون نصف قراءتهم فى وقوفهم ، ونصفا فى ركوعهم ، ويقولون فى تسليمهم بالبربرية : الله فوقنا لم يغب عنه شئ فى السماء ولا فى الأرض ، ثم يقولون بعد التسليم : الواحد الله ، وردام ياكش معناه : لا شئ مثله . ويأخذون فى الزكاة العشر من جميع الثمار ولا يأخذون من المسلمين شيئا ؛ ويتزوج الرجل من النساء (ب) ماقدر عليه ، ولا يتزوج من بنات عمه إلا ما علوا من النساء ويطلقون ويراجعون. ويقتلون السارق الذى عندهم ، وعلى من قتل فدية من البقر ، ورأس كل حيوان عندهم حرام ، والحوت لا يؤكل حتى يذكى ، ويرجم الزانى عندهم ، كان بإقرار أو بشبهة . والديكة عندهم حرام ، والدجاجة مكروهة إذا اضطر إليها . ولا إقامة للصلاة عندهم ، ويقتدون فى الأوقات بصياح الديكة ؛ ويبصق فى أيديهم فيتلقونه تبركا به ويحملونه إلى مرضاهم فيستشفون به .

وكان الضلال الذى وضع لهم هذا ٨٠ سورة منسوبة بأسماء النبيين وغيرهم ففيها : سورة آدم وسائر النبيين المشهورين ، وفيها سورة أيوب ، وسورة يونس وسورة فرعون ، وسورة الديك وسورة الحجل ، وسورة الجرادة وسورة الجمل ، وسورة هاروت وسورة ماروت ، وسورة الحشر ، وسورة غرائب الدنيا ، فيها علمهم ؛ وصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله وملائكته تتجدد إلى يوم الدين .

---

(ا) البكرى ، ص ١٣٩ : ابسمن ياكش .

(ب) النص : «المسلمات» ، ولكن قراءة البكرى « النساء » أفضل . أنظر Fagnan ، ص ١٦٠ هامش ١

ذكر كلمات هي استفتاح كتابهم ؛ فما ترجم منه : بسم الله الذى أرسل رسله إلى الناس وهو الذى بين لهم مع أخباره علم إبليس ، أبى الله أن يعلم إبليس ما علم الله رسله من شئ ، ويقلب الألسن فى الأقولة ليس يقلب الألسن فى الأقولة إلا لا إله إلا الله ؛ بقضائه نطق اللسان الذى أرسل الله بالحق إلى الناس ، وبه استقام الحق وأنار . محمد كان حين عاش استقام الناس للدين فلما مات فسد الدين ، كذب من يقول إن الحق استقام وليس ثم رسول . وهى سورة طويلة ، ولولا خروج الكتاب عن قصدنا لذكرنا قراءتهم ، وشرحنا دياناتهم وبيّنا كفرهم .

ذكر القبائل الداخلين فى هذه الديانة : برغواطة ، وجراوة ، وزغاوة ، وزواغة ، والبرانس ، وبنو أبى قاض ، ونجطة ، وبنو واعم ، ومطغرة ، وبنو يوزغ ، وبنو دمر ، ومطماطة ، وبنو واكيست ، وبنو تاسليت . ومن تدين لهم من المسلمين : زناتة الجبال ، وبنو تليت ، وبنو وانسيت ، وبنو تانيت . ولم يزالوا على تلك الديانة إلى عام ٤٥٢ [ = ١٠٦٠ ] .

مدينة تادلا (١) : هى مدينة قديمة فيها آثار للأول ، وبنى فيها الملثمون حصنا عظيما منيفا ، وهو الآن معمور ، فيه الأسواق والجامع . والبلد كله كثير الخيرات والأرزاق ؛ وأحاطت به القبائل من كل الجهات ، فهو حقيق بالمملكة ؛ والأمر العزيز أدام الله دوامه ملتفت له محتاط عليه .

مدينة تليث (٢) : هى مبسوطة بين القبائل القبلية ، وعليها تمر القوافل ، وفيها حصن منيع رتبت فيه الجند ، وعمره الوالى ، وحوله الأعناب الكثيرة والثمار ، والمياه المطردة ، والعمائر .

مدينة سجلماسة (٣) : مدينة عظيمة من أعظم مدن المغرب ، وهى على طرف الصحراء لا يعرف فى قبليها ولا غربيها عمران ؛ بينها وبين غانة صحراء

---

(١) قارن الإدريسى ، ص ٧٥ ( تشتهر المدينة بزراعة القطن ) ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٨٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ١٩٤

(٢) لم نعرف شيئا عن هذه المدينة .

(٣) البكرى ، ص ١٢٨ وتابع . قارن الإدريسى ، ص ٦٠ – ٦١ ؛ ياقوت ، معجم =

مسيرة شهرين فى رمال وجبال غير عامرة قليلة الماء ، يسكنها قوم من مسوّفة رحالون لا يستقر بهم مكان ، ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون إليها إلا وادى درعة وبينه وبين سجلماسة ٥ أيام . ومدينة سجلماسة محدثة بنيت سنة ١٤٠ [= ٧٥٧ ـ ٧٥٨] ، أسسها ميدرار بن عبد الله وكان رجلا من أهل الحديث ، يقال إنه لقى بإفريقية عكرمة مولى بن عباس وسمع منه ؛ وكان صاحب ماشية وكان كثيرا ما ينتجع سجلماسة وكان الموضع سوقا يجتمع فيه بربر تلك النواحى. فاجتمع إلى مدار قوم من الصفرية فلما بلغوا ٤٠ رجلا قدموا على أنفسهم مدرارا وشرعوا فى بناء سجلماسة فبنوها ثم سوروها(ا) أبو المنصور بن أبى القاسم ابن مدرار ، ولم يشركه فى الإنفاق فى بنائه أحد . أنفق فيه مدى ألف مد طعاما .

وذكر آخرون أن رجلا حدادا اسمه مدرار وكان من ربضية قرطبة خرج من الأندلس عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة ، وموضع سجلماسة إذا ذاك سوق البربر بتلك النواحى ، فأنشأ بها مدرار خيمة وسكنها فبنى الناس حوله ، فكان ذلك أصل عمارتها ، وكان رجلا أسود وأولاده قد هجوا بذلك .

ولمدينة سجلماسة ١٢ بابا ، ولها بساتين وهى كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه ، وزبيب عنبها المعرش الذى لا تناله الشمس لا يزبب إلا فى الظل ويسمى الظلى ، وما أصابته منه زبب فى الشمس . وهى على نهرين من عنصر واحد فى موضع يسمى أكلف (ب) ، وتمده عيون كثيرة ، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر فى حياض كحياض البساتين ؛ وتزرع أرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الزريعة ٣ أعوام لأنه بلد مفرط(ج) الحر شديد القيظ . فإذا يبس الزرع تناثر عند الحصاد وأرضهم مشققة فيقع ما يتناثر من الحب فى تلك الشقاق ، فإذا كان العام الثانى أخرجوا النهر على عادتهم لأن ماء المطر قليل فيها وحرثوا بلا بذر ؛ وكذلك العام الثالث . وقمحهم رقيق الحب يسع مد النبى صلعم من قمحهم ٧٥ ألف حبة ، وهم يأكلون الزرع إذا خرج شطئه وهو عندهم مستظرف وذلك لغلبة الجدب عندهم . ومن العجيب بمدينة سجلماسة أنها ليس بها ذئاب (د) ولا كلاب لأنهم يسمنونها ويأكلونها كما يصنع أهل

---

(ا) م : صورها . (ب) هنا ينتهى الخرم الأخير فى «ب» أنظر هامش ب ص ١٩٨ (ج) ب : مطرق . (د) النص : ذباب .

= البلدان ، ج ٣ ص ٤٥ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ١٤ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٥ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٥٩ ؛ المقدسى ، ص ٢٣١ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٩

الجريد : قسطيلية وغيرها . ويسمون الكنافين عندهم المجرمين ، والبناؤون عندهم يهود لا يتجاوزون بهم هذه الصناعة ، وكذلك كانوا ببلاد بني الناصر .

قال الناظر كان هذا في الزمان المتقدم ، وأما الآن فهم تجار أهل هذه البلاد كلها وأغنياؤها وخاصة بمدينة فاس فإني عاينت منهم من يقال إن عنده المال الممدود رجالا كثيرين . وقد كان تنبه لهم الأمر العالي أيد الله دوامه سنة ٨٢ [ ٥ ] [ = ١١٨٦ ] فلبس (١) المرتشون وشوش المشوشون وخوف المفتشون ، فأرجأ القدر السابق هذا إلى نهاية أمد عزهم وابتداء نكسهم إن شاء الله وذرهم وهي سنة ٥٧١ من(ب) الهجرة . والسبب في تسخير أهل سجلماسة لليهود في هاتين الحرفتين الرذيلتين كونهم محبين في سكنى بلدهم للاكتساب لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها من بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه ، فهم يعاملون التجار به ليخدعونهم بالسرقة وأنواع الخدائع . ولما علم منهم أبو عبد الله الداعي ما هم عليه من ذلك عند استخراج عبيد الله من سجن اليسع بن مدرار بها ، وكان الذي نص عليه ونم به لليسع يهودي وحكى عبيد الله لأبي عبد الله ما جرى له معه ، قتل منهم الأغنياء وأخذ أموالهم بالعذاب ، وأمر من شاء أن يقيم منهم بالبلد في أن يتصرف في هاتين الخلتين ، فمن دخل في الكنافين من أصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود . وقصروا البناء عليهم خاصة لأنهم خائفون أبدا من أن يخون أحدهم المسلم فيهلكه ، فهم ينصحونهم في البناء ويلازمون الخدمة دون خروج لفرائض الصلوات ولا لغير ذلك من ملازم العبادات ، فتأتي خدمتهم موفرة سريعة . وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم وهو العز الذي كانوا يرتقبونه في سالف الأزمان ، وبعده الزلة الدانية لهم القاصمة إن شاء الله لظهورهم ، المستأصلة لشأفتهم عما قريب كما قدمنا .

ذكر السبب في ثورة الداعي ودخوله سجلماسة (١) : كان الداعي محققا لوجود الإمام المهدي ، جاهلا لزمنه طامعا أن يصادفه لمحبة المرء في نفسه .

---

(ا) ب : فلبث . (ب) م : سنه إحدى وتسعين .

(١) لا نعرف المصدر الذي نقل عنه المؤلف الفصل الخاص بالفاطميين . قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٧ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤١ ؛ ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ص ١٥٠ وتابع ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص ٣١ وتابع وملحق الترجمة ( Berb. ) ج ٢ ص ٥٠٦ وتابع .

قال الداعي خرجت يوما إلى شاطئ دجلة لأتفرج ، فجلست على ضفة النهر أقرأ سورة الكهف فإذا بشيخ حسن الملبس والمركب معه غلام ففرش له على ضفة النهر ، فجلس وأنا أقرأ حتى انتهيت إلى قوله تعالى : « حتى إذا لقيا غلاما فقتله » إلى قوله : « فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا » إلى آخر الآية . فقال لى الشيخ : أنت تزعم ممن يقول بالعدل والتوحيد ؟ قلت له نعم . قال فكيف تقتل نفسا خشى أن يكون وأن لا يكون ؛ فقلت له إنى لعلم هذا لفقير ؛ فقال لى سأعلمك إذا التقينا إن شاء الله . ثم ركب دابته وانصرف ، فسألت غلامه من هو فقال لى : هو محمد بن اسماعيل بن الحسن بن على بن جعفر بن على ابن موسى بن جعفر بن على الصادق بن على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضه وعن جميعهم . قال الداعي فعند ما سمعت ذلك لم أتمالك أن قبلت رأس الغلام وتعلقت بركاب الشيخ ، وضرعت إليه أن يعلمنى السبيل إلى معرفة الإمام ؛ فأشار إلى فى الوصول إلى منزله ، فسرت معه فأدخلنى ووجدت ولده عبيد الله ومعه أحد عشر رجلا ، فقال لهم هذا ثانى عشرتكم . فأنزلنى أرفع منزلة فلما استقربى المجلس قال لى : قد حان وقت ظهور الإمام وهذه الدعاة خارجة إلى الأقطار ، وأنا أريد توجهها إلى المغرب لأن جعفر بن محمد الصادق زرع بالمغرب بذرا فأنت تحصده إن شاء الله ؛ إذهب إلى مكة فإنك ستجد بها قوما من كتامة فاعرض نفسك لهم فى تعليم أبنائهم ؛ فإذا وصلت معهم إلى بلادهم فأعلمهم بظهور الإمام وأن زمانه قد حان وخاطبنا . فإذا استوثق الأمر نهضنا إن شاء الله ، ودفع إلى مالا وشيعنى فأنصرفت وأنا متعجب من دعواه ، ومرتاب فى أمره . فلما عاينت خروج الدعاة وحدهم احتسبت نفسى من جملتهم ، فسرت إلى مكة — كرمها الله — فألفيت كتامة ، فعرضت نفسى عليهم ، فتلقونى بالقبول ، وسرت معهم إلى بلادهم فنزلت فى بجاية بالجبل المعروف ببنى زلدوى . وجعلت أعلم أبناءهم ، فقالوا نحن أحوج إلى التعلم منك من أبنائنا فجعل يقول لهم : هذا زمان الإمام المهدى الفاطمى قد حضر ، وذلك فى خلافة عبد الله سنة ٢٨٠ [ = ٨٩٣ ] . وكان الداعي يأخذ صدقاتهم ، وعشوراتهم وأمرهم بالدعوة إلى ما دعاهم إليه ، وقتل من خالفهم الى أن مات الشيخ والد عبيد الله ، وهرب الولد فارا إلى مصر ، فلم يعلم بدخوله فيها . وقد كانت

مخاطبات المعتضد نفذت إلى ابن طولون (ا) [1] بمصر وإلى اليَسَع بن مِدرار والى سجلماسة فى طلبه . فلما خرج عبيد الله من مصر تنبه له فطلب فوجد راجعا قد طلب كلبا كان هرب ثم ، فحمل إلى الوالى فذكر أنه صائد قد هرب (ب) له كلبه فطلبه ، وشهدت له البينة بذلك وقيل أعطى للوالى ما كان معه من المال(جـ) فأطلقه . ووصل لسجلماسة فنص عليه اليهودى كما قدمنا ، وسجنه اليسع بن مدرار فى منزل أخته فى غرفة وكبله ، وتبعه ولده القاسم فسجنه فى قرية بالقرب من سجلماسة ؛ فخاطب أبا عبد الله الداعى وأعلمه بحاله من الأسر والخوف ورغب إليه فى استنقاذه ، فاستنفر الداعى قبائل كتامة ومن استجاب لدعوته ؛ وقصد سجلماسة فدخلها لحينه وفر اليسع فقتله طائفة من رعيته لحقد كانوا يجدونه له . ووصل الداعى من فوره لدار بنت مدرار واستخرج عبيد الله من سجنه وكسر كبله بيده وأركبه بغلة وكساه برنسه وقال لهم : هذا مولاى الإمام فهو مولاكم . فقال له عبيد الله : قل لهم هو المهدى بن المهدى سلالة الهداية ، وسر من فورك واستخرج مولاك أبا القاسم من سجن عدو الله وعدو أوليائه . فنهض الداعى راحلا واستخرج أبا القاسم ابن عبيد الله وأركبه بغلة أخيه أبى العباس ، واستخرج أهل سجلماسة من مواطنهم وقال لهم : لا يحل لكم أن تستوطنوا بلدا امتحن فيه الإمام ؛ ففزعوا من سطوته لما عاينوا منه ما صنع باليهود كما قدمنا . فلما خرجوا معه أمر بسلبهم ، ففتشوا كلهم رجالا ونساءا وأخذ أموالهم وصرفهم : وقيل إنه تحصل له من التبر ومن الحلى وقر ١٢٠ جملا أدخلها رقادة وبايع بها لعبيد الله وأقامه وأدخله القيروان وبنى المهدية . فكان عبيد الله يتساكر ويقتل جواريه ويرمى بهن خارج القصر . وأظهر مذهبه الذى يزعم الشيعة أنه مذهب أهل البيت ، فأنكر كتامة ذلك واجتمعوا مع الداعى وأخيه أبى العباس وكان مصمما فقال لهم الداعى إن الدعاء لأهل بيت رسول الله صلعم واجب ، وإن الإمام المهدى حق وإن الزمن مجهول عندى ؛ وكنت ارتبت فى والد عبيد الله فكيف لا يرتاب

---

(ا) النص : ابن طليمين ؛ أنظر Fagnan ، هامش ١ ، ٢ ص ١٦٩

(ب) ب : فهرب . (جـ) «من المال» ناقصة فى ب

[1] يلاحظ أن المكتفى كان فى هذا الوقت خليفة وأن والى مصر كان يدعى عيسى النوشرى . قارن Fagnan ، هامش ١ ص ١٦٩

فيه ، سيروا إليه وقولوا له : إن أبا عبد الله وأبا العباس قد شكا فى الخاتم الذى ذكرت أنه بين كتفيك فأره لنا ، فإن لم تعاينوه فشأنكم به . قال فعند ما وصلوا إليه ، وقالوا له تلك المقالة ، قال لهم ألم يعلما كما قيل إنهما أيقنا به ؟ قالوا نعم فقال لهم : الشك لا يزيل اليقين . والتفت إلى صاحب شرطته فقال له : ياعروبة آتنى برأسيهما ؛ فنى الحين نهض عروبة إليهما متنكرا فقال له أبوعبد الله وكان له عليه حق مرتبته : ما الذى أتى بك يا عروبة ؟ فقال الذى أمرتنى بطاعته أمرنى بقتلك . فقتلهما وأتى برأسيهما بحضرة أشياخ كتامة ، وأمر بالكتب إلى الأمصار أن أبا عبد الله أحدث حدثا فطهرناه بالسيف ، ولم تكن تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحدّ عليه . وتمهد أمر عبيد الله . وهو الحقيقة كما ذكر أبو بكر محمد بن الطيب فى كتابه فى وصف القرامطة : أنه عبيد الله والده عبد الله بن سالم بن عبدان الباهلى ، وأن جده سالم صلبه المهدى العباسى على الزندقة على ما قاله الذين فحصوا عن أمره . ومات عبيد الله بالمهدية سنة ٣٢٢ [ = ٩٣٤ ] وولى ولده أبو القاسم فأظهر مذهبه وسماه مذهب أهل البيت نسبة إلى جعفر ابن محمد الصادق وإلى على بن أبى طالب رضهما — وحاشاهما منه والعياذ بالله من هذا المعتقد . فمنه توريث البنت إذا انفردت بجميع المال كله ، والله تعالى يقول : «وإن كانت واحدة فلها النصف» . وأسقط الرجم عن المحصنين فى الزنا ، وأسقط المسح على الخفين ، وأسقط من الأذان «الصلاة خير من النوم» ونادى فى الصبح «حى على خير العمل وعلى خير البشر» ، والصوم بالعلامة والفطر بها لا بالرؤية فيأتى قبل صوم المسلمين بيوم وقبل فطرهم بيوم فى أكثر الأعوام . وأحل المطلقة ثلاثا ، وأسقط أيمان الحرج . ولولا خروجنا عما قصد إليه الواضع (١) لشرحنا دياناتهم وبينا كفرهم . وسماهم الأخوة والمؤمنين وأمر ألا يقيم الحد أحد إلا أبوه أو ابنه أو أخوه أو قريبه . ثم أمرهم بالجهاد لمن خالف مذهبهم . فقام عليه أبو زيد مَخْلَد بن كَيْداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن رويب بن سيران بن يفرن بن صره بن يورسيف بن جنا (ب) بن يحيى بن ضرليس بن جالوت . وكان على مذهب الصفرية النكار وقرعلى عمار الأعمى فى المشرق ، وكان قيامه فى أول سنة ٣٣٢ [ = ٩٤٣ ] .

(١) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب . (ب) ب : جلنا .

ذكر المؤرخون أنه كان يعمل أكواما (ا) من رؤوس المسلمين رعية الشيعي ويأمر المؤذنين (بالآذان) عليها . وأخذ لشيخ من المسيلة ٥٠ ألف مثقال وابنتين أبكارا فشغل الشيخ هم بنتيه عن ماله ، فجعل يطلبهما فى المحلة حتى وجدهما عند باب خباء الشيخ الملعون — وكان يركب الحمار وتسمى بشيخ المؤمنين — فانكب على بنتيه وسألها فقالتا له يا أبانا إن الملعون افتضنا فى فراش واحد ، فمشى الرجل إليه وقال له : تتسمى بشيخ المؤمنين وأخذت مالى وافتضضت بنتى ، أختين شقيقتين على فراشك دون استحياء من الله تعالى ؟ فقال له : ذلك حلال لنا بملك اليمين وأمر بالرجل فضربت عنقه رحمة الله علينا وعليه . وقد كان هزم أبا القاسم الشيعي وهرب أمامه للمهدية فوصل أبو زيد فى أتباعه حتى ركز (ب) رمحه فى الباب ، فأعلم أبو القاسم فقال لهم : والله لا عاد إليها أبدا وهو حتفه هكذا فى كتبنا . وأمر بالركوب والخروج إليه وأعطى الجند العطاء الجزيل ؛ فلما خرجوا أراد أبو زيد أن يقتل من كان معه من حشد الرعية ليتفرغ لإفشاء كفره ، فقال : لأصحابه انكشفوا عنهم فيقتلوا عن آخرهم . وأثخن أبو زيد بالجراح وقبض عليه حيا فأدخله المهدية فى قفص حديد وصلبه على الباب الذى طعن فيه برمحه ، ودانت لأبى القاسم الشيعي بلاد المغرب كلها من إفريقية إلى درْعة .

مدينة درْعة[1] : وإنما تعرف درْعة بواديها فإنه نهر كبير يجرى من المشرق إلى المغرب ومنبعه من جبل درَن ، وعليه عمارة متصلة نحو ٧ أيام وفيها أسواق حفيلة كثيرة . فيها يوم الجمعة أسواق (ج) فى مواضع كثيرة متقاربة وربما كان سوقان فى يوم واحد فى المواضع النائية وكذلك فى سائر البلاد ، وعليه الجنات الكبيرة فيها جميع الفواكه من النخل والزيتون وغيرها . والحناء بدرعة كثيرة ومنها تجلب إلى جميع البلاد لطيبها ، وله مزية فى البيع على سواها . وشجر الحناء

(ا) النص : أكواسا. (ب) ب : ركن .
(ج) «أسواق» ناقصة فى ب .

(١) البكرى ص ١٥٥ (يقول إن المدينة مازالت تسمى تيومتين) . قارن الإدريسى ، ص ٦١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان (درعة) ، ج ٢ ص ٥٦٧ ، (سجلماسة — تيومتين تقع على ٤ فراسخ من سجلماسة) ج ٣ ص ٤٥ ؛ الدمشقى (تيومتين) ، ص ٢٣٦ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٧

أما عن شجرة التاكوت فانظر البكرى ، ص ١٥٢ ؛ وعن الحجر المعروف باسم التامضغيت نفس المصدر ، ص ١٧٩

بها شجر كبير يحتمل أن يرقى فيها الراقى ، وبوادى درعة شجر التاكوت وهو شجر يشبه الطرفاء وبه يدبغ الجلد الغدامسي . وتوجد بوادى درعة حجارة تسمى تامضغيت (ا) تحك باليد فتلين إلى أن تأتى فى قوام الكتان فيصنع منها القيود للدواب والامره ، وتغزل وينسج منها مناديل لا تؤثر فيها النار مثل الصندل ؛ وقد صنع منها لبعض ملوك زناته كساء عنده من أعظم الذخائر . ذكر البكرى أنه أخبره ثقة إنه رأى تاجرا قد جلب منه منديلا لبعض ملوك الروم ، وأخبره أنه منديل كان لبعض الحواريين وجعله فى النار أمام الملك فلم تؤثر فيه شيئا ، فوصله ذلك الملك عليه بصلة كان فيها غناه إلى آخر الزمان . ويقال إن ذلك الملك بعثه إلى ملك الروم الأعظم وأخبره بخبره ، ووضعوه فى الكنيسة العظمى ، وبعث إليه بصلة سنية وأمره أن يتوج بتاج بعثه إليه ورفعه على من سواه[1] .

مدينة أغمات[2] : وأغمات هما مدينتان إحداهما تسمى أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانة ؛ وبينهما نحو ٨ أميال . وبأغمات وريكة يسكن الأعيان وبها ينزل التجار على القديم لأنها كانت دار التجهز للصحراء ؛ وبها نهر جريه من القبلة إلى الجوف ، يشق المدينة بعضه وعليه أرحاء وحوله بساتين كبيرة . وهو بلد متسع كثير الرخاء والخصب إلا أنه وخيم الهواء ، ألوان أهله مصفرة والعقارب القتالة به كثيرة ، وبينه وبين البحر مسيرة ٤ أيام . وأقرب المراسى إليه مرسى جوز هرتنانة[3] من بلد رجراجة ، وهو من آخر مراسى سواحل المغرب مما يقرب من البحر المحيط ، تنزل به السفن ولا تخرج منه إلا برياح عاصفة فى زمن الشتاء عند تكدر الهواء واغبرار الجو ؛ فحينئذ تصدق هناك الرياح فإن أصطحبهم(ب) الريح سلموا وإلا قذفهم البحر . وبين أغمات ومدينة نفيس مرحلة .

---

(ا) م : تامطنيت . (ب) م : استصحب لهم

(١) البكرى ، ص ١٨٠

(٢) قارن البكرى ، ص ١٥٣ ؛ الإدريسى ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٢٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٧٨ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٦ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٨

(٣) البكرى ( يتكلم عن رباط قلر ) ، ص ١٥٣

مدينة نفيس [1] : مدينة قديمة أزلية غزاها عقبة بن نافع رحمه الله ، وحاصرها وفيها الروم والنصارى البربر فافتتحها وأصاب المسلمون فيها أموالا كثيرة ومغانم واسعة ؛ وبنى فيها عقبة مسجدا وهو معروف بها اليوم . وكان دخول عقبة مدينة نفيس سنة ٦٢[٦٨٢] من الهجرة ، ويعرف بالبلد النفيس وليس في جميع البلاد أطيب هواء منها ولا أجمل منظرا ولا أكثر أنهارا وأشجارا وثمارا. ويشق بلد نفيس نهر منبعه من جبل دَرَن حيث الروضة المقدسة المكرمة المعظمة ؛ جدث الإمام المهدى وصاحبه وحواريه الخليفة الإمام أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على رضهما ؛ وهو فى مدينة البيضاء المعروفة بتِنْمَل [2] كرمها الله . وكانت على القديم معمورة فمدنها الإمام رضه ، وبنى فيها الخليفة جامع الإمام رضهما (ا) ، وعليها سور حصين وهى أمنع حصن أو قلعة فى بلاد المغرب لوعورة الطريق من هذه البلاد لأن زيارة الأئمة الأطهرين لها على طرق مرصوفة من الخشب متى احتيج إلى إزالتها أزيلت فتعلقت السبل وحار الدليل ، فتعاين مهوى بعيدا لا يدرك له قعر . وهى فى وسط القبائل المعروفين بالشهامة والنجدة . وبين أغمات ونَفِيس الحضرة العلية مَرّاكش — صانها الله تعالى دار إسلام .

## مدينة مَرّاكُش — كلأها الله [3]

هى اليوم حاضرة بلاد المغرب ودار مملكتها ، وهى مدينة عظيمة فى بسيط من الأرض ، أسسها يوسف (ب) بن تاشفين سنة ٤٥٩ [١٠٦٧] ؛ وأول ما بنى فيها

---

(ا) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب . (ب) ب : يوسف بن على بن تاشفين .

(١) البكرى ، ص ١٦٠ . وقارن الإدريسى ، ص ٦٣ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٦

(٢) قارن الإدريسى ، ص ٦٣ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢٢٣ . عن زيارة خلفاء الموحدين لقبر ابن تومرت بتنملل أنظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢١١

(٣) يمدنا المؤلف هنا بمعلومات مهمة عن مراكش على عهد خلفاء الموحدين الأوائل . قارن الإدريسى ، ص ٦٧ ، ٦٨ ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٦٢ ؛ روض القرطاس ، ص ٨٩ ؛ ابن خلدون ، العبر (الترجمة .Berb ) ، ج ٢ ص ٧٣ ؛ الحلل الموشية (مراكش على عهد المرابطين) ، ص ٥ وتابع (مراكش عهد الموحدين) ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ؛ العمرى ، مسالك الأبصار ( الترجمة ) ، ص ١٧٨ وتابع ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٧٨ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٦ ؛ أبو الفدا (الترجمة) ، ج ٢ ص ١٨٧

دار الأمة وهي الآن معلومة بها ، ثم اختط سورها ولده علي سنة ٥١٤ [=١١٢٠] ؛ وفتحها الخليفة أمير المؤمنين رضه يوم السبت بعد صلاة الظهر ١٨ من شوال سنة ٥٤١ [ = ٢٤ مارس ١١٤٧ ] . وعلى ٣ أميال منها وادي تنسيفت ، منبعه من بلد دمنات (ا) ، يصب فيه وادي وريكة ووادي نفيس وأودية كثيرة ، ومصبه في ساحل رباط جوز (ب) ويدخله الشابل الكثير الطيب . وهي مدينة طيبة التربة كأنها غطاء من حجر على حجر ، عذب ماؤها قريب من قامة أو قامتين ؛ وبساتينها تسقى من آبار منتفد بعضها ببعض حتى تخرج على وجه الأرض . وبينها وبين درن نحو الـ ٢٠ ميلا ، وهي كثيرة الزرع والضرع تحرثها دكالة وجنتها نفيس ، وحولها من البساتين والجنات التي يسمونها البحائر لعظمها ما لا يحصى كثرة ؛ وإنما بناها وأضعها لملك منها جبل درن لكثرة من يعمره ، وكان خروج هذه الشرذمة الصحراوية لقتال برغواطة الكفار المرتدين عن ديانة الإسلام .

وكان إسلام قبائل الصحراء سنة ٤٣٥ [=١٠٤٣] وخروجهم سنة ٤٥٠ [=١٠٥٨] أو نحوها فقتل زعيمهم الذي أخرجهم ببلد برغواطة بموضع يسمى تيلمت ، وبني على قبره مسجد وولي بعده أبو بكر بن عمر اللمتوني المحمدي وبقي إلى سنة ٤٥٧ [=١٠٦٥] قبل أن ينخلع ويولي يوسف بن تاشفين ، ويطلق زوجته زينب بنت ابراهيم النفزاوي [١] . ولم يكن في زمانها أجمل منها ولا أعقل ولا أظرف ، فتزوجها بعده يوسف وبنى لها مراكش ، وسار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء فقاتل السودان فرشقه سهم فمات . ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا مما زاد فيها الخليفة الإمام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف رضهم ، فإن الخليفة الإمام بنى فيها جامعا عظيما [٢] ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته ؛ كان قصرا ، ورفع بينهما المنار العظيم الذي لم يشيد في الإسلام مثله ، وأكمله ابنه وخليفته أبو يعقوب رضه . وجلب الخليفة الإمام المياه من أودية درن وغرس بحيرة عظيمة بغربي المدينة قبل نفيس دورها ٦ أميال ، وبنى فيها

---

(ا) ب : بيلانت ، م : ميلانة ؛ أنظر Fagnan ، ص ١٨٠ هامش ١
(ب) البكرى (ص ١٥٣) : رباط قوز .

(١) حسب ابن خلدون ( العبر ، الترجمة ، ج ١ ص ٧١ ) وصاحب روض القرطاس (ص ٨٣) تسمى زينب بنت اسحق النفزاوي .

(٢) هو جامع الكتبية في مراكش . ( أنظر H. Terrasse, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 103-4 )

وخارجها صهريجين عظيمين كنا فى تلك المدة نعوم فيهما فلا يكاد القوى منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة ، وكنا نتفاخر بذلك . وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب رضه بحائر مثلها فى الغرس بل أجمل ، وجلب لها المياه وأخذها فى صهاريج أعظم من المتقدمة ، وزاد فى قبلة المدينة حصنا أنفذه الآن ابنه الإمام الخليفة أبو يوسف رضه ، وزاد عليه مدينة أخرى تقارب الأولى فى دورها ؛ وكانت بحائر عظيمة فبناها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق ، وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبق فى مدن الأرض أعظم منها ، وأمر بعمارتها أول سنة ٥٨٥ [١١٨٩] . ومدينة مراكش أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات ، وكانت قبل ذلك يطير الطائر حولها فيسقط من العطش والرمضاء ، وأكثر شجرها الزيتون ففي مراكش اليوم من الزيتون والزيت ما تستغنى به عن غيرها من البلاد وتمير بلادا كثيرة ، وكان زيتها قبل اليوم دهن المرجان (ا) لأنه بتلك البلاد كثير جدا . وزيتون مراكش أكثر من زيتون مكناسة وزيتها أرخص وربما أطيب .

ومما شرف به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبو يوسف حضرته المكرمة رضه أن أرسل فى وسط المدينة ساقية ظاهرة ماؤها ماء قصره المكرم ، تشق المدينة من القبلة إلى الجوف ، وعليها السقايات لسقى الخيل والدواب واستقاء الناس ، فهى اليوم أشرف مدن الدنيا وأعدلها هواء . ومن بركاته (ب) وضع دار الفرج فى شرق الجامع المكرم ، وهو مارستان المرضى ، يدخله العليل فيعاين ما أعد فيه من المنازه والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة (ج) ، ويستطعمها ويسيغها فتنعشه من حينه بقدرة الله تعالى . وكان فى سنة ٥٨٥ [ = ١١٨٩ ] قد استدعى العلماء ورواة الحديث وأمر بتدريس حديث النبي صلعم .

مدينة فَرُوَّجَة (د) (١) : يسمونها أفروجى ، بينها وبين مراكش مرحلة ؛ وهى فى بطحاء كثيرة المياه والفواكه والخيرات . وبالقرب منها مدينة

---

(ا) ب : المرجان ؛ أنظر Fagnan ، هامش ١ ص١٨٢ ؛ (ب) ب : بركة .
(ج) ب : المفوضة ، م : المفهومة . (د) م : أفروجى .

(١) لا يتكلم الكتاب عن هذه البلدة . أنظر Fagnan ، هامش ٤ ص ١٨٣

تامروت[1] بينهما نحو مرحلتين. وهي مدينة لطيفة طيبة الهواء والماء، ومنها يرقى إلى جبل درن[2]، ويقال إنه أكبر جبال الدنيا وإنه يتصل بجبل المقطم الذي ببلاد مصر، وفيه قبائل كثيرة من المصامدة، ويقال إنهم من العرب قد دخلوا تلك البلاد وسكنوا تلك الشعاب في الفتنة الواقعة عند هزيمة ميسرة التي تسمى غزوة الأشراف[3]، فكان البربر يطلبون العرب فتوغلوا في تلك الجبال وتناسلوا فهم أهلها على الحقيقة لأنهم أحيوها. قال رسول الله صلعم: «من أحيا أرضا ميتة فهي له ولعقبه». وجبل دَرَن أخصب البلاد وأكثرها أنهارا وأشجارا وأعنابا، وفيه أمم لا تحصى من المصامدة وأكثر عيشهم إنما هو من العنب والزبيب والرُّب، وهم لا يستغنون عن شربه لشدة برد الجبل وثلجه، وخلفه بلاد السوس.

## ذكر بلاد السوس الأقصى[4]

وهي مدن كثيرة وبلاد واسعة يسقيها نهر عظيم يصب في البحر المحيط يسمى وادي ماسة (ا) وجريه من القبلة إلى البحر كجرى نيل مصر، وعليه القرى المتصلة والعمائر الكثيرة والبساتين والجنات بأنواع الفواكه والثمار والأعناب وقصب السكر. ولم يتخذ الساكنون على هذا الوادي قط رحى فإذا سئلوا عن ذلك قالوا: كيف يتخذ هذا الماء المبارك في إدارة الأرحاء، وهم يتطيرون بها (ب). وعلى هذا النهر قرية كبيرة جدا تعرف بتارُودانت[5]، وهي أكثر

(ا) البكرى، ص ١٦١؛ الإدريسى، ص ٧٤ (ماست). (ب) هنا ينبغى ترتيب صفحات المخطوط «ب» كالآتى: ٨٣ – ا، ٨٣ – ب، ٨٢ – ا، ٨٢ – ب.

(١) قارن الدمشقى، ص ٢٣٦

(٢) أنظر فيما سبق، هامش (أبو الفدا، الترجمة، ج ٢ ص ١٨٣؛ البكرى، ص ٦٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ٢ ص ٥٦٧؛ الدمشقى، ص ٢٣٩).

(٣) حدثت هذه الوقعة بعد موت ميسرة بن خالد بن حميد الزناتى وخالد بن حبيب الفهرى. أنظر Fagnan، ص ١٨٤ وهامش ٢

(٤) البكرى، ص ١٦١ – ١٦٢؛ الإدريسى، ص٦١ وتابع؛ الدمشقى، ص٢٣٦؛ ابن حوقل، ص ٦٥؛ اليعقوبى، ص ٣٥٩؛ مراصد الاطلاع، ج ٢ ص ٦٨

(٥) الإدريسى، ص ٧٤

بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة . وهذا البلد أخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات ، ومنها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وإفريقية وهو المشهور بالطبرزد [1] المذكور فى كتب الطب . وعلى مصب هذا الوادى فى البحر رباط مقصود له موسم عظيم ومجتمع جليل وهو مأوى للصالحين . ومن وادى سوس إلى مدينة نول ٣ مراحل فى عمارة متصلة يسكنها جزولة ولمطة ، وهم أمم كثيرة .

وقاعدة بلاد السوس مدينة "أيجلى" [2] وهى مدينة عظيمة كبيرة قديمة أزلية فى سهل من الأرض على النهر الكبير المذكور ، وهى كثيرة البساتين والتمر وجميع الفواكه ، ربما بيع حمل التمر بما دون كراء الدابة من الجنان إلى السوق ، وقصب السكر بها كثير وله بها معاصر كثيرة ، وأكثر شرب أهلها إنما هو ماء قصب السكر (ا) ؛ ويعمل بها النحاس المسبوك يتجهز به إلى بلاد السودان . ووصل عقبة بن نافع إلى هذه المدينة عند دخوله إلى بلاد المغرب ، وافتتحها فأخرج منها سبيا لم ير مثله حسنا ؛ كانت تباع الجارية الواحدة منهن (ب) بألف دينار وأكثر لحسنها وتمام خلقها . ويعمل بهذه المدينة زيت الهرجان (ج) وشجره يشبه الكمثرى إلا أنه لا يعلو كعلو شجرة الكمثرى ولا يفوت اليد ، وأغصانه نابتة من أصله لا ساق لشجرته ولها شوك وثمرته تشبه الأجاس المعروف عندنا بالعنبقر ، فيجمع ويترك حتى يذبل ثم يوضع فى مقلاة فخار على النار فيستخرج دهنه ، وطعمه يشبه طعم القمح المقلو ، وهو جيد محمود الغذاء يسخن الكلى ويدر البول . وبالسوس عسل يفوق عسل جميع الأمصار ، يلقى النبيذيون على الكيل منه ١٥ كيلا من الماء وحينئذ يأتى نبيذا ، وإن كان الماء أقل من ذلك بقى حلوا ولا ينحل إلا بالماء الشديد الحرارة ، ولونه أخضر فى لون الزمرد [3] .

---

(ا) ب : إنما هو من قصب السكر . (ب) ب : الجارية منها .
(ج) ب : المرجان .

(1) الإدريسى ، ص ٦٢

(2) البكرى ، ص ١٦١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان (ايجلى) ، ج ١ ص ٤١٥ ؛ الدمشقى (إيجلى) ، ص ٢٣٦ ؛ مراصد الاطلاع (أيجلى) ، ج ١ ص ١٠٦

(3) البكرى ، ص ١٦٢ ؛ الإدريسى (ص٦٢-٦٣) يقول إن هذا الشراب يسمى أنزير .

وبالقرب من أبجلى على نحو ٦ مراحل مدينة تامَدَلْتْ [١] ، وهي مدينة كبيرة أسسها عبد الله (ا) بن إدريس العلوى وتوفى بابجلى وبها قبره . وتامَدَلْتْ مدينة سهلية كثيرة العمارة حافلة الأسواق ، على نهر عنصره من جبل على نحو ١٠ أميال منها ، وما بينهما عمائر وبساتين متصلة ، وهذا النهر هو نهر درعة ، وهذه المدينة تامدلت على رأس النهر ، وبينها وبين مدينة درعة مسيرة ٦ أيام فى عمارة متصلة . ومن بلاد السوس مدينة نول لمطة (ب) [٢] ، وهي مدينة كبيرة فى أول الصحراء على نهر كبير يصب فى البحر المحيط ، ومن مدينة نول إلى وادى درعة نحو ٣ مراحل . وإنما سميت نول لمطة لأن قبيلة لمطة (ج) يسكنونها وما وراءها وهي آخر بلاد السوس ؛ ومن أراد الدخول من وادى درعة إلى بلاد السودان ، غانة وغيرها ، فليمشى من وادى درعة نحو ٥ مراحل إلى وادى تَرجا(د) وهو فى أول الصحراء ، ثم يسير فى جبال وعرة فى طريق قد فتحت فى حجر صلد بالنار والخل من عمل الأول . ويزعم قوم أن ملوك بنى أمية فتحوها ، وهذه الطريق من أحد أعاجيب العالم [٣] . ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية جبل الحديد ، ومن هذا الجبل يدخل إلى بلاد لَمْتُونة وهم من صنهاجة ؛ وأكثر لمتونة إنما هم رحالة لا يستقر بهم موضع ولا يعرفون الحرث ولا الزرع ولا الخبز ، وإنما لهم الأغنام الكثيرة فيعيشون من لبنها ولحمها ، فهم يجففون اللحم ويطحنونه ويصبون عليه الشحم المذاب والسمن ويأكلونه ويشربون عليه اللبن قد غنوا به عن الماء ، فيبقى الرجل منهم الشهر لا يشرب ولا يأكل خبزا ولا يعرفونه وصحتهم من ذلك متمكنة [٤] ، ربما مرت بهم القوافل فيتحفون ملوكهم

---

(ا) ب : عبيد الله .

(ب) «لمطة» ناقصة فى ب . (ج) النص : تَزكا ولكنا أخذنا بقراءة البكرى (ص ١٦٣) ؛ أنظر Fagnan ، ص ١٨٨ وهامش ٣

(١) البكرى ، ص ١٦٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨١٢ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ١٩٥ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٢) البكرى ، ص ١٦١ ؛ الإدريسى ، ص ٦٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ٢٣٩ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٨

(٣) قارن البكرى ، ص ١٦٣

(٤) البكرى ، ص ١٧٠

ورؤساءهم بالخبز والدقيق . وببلادهم يكون اللمط [١] الذى يعمل من جلوده الدرق ، وهذا الحيوان المسمى باللمط دابة دون البقر لها قرون (ا) رقاق حادة تكون لذكرانها وإناثها ، وكلما كبر هذا الحيوان طال قرنه حتى يكون أزيد من ٤ أشبار ؛ وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما عمل من جلود الإناث المسنات التى قد طالت قرونها لكبر سنها حتى منعت الفحل أن يعلوها . وببلادهم أيضا الفنك الكثير ، ومن عندهم تحمل جلودها إلى جميع البلاد ، وعندهم الكباش الدمانية وهى على خلقته أيضا إلا أنها أعظم وشعرها كشعر المعز لا صوف عليها ، وهى أحسن الغنم خلقا وألوانا . والريحان فى بلاد الصحراء وفى بلاد السوس عزيز لأن بلادهم لا تنبته ، وهو عندهم من أطيب الطيب .

ومن عجائب هذه الصحراء أن بها معدن الملح [٢] تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن ، ويوجد هذا الملح تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض فيقطع كما تقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن تاتنتال ، وعليه حصن مبنى بالحجارة التى تخرج من المعدن ، وجميع ما فيه من بيوت وغرف ومساكن إنما هو مبنى بحجارة الملح . وبهذا الملح يتجهز إلى بلاد السودان ، غانة وغيرها ، وله غلة عظيمة ؛ وبإزاء معدن الملح الماء العذب الطيب ، أخبرنى بذلك من عاينه . ومعدن الملح أيضا فى بلاد جدالة بموضع يسمى وليلى (ب) [٣] على شاطئ البحر المحيط ، ومن هناك تحمله الرفاق إلى ما جاوز تلك الجهة . وبقرب وليلى فى البحر جزيرة تسمى أيونا (ج) [٤] ، وهى عند المد لا يوصل إليها إلا بالمراكب

---

(ا) «قرون» ناقصة فى ب .

(ب) البكرى ، ص ١٧٠ ؛ الإدريسى ، ص ٣٢ (أوليل) .

(ج) البكرى (ص ١٧١) : أيونى .

(١) البكرى ، ص ١٧١

(٢) نفس المصدر .

(٣) البكرى ، ص ١٧٠ ؛ الإدريسى ، ص ٣ . عن مدينة وليلى قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٩٤١ ، مراصد الاطلاع (أوليل) ، ج ١ ص ١٠ ؛ الدمشقى ، ص ٢٤٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٣

(٤) البكرى ، ص ١٩٥ ؛ أما الإدريسى فيتكلم (ص ٥٥) عن جزر المحيط وعن العنبر ولكنه لا يذكر هذه الجزيرة .

وعند الجزر يوصل إليها بالقدم، ويوجد فيها العنبر الكثير ؛ وأكثر معاش أهلها من لحوم السلاحف فهي أكثر شيء في ذلك الموضع وهي مفرطة العظم ، ربما دخل الرجل في محار ظهورها يتصيد في البحر كالقارب . وفي هذه الجزيرة أغنام كثيرة ومواشي ، وهي منتهى المراكب وآخر مراسي المغرب . ومن مدينة نول إلى هذه الجزيرة على البر ، لا تفارق السواحل ، مسيرة شهرين في أرض مُحجّرة أكثرها صفاء تنبو عنها المعاول ، ويكل فيها الحديد(ا) ، وإنما يشرب من يمر على ذلك الطريق من حفر يحفرونها عند جزر(ب) البحر فينبع ماء عذبا وهو من العجائب . وإذا مات للمارين بهذه الطريق ميت لا يمكنهم مواراته بالتراب لصلابة الأرض وامتناعها من الحفر، فيسترونه بالحطام والحشيش أو يقذفونه في البحر .

وبين صحراء لمتونة وبلاد السودان (ج) ، مدينة أوْدَغست [1] . وهي مدينة عظيمة آهلة فيها أمم لا تحصى ولها بساتين كثيرة ونخل كثير ، ويزرعون فيها القمح بالحفر بالفؤوس ويسقونه بالدلاء (د) ، وكذلك يسقون بساتينهم ، وإنما يأكل عندهم القمح الملوك وأهل اليسار منهم ، وسائر أهلها يأكلون الذرة . والمقاثي تجود عندهم كثيرا ، والبقر والغنم عندهم أكثر شيء وأرخصه : تشترى في أوْدَغست ١٠ أكباش بدينار وأكثر من ذلك ، وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة ولهم أسواق حافلة عامرة الدهر كله، لا يكاد يسمع الإنسان فيها صوت جليسه لكثرة غوغاء الناس ، وتجارتهم إنما هي بالتبر وليس عندهم فضة . وبمدينة أودغست مبان حسنة ومنازل رفيعة وأهلها أخلاط من جميع الأمصار ، وقد استوطنوها لكثرة خيرها ، ونفاق أسواقها وتجارتها . وحريم أودغست لا يوجد مثله في بلد، يجلب منها جوار حسان بيض الألوان مائسات القدود ، لطاف ضخام الأرداف واسعات الأكتاف ضيقات الفروج ، المستمتع بإحداهن كأنما يستمتع ببكر أبدا ، من غير أن ينكسر لإحداهن ثدي طول عمرها .

---

(ا) ب : وتكيل الحديد . (ب) ب : جواز .
(ج) «بلاد السودان» ناقصة في «ب» . (د) النص : بالدولاب . أنظر البكري ، ص ١٥٨

(1) البكري ، ص ١٥٨ – ١٥٩ ؛ الإدريسي (ص ٣٢) يكتفي بذكر اسم المدينة ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٩٩ ؛ مراصد الاطلاع (أودغست) ، ج ١ ص ١١٠ ؛ الدمشقي ، ص ٢٢٨ ؛ ابن حوقل (أودغست) ، ص ٦٦

أخبرني ثقة من التجار (ا) [1] أنه رأى بمدينة أودغست امرأة راقدة على جنبها ، وكذلك يفعلن فى أكثر أحوالهن إشفاقا من الجلوس على أردافهن ، ورأى ابنا لها طفلا يلعب حواليها وهو يدخل تحت خصرها ويخرج من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له ، وذلك لعظم ردفها ورقة خصرها . ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات ، تباع الواحدة منهن بـ ١٠٠ دينار كبار وأزيد ، يحسن عمل الأطعمة ولا سيما أصناف الحلاوات مثل الجوزينقات ، والوزينجات ، والقاهريات ، والكنافات والقطائف والمشهوات ، وأصناف الحلاوات ، فلا يوجد أحذق يصنعتها منهن . ومنها تجلب الدرق الحصيفة الجياد فإن اللمط بأرض أودغست كثير جدا . يجلب أيضا منها العنبر الطيب لقربها من البحر المحيط ، ويجلب منها الذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة . وذهب أودغست أجود ذهب الأرض وأصحه ، وكان صاحب مدينة أودغست فى سنة ٣٥٠-٣٦٠ (٩٦١ - ٩٧١) (ب) رجل من صنهاجة ، وكانت له جيوش كثيرة فدان له أزيد من ٢٠ ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدون له الجزية . وكان عمله مسيرة شهرين فى مثلها فى عمارة متصلة ، وكان يعتد فى أزيد من ١٠٠,٠٠٠ نجيب فإن الخيل فى تلك البلاد قليلة ، فيقال إنه غزا ملكا من ملوك السودان يقال له أوغام ، فدخل بلده وأحرقها وقتل جنده والملك فى قصره ينظر إليه ؛ فلما رأى ما حل فى بلده هان عليه الموت وخرج ورمى بدرقته إلى الأرض وقاتل حتى قتل . فلما عاين نساؤه ذلك تردين فى الآبار وقتلن أنفسهن بضروب من القتل أسفا على ملكهن وأنفة أن يملكهن البيضان . وبين مدينة أودغست وسجماسة نحو ٥٠ مرحلة ، ومنها إلى غانة نحو ٢٠ .

---

(ا) ب : أخبرني الثقات . (ب) النص : فى عشر وخمسين وخمسمائة . ولكنا أخذنا بمقالة البكرى ، ص ١٥٩ ، والترجمة ، ص ٣٥١

(1) البكرى ، ص ١٥٩

# ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة وعجائبها ونبذ من سير ملوكها [1]

قال المؤلف رحمه الله : أقرب بلاد الإسلام إلى بلاد السودان بلاد جدالة [2] وأقرب مدينة من مدن السودان إليهم مدينة صَنْغانة [3] وهي مدينة عظيمة على النيل. وبين آخر بلاد جدالة وبين مدينة صنغانة مسيرة ٦ أيام، وهما مدينتان على ضفة نيل مصر ولهاتين المدينتين نظر واسع وعمارات متصلة يقال إنه تتصل عمارتهما وقراهما بالبحر المحيط. وتلي مدينة صنغانة على النيل مدينة تَكْرُور [4] وكانوا على ما كان عليه سائر السودان في المجوسية وعبادة الدكاكير، وهي بلغتهم الأصنام، حتى وليهم وزجاي بن ياسين فجبرهم على الإسلام بالسيف وحارب السودان حتى أسلموا وذلك سنة ٤٣٥ [=١٠٤٣–١٠٤٤].

مدينة سِلَى [5] : هي مدينتان على ضفة النيل وأهلها مسلمون أسلموا على يد وزجاي، رحمه الله، وملكها واسع المملكة كثير العدد يقاوم صاحب غانة. وبينها وبين غانة مسيرة ٢٠ يوما في عمارة متصلة للسودان القبيلة بعد القبيلة؛ وصاحب سِلَى يحارب من جاوره من كبار السودان، وتبايع أهل سِلَى إنما هو بالذرة والملح وحلق النحاس وأُزُر لطاف من قطن يسمونها الشّكيات (ا) وهي أنفق ما عندهم، وليس عندهم غنم ولا معز وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون. وبقرب مدينة سلى مدينة قَلَنْبُوا [6] وهي مدينة كبيرة

---

(ا) ب : الشكتيان، م : الشنكيات. ولكنا أخذنا بما كتبه البكري، ص ١٧٣

[1] الفصول الخاصة ببلاد السودان منقولة عن البكري، ص ١٧٢ وتابع.

[2] البكري، ص ١٧٢ . وقارن الإدريسي، ص ٥٩ ؛ الدمشقي، ص ٢٣٨ ؛ أبو الفدا الترجمة، ج ٢ ص ٢١٥ – ٢١٦ ؛ O. Houdas، تاريخ السودان، النص، ص ٢٥، الترجمة، ص ٤٢

[3] البكري، ص ١٧٢ ؛ الدمشقي، ص ٢٤٠

[4] قارن الإدريسي، ص ٣ ؛ أبو الفدا، الترجمة، ج ٢ ص ٢٢٠ ؛ مراصد الاطلاع، ج ١ ص ٢٠٩

[5] البكري، ص ١٧٢ ؛ قارن الإدريسي، ص ٣

[6] البكري، ص ١٧٣

على ضفة النيل ، فإن النيل يشق جميع تلك البلاد ، ويسقى أكثرها . ومن عجائب تلك البلاد أن فيها حيواناً يشبه الفيل فى عظيم خلقته وخرطومته وأنيابه ، يسمونه جفو ويرعى فى البر ويأوى إلى النيل ، ويصطادونه فيأكلون لحمه ويصنعون من جلده الأسواط التى تسمى بالسّرياقات ، ويقال لها بالأندلس ذنب الفأر . ومن هناك تحتمل الأسواط إلى جميع الآفاق ، ولهم فى صيده حيلة فإنهم يميزون فى النيل المواضع التى يأوى إليها هذا الحيوان [حيث] يتحرك الماء على ظهره لقلة استقراره ، وعندهم مزارق حديد قصار فى أسافلها حلق قد شدت فيها حبال مديدة ، فيزرقونه بالعدد الكثير منها ، فيهرب منهم ويغوص فى أسفل النيل فيرخون له تلك الحبال فيضطرب حتى يموت . فإذا مات طفا على الماء فيجرونه إلى البر ، ويأخلونه . وتلى مدينة قلنبوا مدينة ترنكة (ا) [1] : وهى مدينة كبيرة على نظر واسع وبها تصنع الأزُرُ المسماة بالشكيات التى تنفق فى مدينة قلنبوا وغيرها ، وهى من القطن وليس بهذه المدينة قطن كثير وإنما هو مجلوب إليها ، وهم يتبركون بشجره فقل ما عندهم منزل ولا دار إلا وفيه شجرة قطن . وحكم أهل هذه البلاد فى السارق أن يخير صاحب السرقة فى بيع السارق أو قتله ، وحكمهم فى الزانى أن يسلخ من جلده .

ومن مدينة ترنكة تتصل ببلاد السودان إلى بلاد زافون (ب)[2] وهم من البرابر لهم مدينة زافون ، سميت بهم . وهم يعبدون ثعبانا عظيما له عرف وذنب ورأسه كرأس البختى ، وهو فى مغارة فى أصل جبل ، وعلى فم المغارة عريش وحوله مواضع يتعبدون فيها لذلك الثعبان ، ويعلقون نفيس الثياب والمتاع على تلك المغارة ، ويضعون لذلك الثعبان جفان الطعام وعساس اللبن والشراب ، فهم إذا رأوا خروجه إلى ذلك العريش تكلموا كلاما معلوما عندهم ، وصفروا تصفيرا كذلك فيبرز إليهم . فإذا هلك وال من ولاتهم جمعوا أولاده ، إن كان له ولد ومن يصلح للملك بعده ، وقربوه من ذلك الثعبان وتكلموا بكلام يعلمونه ، فيدنوا ذلك الثعبان منهم فلا يزال يشمهم رجلا رجلا

(ا) البكرى (ص ١٧٣) : ترنقه . (ب) البكرى (ص ١٧٣) : زافقوا .

(١) أنظر البكرى ، ص ١٧٣

(٢) البكرى ، ص ١٧٣ ؛ قارن معجم البلدان ، ج ٢ ص ٩٠٨ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٥٠٢

حتى ينطح أحدهم بأنفه ، ثم يولى ذلك الثعبان راجعا إلى مغارته ، فيتبعه ذلك الرجل والثعبان مسرعا إلى المغارة والرجل يجهد خلفه بالجرى بأشد ما يقدر عليه ، فيجذب من ذنبه أو عرفه شعرات فتعد ويعلمون أنه يملك قومه تلك الشعرات سنين ، لا يخطئهم ذلك بزعمهم . وأقول إن هذه الفتنة فيهم إنما هى لأن الثعبان يُعمَّر حتى يزيد على ١٠٠٠ سنة، فنشأ على ذلك آباؤهم فلا يعرفون أوله ، والواضع لهذه الفتنة إنما أراد أن يملكهم بذلك ، وعقولهم فى نهاية الركاكة ، فيصبح له منهم ما أراد — عصمنا الله من الفتن . وتلى هذه البلاد بلاد الفرويين (١) ، ومن غرائب بلدهم أن عندهم بركة عظيمة يجتمع فيها الماء ، ينبت فيها نبات أصله أبلغ شئ فى تقوية الجماع والمعونة عليه، وملك ذلك البلد يشح على إخراجه من بلده لئلا يصل منه إلى غيره شئ ، وله من النساء عدد كثير ، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن من قبل ذلك بيوم ، ثم استعمل ذلك الدواء ، فلا يكاد ينكسر عن الطواف عليهن كلهن . وقد أهدى له بعض الملوك المجاورين لبلده هذه هدية نفيسة ، واستهداه شيئا من ذلك العود ، فعاوضه على هديته وكتب إليه أن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا القليل ، وقد خفت عليك أن أبعث بهذا الدواء فلا تقدر على إمساك نفسك فتأتى ما لا يحل لك فى شريعتك ، ولكنى بعثت لك عودا يأكله العقيم فيولد له . وببلاد الفرويين يبدل الملح بالذهب لعدمه عندهم ، وفى هذه البلاد معادن الذهب ، ترابه أحمر يستخرج كما يستخرج الحديد والرصاص والنحاس والفضة ببلادنا .

## ذكر بلاد غانة وما جاورها من البلاد (٢)

قيل إن غانة سمة لملوكها ، وإنما اسم البلد أوكار (ا) (٣) ، ووقع إلى كتاب ملكها إلى يوسف بن تشفين ، نصه : إلى أمير أغمات ، قال غانة ؛

(ا) ب ، م : وكان . أنظر البكرى ، ص ١٧٤

(١) البكرى ، ص ١٧٤

(٢) البكرى ، ص ١٧٤ وتابع . قارن الإدريسى ، ص ٦ — ٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٧٧٠ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٣٠٠ ؛ الدمشقى ، ص ٢٤٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٣) البكرى ، ص ١٧٤ ؛ الدمشقى ، ص ٢٤٠

وهذا دليل على ما قيل . ومدينة غانة مدينتان ، إحداهما يسكنها الملك والأخرى يسكنها الرعية والتجار والسوقة ، بينهما الدور والمساكن نحو ٦ أميال متصلة . وفى مدينة الرعية جامع كبير ومساجد كثيرة ، وفيها الأئمة المؤذنون والفقهاء والعلماء ، وحواليها آبار عذبة منها يشربون ، وعليها الخضر والمقاثى . ومدينة الملك تسمى الغابة ، وللملك بها قصر عظيم وقباب ، قد أحاط بذلك كله حائط مثل السور ، وعلى مقربة مجلس حكم الملك ، وحول قصره قباب وغابات وشعراء يسكنها السحرة وأهل ديانته ، وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ، ولها حرس فلا يمكن أحد من الغرباء دخولها ولا معرفة ما فيها ، وهناك سجون الملك فإذا سجن أحدا انقطع خبره . وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من تجار المسلمين . والملك يجلس للناس للحكم فى قبة عظيمة وأمام القبة عشرة أفراس من عتاق الخيل ، وعليها الحلل المذهبة من الحرير والديباج على عدمها ببلادهم . والملك يتحلى بحلى النساء (١) فى عنقه وذراعيه ، ويحمل على رأسه طرطورا مذهبا ويعمم عليه عمامة قطنية ، وعن يمينه وعن يساره أبناء الملوك والوزراء وخاصته من أعيان بلده ، قد ضفروا رؤوسهم بالذهب والجوهر وعليهم الثياب الرفيعة . ولا يلبس ثوبا مخيطا من أهل دينه إلا هو وولى عهده ، ومن سواهما يلبسون ملاحف الحرير والديباج ، وسائر أهل بلده يلبسون ملاحف القطن . والملك وسائر أهل بلده الذين على ديانته يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رؤوسهن . ولا يولى الملك عهده إلا لابن أخته وهو يشك فى ابنه ولا يقطع بصحة اتصاله به ، وإذا جلس الملك فى قبته لمظالم الناس ينذرون لجلوسه بطبل عظيم يسمونه دُبّا (ب) ، وهو خشبة طويلة منقورة قد جلّدوها لها صوت هائل يجتمع الناس إليه ، فإذا دنا منه أهل دينه جثوا على ركبهم وحثوا التراب على رؤوسهم . وأما المسلمون فتحيتهم عليه تصفيق باليدين ، وجلوس الوزراء أمامه إنما هو على الأرض تواضعا للملك . وإذا مات الملك عملوا له قبة ووضعوا له الأطعمة والأشربة وكل من كان يخدم طعامه وشرابه ، وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوقها الحصى والأمتعة ، واجتمع الناس فردموا فوق القبة بالتراب حتى يأتى الموضع مثل الجبل الضخم ، ثم يحتفرون حوله حفيرا

---

(١) القراءة فى «ب» كالآتى : والملك يتحلى على النساء .

(ب) ب : دربى ، م : دبى . البكرى ، ص ١٧٦

عظيما وعرا حتى لا يتوصل إلى ذلك الكوم ولا إلى شئ منه إلا من موضع واحد. وللملك غانة مملكة واسعة نحو الشهرين فى مثلها ؛ وفى بلده يوجد الذهب الكثير، وهو يعم جميع بلاد الدنيا وأفضل الذهب بمملكته ما كان ببلد غيارو ا.

مدينة غَيّارو ا(١) : بينها وبين غانة نحو ٢٠ يوما متصلة بقبائل من السودان لا يحصى لهم عدد، وإذا وجد فى جميع معادن بلاد هذا الملك النّدرة من الذهب اصصفاها (١) الملك لنفسه ولم يتركها تخرج من بلده لغيره. والنّدرة تكون من أوقية إلى رطل وإنما يتركون أن يخرج من بلادهم من الذهب ما كان رقيقا، ولو تركوا كل ما يوجد فى المعادن يخرج من بلادهم لكثر الذهب بأيدى الناس ولهان. ويذكر أن عند ملك غانة ندرة ذهب كالحجر الضخم؛ وقد ذكر أن عند بعض ملوك السودان من هذه الندرات حجر عظيم يجعل أمامه، فإذا ورد عليه رسل من غيره من الملوك أمر بفرسه فربطه إليه ليباهى بذلك. وبين مدينة غيارو ا والنيل ١٢ ميلا وفيها كثير من المسلمين؛ وفى القرب منها على النيل مدينة يرِسْنِى (ب) (٢) : وهى مدينة كثيرة الخيرات ولها معدن للذهب عظيم معروف فى بلاد السودان. ومن أعجب شئ فى هذه المدينة أن فيها معزا قصارى وعندهم شجر معلوم فتحتك هذه المعز إلى تلك الأشجار فتلقح من غير ذكر، ويذبحون ذكران المعز ويستحيون الإناث لاستغنائهم عن الفحل، وهذا معلوم عندهم غير منظور؛ حدث بذلك من دخل بلادهم من التجار والثقات، وهذا مثل جزيرة النساء التى ذكر المسعودى (٣). ومن أعمال مدينة غانة ونظرها مدينة سَامَّة(٤)، ويعرف أهلها بالبكم، بينها وبين غانة مدة أربعة أيام. وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور مضفورة، ونساؤهم يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر الرأس. حدث رجل ثقة ممن دخل

---

(ا) ب، م : استصفاها. (ب) م : برسى. (ج) م : سامة.

(١) البكرى، ص ١٦٧ ؛ قارن الإدريسى (غيار)، ص ٩ ؛ الدمشقى، ص ٢٤٠

(٢) البكرى (أرزنى)، ص ١٨٧، قارن الإدريسى (بريسة) ص ٤ ؛ أبو الفدا، الترجمة ج ٢ ص ٢٢٠، الدمشقى (يرسنا)، ص ٢٤٠،

(٣) نجد قصة جزيرة النساء فى كتاب ابن وصيف شاه (Carra de Vaux, Abrégé des Merveilles)، الترجمة، ص ١٧٩

(٤) البكرى، ص ١٧٨، قارن الإدريسى (سامه)، ص ٣٤

تلك المدينة إنه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب له لحية عظيمة طويلة ، فتكلمت كلاما لم يفهمه العربي ، فسأل الترجمان عن مقالتها فأخبره إنها تمنت أن يكون شعر لحيته في عانتها ، فغضب الأعرابي وأوسعها سبا . ويورث الرجل أكبر بنية ماله كله ويحرم الغير ولو كان أحب إليه . ولهم حذق بالرماية ويرمون بالسهام المسمومة . وبغربي غانة مدينة أنبارة[1] : وهي مدينة كبيرة ولأهلها بأس شديد في الحروب ، وهم معاندون لملك غانة وإليها تسعة أيام .

مدينة كوغة[2] : وأهلها مسلمون وحوالها المشركون ، وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس المسبوك والتاكوت وهو أنفق شيء عندهم للدبغ به . وحوالها معادن التبر ، وهي أكثر بلاد السودان ذهبا . وبالقرب منها مدينة التوكن[3] : وهي مدينة عظيمة يقال إن ملكها المعاصر لنا مسلم يخفي إسلامه . وببلاد غانة قوم يسمون بالمنتهين ، من ذرية الجيش(ا) الذي كان بنوا أمية أنفذوه إلى غانة في صدر(ب) الإسلام إلى بلاد السودان ، وهم بيض الألوان حسان الوجوه لا يتناكحون في السودان كثيرا . وإذا سرت من غانة إلى جهة الشرق فإنك تسير في بلاد السودان كثيرا (ب) وفي قبائل من البربر رحالة وهم مسلمون . وتسير مراحل كثيرة على النيل إلى مدينة تيرقي(ج)[4] : وهي مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يجتمع فيها أمم كثيرة من بلاد متفرقة من بلاد غانة وتادمكة وغيرها . وتعظم السلاحف بأرض تيرقي حتى تخرج عن القياس ، وهي تحفر في الأرض أسرابا يمشي فيها إنسان ، وهم يأكلونها فلا يستطيعون إخراج واحد منها من تلك الأسراب إلا بعد شد الحبال فيها واجتماع

---

(ا) النص : يسمون بالمسس من ذرية الحسين . أنظر البكرى ، ص ١٧٩

(ب) الجمل الواقعة بين «ب» ، «ب» ناقصة في ب .

(ج) النص : يتزكى . أنظر البكرى ، ص ١٨٠

(1) البكرى ، ص ١٧٩ ، قارن الإدريسى (نيرنته) ، ص ٣٥

(2) البكرى ص ١٨٩ ؛ قارن الإدريسى ، ص ١٠ ؛ الدمشقى (مجالات كوغه) ، ص ٢٤١

(3) البكرى ، ص ١٧٩

(4) البكرى ، ص ١٨٠ ، قارن الإدريسى ، ص ٨

العدد الكثير . حدث رجل ثقة من المسافرين فى ذلك الطريق أن قوما انزلقوا فى بعض طريق تيرقى فغرسوا متاعهم ، وبذلك الطريق الأرضة كثيرة وهى تفسد ما وجدت من متاع أو غيره ، ولها بذلك الطريق أجحار وتخرج من التراب أكواما فوق أجحارها ، ومن العجب أن ذلك التراب يرى ندى والماء هناك غير موجود على أبعد حفره ، فلا يضع التجار أمتعتهم إلا على الحجارة المجموعة أو الخشب . فلما نزل أولئك التجار بذلك الموضع ارتاد كل واحد منهم لمتاعه حزنا من الأرض أو حجرا ، فبدر أحدهم بالليل إلى صخرة كبيرة فيما ظن فأنزل عليها متاعه وكان وقر بعيرين ، ثم نام بقرب رحله فلما انتبه من نومه سحرا لم يجد الصخرة ولا ما كان عليها ، فارتاع فنادى بالويل والحرب فاجتمع إليه أهل القافلة يسألونه عن خطبه ، فأخبرهم . فقالوا لو طرقك لص لذهب بالمتاع وبقيت الصخرة ، فنظروا أثر سلحفاة ذاهبة بالموضع فاقتفوا أثرها ومشوا أميالا حتى أدركوا السلحفاة وحمل المتاع على ظهرها وهى تنهض به فى غير تكلف . فاعجب من عظم هذه السلحفاة التى تحمل وقر جملين .

ومدينة تيرقى على النيل ومن هناك يرجع نحو الجنوب . ويلى مدينة تيرقى إلى ناحية المغرب مدينة تادمكة[1] : وهى مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهى أشبه البلاد بمكة كرمها الله ، ومعنى تاد عندهم هيئة : على هيئة مكة . وأهلها بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء ، وعيشهم من اللبن واللحم وليس عندهم قمح ولا شعير ، وعندهم حب تنبته الأرض من غير حرث يشبه الذرة . ولباسهم الثياب القطن المصبغة ، وملكهم يلبس الثياب الملونة فتكون عمامته حمراء وقميصه أصفر وسراويله زرق وما أشبه ذلك . ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها من ذهب محض غير مختومة ، ونساؤهم فائقات الجمال لا يعدل بهن نساء بلد حسنا . والزنا عندهم مباح وهن يتلقين التجار إذا أقبلوا إلى بلدهم ويتقارعن على الرجل الجميل منهم أيهن تحمله إلى منزلها . وبين مدينة تادمكة وغانة نحو الـ ٥٠ مرحلة ، وبينهما مدن وعمائر للسودان والبربر . فإذا سرت من غانة تريدها فأول ما تلقى مدينة سجنجوا (١)[2] : وهى على

---

(١) البكرى (ص) ١٨١ : سقنقوا .

(١) أنظر فيما سبق هامش ١ ص ١٤٦

(٢) البكرى ، ص ١٨١

٣ مراحل من غانة، وهى على النيل وهى آخر عمل غانة إلى الجنوب. ثم يصب النيل فى مدينة بوغرات (١) : يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون بمراسة . أخبر الفقيه عبد الملك أنه رأى فى بوغرات طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته قتل الحسين ، يكون ذلك مرارا ويقول بكربلاء مرة واحدة ؛ قال الفقيه سمعته وأنا ومن حضر من المسلمين معى. ثم من بوغرات إلى تيرقى المتقدم الذكر ثم إلى تادمكة . وإن أردت الطريق من تادمكة إلى القيروان فإنك تتوجه إلى ناحية الشمال ، وتسير فى صحراء نحو ٥٠ يوما إلى بلد وارجلان (٢) فى طرف الصحراء مما يلى إفريقية: وهو بلد خصيب كثير النخل والبساتين ، وفيه سبع مدن مسورة حصينة تقرب بعضها من بعض ، أكبرها تسمى أغرم إن يكامن (١) معناه بلاد الشهود ، وفيه حصن العهود . وهى بلاد كثيرة الزرع والضرع والبساتين ، كثيرة المياه ، ولها أعجوبة ليست فى موضع من الأرض: يحفر الرجل بئرا يقوم حفره بـ ١٠٠ دينار وأزيد فإن أرضهم صلبة ، والماء بعيد يدرك على أزيد من ٦٠ قامة ، فيجد على الماء طبقا من حجر صلد ، فيستبشر عند وجوده ، ويطعم أولياءه فرحا . ويدخل إليه من يعرف كيف ينقره مربوطا فى حبال وثيقة وينقره فيفور الماء فإن أبطأ الرجال فى رفعه حتى لا يدركه الماء هلك لحينه ، ويبقى الماء يفور على مر الدهور ، وهكذا هى جميع آبارهم، وهم يسقون جناتهم وزرعوهم ونخلهم . وتضرب ببلد وارجلان دنانير على نوع المرابطية ، لكنها نازلة فيها تحميل كثير ، والدنانير الورجلانية مشهورة (٣) . ومن ورجلان إلى بلد الجريد نحو ١٤ يوما ، ومن بلاد الجريد إلى القيروان ٧ أيام ؛ وأهل القيروان بربر ، وفيهم جمال كثير ، ولاسيما نساؤهم ، موصوفات بالحسن . ومن بلاد وارجلان إلى غدامس نحو ٢٠ يوما فى صحراء قليلة الماء ؛ وفى هذه الصحراء معدن حجارة تشبه العقيق ، وربما كان فى الحجر الواحد منها ألوانا من الحمرة والصفرة والبياض ، وهذا

---

(١) النص : أغرم أى نيكان . أنظر البكرى ، ص ١٨٢

(١) البكرى ، ١٨١ . أنظر الترجمة ، ص ٣٩٣ والهامش عن « أبو محمد عبد الملك » .

(٢) البكرى، ص ١٨١ ؛ قارن الإدريسى (ورقلان) ، ص ١٢٠ - ١٢١ ؛ الدمشقى ، ص ٢٣٩ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ٢٨٤

(٣) قارن البكرى ، ص ١٢١ ؛ أنظر Faguan ، هامش ١ ص ٢٠٩

الحجر أنفس شئ ببلاد السودان ، غانة وغيرها ، وهو عندهم مثل الياقوت وأجل . وربما وجد من هذا الحجر فى النادر حجر كبير ، وإذا وصل به إلى أهل غانة تغالوا فى ثمنه ، وبذلوا فيه الرغائب ؛ وهذا الحجر مثل الياقوت لا يعمل فيه الحديد شيئا ، وإنما يصنع ويثقب بحجر آخر يسمى تنتواس كما يصنع بالياقوت ، ويثقب بحجر السنبادج . ومعدن هذا الحجر لا يظهر حتى يذبح الإبل وينضح الموضع بدمها ، فحينئذ تظهر هذه الحجارة وتلقط . وفى هذه الصحراء أيضا معدن الشب الأبيض الطيب[1] الذى لا يوجد مثله ببلد ، ومن هناك يحمل إلى جميع البلاد . ومن تادمكة ٩ أيام إلى مدينة كُوكُوا[2] : وهى مدينة عظيمة فيها خلق كثير من السودان لا يحصى لهم عدد ، وهى على النيل ، ويقال إنما سموا كوكوا ، لأن الذى يفهم من نغمة طبولهم كوكوا ؛ وكذلك يذكر عن بلد زويلة إن الذى يفهم من نغمة طبولهم زويلة . ومن سار من مدينة كوكوا على شاطئ البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدَمْدَم[3] ، يأكلون من وقع إليهم من البيضان ، ولهم مملكة كبيرة وبلاد واسعة . وفى بلادهم قلعة عظيمة عليها صنم فى صورة امرأة وهم يعبدونه ويحجبونه . ومن غرائب بلاد السودان ، أنه ينبت عندهم فى الرمال شجرة طويلة الساق دقيقة ، يسمونها توربرى ، لها ثمر كبير منتفخ ، داخله صوف أبيض يغزل ، ويصنع منه الثياب والأكسية فلا تؤثر النار فيها . أخبر بذلك من أخبره الفقيه عبد الملك ، أن أهل اللامس (١) من بلاد السودان ليس لهم لباس غير هذه الثياب ، وأخبر أنه لو وقدت النار على هذه الثياب الدهر كله لم تؤثر فيها شيئا ، غير أن النار تغسل من أوساخها ؛ ومن هذا النوع الحجارة بوادى درعة ، وقد تقدم ذكرها .

---

(١) ب : الاندلس ، م : الأمس . أنظر البكرى ، ص ١٨٣

[1] قارن البكرى ، ص ١٨٣ ؛ الإدريسى ، ص ١٢

[2] البكرى ، ص ١٨٣ ؛ الإدريسى ، ص ١١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٢٩ ؛ الدمشقى ، ص ٢٤٠ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج٢ ٢٢١ — ٢٢٢

[3] البكرى ، ص ١٨٣ ؛ الإدريسى ، ص ٣٨ (لملم) ، ص ٤ ؛ الدمشقى ، ص ٢٤١ ؛ ابو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢٢٥

قال الناظر : هنا انتهى ماوجدته من هذا الموضوع ، ولقد أحسن واضعه ، ورتب ماحقق ، وهذا لعمرى أقرب وأخصر من غيره ، ففيه ما فى غيره ، وليس فى غيره مافيه . وحققت وطرزت كتاب الواضع بما قيدت فى هذه المواضع ، وأنا مؤمل أن أتفرغ لوضع كتاب كامل يحتوى على ذكر بلاد المغرب وممالكها (١) إلى هذه الأيام السعيدة الإمامية ، وأضيف إليها ما رفعته للحضرة العلية من مفاخر هذا الأمر العالى — أيد الله دوامه سنة ٨٠ [٥] [= ١١٨٤] وهو مازيد عندى من فتوحاته المستأصلة لشأفة الأعداء ، إلى حيث يبلغ بى الزمان . فهو عملى وسعيى ، ونصيبى من الجهاد ورأيى ، إذ هو من أعمال القلوب ، الماحية لما خط من الذنوب ، والله تعالى يجعله عملا مقبولا لديه ، فالاعتماد ، والتكلان عليه ، لا رب سواه .

صلى الله على نبيه محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) هنا ينتهى المخطوط «ب» .

# فهرس محتويات الكتاب

## ذكر المشهور من المدن



## ذكر البلاد الصحراوية



## ذكر بلاد الجريد من إفريقية ١٥٠

# فهرس أسماء الأشخاص والأماكن وغيرها *

( ا )



* وضعت الشرطة (–) بدلا من الفاصلة (،)

## (ت)

## (ث)



## (ج)

## (ح)

## ( خ )



## ( د )



## ( ذ )



## ( ر )

## ( ز )



## ( س )

## ( ش )



## ( ص )

## ( ض )



## ( ط )



## ( ع )

## (غ)



## (ف)

## (ق)

## (ن)

## (هـ)



## (و)

## ( ى )

# المراجع المذكورة فى الهوامش


ابن أبى دينار ( محمد بن أبى القاسم الرُّعينى القيروانى ) ، كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تونس ، ١٢٨٠ هـ .

ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، النص العربى وترجمته اللاتينية بمعرفة Tornberg طبع Upsala ، ١٨٤٣ م .
– ترجمة فرنسية بمعرفة Beaumier ، باريز ، ١٨٦٠

ابن الأثير ، الكامل ، نشر Tornberg ، ليدن ١٨٦٢ – ١٨٧٦ (١٤ ج) ؛ وطبعة القاهرة (١٢ ج) .

ابن بطوطة ، الرحلة (تحفة النظار) ، نشر وترجمة C. Defrémery et B. Sanguinetti باريز ، ١٩٢٦

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، نشر T.C.J. Juynbol ، ليدن ، ١٨٥١ ؛ وطبعة القاهرة .

ابن جبير ، الرحلة ، نشر De Gœje ( مجموعة Gibb ) ، ليدن ، ١٩٠٧

ابن حوقل ، المسالك والممالك ، نشر De Gœje ، ليدن ، ١٨٧٣

ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، نشر De Gœje ، ليدن ، ١٨٨٩

ابن خلدون ، العبر ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ (٧ ج) ،
– ترجمة الجزئين الأخيرين الخاصين بالمغرب الى الفرنسية بمعرفة De Slane تحت عنوان : Histoire des Berbères باريز ، ١٩٢٥

ابن دقماق ، كتاب الانتصار ، القاهرة ، ١٨٩٣ (ج ٤ ، ج ٥)

ابن رسته ، كتاب الأعلاق النفيسة ، نشر De Gœje ، ليدن ، ١٨٩١

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والأندلس ، نشر H. Massé ، القاهرة ، ١٩١٤

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، بولاق ، ١٣٢١/١٩٠٣ (٣ ج) .

ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، نشر Dozy ، ليدن ، ١٨٤٨ – ١٨٥١ (٢ ج) . والترجمة الفرنسية للجزئين بمعرفة E. Fagnan ، الجزائر ، ١٩٠١ – ١٩٠٤ (٢ ج)
– الجزء الخاص بتاريخ الموحدين نشر وترجم إلى الأسبانية بمعرفة H. Huici تحت عنوان El-Anonimo de Madrid y Copenhague ، بلنسية ، ١٩١٧ وهو يحمل العنوان العربى الخاطىء " تاريخ ابن بسام " .

ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، نشر De Gœje ، ليدن ، ١٨٨٥

ابن النجّار ، كتاب الدرة الثمينة ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ١٨٣٠ ( وصف مدينة الرسول )

ابن وصيف — شاه ، كتاب العجائب ، ترجمة فرنسية مختصرة بمعرفة Carra de Vaux ، تحت عنوان : L'Abrégé des Merveilles ، باريز ، ١٨٩٨
– وانظر مقال Seybold عن ابن وصيف – شاه فى مجلة Orientalische Literatur Zeitung عدد مايو سنة ١٩٠٨

أبو شامة ، كتاب الروضتين ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

أبو عبيد البكرى ، أنظر البكرى .

أبو الفدا ، تقويم البلدان ، نشر Reinaud et De Slane ، باريز ، ١٨٤٠
– وترجمة فرنسية بمعرفة Reinaud ، باريز : ١٨٤٨

الإدريسى ، كتاب نزهة المشتاق (الجزء الخاص بوصف المغرب والأندلس) ، النص العربى وترجمة فرنسية بمعرفة Dozy et De Gœje ، ليدن ، ١٨٦٤

الأزرقى ، أخبار مكة ، نشر Wüstenfeld ، ليبزج ، ١٨٥٨

الإصطخرى ، كتاب المسالك والممالك ، نشر De Gœje ، ليدن ، ١٨٧٠

البخارى ، الصحيح ، نشر Krehl ، ليبزج ، ١٨٨٢ ( ٢ ج ) .

البكرى ، المسالك والممالك ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريز (قطعة غير كاملة عن مصر والمغرب) القسم العربى ، رقم ٢٢١٨
– وفيما يتعلق بالجزء الخاص بالمغرب من هذا المخطوط أنظر دراسة Quatremère تحت عنوان : Notice d'un manuscrit arabe de la Bibliothèque du Roi, Paris, 1831
– ولقد نشر هذا الجزء الخاص بإفريقيا الشمالية وترجم مع العنوان الفرنسى : " Description de l'Afrique Septentrionale " بمعرفة De Slane ، النص طبعة الجزائر ، ١٨٥٧ ؛ والترجمة طبعة باريز ، ١٩٢٢
– والبكرى أيضا : معجم ما استعجم ، نشر Wüstenfeld طبع جوتنجن ، ١٩٢٢ ( ٢ ج ).

بروفنسال ( E. Lévi - Provençal ) ، مجموع رسائل موحدية ، النص العربى ، طبعة الرباط ، ١٩٤١ وعنوانها بالفرنسية : Trente sept lettres officielles almohades ؛ مع دراستها بالفرنسية تحت عنوان Un recueil de lettres officielles almohades ، باريز ، ١٩٤٢

بلاشير ( R. Blachère ) ، نخب من أهم الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى ، نصوص عربية مصحوبة بدراسة بالفرنسية تحت عنوان : Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge ، باريز ١٩٣٢

البلوى (خالد بن عيسى) ، الرحلة (تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق) ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢٨٦

البيدق ، كتاب أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، نشر وترجمة بروفنسال تحت عنوان : Documents inédits d'histoire almohade ، باريز ، ١٩٢٨

تاريخ السودان ، (أصول عربية خاصة بتاريخ السودان مع العنوان الفرنسى : Documents arabes relatifs à l'histoire du Soudan) نشر O. Houdas طبع باريز ، ١٨٩٨ .

التجانى ، رحلة الشيخ أبى محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم التجانى ، تونس ، ١٣٤٥ / ١٩٢٧ ؛ والترجمة الفرنسية لهذه الرحلة بمعرفة (.Tousseau (A تحت عنوان : ... Voyage du Cheikh at-Tijani ، باريز ، ١٨٥٣ (مستخرج من المجلة الآسيوية "J. A." سنة ١٨٥٢) .

دائرة المعارف الإسلامية .

روض القرطاس ، أنظر ابن أبى زرع .

السيوطى ، تنوير الحوالك ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .

السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

الشقندى ، ترجمة أسبانية لرسالة الشقندى فى فضائل الأندلس ، بمعرفة Gomez (Emilio Garcia) تحت عنوان : Elogio del Islam espagnol ، مدريد - غرناطة ، ١٩٣٤

الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، نشر De Goeje ، الجزءان الأولان ، ليدن ، ١٨٧٩ ، ١٨٨١

العبدرى ، الرحلة ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢٨٣

عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، نص عربى مصحوب بترجمة لاتينية بمعرفة J. White بعنوان : Historiæ Ægypti, ، لندن ، ١٨٠٠

- ترجمة فرنسية بمعرفة De Sacy ، بعنوان : Relation de l'Egypte ، باريز ، ١٨١٠

عماد الدين الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، نشر C. De Lamberg ، ليدن ، ١٨٦٤ (مع العنوان الفرنسى : Conquête de la Syrie et de la Palestine par Salah ad-Din) .

العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ترجمة فرنسية جزئية خاصة بالمغرب بمعرفة G.-Demombynes ، باريز ، ١٩٢٧

الفاسى ، أخبار مكة ، نشر Wüstenfeld تحت عنوان : Die Chroniken der Stadt Mekka ، ليبزج ، ١٨٥٩

القرآن (مع ترجمة Savary ، باريز ، ١٩٤٦ ، وترجمة Montet) .

القزوينى ، كتاب عجائب المخلوقات ، نشر Wüstenfeld ، جوتنجن ، ١٨٤٩

كتاب الاستبصار ، نشرة جزئية ناقصة خاصة بالمغرب بمعرفة كرمر (von Kremer)
مع العنوان الفرنسي : Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VIe s. de l'Hégire ، فينا ، ١٨٥٢
– ترجمة فرنسية كاملة لهذا الجزء بمعرفة E. Fagnan تحت عنوان : L'Afrique Septentrionale au XIIe siècle de notre ère ، قسنطينة ، ١٩٠٠ ( Extrait du recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine. Vol. XXXIII ; année 1899)
– مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربي رقم ، ٢٢٢٥
– مخطوطى المكتبة الوطنية بالجزائر ، القسم العربي رقم ، ١٥٦٠ ؛ ورقم ٣٢١٦
كتاب الجغرافيا ، لكاتب مجهول الاسم من كتاب القرن السادس الهجرى ( ١٢ م ) ، مخطوط المتحف البريطاني ، رقم add. 25,743 ( يذكر بروكلمان هذا المخطوط على أنه نسخة من كتاب الاستبصار ) .
الكندى ، كتاب الولاة والقضاة ، نشر R. Guest ، ليدن ، ١٩١٢
مراصد الاطلاع ، أنظر ياقوت .
مجموع رسائل موحدية ، أنظر بروفنسال .
المسعودى ، مروج الذهب ، نشر وترجمة C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille ، بريز ١٨٦١
– كتاب التنبيه والاشراف ، نشر De Gœje ، ليدن ، ١٨٩٤
المقدسى ، أحسن التقاسيم ، نشر De Gœje ، ليدن ١٨٧٧
المقريزى ، الخطط ، طبعة القاهرة ( ٢ ج ) .
النجوم الزاهرة ، أنظر ابن تغرى بردى .
ياقوت ، معجم البلدان ، نشر Wüstenfeld ، ليبزج ، ١٨٦٦ ( ٦ ج )
– واختصاره المعروف بـ : مراصد الإطلاع ، نشر T. G. J. Juynbol ، ليدن ، ١٨٥٢
اليعقوبى ، كتاب البلدان ( مع كتاب ابن رسته ) : نشر De Gœje ، ليدن ، ١٨٩١
– والترجمة الفرنسية تحت عنوان : Les Pays بمعرفة Wiet (G.) ، القاهرة ، ١٩٣٧

## المراجع الافرنجية والعربية المترجمة

الأندلس ( مجلة معاهد الدراسات العربية بمدريد وغرناطة ) ... ... ... Al-Andalus
Basset (H.) et Terrasse (H.), Sanctuaires et forteresses almohades, 1923
Beaumier ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن أبي زرع
Bel, Les Banû Gâniya, Paris, 1903
Blachère (R.) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر بلاشير
Brackelmann (C.) Geschichte der arabischen Literatur ( G. A. L. )

Carra de Vaux ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن وصيف – شاه

De Courteille ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر المسعودى ( مروج الذهب )

G. - Demonbynes, Le Pèlerinage à la Mekke, Paris 1923

— Notes sur la Mekke et Médine, Paris, 1918

— Une lettre de Saladin au calife almohade, Mélanges René Basset, Paris, 1925

– وانظر العمرى .

Defremery ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن بطوطة

Despois (J.), La Tunisie orientale, Sahel et Basse-Steppe, étude géographique, Paris, 1940

Dozy ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن عذارى ، والإدريسى

Encyclopédie de l'Islam ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر دائرة المعارف الإسلامية

Fagnan (E.) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن عذارى ، وكتب الاستبصار

Gomez (E. Garcia) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر القلقشندى

Houdas (O.) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر تاريخ السودان

Huici (H.) ( El - Anonimo ) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن عذارى

Journal Asiatique

Marçais (G.), Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle, Paris, 1913

— La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge, Paris, 1946

— Note sur les ribâts en Berbérie, Mélanges R. Basset, t.II, Paris, 1925

Maspéro (J.) et Wiet (G.), Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte, Mémoires de l'Institut français du Caire, t.36, 1919

Massignon (L.), La Passion d'al - Hallaj, Paris, 1916

Meynard ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر المسعودى

Montet ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر القرآن ( ترجمة )

Orientalistische Literatur Zeitung ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر وصيف – شاه

Palacios ( M. Asin ), Una descripcion nueva del Faro d'Alejandria ( Al-Andalus, 1933 — Fasc. 5 )

Provençal ( E. Lévi- ) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر پروفنسال ، والبيدق

Quatremère, Mémoire géographique et historique sur l'Egypte, Paris, 1811

– وانظر البكرى .

Reinaud ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر أبو الفدا

De Sacy .. ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر عبد اللطيف البغدادى

Savary ... . ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر القرآن ( ترجمة )

De Slane ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر البكرى ، وابن خلدون

Sanguinetti ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن بطوطة

Sauvaget (J.), La Mosquée omeyyade de Médine, Paris, 1947

Terrasse (H.) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... Basset (H.) انظر

Tornberg ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر ابن أبي زرع

White ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... انظر عبد اللطيف البغدادي

Wiet (G.) ... ... ... ... ... ... ... انظر اليعقوبي ، وماسپرو (Maspéro)

Zaky Hassan, Les Tulunides, Paris, 1933

28 du mois de rajab de l'année 583 H. [2 oct. 1187], annonçant la conquête de la ville sacrée de Jérusalem, grâce à la volonté de Dieu et le déploiement des étendards nāṣirites aux endroits les plus sacrés de la ville. On fit la grâce à ceux qui s'y trouvaient de pouvoir se racheter : l'homme moyennant 10 dinars, la femme 5 et l'enfant 2. C'est un bienfait dont on ne peut estimer ni les limites ni l'importance (quelle très heureuse chose). Le nombre des prisonniers musulmans, libérés s'élevait à 4.000. Cet événement réjouit vraiment toutes les âmes.

Tout ceci fut la conséquence de la soumission volontaire de cet homme [Saladin] à l'Imām (puisse Dieu prolonger ses jours) car il avait envoyé ses messagers, annonçant ce qu'il y avait trouvé comme richessse. Les messagers [de Saladin] sont actuellement à Fez (Dieu la garde) pour recevoir les ordres respectables — nous sommes maintenant au mois de rajab de l'an 587 [juillet-août 1191]. La rencontre de ce messager qui est 'Abd ar-Raḥmān Ibn Mohammed Ibn Munqiḏ al-Azdī avec le calife l'imām Abū Yūsof (puisse Dieu être content de lui) avait eu lieu le 6 muḥarram de l'année 588 [23 janvier 1192]; il quitta la résidence califienne 5 jours après et depuis on n'a pas eu de ses nouvelles.

seigneur d'al-Karak et d'aš-Šawbak : cet homme maudit avait déjà fait la paix avec Saladin mais il le trahit et lorsqu'il se présenta devant lui dans la masse des prisonniers, Saladin ne put s'abstenir de le tuer d'un coup de poignard qu'il tenait. Puis Yūsof mena la lutte contre la citadelle de Ṭabariya dont les habitants acceptèrent de faire la paix ; il s'empara alors de la ville et de sa citadelle et il envoya les prisonniers à Damas.

Il se mit ensuite en route pour St.-Jean d'Acre qui se rendit sans combat, et signa un traité aux termes duquel il laissait sortir la garnison, sans armes ni bagages. Entre temps, Saïf ad-Dīn, frère de Yūsof sus mentionné, avait investi Jaffa qu'il occupa aux termes

p. 106

d'un traité mais découvrit que ses habitants avaient tué les prisonniers musulmans ; il les passa tous par les armes. Puis il se dirigea vers 'Asqalān où son frère Yūsof le rejoignit après avoir laissé Ṣur (Tyr) assiégée par ses troupes ; il s'empara de 'Asqalān à la fin du mois de jumāda II [5 sept.].

*Voici le nombre et les noms des villes que Dieu Très-Haut avait conquis :*

Ad-Dārūm, Gaza, 'Asqalān, Arsūf, Jaffa, Ḥaïfa, Qaïsariya, St.-Jean d'Acre, Alexandrette, Saïda, Bayrūt, Jabala dont le gouverneur et quelques personnes parmi les siens embrassèrent l'Islam après la conquête, Tebnin, Jabal aṭ-Ṭūr, al-Fula, Nāṣira (Nazareth), la ville du Christ (salut à lui), Ṭabariya, Filasṭīn, Nābulus, Yubna Ṣaffūriya et ar-Ramla.

Puis Yūsof Ibn Ayyūb se dirigea de 'Asqalān vers Jérusalem dont il s'empara au milieu du mois de rajab, en l'an 583 [sept.-oct. 1187] après être resté 95 ans environ sous la domination des Chrétiens. Ils s'en étaient emparé au mois de ša'bān en l'an 488 de l'Hégire [août-sept. 1095] (sic). Voici les textes des messages que porta l'oiseau du Caire à Alexandrie, pour annoncer la victoire :

Au nom de Dieu clément et miséricordieux. Puisse Dieu prier pour notre Seigneur Mohammed et sa famille.

On laissa l'oiseau s'envoler avec son compagnon, dès la première heure de la journée du mercredi, lorsqu'on reçut l'heureuse nouvelle, par une respectable lettre sultanienne datée du vendredi

et toi tu fais la paix avec les Chrétiens; que diraient de toi les habitants d'Irak et des autres pays". C'est alors que Saladin dit à son neveu : "te rappelles-tu ce qu'avaient fait nos compagnons 5 le jour de la bataille d'ar-Ramla". Saladin était sorti avec ses compagnons à la rencontre des Chrétiens mais ils s'enfuirent en le laissant seul et il faillit être tué ou fait prisonnier. On lui enleva tous ses bagages et ses munitions. Ceci se passait en l'an 572 de l'Hégire [1176—7]. Lorsqu'ils entendirent ces faits, ils se dirent : "il a raison nous nous repentissons et lui prêtons le serment de fidélité".

Alors Taqy ad-Dīn accompagné des émirs, des Šaïhs, des soldats, se présenta devant Saladin; tous lui jurèrent sur les livres saints qu'aucun d'eux ne boirait jamais une coupe de vin, ni ne commettrait aucun péché. Les prestations de serment une fois faite, Yūsof se réjouit et convoqua les messagers (chrétiens) pour négocier avec Taqy ad-Dīn, 'Ali Ibn Yūsof Ibn Ayyūb et quelques généraux; ceux-ci posèrent de nombreuses conditions de paix: entre autres, ils demandèrent l'exemption (des Musulmans) de toutes les taxes, et exigèrent la restitution de quelques villes (aux Musulmans). Les messagers se mirent alors en colère. Après de longues négociations les Musulmans dirent : "le glaive jugera entre vous et nous"; les ambassadeurs ne prirent pas ces paroles au sérieux et s'en allèrent. Alors les Musulmans plaçant leur destin entre les mains de Dieu se raidirent; ils sortirent avec des volontés sincères et des résolutions très fermes; ils s'emparèrent tout de suite de Ṭabariya, mais la citadelle qui était bien défendue résista. Les Chrétiens (puisse Dieu les détruire) vinrent en masse, avec l'espoir d'en finir avec les Musulmans, mais ceux-ci leur coupèrent l'eau. Malgré ceci, les Chrétiens décidèrent de mener la lutte jusqu'au bout. La bataille eut lieu le premier du mois de jumādā I [juillet-août], selon les uns, le vendredi 25 du mois de rabī' II [5 juillet], selon d'autres, ce fut une bataille grandiose. Les Chrétiens (que Dieu les détruise) lancèrent contre les Musulmans 11 attaques, mais les Musulmans avec la grâce de Dieu, ne furent pas ébranlés dans leurs positions. Ensuite il leur a suffit d'une seule attaque pour qu'aucun Chrétien ne résistât et tous ainsi furent prisonniers ou tués. On compta 22 mille entre les morts et les captifs. Les rois des Chrétiens et leurs chefs furent fait prisonniers ainsi que le

Al-Wasifi dit: "lorsque nous abordâmes quelques questions relatives à ce sujet, un Copte dit qu'on avait trouvé dans une église, une corbeille placée dans une ouverture; on l'ouvrit et on y trouva un des instruments dont ils se servaient pour tailler la pierre: on l'admira mais on n'en comprit pas le secret. C'est pourquoi on le mit au feu. Il sautait du feu jusqu'au plafond; par la suite ils regrettèrent de l'avoir détruit.

p. 104 Le reviseur ajoute: Voici la ville d'Alexandrie que l'ennemi de Sicile regarde toujours avec tant de convoitise; il fit courir à ses navires tant de périls près d'elle, tel la tentative manquée la nuit de 10 muharram de l'an 570 de l'Hégire [11 août 1174] lorsqu'il débarqua avec de nombreux navires sur la côte dans le but d'investir la ville; mais lorsqu'il décida de mener la lutte, il fut obligé de battre en retraite, en laissant quelques uns des siens sur le champ de bataille, grâce à Allah, Dieu universel.

Dieu Très-Haut facilita la victoire aux Musulmans d'Egypte grâce à la bénédiction de notre auguste souverain, lorsque le prince du pays, Yūsof Ibn Ayyūb le kurde surnommé Saladin, exprima sa soumission à l'auguste calife, l'imam Abū Yūsof Ya'qūb fils des deux imāms califes (puisse Dieu être content d'eux). Il battit les chrétiens de Syrie, les extermina, et conquit Jérusalem —Dieu l'honore— de même que tous les pays qui étaient entre les mains des ennemis de Dieu. La teneur de la lettre (destinée au Maghreb) annonçant la victoire était un résumé d'une missive arrivée d'Alexandrie en date du 10 ša'bān, mois sacré, de l'an 583 de l'Hégire [15 octobre 1107]. Elle décrivait ce que Dieu Très-Haut avait sanctifié et facilité, par un effet de sa puissance au cours des expéditions victorieuses contre les Chrétiens (que Dieu les anéantissent).

Les événements s'étaient ainsi déroulés: des messagers du roi des Chrétiens étaient arrivés à Damas pour négocier la paix avec Yūsof Ibn Ayyūb; celui-ci voulut leur proposer comme condition de paix de leur payer 100 milles ardabs de blé ainsi que d'autres choses; mais son neveu, surnommé Taqy ad-Din s'était rallié au prince des Turcmāns par un lien matrimonial; il avait amené avec lui beaucoup de soldats turcs. Lorsqu'il vit que son oncle voulait faire la paix il se fâcha; alors son oncle lui demanda son avis et il lui répondit: "les gens viennent faire la guerre sainte,

les bêtes de somme le traversaient en se rendant de la côte du Maghreb en direction de la côte de l'Andalousie. Il était d'une longeur de 12 milles, très large et très haut. Il est probable qu'il apparaisse de nos jours aux marins qui le reconnaissent.

On lui demanda des renseignements sur les royaumes d'Abyssinie, les Éthiopiens, installés sur les rives du Nil; il répondit: "j'en ai compté 60 rois; chaque roi a été détrôné par son successeur. A cause de la grosse chaleur qui y règne, on y trouve les mines d'or en abondance, car la chaleur du soleil et la sécheresse transforment l'argent en or; lorsqu'on échauffe au rouge un mélange de cet or avec du sel de sulfate de fer et de la brique, on peut extraire ce qu'il reste d'argent".

On lui demanda des renseignements sur les sources du Nil, il dit: "il sort d'un lac dont on ne connait ni la longueur ni la largeur; il est situé au delà de l'équateur, sous le pont de la sphère nommé sphère fixe, c'est la contrée où le jour et la nuit sont égaux toute l'année".

On lui posa des questions sur les pyramides. Il dit: "ce sont les tombeaux des rois; lorsqu'un roi mourait, on le mettait dans un bassin de marbre qu'on recouvrait: on lui construisait une pyramide dont l'importance était fonction de la considération de son héritier; puis on plaçait le bassin au milieu de la pyramide; on ménageait la porte de la pyramide sous le bassin en creusant un passage souterrain sur des voûtes allongées". On lui demanda comment il pouvait expliquer la construction de ces pyramides lisses? Comment montait-on au sommet pour les construire? Il dit qu'on bâtissait la pyramide avec des gradins, et ainsi montait-on au sommet pour la construire, et lorsqu'on avait achevé le travail on les taillait. On lui demanda comment les constructeurs avaient pu préparer ces pierres dont 100 hommes parmi nous ne pourraient déplacer une seule? Il répondit que les Anciens disposaient d'instruments qu'ils fabriquaient avec des combinaisons spéciales de métaux et divers produits chimiques. Ils frappaient à l'aide de ces instruments les grosses pierres. Elles se divisent selon la grosseur voulue. Elles deviennent taillables; de plus ils étaient d'une patience et d'une fermeté au travail non connues chez leurs successeurs.

âgé de 130 ans, qui s'adonnait depuis sa jeunesse à la science, à la libre pensée et suivait l'enseignement des philosophes et autres savants, qu'il était versé dans l'histoire des royaumes et des rois, la science qui traite des astres et des étoiles et qu'il était chrétien suivant le rite des jacobites.

Alors Ibn Tūlūn envoya l'un de ses généraux qui le lui amena avec toutes les marques de respect, dans un navire sur le Nil. Le vieillard s'était retiré dans une habitation dont il occupait la partie supérieure; il vivait seul : il avait vu le 11ème de ses fils. Lorsqu'il arriva en présence d'Ahmed Ibn Tūlūn, celui-ci le combla d'honneur et de bienveillance, l'installa dans l'une de ses loges, lui donna tout confort, lui apporta les plus délicieux des mets et des boissons mais le vieillard les refusa et ne mangea, ne s'habilla, que ce qu'il avait apporté de gateaux secs, de pain, etc. et il dit : "je me suis habitué à manger et m'habiller ainsi, si vous voulez me forcer à changer de coutûmes vous risqueriez de manquer ce que vous attendez de moi par suite du dénouement de mes forces". Ibn Tūlūn lui laissa faire ce qu'il voulait. Puis il le convoqua avec des gens lettrés de sa suite et avec ses amis personnels en lui accordant toute son attention. Lorsqu'il lui demanda l'histoire de Tennis et de Damiette, il répondit que la contrée du lac était un terrain qui n'avait pas de pareil en Egypte par la prodigalité de sa terre et la pureté du printemps. Composée de jardins juxtaposés, on dit qu'il n'y avait pas en Egypte d'autre cite qu'elle, qui ressemble à al-Fayyūm. Elle était plus riche en fruits; l'eau coulait à travers des villages qui étaient situés sur l'emplacement actuel du lac aussi bien en été qu'en hiver. Les habitants en irriguaient les champs à volonté: le surplus se déversait dans le lac.

Entre la ville d'al-'Arīš et l'île de Chypre il y avait une route, qu'on parcourait, de terre ferme. Ces contrées sont séparées aujourd'hui par une longue distance dans la mer, car 100 ans avant la conquête de l'Egypte (par les Musulmans) la mer submergea les villages qui se trouvaient sur l'emplacement du lac: mais ceux qui étaient situés sur les hauteurs existent encore entourés d'eau. Lorsque cette extension de la mer eut lieu l'eau enveloppa le pont qui reliait les pays andalous à la côte de Tanger, située au Maghreb. C'était un pont magnifiquement construit avec des pierres, qui n'avait pas d'équivalent ailleurs sur toute la terre; les chameaux et

103

nulle part aussi longue qu'à Maryūt et Wādi Fargāna. Maryūt est un important village du ressort d'Alexandrie, proche de la ville qui approvisionne celle-ci en fruits.

On dit que lorsque 'Awf Ibn Mālik entra dans la ville d'Alexandrie il dit à ses habitants : "comme votre ville est belle!". Ils lui rapportèrent les paroles d'Alexandre lorsqu'il la construisit : "je construis une ville qui a besoin de l'aide de Dieu, et non de celle des hommes", c'est pourquoi sa beauté a persisté au cours des siècles. Au contraire, lorsque al-Farmā, frère d'Alexandre bâtit la ville d'al-Faramā, il dit : "je construis une ville qui peut se passer de l'aide de Dieu mais non de celle des hommes", et c'est pourquoi elle perdit sa grâce, et chaque jour une de ses parties tombe en ruine sans être jamais relevée".

On dit que lorsque 'Umar Ibn 'Abd al-Azīz entra à Alexandrie, alors qu'il était gouverneur général d'Egypte, frappé par la grandeur de la ville et les énormes proportions des ses monuments, comprenant que c'était une grande ville, demanda au gouverneur, qui l'habitait : "dis-moi, à combien s'élevait le nombre des habitants d'Alexandrie sous le royaume des Rūm"; il lui repondit: "par Dieu personne ne connait la vérité si ce n'est Dieu, mais je peux vous dire le nombre de leurs chefs et de leurs rois, car le roi des Rūm donna ordre de les compter et le fit inscrire dans leurs histoires et leurs livres; il en trouva 600.000. La preuve de sa grandeur et du nombre élevé de ses rois, c'est que lorsque la pluie y tombe en grande quantité, la poussière coule avec l'eau, hommes, femmes, garçons, pauvres parcourent les rues de la ville à la recherche des pièces d'or, d'argent, de bijoux et bien d'autre objets précieux tels que hyacinthe, émeraude et différentes sortes de joyaux ; personne
2 ne rentre chez soi bredouille. Alexandrie est la plus grande ville d'Egypte.

Tous les pays d'Egypte renferme des merveilles et des choses curieuses qu'il serait impossible de décrire.

On dit qu'Ahmed Ibn Ṭūlūn, gouverneur général d'Egypte après l'an 200 de l'Hégire, s'intéressait à ces histoires anciennes et aux merveilles. On lui dit qu'il y avait un vieillard parmi les Coptes dans le pays de Ṣa'id, pays appartenant à la Haute Egypte,

vieillard qui était parmi eux lui dit: "je vous en bâtirais un comme celui-ci et meilleur, si vous pouviez m'assurer ce que je voudrais". Le roi répondit : "oui". Le vieillard demanda alors deux taureaux forts, attelés à un char; le roi ordonna de les lui préparer: le vieillard entra alors dans le cimetière des Anciens, creusa un des tombeaux, en extraya un énorme crâne et le mit dans le char. Mais les deux taureaux ne purent le tirer qu'avec peine. Le viellard se présenta alors au roi et lui dit : "O prince, Dieu vous bénisse, si vous m'aviez donné des hommes dont le crânes ressemblent à celui-ci, j'aurais construit un palais pareil". Le roi comprit qu'il ne pourrait accomplir cette tâche. Hamza Ibn Mohammed dit encore : "je vis à Alexandrie un boucher qui avait une dent molaire, avec laquelle il pesait la viande et dont le poids était de 8 ratls.

*p. 100*

A Alexandrie il y avait un forum (malʿab), aujourd'hui en grande partie détruit, d'une construction parfaite où toute la population se rendait pour traiter ses affaires; chaque participant s'installait en face d'un autre participant, rien n'était caché à personne, proches ou éloignés étaient égaux en cette matière. Il y avait un jour de fête où ils se rassemblaient dans ce forum; leurs chefs, les fils de leurs rois et le commun peuple assistaient à cette cérémonie. Les jeunes hommes jouaient avec des bâtons et une balle: si la balle entrait dans la chemise de l'un des assistants, celui-ci devait monter sur sur le trône d'Egypte. C'était leur fête qui est bien connue, et personne ne le nie. ʿAmr Ibn al-ʿAṣ avait visité Alexandrie avant l'Islam en qualité de marchand de coton et de matières grasses; il assista un jour à la cérémonie dans ce forum, et lorsqu'ils jouèrent avec la balle, celle-ci entra dans la fente de sa chemise; c'est alors que l'Islam apparut et qu'il se passa ce que Dieu Très-Haut avait prédit à propos de l'entrée de ʿAmr en Egypte et de son installation comme gouverneur à trois reprises.

On admire à Alexandrie l'élégance de la ville, son site, la hauteur et la perfection de ses édifices, la largeur de ses rues et ses routes. Elle a un climat maritime et continental à la fois. Elle est privilégiée en vivres et en fruits plus qu'aucune autre ville, sans parler de son air, et de ses terres. Quelques interprètes du Coran disaient qu'Iram Ḏat al-ʿImad n'était pas autre qu'Alexandrie.

*p. 101*

Ceux qui sont versés dans la science de l'histoire de toutes les régions et de tous les pays disent que la durée de la vie n'est

des Indes perdent leurs odeurs aromatiques par suite de l'absence de cette bonne terre et de cet air bon. On dit qu'il y avait beaucoup de ces joyaux autour du phare: Alexandre les avait noyés autour du phare où on en extrayait, pour les garder. C'est une preuve, au cours des siècles, de la grandeur de son règne, qu'il ait pu posséder tout ce qui est rare et difficile à obtenir.

Suivant une autre anecdote, ces joyaux furent des coupes dans lesquelles buvait Alexandre, et lorsqu'il décéda sa mère les brisa et les jeta dans cet endroit pour que personne n'en profitât après lui.

Le grand palais qui était à Alexandrie et qui n'avait pas son pendant sur terre, est en ruines aujourd'hui; il est situé sur une butte énorme, en face de la porte de la ville. D'une longueur de 500 coudées, d'une largeur de 250 coudées, il ne reste que quelques ruines de ses enceintes. Sa porte est d'une construction parfaite; taillée dans une seule pierre, ainsi que son linteau: il contient environ 100 colonnes élevées, de 10 empans d'épaisseur. Au nord du palais se trouve une colonne dont on n'a jamais entendu dire qu'il en fût de pareille, de 36 empans d'épaisseur, elle est si haute qu'aucune pierre lancée ne peut atteindre son sommet; elle se termine par un chapiteau parfaitement construit qui prouve qu'elle était surmontée d'une autre construction; elle se dresse sur une base de pierre rouge, d'une forme carrée solidement construite, dont la longueur de chaque côté est de 20 empans et la hauteur 8. Elle est axée sur une barre de fer fichée en terre. Lorsque le vent souffle on la voit se mouvoir; il arrive que l'on mette des pierres dessous pour qu'elle les moule, car son mouvement est très fort. Cette colonne est l'une des merveilles du monde. On dit que c'était les génies qui l'avaient faite pour Salomon fils de David (salut à lui); elle se dressait au milieu d'un dôme, entourée de colonnes qui épaulaient une coupole ressemblant à une dalle taillée dans une seule pierre blanche, d'un travail parfait et d'une perfection surprenante. Hamza Ibn Mohammed al-Misri dit que, lorsque Salomon mourut, un certain roi d'Egypte entra à Alexandrie et vit son palais. Il admira ce palais, œuvre des Anciens, qui était curieux et d'une construction merveilleuse. Il convoqua les artisans et leur demanda de lui construire un palais semblable, mais ils lui dirent : "nous ne pouvons pas le faire"; comme il insistait, un

et dont la mer bat les flancs. Lorsque tu auras traversé cette construction, tu franchiras un espace dans la mer qui ressemble à une île; le phare s'élève sur la plus haute butte et la mer l'entoure de 3 côtés: nord, ouest et sud. Tu regarderas alors le phare et il t'apparaîtras comme un nuage s'élevant vers le ciel. Tu croiras le voir trembler à travers les reflets des rayons du soleil qui le frappent.

p. 98

On consacre au phare un jour de fête annuel, à Alexandrie; ce jour est connu sous le nom de "jeudi de la lentille". C'est le premier jeudi du mois de mai. A Alexandrie personne ne manque ce jour là d'aller visiter le phare. Les Alexandrins préparent toutes sortes de mets et de boissons, pour fêter ce jour; nécessairement des lentilles. On ouvre le phare pour les gens qu'y entrent; les uns louent Dieu Très-Haut et font la prière; les autres se promènent et se distraient, y restent jusqu'à midi puis s'en vont.

A partir de ce jour, on commence la surveillance de la mer. Dans le phare, on paye des gardes pour allumer du feu sur la plate-forme du premier étage. Les marins de tous les pays se dirigent avec leurs navires vers le feu: le capitaine du navire allume du feu sur son bateau et lorsque les gardes du phare voient le feu sur la mer, ils intensifient le feu en direction de la ville puis quand les gardiens de la ville l'aperçoivent, il donne le signal d'alarme: ils sifflents dans des cornes, sonnent les cloches en signe d'alerte.

Autour du phare il y avait des mares d'où l'on extrayait différentes sortes de pierres précieuses dont on fait les chatons des bagues, telles que les pierres nommées asbadasih, carcahan, baqilmūn et bien d'autres pierres merveilleuses qui n'existent plus de nos jours et qui avaient des caractèristiques spéciales. Le baqilmūn par exemple est une pierre qui change de couleur lorsqu'on la regarde, comme les plumes des paons indiens. Ses couleurs sont plus belles que celles des paons de ces pays bien que les paons indiens soient très beaux et d'une création merveilleuse. Ses couleurs se mêlent les unes aux autres, se multiplient et on a alors une vision extraordinaire. Les paons sont originaires des Indes; ceux qui partent à l'étranger perdent leur taille, l'éclat de leurs couleurs, de même que les oranges et les cédrats transportés

pas juger s'il monte où s'il marche. A chaque tournant de cette pente il y a une porte donnant sur des chambres carrées dont la dimension est de 20 à 10 coudées. Chaque chambre est percée d'ouvertures et de fenêtres pour laisser passer le vent de peur que celui-ci ne renverse la tour. Le phare contient 364 chambres et corridors auxquels on accède de bas en haut, le nombre des pentes est de 72, et dans chacune il y a 12 degrés. Les chambres comme d'ailleurs le phare tout entier, sont élevés sur des voûtes soutenues par arcs en bois de teck; le nombre des portes visibles de l'extérieur est de 22; elles sont ménagées pour faire passer le vent, sans quoi il aurait détruit le phare. Celui qui entre dans ce phare, sans connaître son chemin, se perd et s'égare car le phare contient des chemins qui donnent accès à sa partie basse, à l'écrevisse de verre sus mentionnée et jusqu' à la mer. On dit que lorsque l'armée du souverain du Maghreb (fatimite) arriva à Alexandrie, sous le califat d'al-Muqtadir, quelques cavaliers entrèrent dans le phare sur leurs chevaux afin de voir les merveilles qu'il renfermait, mais ils errèrent et finirent par s'égarer eux et leurs bêtes et une bonne partie d'entre eux périrent.

La mer avait attaqué la partie basse du phare du côté ouest et creusé une sorte d'énorme cave; un certain prince 'Ubaïdite, à ce qu'il semble, combla ce trou, avec des colonnes de marbre placées les unes sur les autres et aujourd'hui l'eau de la mer s'abbat sur ces colonnes sans les éroder.

Du côté nord du phare se trouve un grand bâtiment qui s'élève depuis le fond de la mer jusqu'au dessus de la surface de l'eau; témoin des bassins disparus qu'il portait; ce bâtiment s'appelle al-Fārūs; les navires mouillent à ses flancs car il les ménage du vent et des vagues. Certains prétendent que cet édifice visible n'est pas une chambre, mais les ruines de la partie du phare détruite, dont nous avons parlé plus haut.

Quelques connaisseurs disent: si tu veux contempler la hauteur du phare et son élévation vers le ciel, sors d'Alexandrie par la porte d''Ušṭūm et suis le rivage de la mer sur une distance d'un demi mille environ, puis tourne à gauche et continue ta marche sur une distance égale; puis tu feras 400 pas sur un bâtiment situé dans la mer ressemblant à un pont avec des ouvertures

truit des voûtes allongées, des souterrains secrets où il avait accumulé ses richesses, argent et joyaux sur lesquels il avait bâti le phare d'Alexandrie. Si l'on détruisait ce phare on pourrait donc retirer ce qui se trouvait au-dessous : argent, richesses, trésors, dont aucun œil n'avait jamais vu de pareils . Al-Walid le crut et comme il en désirait avidement la possession, il envoya avec lui quelques hommes en qui il avait confiance pour assister à la destruction du phare. Il ordonna au gouverneur d'Alexandrie de lui porter aide pour tout ce dont il aurait besoin. Ce Grec détruisit ainsi à peu près la moitié du phare; il enleva ce miroir qui était sa raison d'être, et
p. 96 voulut détruire le tout; mais les habitants d'Alexandrie s'agitèrent lorsqu'ils apprirent que c'était un stratagème et une ruse. Lorsque cela se répandit, ce Grec qui prit peur pour sa personne, s'enfuit pendant la nuit sur un bateau qu'il avait déja préparé dans cette intention. Le phare conserva ces dimensions jusqu'à nos jours.

*Description du Phare :*

Il se compose aujourd'hui de 3 étages. Le corps inférieur a une forme carrée, parfaite, avec des pierres carrées dont le joint est invisible à tel point qu'il paraît fait d'un seul bloc demeuré intact au cours des temps. Sa hauteur est de 320 coudées; on laissa un espace vide d'une mesure égale à l'épaisseur du mur, qui est de 10 coudées et 8 pouces. Et l'on dressa sur cet étage un autre bâtiment d'une forme octogonale, d'une hauteur de 80 coudées. L'épaisseur de ses murs est inférieure à celle de la partie basse du premier étage. Elle est de 8 coudées environs.

Puis après avoir encore laissé un espace vide égal à l'épaisseur du mur on dressa sur ce bâtiment un troisième édifice d'une forme carrée, haute de 50 coudées environ; au sommet de ce dernier se trouve une mosquée solidement construite. On dit que ce fut la mosquée de Salomon. Dans la partie occidentale du bâtiment il y a une inscription sur cuivre que personne ne peut déchiffrer et dont personne ne peut savoir la signification. La porte du phare est en fer; on n'en connaît pas la date. On monte par la porte située au bas du phare par une pente dont on ne sentit pas la déclivité; de même on monte jusqu'au sommet du premier étage par un chemin, où deux cavaliers peuvent marcher côte à
97 côte. C'est un chemin plat à ce point que celui qui monte ne peut

truisit les pyramides de Misr. On raconte aussi que le bâtisseur de la ville la plus grande, Rome, fut aussi celui d'Alexandrie et de son phare et qu'on attribua Alexandrie à Alexandre parce qu'il s'y installa et conquit tous les pays du monde pendant qu'elle était sa capitale.

On dit qu'Alexandre ne craignait pas l'attaque d'un ennemi venant de la mer, ni l'invasion d'un roi quelconque pour prendre des mesures de précautions ou établir des postes de gardiens. ʻAbd Allah Ibn ʻAmr Ibn al-ʻAṣ dit que le premier roi d'Alexandrie fut Pharaon; il y construisit des installations hydrauliques, des loges; il fut le premier à la rendre prospère puis les rois lui succédèrent au trône. Salomon fils de David (salut à lui) la choisit comme résidence royale; il y construisit des palais, des réservoires d'eau fort curieux, faits par les génies à son usage; il bâtit dans le phare une mosquée bien construite qui existe encore de nos jours.

La vérité, c'est qu'Alexandre la construisit entièrement, traça ses fondations, y fit élever le phare, au sommet duquel il plaça le miroir. On dit qu'aucun ennemi n'a jamais paru à Alexandrie, qu'il ne l'a atteint avec ses épées qu'après la disparition de ce miroir, sous le califat d'al-Walīd Ibn ʻAbd al-Malik Ibn Marwān, dans les circonstances suivantes : le roi des Grecs (rūm) employa la ruse pour faire disparaître le miroir du phare; il envoya un de ses propres serviteurs, homme rusé, malin et avisé. Il vint dans une des villes frontières demander l'aman (protection); on le présenta au Commandeur des croyants al-Walīd Ibn ʻAbd al-Malik. Il lui fit savoir qu'il faisait partie de la suite du roi des Grecs, que celui-ci voulait le tuer à la suite d'une plainte sans fondements qui avait été portée contre lui, qu'il s'était donc enfui et voulait embrasser l'Islam. Il se convertit à l'Islam devant al-Walīd qu'il conseilla en quelques affaires qui lui furent confiées. Puis il fit extraire pour lui des trésors du pays de Damas et d'autres pays de la Syrie (leur existence était mentionné dans des livres qu'il avait). Lorsqu'al-Walīd vit tout cela, son avidité et sa convoitise s'accentuèrent et il le questionna sur sa connaissance dans cet art. Il lui dit qu'Alexandre mit la main sur tous les royaumes, qu'il s'empara des richesses et des trésors qui appartenaient à Šaddād Ibn ʻĀd et autres parmi les rois arabes, non-arabes, persans et autres. Il avait cons-

blanc et coloré, ainsi que tous ses palais et ses maisons; la ville était éclairée pendant la nuit sans lampes grâce à la blancheur des marbres. Il est fort probable qu'on installa des tissus en soie verte sur les murs car la blancheur frappait la vue des gens. Il l'entoura de 7 enceintes, chacune entourée par un fossé, mur et fossé furent séparés par un espace vide. On dit qu'elle était la plus grande ville qui ait jamais été construite dans une terre habitée et que sa construction était la plus curieuse.

On raconte que la faune marine faisait du mal aux gens et les enlevaient pendant la nuit ; Alexandre dressa des talismans sur des colonnes de marbre ayant la forme de cyprès, d'une hauteur de 80 coudées; elles existent encore. Selon d'autres sources, ils furent dressés sur des colonnes de cuivre plantées dans le sol et sur lesquelles on grava différents dessins et images qui mettaient à l'abri du mal.

p. 94

Il construisit le phare dans la presqu'ile qui s'avance dans la mer et le bâtit sur des fondations de verre de la forme d'une écrevisse, au fond de la mer. Il l'éleva dans l'air à une hauteur de 1000 coudées et installa à son sommet un miroir. Le miroir était fait d'une combinaison de matières extraordinairement curieuses; on y voyait les bateaux ennemis à la distance de quelques jours et à leur approche, on prenait des précautions : on faisait des mélanges de pommades qu'ils connaissaient avec lesquels on frottait le miroir et on dirigeait sur les bateaux ses rayons réfléchis qui les mettaient en feu. Il plaça dans le phare des statues de cuivre, beaucoup de talismans qui défendaient contre le mal et qui avaient d'autres qualités. Parmi ceux-ci il y avait une statue qui dirigeait son index vers le soleil où qu'il fût, à l'est, à l'ouest ou sur l'horizon, il tournait toujours avec lui; une autre statue indiquait l'ennemi lorsqu'il était à la distance d'une nuit de lui; s'il s'approchait au point qu'on pût l'apercevoir, cette statue émettait un bruit formidable qui pouvait être entendu à la distance de 2 ou 3 milles; une troisième statue produisait un bruit à chaque heure qui passait; ce bruit était toujours différent de celui entendu à l'heure précédente. Ni les gens, ni les anecdotes ne sont d'accords sur l'histoire de ce phare; les uns y voient l'œuvre d'Alexandre; d'autres celles de la reine Dalūka; d'autres celle du roi Jaīrūn sus mentionné et qui fut son véritable bâtisseur. On dit que c'est le même roi qui cons-

pouvoir de Dieu Tout-Puissant. Qui aura constaté ce que j'ai fait et appris mon histoire, et mon âge avancé ne sera, après moi, guère déçu par la vie".

On dit que lorsqu 'Alexandre vit la prodigalité du sol de cette contrée, la pureté de son air et de tout ce qu'elle contient, il décida d'y bâtir une ville.

Il envoya des messagers dans tous les pays pour rassembler les artisans, il traça le plan des fondations, fit venir par la mer les colonnes, les marbres, ordinaires et colorés, les pierres, de Sicile, du pays d'Ifriqiya, de Chypre. Quand il eut tracé le plan de la ville tout entière, il fit creuser ses fondations. Il voulut que le commencement des travaux correspondît à un moment heureux, favorable à une existence éternelle. Il fit élever, au-dessus du fossé des fondations, une colonne en marbre et planter sur chaque terrain, des morceaux de bois, liés entre eux par des cordes attachées à la colonne de marbre sur laquelle fut fixée une énorme cloche; une petite cloche fut accrochée à chaque corde; quand on tire la corde de la grande cloche attachée à la colonne et qu'elle sonne, les autres cordes bougent et les cloches tintent. Alexandre observa le moment favorable et ordonna aux travailleurs de poser les premières pierres à la fois lorsqu'ils entendraient les cloches; ils avaient fait les préparatifs nécessaires pour cela. Alors qu'Alexandre était en train d'observer le temps, il s'endormit; à ce moment un corbeau se posa sur la corde de la grande cloche, la secoua, si bien que toutes les cloches sonnèrent. Alors les maçons posèrent les premières fondations aussitôt. La rumeur des louanges et des invocations à Dieu s'éleva si haut qu'elle éveilla Alexandre. Il en demanda le motif et on lui en fit part; il en fut étonné et dit : "je voulais une chose mais Dieu en a voulu une autre; qu'il soit fait selon la volonté de Dieu. Je voulais que la ville existât éternellement et Dieu a voulu qu'elle fût bâtie rapidement"; puis il fit continuer les travaux. Il construisit la ville sur des voûtes allongées et en gradation. Il lui fit des ouvertures et des fenêtres. Les voûtes allongées étaient si hautes qu'un cavalier pouvait y marcher, la lance haute à la main sans être gêné sur toutes les routes situées sous les voûtes. Il pouvait ainsi faire le tour d'Alexandrie tout entière. De même ses marchés étaient voûtés pour que la pluie n'atteigne pas ses habitants. Il bâtit ses murs en différentes sortes de marbre

al-Hārit vers le Sa'id: celui-ci chercha al-Fayyum en marchant jusqu'à "al-Qaïsiyin" qui prit son nom, mais 'Amr n'ayant pas de ses nouvelles, demanda : "qui peut nous renseigner sur Qaïs", alors Rabi'a Ibn Habīb dit : "moi, je pourrais vous renseigner", et il monta sur une de ses juments avec laquelle il traversa le Nil, venant de la rive orientale; il était accompagné de 'Amr Ibn Rabi'a Ibn Habib as-Sadafi. Avec leurs compagnons, ils se mirent en route et quand ils traversèrent le désert, ils ne virent rien et étaient sur le point de faire demi tour lorsque, s'avançant un peu, ils aperçurent la couleur noire d'al-Fayyum; ils trouvèrent Qaïs dans le pays des Qaïsites et rapportèrent à 'Amr la découverte d'al-Fayyum.

*Alexandrie* - On raconte qu'elle s'appella Barda. Elle renferme 15 circonscriptions administratives (kawra). On dit qu'Alexandrie était composée de 3 grandes villes voisines parmi lesquelles la ville de Šana où s'élève le phare et qui s'étend au delà de celui-ci. Alexandrie proprement dite était la capitale du royaume et la résidence du souverain, c'est celle qui existe aujourd'hui. La troisième ville était Naqita. Chacune d'elles était entourée d'une enceinte. Suivant une autre anecdote, il y aurait eu sur l'emplacement d'Alexandrie 3 grandes villes entourées de 7 enceintes et de 7 fossés. En ce qui concerne l'origine de sa construction, on dit que lorsque Alexandre s'installa sur le trône de son pays, à Rome et au delà des pays des Romains — car il était romain à ce qu'on raconte — il chercha un site dont les conditions d'air, de sol et d'eau seraient favorables à la construction d'une ville qu'il pourrait prendre pour résidence. C'est alors qu'il arriva à l'emplacement d'Alexandrie où il trouva les ruines d'un bâtiment, des colonnes de marbre, dont l'une portait l'inscription suivante, exécutée au moyen du caractère dit "musnad", le premier caractère de Himyar et des rois des 'Ād : "je suis Šaddād Ibn 'Ād, j'ai bouché du bras la vallée, j'ai taillé d'énormes colonnes dans les hautes montagnes, j'ai construit Iram Dāt al-'Imād dont on n'a créé le pendant dans aucun pays. J'ai voulu construire ici la ville de Karem et y transporter tout ce qui comptait d'ancien parmi les tribus et les peuples, mais j'ai été frappé par la mort qui m'empêcha de réaliser mon but; c'est alors que j'ai quitté ce monde d'ici-bas, non pas sous la pression d'un roi puissant, ni par crainte d'une armée nombreuse mais par suite des exigences du destin, de la fin de mon existence et par le

p. 92

Tout est mesuré parfaitement afin que chacun n'ait que la part qui lui revient. C'est l'une des constructions les mieux achevées et des plus parfaites. On dit que c'est de l'époque de sa construction que date la géométrie. On dit que Joseph (salut à lui) la réalisa grâce à une inspiration divine. Les rois ne cessèrent d'y venir pour contempler la beauté de l'art et admirer sa curieuse perfection. On dit que lorsque le roi qui vivait du temps de Joseph, l'observa il dit: cette ville fait partie du royaume céleste. Elle est de ces constructions qui durent éternellement. On dit qu'elle est faite de 3 matériaux: argent, cuivre, verre. Sur la rive occidentale se trouve une mosquée. On dit que c'est celle de Joseph.

Al-Fayyūm reçoit l'eau pour l'irrigation lorsque la crue du Nil atteint 12 coudées; il n'y a pas dans le territoire d'Egypte un autre endroit qui puisse procéder à l'irrigation avec une crue de 12 coudées, sauf al-Fayyūm, grâce à la perfection de la construction du barrage d'al-Lahun. On ne procède d'ordinaire pas à l'irrigation de la terre d'Egypte à moins de 16 coudées. Lorsque la crue du Nil dépasse 12 coudées, on coupe l'eau à al-Fayyum. Le jour de la fermeture du barrage d'al-Lahun, ceux qui habitent à l'entour assistent à la céremonie avec des tambours et des étendards en présence des ingénieurs. Il n'y a donc pas de prétexte pour celui qui invoque le manque d'eau (pour ne pas payer l'impôt). Les messagers partent alors pour Miṣr annoncer l'heureuse nouvelle.

Pour eux c'est un jour de fête et de plaisir. Les habitants d'al-Fayyūm procèdent aux plantations pendant que l'eau couvre toute la terre d'Egypte sans s'y infiltrer. Lorsque le temps de la moisson est arrivé en Egypte, c'est le moment de la seconde irrigation pour les habitants d'al-Fayyum puisqu'ils sèment leurs terres deux fois par an. La seconde fois, ils plantent outre les grains farineux, du blé, de l'orge et du riz. Al-Fayyūm est des plus fertiles parmi les pays de Dieu Très-Haut, le plus riche en fruits, où les dattes mûres ne manquent ni en été ni en hiver. C'est pour cela que le revenu fiscal y est le plus considérable de tous les pays d'Egypte. 'Abd al-Malik Ibn Ḥabīb dit : il est appelé al-Fayyūm parce que son revenu est de 1000 dinars par jour. Al-Fayyūm est entouré de tous côtés par le désert ou par des chemins difficiles. Ibn 'Afr et d'autres racontent que lorsque 'Amr Ibn al-'Āṣ conquit les pays d'Egypte, il resta une année sans savoir, où se trouve al-Fayyum jusqu'à ce que 'amr ait envoyé Qaīs Ibn

aucun autre pays, que celui d'al-Farama. Ce sont de grandes dattes dont une espèce d'un poids de 20 dirhams et d'une longueur d'un empan.

*La Ville de Rosette (Rašīd)* — C'est une grande ville située sur une énorme colline de sable. Lorsque le vent occidental souffle — et il est violent chez eux — il remplit les rues et les maisons de sable au point qu'ils ne peuvent pas continuer leur activité commerciale sur leurs marchés. Elle se trouve sur la rive du Nil à proximité de la mer. De Misr à Rosette, la rive du Nil est un des plus merveilleux parcs du monde. L'abondance des récoltes y est telle qu'elle n'a pas d'égale ailleurs. Abu'Ubaïd al-Bakrī raconte qu'un habitant de ces lieux l'avait informé qu'il connaissait un jardin, appartenant à un Egyptien, dont les revenus, provenant de ses grenades et de ses bananes seulement, s'élevaient à 15.000 mitqāls par an. Il ajoute qu'il y avait là bas le jardin d'al-Laït Ibn Sa'd (puisse Dieu le pardonner). Qutaïba dit à ce sujet: "j'entendit al-Laït Ibn Sa'd dire: j'avais 50.000 dinārs de revenu par an, qui n'ont point été touchés par la zakat (la dime), c'est-à-dire qu'ils appartiennent aux fruits qui échappent à cette dite imposition.

p. 90 *De la Ville d'al-Fayyum* — C'est un vaste pays renfermant beaucoup de villages d'un nombre égal, dit-on, à celui des villages du pays d'Egypte tout entier, car, lorsque Joseph (salut à lui) le fit construire, il installa dans chaque village la famille d'un village d'Egypte; il alimenta chaque village par une quantité d'eau suffisante pour l'irrigation de ses terres, sans surplus ni manque. On dit encore qu'il y a dans le pays d'al-Fayyum 360 villages correspondant au nombre des jours de l'année où l'eau ne manque jamais par suite de la perfection de son irrigation. Si le niveau du Nil diminue une année et si les prix (des produits alimentaires) augmentent, chaque village d'al-Fayyum alimente l'Egypte pendant un jour. La construction (barrage) d'al-Lahun à al-Fayyum est une des merveilles du monde. Al-Lahun est un grand village d'al-Fayyūm; c'est là que se trouve cette construction; elle est solidement bâtie et possède 60 gradins, sur lesquels il y a des jets d'eau, au sommet, au milieu et au bas. Les plus hauts alimentent en eau les terrains élevés; ceux situés au centre les terrains d'une élévation moyenne et ceux qui sont les plus bas les moins élevés.

plus riche en fruits. Elle était partagée entre deux rois, frères, de la postérité d'Abrīt Ibn Miṣr. L'un d'eux était croyant, l'autre non. Le croyant dépensa sa richesse dans le but de faire le bien jusqu'à ce qu'il vendit sa part de Tennis à son frère. Celui-ci se mit alors à multiplier les plantations et les ruisseaux; il construisit des réservoirs d'eau. Quand son frère eut besoin de son aide, il lui refusa; il s'énorgueillit de ses richesses et de ses serviteurs, et le déconsidéra à cause de sa pauvreté. C'est alors que son frère lui dit: "pourquoi montres-tu de l'ingratitude vis-à-vis de Dieu, pour tout ce qu'il t'a donné et il est, je crois, sur le point de t'en priver, car tu abuses de ses faveurs". C'est ainsi que Dieu Très-Haut envoya sur ses jardins et ses réservoirs d'eau une innondation qui détruisit tout. Les deux frères sont ceux que Dieu Très-Haut mentionne dans la sūra de la caverne avec ces paroles sacrées et suprêmes: "Propose cette parabole: un homme possédait deux jardins plantés de vignes entourés de palmiers et enrichis de diverses semences. Ils devinrent féconds et son attente ne fut point trompée ..." jusqu'à la fin de ces versets prophétiques. On s'embarque de Tennis pour al-Faramā, située au bord de la mer.

p. 89 *La Ville d'al-Faramā* — C'est une grande ville, ancienne, éternelle où il y a beaucoup de monuments merveilleux qui attestent de sa situation de capitale. On dit que c'est le roi al-Faramā qui la fit construire. Les Egyptiens racontent que lorsqu'Ibn al-Mudabbir fut nommé gouverneur d'Egypte, il envoya quelques uns des siens pour enlever quelques portes en marbre dans la partie orientale de la citadelle et dont il avait besoin pour paver sa maison, mais les habitants d'al-Faramā le lui interdirent; ils sortirent à la rencontre de ses messagers, armes en mains, et leur dirent: "ce sont ces portent que Dieu Très-Haut mentionne en disant par la bouche de Jacob: O mes fils n'entrez pas par une seule porte, mais entrez par différentes portes".

Parmi les merveilles du monde citons les palmiers d'al-Faramā, car ils donnent leurs fruits lorsque la saison des dattes fraîches et mûres finit dans tout le pays. Les palmiers d'al-Faramā donnent leurs dattes au mois de kānūn 1er (décembre), lorsque les palmiers commencent à fleurir partout ailleurs; ainsi les dattes s'y trouvent-elles pendant 4 mois sans interruption. Ceci ne se rencontre dans

*La ville de 'Uswan (Assouan)* — Elle est la dernière ville égyptienne car c'est une ville frontière qui voisine le pays des Nubiens; ceux-ci ne sont pas Musulmans et n'étaient les monts et chemins dificiles qui séparent l'Egypte de leur pays et qui leur en défend l'accès, ils auraient détruit le pays d'Egypte. Le Nil descend du pays des Nubiens, à travers des rochers et des chemins abrupts, qu'aucun bateau ne peut parcourir. C'est de 'Uswan que part la route qui conduit à 'Aydab.

*'Aydab* est une ville située au bord de la mer occidentale, connue sous le nom de Qulzum: à partir de 'Aydab, on la traverse en direction de la côte du Hijaz et de la Mecque. De 'Aydab on se dirige vers le Yémen, les Indes et d'autres pays.

Parmi les villes d'Egypte on compte *Dimyat (Damiette) et Tennis.* Ce sont deux villes dont la plupart des terres sont envahies par la mer. Tennis est une grande ville, éternelle, renfermant beaucoup de monuments anciens. Ses habitants mènent une vie facile ; ils sont riches. La plupart d'entre eux sont des tailleurs. On y confectionne des vêtements, appelés al-Šarub qui n'ont pas leurs pareils dans le monde. On y fait pour le souverain d'Egypte une robe pour laquelle on n'emploie dans la chaîne et la trame du tissu que 2 onces ('uqiya) de fil ordinaire ; mais 100 dinars en or transformé en fils : son artisan la fait d'une façon si parfaite qu'on ne taille et ne coud que l'ouverture supérieure. Elle coûte le prix de 1000 dinars. L'artisan la fait parfaitement à tel point qu'il ne façonne et ne coud que ce que nous avons dit, c'est encore vrai de nos jours. On y fabrique encore chaque année cette robe pour chaque roi accédant au trône d'Egypte. Cette robe s'appelle al-badana. Dans le monde entier, il n'y a aucun tissu de lin, sans fil d'or coûtant 100 dinars sauf le tissu de Tennis et de Damiette. Dans l'île de Tennis et de Damiette habitent des Chrétiens payant la capitulation, grâce à Dieu, nous sommes maintenant en l'an 586 de l'Hégire (1190 J. C.).

Les habitants de Tennis chassent les grives et autres espèces d'oiseaux aux portes de leurs maisons, car ils tendent des filets dans les rues et près des portes de leurs maisons : lorsque les grives venant de la mer, survolent la terre, elles sont effrayées et tombent dans ces filets. Tennis était le plus fertile des pays de Dieu, le

précieuse, qui n'a pas d'égale sur terre, notamment dans la contrée dite al-Ḥariba, dans un défilé et des montagnes défendues par les Bujāh auxquels celui qui veut extraire l'émeraude, paye un impôt de sauvegarde. La distance entre cette contrée et le Nil est de plus de 20 étapes; de même la mine est à 7 jours de marche de tout endroit habité, on n'en trouve dans aucun autre pays, hormi le pays d'al-Balhara aux Indes; mais l'émeraude indienne ne vaut pas celle-ci. L'émeraude indienne est appelée "la mecquoise" car on l'apporte à Aden pour la transporter à la Mecque d'où elle tire son appellation. L'émeraude extraite de la contrée dite al-Ḥariba se présente sous 4 variétés: la supérieure, celle connue par "al-marw", est la plus belle de toutes; elle est d'une belle eau, d'une teinte verte semblable à celle de la poirée, mais paraît plus noire; la seconde est al-baḥri (maritime); elle est de la couleur des feuilles du myrte, mais elle est connue sous le qualificatif de "maritime" parce que les rois des Indes, de Sind et de la Chine l'estiment et la préfèrent aux autres émeraudes; la troisième est celle dite "al-magribi", car les rois du Maghreb, des Francs, de l'Andalousie et de la Galice se disputent sa possession; la quatrième appelée al-aṣam (solide) est d'une qualité inférieure et moins chère étant donné sa pauvreté en eau, en couleur verte et sa sobriété. Une 'adasa (lentille) d'émeraude supérieure coûte 10 dinars. Les mines de ce métal sont abandonnées à cause de leur éloignement de tout pays habité et la rareté des gens qui y travaillent. Tous ceux qui ont connu ces lieux sont d'accord pour reconnaître que les reptiles, les serpents et toute sorte d'animaux venimeux ne s'approchent pas de ce métal ni de ses mines. On dit que si ces animaux regardent l'émeraude précieuse, leurs yeux se crèvent et que celui qui est piqué par l'un d'eux et avale le poids d'un daniq, se guérit, grâce à Dieu. Les rois de Grèce versés dans la philosophie, préfèrent l'émeraude à toutes les autres pierres précieuses. Les philosophes disent que son irradiation et sa couleur verte deviennent plus fortes à mesure que la lune monte et se forme. Que de mystères dans les secrets divins.

p. 87 *La Ville de Qifṭ* — C'est une ville, d'une étendue moyenne entourée d'une enceinte. La distance qui la sépare de la ville de Qūṣ est de 4 milles. Elle renferme un temple antique et dans son voisinage il y a une vaste forêt.

de marbre, des statues et des gravures. Il y a un grand bassin creusé dans la pierre solide entouré de sièges en marbre sur lesquels s'asseyait Pharaon et qu'on lui remplissait de vin. Il était entouré de ruisseaux de miel et de différentes boissons; tout près de là se trouve une statue en marbre qui semble parler: on dit qu'elle était la coiffeuse de Pharaon. Près de celle-ci, deux idoles de pierre; chacune a 6 coudées de haut: l'une pleure, l'autre rit. Cette ville fut soumise au pouvoir du père de Zulaiha femme d'al-'Aziz connue comme fille du gouverneur de la ville.

*La Ville d'Ansena* — C'était, à l'époque des Pharaons où il y en avait beaucoup, la ville des magiciens. Un ancien temple s'y trouvait mais dont il ne reste aujourd'hui qu'une seule chambre construite en un seul rocher. On dit que Maria, la copte dont al-Muqawqas avait fait cadeau au Prophète (le salut et la prière de Dieu à lui) était originaire de la province d'Ansena d'un village dit Jafn.

Les gens d'Ansena sont à l'abri du crocodile, car celui-ci ne s'approche pas de la ville. Il est plus redoutable sur l'autre rive en face d'Ansena, surtout dans le village dit al-Usmun. Personne ne peut s'approcher des bords du fleuve. Lorsque les crocodiles arrivent aux environs d'Ansena, ils nagent renversés sur le dos jusqu'à ce qu'ils aient dépassé les limites de la ville. A 10 milles d'al-Fustat, les crocodiles agissent de même jusqu'à ce qu'ils aient dépassé cette ville, d'une distance égale.

*La Ville de Qus* — C'est une grande ville éternelle, qui remonte à une haute antiquité et renferme beaucoup de monuments appartenant aux Anciens. Dans l'espace qui la sépare de la ville d'Uswan, se trouvent des caveaux creusés dans les montagnes où l'on voit des tombeaux dont on ne connaît pas les origines. On y extrait la bonne momie que les anciens avait mise dans leurs dépouilles mortelles et sous leurs linceuls. On dit qu'entre la contrée de Qus et celle d'Uswan on trouve les filons d'or, mais les Bujah, de race abyssinienne en interdisent l'accès. Leur pays est situé entre la mer du Qulzum (Rouge) et le Nil d'Egypte. Des groupes d'arabes des Rabi'a vivent chez eux pour chercher ce métal. On trouve aussi l'émeraude

grand souterrain jusqu'au tombeau sacré; mais les habitants de Médine le découvrirent et tuèrent les auteurs impies en leur infligeant un châtiment exemplaire. Ils comblèrent la fosse avec des pierres et y versèrent du plomb. Plus personne dès lors ne pourra prétendre user d'une telle manœuvre

*La ville de Memphis (Manf)* — C'est une grande ville éternelle, résidence des anciens rois, où vivait Pharaon de Moïse (salut à lui.). Ce Pharaon fit construire 70 portes dans son enceinte et en fortifia les murs avec du fer et du cuivre. Un homme de la postérité de 'Ali Ibn Abi Ṭalib (puisse Dieu être content de lui) dit : "je vis à Memphis la maison de Pharaon dont je parcourus les galeries, les loges, les chambres et tous les portiques, de même que les habitations; je trouvai tout cela construit comme en une seule pierre creusée. Si la construction était parfaite à tel point qu'elle paraissait faite d'un seul bloc et qu'on ne pouvait déceler la séparation entre deux pierres, ni entre deux rochers, celà était curieux. Mais s'il s'agissait d'une montagne dans laquelle on avait taillé ces vides avec des pioches, cela était plus merveilleux encore.

. 84 *La ville de Dalaṣ* — C'est une ville éternelle qui remonte à une très haute antiquité. Elle est d'une construction merveilleuse, renfermant beaucoup de curiosités. C'était le lieu de rendez-vous de tous les magiciens d'Egypte.

*La Ville d'Ihmim* — C'est une ville éternelle qui remonte à une haute antiquité, située au bord est du Nil, où se tiennent beaucoup de marchés, de bains et de mosquées. Dans son enceinte on voit l'ancien temple sus-mentionné. qui est resté intact. Elle possède des édifices et des monuments curieux qui surpassent la description.

*La Ville d'Asyuṭ* — C'est une ville ancienne, éternelle, entourée d'une enceinte, située sur la rive occidentale du Nil. Elle possède une jolie citadelle. Elle est très riche surtout par l'abondance et la qualité de la canne à sucre, comme ne l'est aucune des villes de Dieu. Au milieu de son marché se dresse un temple antique dont quelques parties sont détruites.

*La Ville de 'Aïn Šams* — C'est une ville éternelle et antique. C'était la résidence de Pharaon et on y trouve beaucoup de monuments, de bâtiments très curieux construits avec des colonnes

la mosquée fut achevée, 'Amr dressa un minbar (chaire) sur lequel il faisait la hutba (prône du vendredi). Lorsque 'Umar Ibn al-Hattab entendit parler de cela, il adressa à 'Amr Ibn al-'As une missive dans laquelle il écrivit : après quoi, il m'est arrivé l'histoire selon laquelle tu as fait un minbar sur lequel tu montes pour dominer les Musulmans, est-ce qu'il ne te suffit pas de te tenir debout alors que les hommes sont assis au-dessous de toi, je t'ordonne de le détruire. Puis, 'Amr traça le plan de sa maison près de la mosquée, entre lesquelles passe la route; depuis lors, ceux qui désirèrent s'installer en Egypte construisirent de même, chacun leur maison. Az-Zubaïr Ibn al-'Awam construisit sa maison et y mit l'échelle par laquelle il monta au sommet de la forteresse sus-mentionnée. Quand 'Abd al-Malik Ibn Marwan prit le pouvoir il l'enleva à az-Zubaïr et la choisit comme demeure; mais lorsqu'Abu Ja'far al-Mansur l'abbasside monta sur le trône califien, il la restitua à Hisam Ibn 'Urwa Ibn az-Zubaïr.

## LES VILLES D'EGYPTE LES PLUS ILLUSTRES

Parmi celles-ci on compte la ville de *Misr, al-Fustat*, que nous venons de citer. Elle est la capitale du pays d'Egypte; on y trouve des bâtiments, des jardins, des maisons donnant sur le Nil et des palais qui excitent la vue et qui réjouissent les affligés.

*La ville du Caire* — Ville récente, elle fut construite par les Banu 'Ubaïd, les Si'ites, qui s'y installèrent. Une distance de trois milles environ sépare le Caire de la ville de Misr. C'est une grande ville renfermant des palais et des édifices dont la description est impossible. C'était la capitale du royaume 'Ubaïdite. Al-Hakim le' Ubaïdite avait construit sur l'emplacement de trois tombeau-mosquées, entre al-Fustat et le Caire, une grande mosquée. Il y installa des gardiens, des serviteurs pour allumer des lampes toutes la nuit. On raconte qu'il voulait y transporter la dépouille mortelle du Prophète (la prière et le salut de Dieu à lui); il avait failli réussir par la fraude, mais Dieu en empêcha l'accomplissement, et fit connaître ce projet aux habitants de Médine, pour protéger son prophète et faire échouer les desseins de son ennemi : Al-Hakim distribua de l'argent à un certain nombre de ses partisans; ceux-ci partirent pour Médine où ils achetèrent une maison mitoyenne à la mosquée de l'Envoyé de Dieu, ils la payèrent très cher. Après avoir mesuré la distance entre la maison et le tombeau ils creusèrent un

conclu entre eux et les Musulmans. Le recensement d'alors de tous les Coptes en haute et basse Egypte accusait 6.000.000 sans compter, vieillards, enfants et femmes. Chaque homme fut soumis au paiement de 2 dinārs par an ce qui fait 12 millions de dinārs. Ce sont leurs chefs qui durent rendre des comptes garantis par des serments inviolables. Cet impôt augmenta de 3.000 dinars avec ceux qui vinrent s'installer dans le pays parmi les autres chrétiens et les nubiens. 'Amr se livra ensuite à la recherche de l'argent qu'il ajouta à la trésorerie publique des Musulmans. On lui dit que l'un des Grands possédait, en Haute Egypte beaucoup de richesses. Il lui envoya pour demander l'argent qu'il déclara ne pas posséder, mais 'Amr l'emprisonna par la suite. 'Amr demanda à ceux qui fréquentaient le prisonnier s'ils l'avaient entendu parler de quelqu'un. Ils répondirent : nous l'avons entendu mentionner souvent un moine à aṭ-Ṭūr. 'Amr envoya quelques uns des siens qui apportèrent le cachet du prisonnier. 'Amr écrit alors au nom de celui-ci une lettre en grec destinée au moine, qu'il scella avec le cachet. Par la suite, le moine apporta un vase en cuivre scellé avec du plomb contenant une lettre dans laquelle on lit "mes fils si vous voulez votre fortune, creusez sous la fontaine". 'Amr envoya les intendants à la fontaine (saqiya) pour creuser et extraire 50 ardab de dinārs. L'ardab équivaut environ à un qinṭār et demi.

'Amr donna ordre aux Musulmans de construire des maisons pour y demeurer, à al-Fusṭāṭ, celle-ci est la ville de Miṣr aujourd'hui. On donne le nom al-Fusṭāṭ à la ville de Miṣr parce que lors de l'entrée de 'Amr Ibn al-'Āṣ en Egypte, il dressa sa tente (fusṭāṭ) dans ces lieux. Quand il voulut marcher sur Alexandrie afin d'y faire la guerre aux Grecs, il donna ordre d'enlever la tente, mais on y trouva des pigeons sauvages avec des pigeonneaux. 'Amr dit alors ceux-ci se sont réfugiés dans un endroit qui les préserve; on laissa la tente et recommanda de l'entretenir. Au retour des Musulmans après la conquête d'Alexandrie, les hommes demandèrent: "où pouvons nous nous installer", on leur dit à al-Fusṭāṭ, celui de 'Amr, qu'il laissa dressé dans le camps, à l'endroit connu aujourd'hui sous le nom de Dār al-Ḥaṣā. Après quoi 'Amr commença la construction de la mosquée. L'emplacement était occupé par des jardins et des vignes qu'on coupa. La construction commença avec le concours de 'Amr et ceux qui étaient présents parmi les compagnons du Prophète jusqu'à ce qu'on finit d'élever la coupole. Quand

ils se lavent les mains et les pieds avec l'eau; lorsque c'est le moment de la prière. personne ne s'abstient; ils se montrent très humbles en pratiquant la prière". Alors al-Muqawqas dit en jurant : "S'ils attaquent les montagnes, ils les feraient trembler; personne n'est capable de leur faire la guerre. Si nous ne faisons pas la paix avec eux alors qu'ils sont assiégés par le Nil, ils ne l'accepteront jamais s'ils peuvent s'accrocher à la terre". La crue du Nil était à ce moment très haute, les Musulmans sont entourés par les eaux de tous côtés; ils ne peuvent s'infiltrer dans le 'Ṣ'aīd ni ailleurs. Puis 'Amr Ibn al-'As leur envoya une délégation de 10 hommes. Il chargea l'un d'eux, un certain 'Ubāda Ibn aṣ-Ṣāmit, arabe de couleur noire, connu pour sa grande éloquence, de parler en leur nom. 'Amr ordonna de ne leur accorder que l'une des trois clauses précédentes. Ils s'embarquèrent sur des barques, pour être introduits devant al-Mquawqas. 'Ubāda s'avança pour prendre la parole mais al-Mquawqas pris de peur à cause de son teint noir dit : "éloignez ce Noir de moi et désignez en un autre (pour prendre la parole)", alors, ils répondirent unanimement : "ce Noir est notre seigneur; il est le plus digne parmi nous vu sa sagesse et sa science". 'Ubāda lui adressa la parole de la sorte, une seconde fois. Après quoi al-Mquawqas dit à ses compagnons : "son apparence m'avait fait peur, mais pour moi, sa parole est plus redoutable, cet homme et ses compagnons sont sortis pour la destruction du monde, je crois que leur pouvoir s'étendra sur toute la terre. Il proposa de donner à chaque combatant 2 dinārs, à leur chef 100 dinārs et d'envoyer à leur calife 1000 dinārs. 'Ubāda n'accepta que l'une des trois conditions; al-Mquawqas demanda l'avis de ses compagnons. Ceux-ci répondirent: "en ce qui concerne notre conversion à leur religion, c'est inadmissible; nous n'abandonnerons pas la religion de Jésus, pour une autre que nous ne connaissons pas; quant à leur projet de nous asservir, nous préférons la mort; s'ils acceptent le double de ce que nous venons de leur proposer pour qu'ils partent, cela sera plus commode pour nous". Ainsi 'Ubāda et ses compagnons les quittèrent sans convention aucune sur quoi que ce soit.

Ensuite, les Musulmans s'acharnèrent dans le combat, jusqu'à ce qu'al-Mquawqas fût astreint à payer la capitulation au nom des Coptes seulement. Quant aux Grecs ils avaient le choix entre le paiement de la capitulation et le départ pour leur pays; ce qui fut

ville se ralentit, az-Zubaīr Ibn al-'Awām dit : "je me voue à Dieu, et j'espère que Dieu assurera la victoire aux Musulmans". On plaça une échelle contre le mur de la forteresse. Il monta puis dit : "si vous entendez mon "appel à Dieu" (takbīr) répondez moi". Voilà que les défenseurs de la forteresse se trouvaient surpris de voir az-Zubaīr au sommet de la forteresse en train de faire l'appel à Dieu et, tenant son sabre hors du fourreau; les Musulmans se précipitèrent vers l'échelle à tel point que 'Amr dut leur interdire de monter ainsi de peur que l'échelle ne se brisât. Tous les défenseurs s'enfuirent et az-Zubaīr se dirigea vers la porte de la forteresse; il l'ouvrit et les Musulmans s'y engouffrèrent. Les Rūm (Grecs) et les Coptes se retirèrent en haut dans un château inaccessible qui faisait partie de la forteresse et les Musulmans leur firent la guerre pendant un mois. Al-Mquawqas s'y trouvait avec les Grands des Rūm et des Coptes; il eut peur pour sa personne et pour ceux qui étaient avec lui, il sortit par une porte secrète en laissant dans le château un groupe des siens pour continuer la lutte. Il se réfugia dans l'île où se trouve actuellement l'arsenal et ordonna de couper la digue; puis il envoya un messagēr à 'Amr Ibn al-'Āṣ pour lui dire : "vous êtes entrés dans notre pays; vous y êtes restés longtemps; vous n'êtes qu'une bande peu nombreuse; les Rūm vous trompèrent : ils mobilisèrent des armées contre vous; le Nil vous entoure de tous côtés et vous êtes prisonniers entre nos mains; déléguez un des vôtres pour négocier; peut-être parviendrons-nous à nous trouver une solution avantageuse, et cesserait entre nous cette lutte avant que ne vous assaillent les armées des Rūm. Or vous le regretterez. 'Amr répondit aussi par l'intermédiaire des messagers : "il ne saurait y avoir entre nous et vous qu'une des trois clauses suivantes : 1° vous embrasserez l'Islam pour devenir nos frères et par la suite nous aurons les mêmes droits et les mêmes dévoirs que vous, 2° si vous refusez, vous devrez payer l'impôt de capitulation en vous soumettant à nous. 3° sinon, nous vous ferons la guerre sainte patiemment jusqu'à ce que Dieu juge entre nous et vous car il est Juge parfait". Lorsque les messagers d'al-Mquawqas revinrent, il leur demanda : "comment les avez-vous trouvés". Ils répondirent : "de ceux que nous avons vus, l'un préfère la mort à la vie, la modestie à une haute situation, aucun n'est attaché à la vie; ils s'asseyent par terre, mangent sur leurs montures; leur chef est semblable à l'un d'eux,

l'ordre de retour. Il la laissa au messager qu'il fit attendre jusqu'à ce qu'il campât dans un village situé entre Rafaḥ et al-'Ariš. Quand il prit des renseignements sur ce village qui faisait partie de la terre d'Egypte, à ce qu'on lui dit, il demanda la lettre et la lut en présence des Musulmans; puis il leur dit : "ne savez-vous pas que ce village fait partie de la terre d'Egypte ?, ils répondirent : "si". Il ajouta : "le Commandeur des croyants m'a dit que si je recevais sa lettre avant mon entrée dans la terre d'Egypte, je devais revenir sur mes pas avec ceux-qui m'accompagnent; je reçois sa lettre alors que je suis en territoire d'Egypte; en avant donc et que la bénédiction de Dieu soit avec vous".

Ils se mirent en route et arrivèrent au milieu du pays d'Egypte. Ils campèrent au bord du Nil sur l'emplacement d'al-Fusṭāṭ; la ville n'existait pas alors car c'est 'Amr qui la construira. Le roi d'Egypte, à cette époque, était al-Muqawqas. C'est lui qui offrit à l'Envoyé de Dieu, Mariya, la copte. Lorsqu'al-Muqawqas entendit parler de l'entrée des Musulmans dans son pays, de leur campement sur l'emplacement d'al-Fusṭāṭ, il fut effrayé car il ne les connaissait pas et pensa à envoyer des armées contre eux. 'Amr Ibn al-'Āṣ écrivit à 'Umar Ibn al-Haṭṭāb (puisse Dieu être content de lui), lui demandant du renfort; celui-ci envoya 4.000 hommes. On dit qu'un prêtre de 'Alexandrie, versé dans la science des prévisions, apprenant l'arrivée de 'Amr avec les Musulmans en pays d'Egypte, écrivit aux Coptes en leur disant que leur pouvoir avait pris fin et en leur ordonnant de recevoir 'Amr et de se soummettre à lui. Beaucoup de Coptes lui obéirent et il les prit comme soutien contre la partie adverse. Puis 'Amr marcha sur la ville où se trouvait al-Muqawqas. C'était une grande forteresse bien défendue autour de laquelle on creusa un fossé, qu'on munit de portes auxquelles étaient accrochés des filets en fer. 'Amr dispersa ses compagnons autour de la fortesse pour que l'ennemi les crût plus nombreux qu'ils n'étaient en réalité; le lendemain à l'aube il les répartit dans différentes armes, revêtus d'armures, devant les portes du fossé.

Puis le Prince des croyants, 'Umar Ibn al-Haṭṭāb lui envoya az-Zubaïr Ibn al-Awām à la tête de 12 mille hommes; par la suite les Musulmans devinrent forts. 'Amr s'engagea à fond dans la bataille : il mit les mangonneaux en action mais quand la conquête de la

de Memphis était à cette époque la plus grande prami les villes d'Egypte; c'était la capitale du royaume. Quand Pharaon eut consolidé sa position sur le trône d'Egypte, il distribua de l'argent au peuple, rassembla les armées, acheva ses adversaires, construisit des villes, creusa des fossés et raffermit de la sorte son régime. Il était un tyran, orgueilleux. Il invitait le peuple à l'adorer, en disant : "Je suis votre dieu très-haut". Il asservit les Banū Isrā'īl. C'est ainsi que se déroule son histoire avec Moïse (salut à lui) telle que Dieu Très-Haut la raconte. Après le règne de Moïse les Banū Isrā'īl se succédèrent sur le trône, de roi en roi; parmi eux figurent David et Salomon (salut à lui); leur règne dura jusqu'au moment où avec l'apparition du christianisme, les Chrétiens régnèrent sur l'Egypte et se succédèrent sur le trône, de roi en roi, jusqu'à ce que Dieu Très-Haut aît fait apparaître l'Islam: dès lors, les Musulmans entrèrent dans le pays et le dominèrent sous le règne de 'Umar Ibn al-Ḫaṭṭāb (puisse Dieu être content de lui).

p. 78

## LA CONQUETE D'EGYPTE (PAR LES ARABES)

'Abd ar-Raḥmān Ibn 'Abd Allah Ibn 'Abd al-Ḥakam dit: En l'an 18 de l'Hégire (640 J. C.), sous le califat de 'Umar Ibn al-Ḫaṭṭāb, lorsque celui-ci venait à al-Jābiya, 'Amr Ibn al-'Āṣ eut un interview avec lui. 'Amr, qui visita l'Egypte avant l'Islam où il lui arriva l'histoire de la balle, connaissait ainsi la situation de l'Egypte; il célébra ses louanges, fit connaître à 'Umar l'importance des impôts et lui présenta la conquête comme une chose facile, jusqu'au moment où 'Umar (puisse Dieu être content de lui) finit par accepter. Il le plaça à la tête de 4000 combattants bien équipés et lui dit: "mets toi en route; pour ma part, je vais invoquer l'inspiration divine, je t'enverrai bientôt un message contenant ce que je verrai, si Dieu le veut; si tu reçois une lettre t'ordonnant de t'éloigner, avant ton entrée dans le pays d'Egypte, fais demi tour; si tu y es entré avant l'arrivée de ma lettre, continue ta marche en demandant aide et assistance à Dieu".

'Amr Ibn al-'Āṣ se mit en route au cœur de la nuit; personne ne sut rien de lui; puis 'Umar invoqua Dieu. Il semble qu'il s'inquiéta du sort des Musulmans. Il écrit à 'Amr, lui ordonnant de retourner avec ses compagnons; celui-ci reçut l'ordre califien à Rafaḥ. 'Amr craignit de lire la lettre, de peur qu'elle ne contint

comme patrimoine. Alors, Joseph la lui acheta et y enterra Jacob pour partir ensuite pour l'Egypte où il avait eu depuis beaucoup d'enfants. Le roi ar-Rayyan mourut après avoir désigné son fils Darīmūs Ibn ar-Rayyān comme successeur ; c'est le quatrième Pharaon, appelé par les historiens Darem. Le roi ar-Rayyān avait recommandé à son fils Darīmūs de faire garder à Joseph ce dont il jouissait en fait de régence et de chancellerie, et de demander conseil auprès de lui. Darīmūs lui demandait conseil mais ne le suivit pas en matière religieuse ni dans la foi de son père : il adorait la lune car elle était son horoscope, lui faisait des idoles en argent pour les dresser dans le palais du marbre que son père avait construit à l'est du Nil. On dit que Joseph (salut à lui) mourut quelques années après, sous le règne de ce roi. Le roi en fut terriblement affligé ainsi que les habitants d'Egypte ; il ordonna de l'envelopper dans un linceul royal. On le mit dans un cercueil de marbre et on l'inhuma pendant un an sur la rive occidentale du Nil et c'est alors qu'elle devint fertile, puis on le déplaça l'année suivante sur la rive orientale et c'est alors qu'elle devint fertile aussi. Quand on constata son bienfait, on décida de mettre le cercueil au milieu du Nil. On l'attacha par des cordes, et on le fit descendre au fond du fleuve. C'est ainsi que les deux rives devinrent fertiles, toutes deux, à la foi.

On dit que le roi ar-Rayyan, fils d'al-Walīd, ami de Joseph, ne mourut pas, il vécut jusqu'au temps de Moïse, fut le Pharaon de Moïse, mentionné dans le Coran. Lorsque Dieu prolongea ses jours, il s'énorgueillit, se fit proclamer Dieu et invita les gens à l'adorer. On raconte d'autres récits à ce sujet. Les avis sont partagés : les uns préjugent qu'il est l'un des 'Amālīq, les autres le considèrent comme un lahmide de Syrie, d'autres croient qu'il est persan de la ville d'Istaḫr, d'autres encore estiment qu'il est copte de la postérité de Miṣr, sus mentionné; les Coptes partagent ce point de vue. Quelques Non-Arabes prétendent qu'il est originaire d'Andalousie, de la ville de Qarmūna. On a dit qu'il s'appelait al-Walīd Ibn Muṣ'ab et qu'il monta sur le trône à la suite de son entrée dans la ville de Memphis venant du désert sur un âne chargé de vin pour le vendre. Les habitants se disputaient alors près de la porte de la ville et n'étaient pas d'accord sur le choix d'un roi. Comme Pharaon était le premier à entrer dans la ville, ils le proclamèrent roi. La ville

préférable à ce que tu recherchais; elle répondit : considère mon attitude car mon mari était impuissant, d'ailleurs aucune femme ne pouvait voir un homme aussi beau que toi sans tomber amoureuse.

Pendant les belles années, Joseph s'occupa d'accumuler des grains, et entasser des vivres, il construisit des magasins pour les moissons dont quelques uns, selon ce qu'on raconte, existent encore. On accumulait les épis de blé, tel que Dieu Très-Haut le mentionna. Lorsque les mauvaises années vinrent et que la crue du Nil diminua graduellement, Joseph se montra politique habile pendant la famine. Il rationna le blé, ne vendit jamais à quelqu'un plus que la ration détérminée. S'il n'avait pas fait ainsi, les gens auraient péri. On dit que toute la richesse des habitants d'Egypte passa aux mains de Joseph comme prix de ce qu'il leur vendit en vivres ; il leur vendit à prix d'or, d'argent, de bijoux, de vêtements, de bétail, d'immeubles, de meubles, de tout ce qu'ils possédaient de richesses ; ils allèrent même jusqu'à s'acquitter de leurs dettes en cédant leurs enfants, leurs femmes, leurs personnes même jusqu'à devenir tous esclaves. C'est un hommage par lequel Dieu, Très-Haut honora Joseph, parce qu'il fut vendu dans leur pays. A partir de ce moment la terre d'Egypte devint comme l'apanage des souverains où les sujets ne possèdent ni champ, ni feddān. Quelques uns parmi les souverains des Banū 'Ubaïd qui s'y trouvaient auparavant, voulurent s'emparer de leurs maisons sous ce prétexte. On dit que la famine sévissait en Syrie en même temps et c'est ainsi que se passa l'histoire de Joseph et ses frères, telle que Dieu Très-Haut, la cite dans son livre. Joseph fit venir son père de la Syrie ; l'amena avec toutes ses femmes et ses enfants en Egypte.

76 Quand Jacob s'approcha d'Egypte, Joseph sortit accompagné des notables, le reçut et le présenta au roi. Jacob (salut à lui) était un prophète vénérable et éloquent. Le roi le considéra et l'aima. Jacob l'invita à croire à l'unicité divine et à rejeter les idoles. Comme Joseph lui avait dit la même chose, sa foi en fut fortifiée et il crut en un Dieu unique. On dit qu'il garda pour lui même sa croyance de crainte de perdre son royaume. Jacob resta honoré et considéré jusqu'à sa mort, du vivant du roi ar-Rayyān Ibn al-Walīd. Il demanda à être enterré dans sa demeure qui était celle de ses pères en Syrie. On le mit dans un cercueil, et Joseph et les notables d'Egypte l'escortèrent en un cortège funèbre jusqu'en Syrie. On dit que 'Aysum, frère de Jacob leur interdit de l'inhumer dans sa demeure sous prétexte qu'Isaac leur père la lui avait donné

On dit dans les livres de l'histoire des Coptes qu'on amena un jeune homme de Syrie que ses frères avaient vendu. Les caravanes syriennes faisaient halte dans l'endroit dit aujourd'hui al-Mawqif (station). Le jeune homme qui était Joseph (salut à lui) fut présenté pour la vente, son prix atteignit l'équivalent de son poids en or ; c'est Qaṭfīr, dit al-ʿAzīz qui l'acheta pour le présenter comme cadeau au roi. Mais quand il l'amena à la maison, Zulaīḫa le vit et demanda à son mari de le garder pour l'élever chez eux. Qaṭfīr accepta et puis se déroula son amour de lui suivant le récit de Dieu Très-Haut jusqu'à ce que le roi eût une vision, fit par la suite sortir Joseph de la prison, ordonna de le laver et de le vêtir somptueusement. Puis le roi l'invita chez lui ; lorsque Joseph y entra, le roi eut beaucoup de plaisir à le voir car c'était miraculeusement qu'il l'aimait et le considérait. Il lui raconta la vision qu'il expliqua, telle que Dieu Très-Haut la mentionne, puis le roi lui demanda; "qui peut me remplacer pour exécuter ceci ?", Joseph lui dit : "c'est moi, car je suis intendant expérimenté". On dit que le roi voulut examiner Joseph (salut à lui), et ses connaissances; il lui ordonna de construire le pays d'al-Fayyūm ; c'était une contrée ou l'eau du Nil s'engloutissait ; il construisit alors ce pays en déployant une sagesse miraculeuse et un talent divin, selon certains en 4 mois, selon d'autres en 90 jours. Il creusa les trois canaux, dans le pays où le Nil coulait. Quand Joseph acheva ce travail, il informa le roi qui sortit accompagné de ses vizirs et des Grands de son royaume pour voir ce qu'il avait fait (salut à lui). Lorsque le roi vit la perfection de la construction dans cette contrée dans si peu de temp, il dit à ses vizirs : "C'est un travail d'Alf Yawm" (1000 jours) ; c'est de la sorte qu'on donna dès lors à l'endroit le nom d'al-Fayyūm. On dit que le roi fut extrêmement satisfait de Joseph ; il lui donna des robes d'investiture, le couronna d'une couronne ornée de joyaux précieux, il donna ordre à l'armée de l'installer avec lui à sa tête, et de déambuler en cérémonie, de l'amener au palais et de lui donner pour siège le trône d'al-ʿAzīz, déjà mort. Le roi le désigna régent à la place d'al-ʿAzīz, lui donna le nom de ce dernier et le maria à la femme de celui-ci, Zulaīḫa. Joseph, l'épousa et la trouva vierge. Il lui dit alors : ceci est

p. 75

Nil; on l'appelait la montagne de la lune parce que la lune reste toujours levée au dessus de lui, car elle se trouve au delà de l'équateur. Il est allé jusqu'au temple du soleil et à la terre de l'or où surgissent des barres d'or.

Ce roi asservit les Coptes et règna sur leur royaume pendant 120 ans puis mourut. Un jour qu'il était parti pour la chasse sur une jument, celle-ci prit le galop et le tua. Il fut inhumé dans l'une des pyramides. Après lui, son fils ar-Rayyān Ibn al-Walīd monta sur le trône, c'est le Pharaon de Joseph (salut à lui). Les Coptes l'appellent Naqrāwaš; il était d'une grande taille, d'une belle figure, sage et charitable. Quand il prit le pouvoir, après son père, il ne perçut pas l'impôt pendant trois ans, ouvrit les trésoreries et distribua l'argent aux pauvres; le peuple l'aima et le remercia. Il était enclin à la paresse, s'adonnant aux plaisirs et confia l'administration du peuple à l'un de ses parents dit Qaṭfīr que les historiens appellent al-'Azīz, mentionné dans le Coran dans l'histoire de Joseph. C'était un homme sage, d'une haute intelligence, désintéressé, épris de justice Il ordonna qu'on lui installât dans son palais un lit d'argent pour qu'il pût s'y asseoir

p. 74

entouré de ses vizirs et des kātibs. Qaṭfīr remplit parfaitement les fonctions du roi ar-Rayyān; celui-ci ne s'occupa que des plaisirs auxquels il s'adonna complètement : on lui fit des loges en verre coloré, en cristal transparent et coloré, entourées par des eaux où on mit des poissons. Lorsque les rayons du soleil tombaient sur cet assemblage une lueur extraordinaire scintillait et éblouissait les yeux. On lui bâtit des jardins sur la rive du Nil en nombre égal à celui des jours de l'année; chaque jour il se promenait dans l'un d'eux. Dans chaque jardin on mit des meubles rares, des vases curieux qui ne se trouvent pas ailleurs.

L'histoire de Joseph, telle quelle est racontée dans le Coran datait de cette époque. La femme d'al-'Azīz est Zulaïha, fille du seigneur de 'Aīn Šams, l'une des grandes villes d'Egypte, où se trouvent des merveilles. Zulaïha était la cousine germaine d'al-'Azīz. Le nom d'al-'Azīz équivaut à celui de Qaṭfīr en langue copte; dans cette même langue le roi s'appelle Naqrawaš. Dieu Très — Haut, mentionna le nom d'al-'Azīz dans son livre sacré.

présenta; elle fit de même. Elle envoyait des messages disant: "j'ai donné ordre à l'armée de se rendre à Miṣr pour y maintenir l'ordre après mon départ". Enfin, elle entra chez Jaïrūn, avec un faucon (sur la main), entourée de ses servantes. Elle lança l'oiseau contre Jaïrūn dont les articulations tremblèrent de peur et qui perdant ses forces, ne put rien faire contre elle et fut certain de sa mort. Jaïrūn dit alors: "celui qui pense pouvoir triompher des femmes se trompe toujours". On dit qu'elle le fit saigner: son sang coula jusqu'à ce qu'il mourût. Puis elle dit: "les sangs (versés) des rois apaisent les esprits". Elle emporta sa tête, la dressa au sommet de son palais, transporta ses trésors à Memphis capitale de son royaume, construisit le phare d'Alexandrie sur lequel elle inscrivit son nom, le nom du roi, les désirs de celui-ci et ce qu'elle avait fait ainsi que la date de cet événement. On raconte aussi, à propos de la construction du phare d'Alexandrie que nous décrirons si Dieu Très-Haut le veut, que lorsque l'histoire de Ḥūriya, du roi et de ce qu'elle fit à l'armée qui entra dans son pays fut connue, ses sujets eurent peur; elle grandit à leurs yeux. p. 73 Celui qui lui disputait le trône et voulait s'emparer de ses Etats y renonça. Ainsi son pouvoir se trouvait-il consolidé, et sa cause triompha-t-elle. Elle construisit des fortifications le long des frontières égypto-nubiennes, fit beaucoup de talismans, de monuments et de choses dont la description serait longue.

On dit que lorsque Ḥūriya s'affaiblit jusqu'à ne plus pouvoir tenir le pouvoir d'une main ferme, elle confia le pouvoir à une de ses cousines appelée Dalīfa. Mais quand Ḥūriya mourut, Dalīfa se montra incapable de garder le pouvoir; le neveu d'Abrāhas appelé Aymūs marcha sur l'Egypte à la tête des armées criant vengeance pour son oncle; il demanda secours au roi des 'Amāliq souverain de la Syrie qui le seconda en représailles de ce que Ḥūriya fit à son armée et que nous avons déjà raconté. Lorsque l'armée d'Aymūs arriva, Dalīfa sortit pour sa rencontre mais, elle la battit et quand elle fut certaine de la défaite elle s'empoisonna et mourut. Puis le roi de Syrie al-'Imlīq, conquit le royaume d'Egypte; il s'appelait al-Walīd Ibn Dawma'. (les 'Amāliq sont d'une souche arabe arabisée). Il était d'une violence redoutable: il extermina les nations, conquit les pays jusqu'à arriver d'après ce qu'on raconte, à la montagne de la lune où se trouvent les sources du

d'Egypte, Ḥuriya envoya un des oiseaux avec un message à Jaïrun; dans ce message elle lui dit : telle femme entendit parler de toi ; elle t'aime, elle veut t'épouser et te donner le pays d'Egypte. Satisfait de ce qu'il entendit, Jaïrun accepta ce qu'elle lui proposait et Ḥuriya se mit d'accord avec lui pour qu'il tuât Abrahaš. Quand il lui demanda : "comment faire?", elle lui montra du poison. Il empoisonna Abrahaš qui mourut. Lorsque Jaïrun voulut la rejoindre, elle lui envoya le message suivant : "je ne peux pas me marier avec toi à moins que tu ne manifeste ta force et ta sagesse pour qu'elles soient un prétexte à notre alliance aux yeux de mon peuple ; je veux que tu me construises une ville extraordinaire pour y célébrer la noce, car je n'aime pas la célébrer dans ma ville, parmi les habitants de mon pays ; il y avait dans le pays d'Egypte une ville, maintenant détruite, mais qui était la résidence de nos ancêtres ; examine son site et manifeste-s'y ta sagesse". Elle envoya avec lui un homme qui lui montra la ville d'Alexandrie. On dit que Jaïrun s'attacha à construire la ville et que Ḥuriya lui envoya d'Egypte 100.000 artisans. Il continua la construction jusqu'à ce qu'il ait dépensé tout ce qu'il avait comme argent. Quand il eut achevé la construction de la ville, il lui envoya des messagers pour lui en faire part et pour lui demander de le rejoindre. Elle lui envoya beaucoup de meubles précieux, d'instruments curieux et lui dit en même temps : "divise ton armée en trois ; envoie m'en un tiers, puis un second tiers quand j'arriverai à mi-chemin et le troisième lorsque j'arriverai aux deux tiers de la route, afin que l'armée soit derrière et devant moi et que personne ne me voie quand je te joindrai. Il faut que je ne trouve chez toi qu'une jeune fille, ta servante".

a. 72

Puis elle commença à préparer son trousseau et de l'argent jusqu'à ce qu'il fût certain de son arrivée chez lui. Alors il lui envoya le tiers de ses soldats; elle leur prépara des mets, des boissons tous empoisonnés. Elle sortit à leur rencontre entourée de ses cavaliers et de sa suite; lorsqu'ils prirent contact, elle les accueillit et ordonna à son monde de leur donner à boire et à manger, et de les parfumer. Tout cela contenait du poison. Le lendemain, tous les hommes étaient morts. Puis, continuant son chemin, voilà qu'elle rencontra le tiers suivant; il subit le même sort. Après qu'elle se fut remise en route, le dernier tiers se

p. 71 du haut de la pyramide. Il y restait d'habitude de nombreux jours sans manger ni boire. Enfin il disparut sans qu'on sache s'il était mort ni qu'on eût de ses nouvelles, après avoir désigné comme héritier présomptif son frère Malia qui par la suite monta sur le trône à sa place. Celui-ci s'occupa surtout de manger, de boire et d'assurer son autorité sans s'intéresser à la philosophie. Malgré cela, son règne se déroula heureusement grâce au souvenir du règne majestueux de son frère Kalkan reconnu par le peuple qui croyait qu'il n'était pas mort et qu'il reviendrait un jour. Le fils ainé de Malia était un tyran hardi d'une force surprenante. Il reconnaissait l'ignorance de son père qui s'était habitué à ne rien faire, et soutenu par sa mère et quelques vizirs de son père, complota contre la vie de celui-ci. Un jour, il entra brusquement dans la galerie de son père qui était ivre et le tua; il tua avec lui l'une de ses femmes, fille de roi, qui le tenait sous son influence, la crucifia et s'empara du trône. Il était majestueux, d'une violence redoutable, connu comme meurtrier. Les Coptes prétendent qu'il est le premier des Pharaons d'Egypte et plus précisemment le Pharaon d'Abraham (salut à lui).

Les Pharaons sont sept: il étail le premier. On dit qu'on l'appelait Pharaon parce qu'il abusait de la tuerie: il tua ses parents, les membres de sa famille, ses serviteurs, ses femmes et beaucoup de prêtres et de philosophes. Il désirait beaucoup avoir des fils mais il n'en avait qu'une fille qu'il nommait Ḥuriya. Elle était sage et savante. Ḥūriya donnait des conseils à son père et l'empêchait d'accomplir beaucoup de maux et de meurtres. Mais quand elle remarqua que sa dégradation s'accentuait, elle s'inquiéta du sort du royaume et l'empoisonna, après un règne de 70 ans. Tous les Egyptiens ne se mirent pas d'accord pour l'élever au trône, puis ils la proclamèrent reine à l'unanimité, les habitants de la ville d'Abrīt exceptés: ceux-ci proclamèrent comme roi un des leurs dit Abrahaš fils d'Abrīt Ibn Misr, le roi sus mentionné dont on donna le nom à la ville d'Abrit. Entre les deux antagonistes la guerre fit rage et finit par la défaite d'Abrahaš qui par crainte s'enfuit en Syrie où règnaient les Canaans de la postérité des Amāliq. Il demanda secours à leur roi en lui faisant part de son histoire et l'encouragea à s'emparer de l'Egypte. Le roi de Syrie lui prépara une grande armée à la tête de laquelle il désigna un de ses généraux, mais lorsqu'il était à proximité

prière et lorsqu'il sentit venir la mort, il donna ordre de l'y inhumer sans ensevelir avec lui ni or, ni argent, ni joyaux, mais seulement des parfums et une page écrite de sa propre main : "ici repose telle personne, fils de tel roi ; il mourut croyant en Dieu, n'adorant aucune autre chose, détaché des idoles et de leur adoration, croyant à la résurrection, au Jugement dernier et à la Récompense; que celui qui désire éviter le châtiment de l'au delà, qu'il se range à ma croyance".

p. 70

Parmi sa postérité, le roi Kalkan, le tyran, fut couronné et choisit Memphis, résidence royale de ses ancêtres, comme capitale de son royaume. Il aimait la philosophie, la recherche philosophique et tous les arts. Il réunissait autour de lui les savants, les astronomes, les maîtres de la science chimique, au point qu'on ne fit jamais autant de chimie qu'à son époque, ce qui fait qu'on n'avait pas besoin d'or qu'on n'achetait pas, car à cette époque, l'or était aussi abondant que la chimie florissante: on versait un mitqāl d'eau chimique sur plusieurs qinṭārs d'argent pour les colorer. Les Coptes racontent qu'il inventa des choses surpassant la raison à tel point qu'ils l'appellent le philosophe des rois; il dépassa tous les prêtres en science, leur fit savoir ce qui échappait à leur connaissance; ce qui explique la crainte qu'il leur inspira.

Le Namrūd d'Abraham (l'ami de Dieu, salut à lui), tyran d'une force surprenante, régnait alors en Irak. Très violent, il conquit la plus grande partie de la terre, entendit prendre le roi Kalkan comme vizir et lui fit part de cette décision. Kalkan pris de peur lui répondit favorablement en faisant savoir qu'il voulait le rencontrer tout seul, sans femme ni entourage pour lui montrer son talent en philosophie et en magie. Le Namrūd alla à l'endroit préalablement fixé pour la rencontre et Kalkan arriva monté sur 4 juments ayant des ailes, entouré d'une lumière semblable au feu d'une magnifique apparence; il y entra couvrant ses épaules d'un énorme dragon à bouche ouverte : Kalkan tenait une baguette de myrte à la main, lorsque le dragon élevait la tête, il le battait avec la baguette. Effrayé, le Namrūd reconnut sa haute valeur en philosophie, et le sollicita d'être son assistant. Kalkan accepta. Les Coptes prétendent que le roi Kalkan s'assoyait sur la pyramide occidentale, la plus grande dans une coupole située à son sommet. Il rassemblait là bas son entourage et ses sujets afin de leur communiquer les ordres et les contre-ordres,

Par ordre royal on fit la tête du taureau en or, on l'orna de différentes sortes de joyaux, bref, on fit exécuter dans le temps prévu tout ce que le roi et le taureau avaient exigé. Cette statue leur apprenait des choses curieuses : ce qui se passait d'une façon chronologique, elle répondait à toutes leurs questions et c'est ainsi que la renommée de cette statue grandit; on lui fit des offrandes et des sacrifices, elle devint un but de pèlerinage pour les hommes de tous les horizons; elle répondait à toutes les questions,

L'adoration des vaches existait dès lors comme une tradition qu'on héritait de père en fils depuis le règne de ce roi jusqu'à ce que l'un de ces rois, un certain Māliq, monta sur le trône.

Celui-ci suivant la religion de ses ancêtres, Qaṭim et Miṣr, était unitaire et pour cette raison, les Coptes, adorateurs des astres et des vaches, le blâmait. Ce roi était habitué à conquérir et à occuper les pays; quelques égyptiens prétendirent que Dieu Très-Haut, le dota d'un ange parmi les anges pour le conduire dans la bonne voie, que l'ange lui rendait probablement visite pendant son sommeil afin de lui ordonner certaines choses et lui en interdire d'autres. Il rassembla des armées énormes, posséda beaucoup de navires sur mer, conquit des troupes de Berbères sur terre et sur mer, les battit, extermina la plupart d'entre eux, arriva en Ifriqiya, tua la plupart des habitants, non croyants, posséda 400 navires dans la mer des Rums (Méditerranée), ne passa pas par une nation sans l'exterminer jusqu'à ce qu'il conquit l'Andalousie et se mit en route vers le pays des Francs où il y avait un grand roi qui mobilisa les hommes des pays environnants et lui fit la guerre pendant un mois, puis il lui demanda la paix et lui fit beaucoup de cadeaux. C'est alors qu'il s'éloigna de son pays, subjugua les nations proches de la mer verte dont la plupart se soumirent. Il dressa sur la mer verte des monuments sur lesquels il inscrivit son nom et la date où il les construisit. Il détruisit partout les villes berbères jusqu'à les obliger á se retrancher sur les hauteurs, puis il regagna l'Egypte où il fut reçu par les Egyptiens avec toute sorte de musique et de parfum. Son chemin a été couvert de toutes sortes de plantes aromatiques et de fleurs. Il regagna son palais, victorieux, couvert de lauriers. C'est ainsi que Dieu favorise ceux qui croient à son unicité sans rien lui associer. Enfin il ordonna qu'on lui construisît une sépulture où il s'adonna à la

s'adressa à lui en ces termes : tu ne guériras de cette maladie que par l'adoration des vaches car tu es né sous le signe du taureau. Par la suite le roi ordonna de chercher un taureau bariolé d'une belle figure pour lequel il construisit, au milieu de son palais, une habitation couverte d'une coupole dorée et auquel il consacra un gardien. Il l'encensait, l'embaumait et l'adorait à l'insu des habitants de son royaume; alors il guérit, recouvra ses forces et connut une santé parfaite. D'autres racontèrent une autre anecdote : le roi avait pris l'habitude de faire un tour d'inspection dans son pays — il fut le premier pour lequel on fit des chars surmontés de coupoles en bois doré, admirablement ornés, tirés par des vaches pour faire le tour de tous ses Etats. Quand il passait dans une contrée inhabitée il ordonna de la peupler. On dit qu'un jour il contempla un taureau parmi ces vaches qui tirait le char royal — c'était un taureau bigarré d'apparence agréable — le roi l'admira et ordonna ainsi de l'enlever du char pour le faire marcher devant lui, il le couvrit de costumes de soie précieuse. Un jour il s'approcha de lui afin de le regarder, lorsque le taureau lui adressa la parole en disant : Ô roi, si tu me traites avec bienveillance, je m'occuperai de toutes tes affaires, je t'aiderai à réaliser tes désirs, je t'appuyerai dans l'administration de ton royaume et te guérirai de toutes tes maladies. Le roi fut si frappé par ces paroles qu'il ordonna de le laver sur le champ et l'embaumer. Il lui construisit un temple et donna ordre de l'adorer. Ce taureau était, dans une certaine mesure miraculeux : il ne rendait pas les excréments, n'urinait pas, ne mangeait pas — réserve faite de feuilles d'arbres une seule fois par mois; on dit qu'il charma beaucoup de gens et que ce fut l'origine de l'adoration des vaches dans le pays d'Egypte.

Le taureau qu'on adora pendant un certain temps leur ordonna de reproduire sa figure sous la forme d'une statue en or, de lui prendre quelques poils à la tête, à la queue, sous les cornes et aux sabots, pour les placer dans cette statue. Car il leur fit part

r. 69

de son prochain décès en leur donnant ordre de conserver son cadavre dans un coffre de pierre qu'ils durent dresser dans le temple, surmonté de sa statue. Ces préparatifs devaient être achevés lorsque Saturne apparaitrait à l'Est et lorsque le soleil à un moment heureux s'élèverait vers la trinité de la lune. On grava sur la statue les 7 signes des astres.

inscrivit sur les deux phares leurs noms, ce qu'ils firent et la date de leur châtiment. Par la suite, les gens s'abstinrent d'établir des relations sexuelles illégales pendant son règne. Le tombeau de 'Adīm est l'une des merveilles du monde; situé dans le désert de Qifṭ, il s'élève au-dessus du sol : c'est un dôme gigantesque en verre brillant vert, constitué par 8 voûtes allongées d'une longueur de 100 coudées et d'une hauteur de 40, par rapport au terrain environnant. Sur le sommet du dôme qui donne sa couleur aux alentours se dresse un oiseau en or, orné de joyaux précieux aux ailes déployées. C'est le talisman du dôme qui en interdit l'accès, et celui des richesses qu'il contient.

On raconte que quelques hommes allèrent à cette sépulture et au dôme dans le désert de Qifṭ, ils y contemplèrent pendant quelques jours le contenu sans pouvoir l'enlever. Ils étaient à 8 coudées du dôme lorsque celui-ci tourna successivement à droite et à gauche. Ils regardèrent les merveilles qu'il contenait, virent la dépouille mortelle du roi étendue sur un lit en or avec des vêtements tissés en or et ornés de joyaux. Son visage découvert était d'une coudée et demie, son corps avait plus de 10 coudées; de plus il avait une longue barbe. Dans un coin du dôme se trouvaient 170 livres de philosophie; il y avait 7 tables avec leurs vaisselles; l'une d'elle était, ainsi que la vaisselle, en perle rouge de grenat; une deuxième était, ainsi que la vaisselle, en or rouge qui fascinait les regards — de l'or dont on fait les couronnes des rois —; une troisième était en pierre lumineuse dite pierre du soleil; une quatrième était en chrysolithe — qui ferait crever les yeux des serpents s'ils le regardaient. Il y en avait une en souffre jaune ainsi que la vaisselle selon les récits qui figurent dans les livres de philosophie, une sixième était en sel blanc d'où jaillissait une lueur éblouissante. Une septième était en mercure solide avec des côtés et des pieds en mercure solide de couleur jaune, sa vaisselle était en mercure solide de couleur rouge. On avait mit avec lui dans le dôme des joyaux magnifiques, des vases en argent ouvré d'une façon spéciale, on avait déposé autour de lui sept sabres dits ṣa'iqiya et de sept dits kāhiniya. Il y avait en outre des statues de juments en or, avec des selles de même métal, quelques coffres remplis de dinārs frappés à son effigie; bref toutes sortes de curiosités et merveilles qui échappent à la description.

p. 68

On dit que l'un de ces rois, un certain Sāwus fut le premier adorateur des vaches car d'après les récits, il souffrit d'une maladie incurable et vit dans son rêve la figure d'un gigantesque esprit qui

qu'il désigna comme héritier présomptif. Sur son lit de mort Misr ordonna de lui creuser, entre deux montagnes, un souterrain de 150 coudées de longueur dont la terre devait être couverte de pierres précieuses, au milieu duquel on devait faire une loge à 4 portes recouverte de plaques d'or; chaque porte devait être surmontée d'une statue en or coiffée d'une couronne, garnie de joyaux précieux, assise sur un siège en or avec des pieds en chrysolithe. En vue de protéger les statues, ils inscrivirent sur chacune d'elles de magnifiques versets ainsi que certains des divers noms de Dieu Très-Haut. Ils mirent son cadavre dans un cercueil en chrysolithe couvert de plaques en or, et avec lui, dans cette loge, mille pièces de la chrysolithe taillées, mille statues en joyaux précieux, mille vases remplis de perles choisies, Ils y ensevelirent aussi les secrets de l'art divin, des médicaments secrets, de curieux talismans, des lingots en or superposés les uns aux autres; et ils inscrivirent sur la loge : "Le roi Misr Ibn Naïṣar Ibn Ḥam Ibn Noé (salut à lui), mourut en l'an 700 après le Déluge, il n'a jamais adoré les idoles car il n'a ni vieilli ni souffert de maladie ni ne s'est appauvri ni ne s'est intéressé à rien". Il préserva sa loge en inscrivant les magnifiques noms du Dieu Très-Haut pour que personne ne puisse l'atteindre; il se soummettait à Dieu, le juge par excellence, et à l'Envoyé (de Dieu) prêcheur de la bonne foi, qui apparaitrait à la fin des temps avec le Coran. Ils ensevelirent le tout sous de grands rochers, couvrirent ceux-ci de sable; c'était dans un endroit entre deux montagnes, l'une en face de l'autre, qu'ils marquèrent de plusieurs repères. Puis son fils Qaṭim qui est le père des Coptes monta sur le trône, c'était un tyran d'une grande taille. Sous son règne qui dura 400 ans la tribu de 'Ad fut anéantie dans un cyclone. Il avait fait construire de son vivant un souterrain sur des voûtes allongées, dans le mont occidental. Il y fit déposer des trésors, des merveilles, des statues, des talismans qu'on ne saurait décrire tels qu'ils figuraient dans les livres de ses aieux. On dit que les rois de la postérité de Misr Ibn Naïṣar ne cessèrent de se succéder au trône, de père en fils jusqu'au règne de l'un d'eux nommé 'Adīm, qui était sage et savant.

', 67

C'est lui, le premier, qui condamna à la crucifixion. En effet une femme et un homme s'étant prostitués, il ordonna de les crucifier sur deux phares qu'il fit construire spécialement pour eux; il les mit dos à dos, les oignit d'un mélange spécial contre la pourriture,

*Histoire de Celui qui s'Installa, le Premier, en Egypte après le Déluge.*

On dit que Miṣr Ibn Naïṣar Ibn Ḥam Ibn Noé fut le premier à s'installer en Egypte après le Déluge, grâce à une invocation faite par son grand-père Noé en sa faveur. Ibn 'Abbās raconte que Noé invoqua la divinité en faveur de Miṣr Ibn Naïṣar Ibn Ḥām qui est le père des Coptes, en ces termes: "Que Dieu le bénisse, lui et sa postérité, qu'il l'installe dans la terre bénite, mère de tous les pays et secours de tous les serviteurs (de Dieu) où coule un fleuve qui surpasse en mérite toutes les rivières du monde; puisses-Tu asservir la terre pour lui et ses enfants, la leur soumettre et les rendre forts vis-à-vis d'elle".

On dit que cette invocation fut à l'origine de l'installation de Miṣr dans la terre d'Egypte à laquelle il donna son nom. On dit aussi qui Phlaymūn crut à la mission de Noé (salut à lui) et en Dieu Très-Haut, qu'il demanda à Noé de l'amener avec sa femme et ses enfants dans son arche et que Noé l'accepta. Après le Déluge, Phlaymūn dit à Noé : Ô Prophète de Dieu, honore moi d'une situation et d'une estime qui m'immortaliseront après ma mort. Alors Noé maria [Miṣr Ibn] Naïṣar Ibn Ḥam à sa fille qui lui donna un enfant qu'on baptisa Phlaymūn, nom de son grand-père maternel. Et, lorsque Noé voulut partager la terre entre ses fils, Phlaymūn lui dit : Ô prophète de Dieu, mon pays est le plus beau de tous, je voudrais qu'il soit la part de mon fils Miṣr; envoie-le là-bas avec moi pour que je lui montre ses trésors et lui fasse part de ses sciences et ses énigmes. On dit qu'il l'envoya avec lui, accompagné de quelques parents. L'expédition comprenant 30 hommes. Quand ils y arrivèrent, ils taillèrent des rochers, construisit des réservoirs d'eau et des monuments, une ville qu'il nomma Māqa ce qui signifie 30 dans leur langue C'est la ville de Memphis. Phlaymūn montra à son gendre Miṣr Ibn Naïṣar les trésors d'Egypte, les sciences des Egyptiens. Il lui enseigna les caractères des inscriptions des temples, mit à sa portée, or, argent chrysolithes, turquoise et autres joyaux.

p. 66

De plus il lui dévoila les secrets de la chimie sur le mont oriental qu'on appellerait par la suite al-Muqaṭṭam. Il épousa une femme parmi les filles des prêtres qui lui donna 4 enfants, dont Qaṭīm

contre lorsqu'on le replace, l'huile redevient telle qu'elle était. Quelques personnes allèrent à cette église, observèrent le phénomène, vidèrent la bouteille, la chargèrent d'un peu d'huile pour qu'elle déborde en effectuant ce que nous avons déja mentionné. Mais revenons à l'histoire du roi Šundīn.

On dit : lorsque le roi Šundīn mourut après un règne de 135 ans et fut inhumé dans la pyramide occidentale, son fils Qamnāwaš lui succèda. Il fut un tyran, opprima le peuple, versa le sang, enleva les femmes, extraya beaucoup de trésors, construisit des palais en or et en argent décorés de joyaux précieux, y installa des bassins où il mit des joyaux sur lesquels coulait l'eau, il fit des choses telles que n'en fit jamais aucun autre roi. Il reprocha à ses aïeux leur ignorance, asservit les gens, ne faisait pas cas des temples et autres choses sacrées. Quand il mourut son fils lui succèda, mais il supprima l'injustice, essaya de gagner la sympathie de son peuple, s'adonna à la science, remit les temples sacrés à la place qu'ils avaient du temps de ses aieux, encouragea les astronomes et les prêtres. A son époque on fit des merveilles comme au temps de ses pères. Il régna un certain temps, mais comme il n'avait pas d'enfants, il épousa 300 femmes dans le but d'avoir un fils mais en vain, car les femmes sont devenues stériles à son époque.

C'est pendant son règne que se propagea l'histoire de Noé (salut à lui). On dit : comme il n'avait ni fils ni frère et qu'il avait peur de perdre son trône, il associa au trône Phar'ān, l'un de ses cousins qui fut un tyran car il conquit les pays et asservit les nations. Une des femmes du roi se mit d'accord avec lui pour assassiner le roi et accéder au trône. Il suivit ce conseil et s'empara du royaume. Après quoi il se montra un tyran orgueilleux et conquérant. Il est intéressant de souligner que la souche des Pharaons part de lui et qu'il lui donna son nom. Du Mašīl ,p. 65 Ibn 'Arbīl Ibn Daršīl le Grand lui écrivit pour lui faire part de l'histoire de Noé et par la suite Phar'ān lui répondit en lui conseillant de tuer Noé, mais tous deux périrent dans le Déluge.

Dans ces temples il y avait des choses curieuses, des talismans dans d'innombrables tombeaux dont la plupart disparurent, de même que la plupart des temples furent détruits. Quant aux pyramides, elles existent telles qu'elles étaient sans qu'aucune de leurs parties ne se soit lézardées.

On dit que la destruction de certains monuments, tels que le temple de Buṣir et le temple de Samannūd et bien d'autres est dûe à la faute des astronomes qui se trompèrent en tirant l'horoscope et ne le corrigèrent pas au moment du commencement des travaux des fondations. Pour les monuments qui subsistent, les horoscopes ont été exacts. Il n'y a pas de doute que ceux qui ont bâti ces temples ont été éloignés des rois et de leur surveillance. Ce n'était pas le cas des pyramides qui étaient proches de la résidence du roi d'Egypte qui les surveillait, alors que les temples étaient surtout nombreux dans les provinces. On dit que chaque temple a ses caractéristiques et son intérêt pour la contrée où il se trouve et ses environs. Les habitants de ces pays ne doutent pas que, lorsqu'on détruisit le temple de Samannūd et que ses pierres furent transportées à Ušṭūm Demiāṭ, le jour même où l'on finit la destruction du mur occidental, Ḥabāsa entra à Alexandrie de vive force et la détruisit, les sables s'accumulèrent dans la mer et le Nil cessa d'y arriver pendant les mois d'été alors qu'avant il y coulait en été comme en hiver; les champs ne donnèrent plus de belles récoltes, les rats et les sauterelles s'y multiplièrent et les dégâts sans précédents.

Parmi les curiosités mentionnées en Egypte, il y a dans un village nommé Badrasāna, une ancienne église chrétienne avec une chambre à laquelle on accède par un escalier de plus de 20 degrés. Il y a un lit sur lequel gisait le cadavre d'un jeune homme; sous le lit se trouve la figure d'un énorme taureau en verre, dans le ventre duquel se trouve une bouteille en verre enveloppant un tuyau en cuivre dans lequel passe une mèche de lampe en lin; lorsqu'on verse sur celle-ci un peu d'huile, la bouteille se remplit d'huile qui s'écoule encore dans le ventre du taureau. Le gardien de l'église en prend toujours pour allumer toutes les lampes de l'église, son accroissement et son augmentation ne cessent jamais au cours des jours et des siècles, mais si l'on enlève le cadavre du jeune homme, le feu s'éteint et l'huile n'augmente plus; par

p. 64

une défense magnifique contre tous les lions aussi bien que contre tout ce qui fait du mal; si l'on met sur ce talisman de la viande, et que l'on affame un chien ou un lion et le fasse approcher, ils ne seront en aucune façon à même d'en prendre. Il dit: je fus étonné de ce qu'il dit et mis le talisman à l'épreuve et le trouvai tel qu'il avait dit. Les habitants d'Ihmīm savent qu'il y avait dans le temple qui se trouve chez eux la figure d'un diable se tenant sur un seul pied, une seule main levée, ayant au front et sur les côtés des inscriptions. Son sexe était gravé sur le mur très visible. On dit que celui qui pourrait d'une façon creuser autour du membre sexuel afin de l'enlever sans le briser puis l'accrocherait à sa taille serait excité jusqu'à ce qu'il l'enlève; mais tant qu'il l'aurait sur lui il aurait toujours envie d'une femme. On dit que lorsqu'Ibn al-Ġamr fut installé comme gouverneur d'Ihmīm, on lui raconta cette histoire; il chercha cette figurine dans le temple et il n'en trouva qu'une seule, qui se trouvait près du plafond; il en prit soin jusqu'à ce qu'il l'enlevât et il l'employa et raconta à son sujet des choses curieuses. On dit qu'il y avait beaucoup d'images semblables dans le temple et qu'on les avait toutes prises

Al-Waṣifī dit: un homme digne de foi m'a raconté qu'on trouva dans un certain temple une bouteille d'une forme carrée en verre rouge, placée dans une sorte de niche et contenant une eau jaune, on ne savait pas à quoi pouvait servir cette eau; alors on la jeta et un homme prit la bouteille. Elle resta chez lui jusqu'au jour où un hôte étranger vint chez lui; la bouteille lui plut et il demanda de lui raconter son histoire; il la lui raconta ainsi que celle de l'eau qui y était, cet homme regretta beaucoup la perte de l'eau et dit: vous avez perdu une science haute et beaucoup de bien, il ajouta: si vous aviez réchauffé l'argent pour le tremper ensuite dans cette eau, il aurait été transformé en or. Je regrettai la perte de l'eau. Puis il m'a dit: veux-tu que je te montre des choses curieuses concernant cette bouteille ? Je répondit: oui. Il me demanda de la peser; je la pesai et la trouvai d'un poids de 4 ratls juste. Il me demanda de la remplir d'eau ou de ce que je voulais; je dit: voici, puis il me demanda de la repeser; je la repesai et trouvai que son poids était le même, justement 4 ratls comme lorsqu'elle était vide sans augmentation ni diminution; j'en fut surpris Cette histoire se répandit au point d'être connue par l'un des gouverneurs qui me prit la bouteille.

p. 63

a vu là bas une image qui lui plaisait: celle d'un homme dont la tête était surmontée d'un oiseau; à son côté se blottissait un chien; sous ses pieds il y avait une inscription. Il dit: je l'ai fidèlement dessiné sur un papier et je suis resté trois jours sans dormir, sans manger et je n'avais pas d'appétit pour aucun mets sans pouvoir en connaitre le motif jusqu'au moment où pensant au dessin que je portais sur moi; je m'en suis débarrassé; aussitôt je recouvris mon appétit, je mangeai et me rendormis. Un des habitants d'Ihmim raconte qu'un homme d'Orient, versé dans toutes ces sciences vint à Ihmim et on parla avec lui du temple. L'Oriental avait dit à quelqu'un si tu y trouvais l'image d'un homme nu, vêtu d'une culotte, tenant dans la main droite une hache à deux pointes, tu la copierais ainsi que les écritures qui l'entourent. L'homme dit: je le fis, le lui apportai et lui demandai les caractéristiques de cette image, il me donna de quoi manger et me dit de ne pas m'en occuper de peur que le temple n'en fût affecté. Il ajouta: je suis allé là-bas, j'ai piqué l'image avec un fer à creuser la pierre, je l'ai détruite et obstruée, puis je lui ai demandé quelle était son histoire; il m'a dit des choses incompréhensibles sans me donner de renseignements utiles. Je discutais ensuite avec des Orientaux; l'un d'eux s'étant montré particulièrement curieux de cette question, je lui demandai ce qu'il savait; il me dit alors que si l'on place cette image à un endroit où est enterré un trésor, de la poussière s'élève en l'air. On peut donc grâce à ce signe, qui révèle visiblement l'existence des trésors, chercher à découvrir des richesses. J'ai été désolé de l'avoir détruite.

De même les habitants de Samannūd racontent des histoires extraordinaires à propos de leur temple: un homme qui y était entré, ayant dessiné sur la paume d'une main une figure qui lui avait plu, l'un de ses yeux se ferma aussitôt. Il ne s'ouvrit que lorsqu'on lui eut inscrit la figure située en face d'elle sur la paume de la main.

*p. 62* Al-Wasifi dit: un homme digne de foi m'a raconté qu'il a vu dans le temple de Samannud la figure de deux diables entourés d'une chaîne dont ils tiennent les deux bouts, dans l'intervalle qui sépare les deux diables se trouve une inscription; il ajouta: j'ai dessiné tout cela tel que c'était, et je le gardai chez moi jusqu'au moment où vint chez moi un connaisseur qui me dit que c'était

instruire. Ils continuèrent leur marche et trouvèrent une fontaine sous une coupole, sur laquelle l'eau tombait en faisant un chuchotement intense comme si elle éteignait du feu ; l'eau s'engloutissait et on ne la voyait plus. Ils déambulèrent et trouvèrent une chambre bouchée où ne se voyaient pas de portes, à moins qu'elles ne fussent de pierre. On y entendait un grand bruit dont on ne savait pas les causes. Ils trouvèrent tout près, une sorte de grand bassin où il y avait de l'eau et des dīnars dont une face était décorée de l'image d'un lion et l'autre de l'image d'un oiseau ; ils en prirent un peu, mais, au même instant furent paralysés et rendus muets, jusqu'à ce qu'ils les eussent laissés à leur place.

Quant aux temples antiques, ils contiennent des talismans, des écritures, des œuvres d'art, la figuration de tous les instruments et l'art d'enseigner toutes les sciences. Tous sont gravés sur la pierre solide, les gens y vont pour les chercher et ils en profitent beaucoup.

Al-Waṣifi dit : j'ai vu dans le temple d'Ihmīm l'image d'un scorpion sur laquelle j'ai passé un morceau de čire. Depuis je n'ai pu déposer cette image dans tel ou tel endroit sans que les scorpions ne l'entourent de tous côtés. Si elle se trouve dans un coffre, les scorpions se rassemblent autour du coffre et au-dessous. L'un de mes amis l'a demandée et l'a prise. A mon retour à Ihmīm j'ai trouvé l'image détériorée et presque détruite. Dans ce temple, près de la porte d'où part l'escalier, à gauche de l'entrée, il y a l'image d'une tête humaine avec une longue barbe, des cheveux touffus, semblable à la tête d'un esprit, sans corps. On dit que les Anciens étaient habitués à parfumer cette tête avec de l'encens connu par eux; ceux qui l'encensaient, trouvaient là bas un dīnar: c'était là un secours pour les mendiants. Al-Waṣifi dit: j'ai exploré le lieu à proximité de cette tête et j'ai rencontré des traces très nettes de l'encens et du parfum. Il mentionna qu'à la porte d'Ihmīm il y avait un talisman; c'était un morceau de pierre de la forme d'un chapeau conique à l'image du bec d'un oiseau sous lequel on disait qu'il y avait beaucoup d'argent. Plusieurs gouverneurs d'Ihmīm essayèrent de l'enlever ou de le casser mais aucun ne le put. Les marteaux se fracassent sur lui sans qu'il en soit têlé même en partie. Un homme m'a dit qu'il

p. 61

de l'ouverture, pensant à leur camarade, à leur situation et à ce qu'ils devaient faire. C'est alors qu'une ouverture semblable à une fenêtre ronde s'ouvrit et jeta vers eux cet homme tout nu, difforme, couvert de sang coagulé, les yeux immobiles, parlant un langage étrange, incompréhensible. Quand il eut finit de parler, il tomba mort. Alors leur crainte s'accrût, leur tristesse et leur peur aussi, lorsqu'ils comprirent qu'ils venaient de s'immiscer dans une affaire grave. On dit qu'ils emportèrent leur camarade mais leurs aventures furent connues du gouverneur d'Egypte, Ibn al-Mudabbir sous le règne d'al-Mutawakkil, qui leur demanda de lui raconter leur histoire. Ils lui racontèrent ce qui s'était passé à son grand étonnement. Il ordonna d'inscrire la parole que l'homme mort avait prononcée, tel qu'il l'avait dite. Ibn al-Mudabbir en chercha alors le sens et finit par trouver un homme qui connaissait quelque peu cette langue et qui l'expliqua ainsi : "c'est la récompense réservée à celui qui revendiquait ce qui ne lui appartenait pas, et qui voulait dévoiler le secret de ce qui n'est pas connu. Que cela serve de leçon". On dit qu'Ibn al-Mudabbir interdit dès lors à toute personne de s'intéresser aux pyramides.

p. 60 Suivant une autre anecdote, quelques personnes pénétrèrent dans les pyramides et trouvèrent dans une certaine chambre un glacis, donnant accès à un puits. Ils y descendirent et trouvèrent un souterrain dans lequel ils marchèrent pendant une demie journée jusqu'à une fosse profonde couverte d'une jolie porte derrière laquelle ils pouvaient voir la lueur de l'or, de l'argent et de joyaux inestimables. Du fond de la fosse à la porte située juste en face d'eux, derrière laquelle se trouvait l'or et les joyaux, il y avait une barre de fer enveloppée d'un pivot également en fer qui tournait sans être attachée à la porte ; ils essayèrent de l'arrêter et de neutraliser son mouvement mais ne purent. Alors ils attachèrent l'un deux à une corde, afin qu'il parvînt à l'autre côté en s'accrochant à la barre ; mais celle-ci tourna, il fut embarrassé, tomba et la corde à laquelle il était attaché se coupa. Ils sortirent en fuite alors dehors sans regarder en arrière.

Selon une troisième anecdote quelques hommes entrèrent dans les souterrains de la pyramide pour arriver à une idole de couleur verte représentant un vieillard, devant lequel il y avait d'autres petites idoles. On avait l'impression qu'il était en train de les

On dit que Dū'n-Nūn al-Ihmīmī était versé dans la science du temple à tel point qu'il connaissait parfaitement le grand art, qui est la science de la chimie et de la substance. Il voyagea de Bagdad à Miṣr en une seule nuit, c'est l'une des choses extraordinaires qu'il fit, l'histoire en est notoirement connue. On dit qu'il était au service d'un ermite d'Ihmīm nommé Sās, pendant sa jeunesse, qui lui apprit le sens de l'écriture du temple, la façon de faire les sacrifices, d'employer l'encens et le nom de l'esprit et lui demanda de le garder en secret. Lorsque Dū'n-Nūn eut bien étudié la chimie, il effaça les traces de celle-ci avec de la pâte de l'art pour que personne ne le sache, car il est impossible d'enlever cette pâte. Ce caractère est inscrit dans le livre moyen de politique qui était un livre bien connu :

| M | L | K | Ẓ | Ṭ | Z | R | Ḏ | D | Ḫ | Ḥ | G | Ṯ | T | B | A |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| م | ل | ك | ظ | ط | ز | ر | ذ | د | خ | ح | ج | ث | ت | ب | ا |

p. 59

| Y | Lā | W | H | Š | S | Q | F | Ġ | 'A | Ḍ | Ṣ | N |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ى | لا | و | ه | ش | س | ق | ف | غ | ع | ض | ص | ن |

...et elles contiennent de la chimie (sic). Selon certaines légendes relatives à l'Egypte : des gens allèrent aux pyramides, descendirent dans ces puits et essayèrent d'y pénétrer par les trous d'où sortent les vents. Ils portaient des lampes à huile dans des vases de marbre. Lorsqu'ils pénétrèrent dans ces trous un vent fort souffla, les obligea à sortir et éteignit la plupart de leurs lampes. Ils choisirent alors le plus audacieux d'entre eux et le plus résolu, le plus courageux, attachèrent une corde autour de sa taille et lui demandèrent d'entrer dans la pyramide en lui disant : si tu voies quelque chose que tu redoutes, nous te tirerons. Lorsque le prétentieux y entra et força ce vent, le trou se ferma sur lui, ils le tirèrent aussitôt mais leurs cordes se rompirent et l'homme resta dans ce trou sans qu'ils ne sussent plus rien de lui ; puis ils fuirent hors de ce puits, désolés de ce qui était arrivé à leur camarade. Ils s'assirent près

ils inscrivirent des signes destinés à chasser les maux et les fléaux. Chaque idole avait un instrument semblable à une corne qu'il mettait sur sa bouche. Au milieu de chaque pyramide se trouvent des créneaux ménagés dans des voûtes allongées, dont les sorties sont étroites et les entrées larges, qui attirent des vents soufflant en permanence contre ceux qui y entrent et peuvent les tuer s'ils ne les évitent pas. On dit qu'al-Ma'mun en fut surpris et renonça à s'occuper de quoi que ce fut en ce qui concerne ces monuments.

On dit qu'on fit des passages souterrains donnant accès aux différents endroits; parmi ces passages certains donnent accès au pays d'al-Fayyum qui se trouve à une journée et demie de l'ancien Caire (Misr) dans la direction de l'occident et à plus de deux jours du Maghreb, où se trouvent dans sa partie basse, des canaux donnant sur le Nil. On dit qu'il confia chacune de ces pyramides aux esprits (pour la protéger).

Dans la pyramide occidentale, il symbolise un esprit sous les traits d'une femme nue dont le sexe est découvert: elle a deux mèches de cheveux et elle est bien faite. Quand elle veut attirer un homme, elle lui fait un sourire et l'invite pour se donner à lui; s'il la suit elle le tue. C'est ce que raconte un homme qui la vit plusieurs fois. De même il confia la pyramide méridionale à un esprit représénté par un garçon imberbe, tout nu, bien fait, qui agit de la même façon; on le voit de temps en temps hors du temple. Entre temps il disparait dans la pyramide. Dans la pyramide colorée, il y a l'image d'un vieillard qui s'habille comme un ermite, tenant dans la main un encensoir comme s'il se parfumait d'encens.

Ainsi il confia tous les temples aux esprits Les habitants de la ville d'Ihmim voient l'esprit du temple qui s'y trouve sous les traits d'un garçon (mignon) noir tenant à la main une canne. Personne n'ose entrer dans le temple dès l'après-midi jusqu'au matin. Il en est de même pour la ville de Samannud où il y a un esprit représenté par un homme grand, avec une petite barbe et des cheveux gris. Par contre dans le temple de Qift, on voit l'image d'une femme noire avec un enfant noir qu'elle porte sur le bras. Grâce aux offrandes et aux formules spéciales à chaque temple, l'esprit peut reveler les sciences du temple et ses trésors.

58

était égal au montant de la somme trouvée; le Prince des croyants en fut surpris ainsi que de leur connaissance (préalable) de l'endroit où on devait ouvrir cette pyramide au cours des siècles et par la suite il accorda plus de confiance à l'astronomie.

On dit qu'al-Ma'mūn entra dans la pyramide et s'y promena. Il trouva une idole verte, debout, tendant la main, mais il n'a pas su son histoire ; il regarda le glacis, le souterrain et le puits qui se trouvent dans la pyramide et donna ordre d'y descendre. On dit que quelques personnes parmi les siennes y descendirent de degré en degré jusqu'à ce qu'elles arrivassent à une idole de couleur rouge dont les yeux était noirs et blancs comme les yeux d'un homme qui les regardait, ils furent terrifiés en imaginant qu'il bougeait et s'en allèrent en informer le Prince des croyants. Cela l'incita à chercher à savoir beaucoup de secrets. Suivant une autre anecdote on dit qu'il trouva beaucoup d'argent.

p. 57 On raconte qu'al-Ma'mūn demanda aux savants d'Egypte versés dans l'histoire du monde, si ces pyramides avaient des portes par lesquelles on pouvait entrer; ils lui dirent qu'elles avaient des portes dans le sol, ménagées dans des voûtes allongées construites en pierres; la longueur de chaque voûte était de 20 coudées et elle avait une porte faite d'un seul bloc de pierre tournant grâce à des charnières; quand elle est fermée on ne peut savoir s'il s'agit d'une porte car elle se confond avec le mur et son montant ne permet pas à la petite fourmi de pénétrer; on ne peut connaître son emplacement qu'avec des formules, des sacrifices et des encens connus.

Dans ces pyramides il y a des tombeaux en or, en argent, en matières chimiques, en chrysolithes précieuses, en perles inappréciables dont la description est impossible. On y trouve des livres intacts, contenant tout ce qui est précieux et complet en philosophie et en chimie, et des statues magnifiques en or coloré dont les têtes sont surmontées de couronnes superbes, incrustées de perles inestimables, ce qui permet de se rendre compte de la magnificence royale à cette époque. En outre ils ont créé pour tout cela, des talismans qui les protègent jusqu'à une certaine époque. Ils voulurent conserver ceci, dans l'intérêt de leurs successeurs et de ceux qui vinrent après eux, comme témoignage de la splendeur de leur royaume. On dit qu'ils ont creusé les fondations de ces monuments au moment heureux, qu'ils mirent dans les fondations de chacun une idole sur laquelle

aurait pas ensuite d'autres événements qu'ils pussent lui faire connaître. Ils demandèrent à réfléchir et ils observèrent le cours des astres pour des milliers d'années et lui dirent que lorsque l'astre "Cœur du lion" aurait parcouru les deux tiers d'un de ses tours c'est la dernière minute de l'astre Scorpion - il ne resterait aucun animal vivant sur terre qui ne soit anéanti et quand il aurait achevé le tour, les nœuds qui tiennent les sphères se déferaient. Il leur demanda quand ? Ils lui dirent que cela se passerait le "Lendemain" de l'existence des sphères. On dit que le roi en fut étonné et ordonna d'inscrire tout ce que les savants avaient dit de ces philosophies dans des livres qui furent déposés dans ces pyramides. On dit que ces pyramides renfermèrent depuis les premières générations les connaissances des hommes de tous les temps.

p. 56 Revenons à l'ouverture pratiquée dans la pyaramide. On dit qu'al-Ma'mūn fils de Hārūn ar-Rašīd, après la guerre d'at-Taīmā' et lorsqu'il s'installa en Egypte, voulut détruire les pyramides. Mais un šaiḫ égyptien lui fit savoir que c'était impossible et il lui dit : il n'est pas bon que le Commandeur des croyants poursuive quelque chose sans l'atteindre. Al-Mamun répondit : il faut que je sache ce qu'elle enferme. Il ordonna ensuite d'ouvrir l'une des plus grandes pyramides ; on fit alors une ouverture dans la façade nord pour que le soleil ne restât pas trop longtemps au-dessus de ceux qui travaillent. Quand ils commencèrent le travail, ils trouvèrent une pierre solide que le fer ne pouvait mordre, alors ils allumèrent du feu près de la pierre et lorsque celle-ci devenait rouge, ils l'arrosaient avec du vinaigre pour la battre ensuite avec des mangonneaux et des barres de fer. Ils travaillèrent ainsi pendant plusieurs jours jusqu'à ce qu'ils eussent percé l'ouverture qui existe maintenant et par laquelle on entre dans la pyramide. Ils découvrirent qu'elle avait été construite en fer et en plomb, que la largeur du mur était de 20 coudées ; ils trouvèrent près de l'endroit qu'ils percèrent un vase d'une pierre verte contenant de l'argent, une espèce de grand dinārs, dont chacun pesait 27 mitqāls et deux tiers. Al-Ma'mūn donna ordre de peser l'argent ; ils le pesèrent et trouvèrent une somme déterminée. Al-Ma'mun (Dieu le pardonne) était intelligent ; il ordonna de faire le compte des dépenses pour l'exécution de cette ouverture ; ils le firent et constatèrent qu'il

longueur de 150 coudées (de l'époque); la largeur est la même; sa hauteur est de 400 coudées et on dit que ses fondations souterraines sont égales à la hauteur; l'épaisseur du mur est de 20 coudées.

p. 55 Lorsque la construction de ces pyramides et de ces temples fut achevée, le roi fit inscrire sur les murs et les plafonds des temples toutes les choses connues et tous les secrets: indices des astres, motifs, facultés, caractéristiques, secrets; les grands codes des lois, la composition des remèdes et leur combinaison, les connaissances sur les médicaments, leurs noms et images, la science chimique et bien d'autres choses de ce qui fait du bien ou du mal; tout cela est résumé et expliqué à ceux qui connaissent leur écriture et la comprennent. Il grava sur ces murs et ces plafonds les talismans, inscrivit sur chacun d'eux ses caractéristiques, ses pouvoirs en bien et en mal. Dans ces pyramides, il entassa des œuvres d'art en or, en argent, en chimie, en chrysolithes précieuses, en perles inappréciables dont la description est impossible à faire. Ses fils agirent après lui pareillement.

Lorsque ces pyramides et ces temples furent achevés selon les désirs du roi, il dit: est-ce que ces monuments se décomposeront un jour? Ils réfléchirent et les jugèrent éternels. Il leur demanda si l'un de leurs côté serait percé et si quelqu'un y entrerait? Ils réfléchirent et lui dirent qu'il pourrait en être ainsi dans une telle pyramide dans la façade nord. Il leur demanda d'indiquer exactement l'endroit; ils réfléchirent et le lui indiquèrent. Il leur demanda la date, et après avoir réfléchi ils l'informèrent que cela se passerait dans 4.000 tours du soleil - le tour (du soleil) est un an. Il leur demanda, combien dépenserait-on pour percer cette ouverture, et après avoir réfléchi ils lui désignèrent la somme; alors il leur demmanda de déposer dans l'endroit prévu une somme égale à celle que l'on dépenserait en or. Il les exhorta pour qu'ils achèvent la construction des pyramides et des temples, ce qu'ils firent en 60 ans. Il donna ordre d'inscrire sur ceux-là: "nous avons construit ces pyramides en 60 ans; je défierai quiconque de les détruire en 600, alors que détruire est plus aisé que construire".

Il leur demanda de voir si, après, ce fléau, il y aurait une autre calamité. Ils regardèrent les astres qui démontrèrent à ce moment là, qu'un autre fléau viendrait du ciel à la fin des temps, qui serait d'une nature différente du premier, étant donné qu'il serait de feu et qu'il incendierait tous les pays du monde. Ils lui en firent part. Il leur demanda alors, s'il n'y

lion" aurait atteint la première minute du Cancer et que le soleil et la lune seraient à une minute de l'astre al-ḥamal (bélier). Quand le roi Sūndīn fut certain de ces faits, quand il sut que cette calamité prendrait la forme d'une inondation de la terre et de ce qui est sur sa surface il ordonna la construction des pyramides. Celles-ci sont les "Birbās" (temples antiques) construits pour perpétuer leurs sciences, leurs arts, leurs histoires, les coutumes de leurs rois, leur comportement envers leurs sujets et citoyens. Elles sont aussi de grands monuments destinés à être des coffres pour leurs richesses et leurs trésors, des magasins pour leurs vivres. Elles sont encore des tombeaux pour eux et leurs parents et destinés à protéger leurs dépouilles mortelles de la pourriture et à les garder en bon état. Il ordonna que la construction en fût de pierre solide, pour être à l'abri des siècles et hors des atteintes du déluge. Selon d'autres sources il aurait donné ordre que ces pyramides et ces tombeaux fûssent construits les uns en brique, les autres en pierre. Or, si la calamité devait consister en une invasion par l'eau, la brique aurait été désagrégée et seule la pierre serait restée; si au contraire c'était une destruction par le feu, c'est la pierre qui aurait été détruite, la brique aurait résisté. Mais, s'agissant de l'eau, les pyramides de brique avaient disparu, seules sont restées celles de pierre.

p. 54

Le roi ordonna à ses vizirs d'accompagner les astronomes et les prêtres (pour accomplir cette tâche); ceux-ci choisirent un emplacement pour bâtir ces monuments c'est-à-dire les pyramides et les temples antiques. Ils choisirent un endroit proche du Nil, sur la rive gauche où une ville fut construite qui porta le nom de Marqa c'est-à-dire suivant leur langue "endroit où on apprend la philosophie". Le roi ordonna de chercher des hommes et de la main d'œuvre. Il rassembla 7000 travailleurs pour les appareillages, un nombre plus élevé pour la construction. De même il fit faire des barres de fer et extraire du plomb. On préparait le bloc de pierre, on le perçait et y introduisait une barre de fer qu'on y fixait au moyen de plomb liquide; de la même manière on fixait sur ce bloc de pierre un autre bloc appareillé et percé de la même façon par la même barre autour de laquelle on versait du plomb liquide de même que sur les deux blocs ensembles. C'est ainsi que l'édifice est devenu un monument qui n'a jamais eu son pareil dans le monde Le mur de la pyramide est d'une

arbre dont on mangeait toutes sortes de fruits. Il fit des merveilles et des choses curieuses dont la description est infinie. Après la mort de Misrām quelques uns de ses fils lui succédèrent sur le trône; chacun d'eux faisant durant son règne des assemblages merveilleux et extrêmement rares, entre autres : des talismans, des figures, des idoles construits en perles précieuses. Cela dura jusqu'au règne de Šundīn fils de Salomon auteur des pyramides. Celui-ci était un roi sage et savant qui aimait les savants. Il était versé dans la science, dans la philsophie comme ne l'avait été aucun roi ni aucun homme avant lui. Il employait à satisfaire les intérêts de ses sujets comme ne le faisait aucun autre roi, donnait des pensions aux malades et aux faibles à l'aide de son argent propre. p. 53 Il fit un miroir d'un mélange spécial et le dressa sur un phare au milieu de son palais; dans ce miroir il voyait tous les peuples, tous les pays et bien d'autres choses et y apportait une amélioration en conséquence. Il avait ordonné au prêtre en chef et à ses subalternes d'observer chaque jour ce qui se passait dans le monde et de l'inscrire dans un livre. C'est ainsi que les savants, les prêtres et les astronomes convoqués de tous les points de l'horizon compilèrent tout ce qu'il lui fallait et l'assurèrent de ce qu'il désirait. On lui fit de merveilleuses et admirables constructions, des talismans et bien d'autres choses. C'est à son époque que furent élevées les pyramides.

On dit qu'il n'y a pas sur terre de pierres déposées les unes sur les autres de façon plus étrange que celle des pyramides égyptiennes. Le motif de leur construction peut se résumer ainsi : le roi Šundīn fit un rêve magnifique; il vit l'astre dit al-Bāniya dans l'image d'un oiseau blanc qui enlevait les hommes et les lâchait entre deux montagnes; il semblait que les montagnes les enveloppaient et que les astres illuminés paraissaient sombres et éclipsés. Il communiqua son rêve aux chefs des prêtres, aux savants et leur donna ordre de chercher ce que pouvait être la signification terrestre de cette disparition des astres. Ils consultèrent, alors, les astres qui annoncèrent une calamité qui viendrait du ciel et de la terre à la fois. Une fois édifiés, ils en informèrent le roi qui leur demanda de quelle nature est cette calamité; ils cherchèrent les secrets et les détails de son histoire et trouvèrent qu'elle frapperait la terre, ses habitants, ses animaux et tout ce qu'elle contient. Ils dirent au roi que ce fléau engloberait tous les pays du monde sauf une partie infime, que ce phénomène se déroulerait lorsque l'astre "Cœur du

crime en usant du ḥasis, il agit ainsi : il amène la personne qui accepte de le suivre dans une ville souterraine semblable. Lui montrant ce qu'on lui avait préparé il lui dit : "tout cela est à toi si tu tues telle personne dans tel endroit". Il l'amène dans cette ville alors qu'il est sous l'influence de la drogue, jusqu'à ce qu'il ait pris conscience, puis, au moment de le laisser partir il lui fit boire la boisson dormitive, et quand celui-ci recouvre ses sens dans sa maison en se rappelant ce qui s'est passé, il le raconte alors à la première personne qu'il trouve devant lui ; on lui disait qu'il avait vu cela dans son rêve et que c'était un signe de bonheur pour lui et on l'encourageait à ne pas hésiter à accomplir l'ordre donné; on lui disait qu'il était pardonné de ce crime en lui montrant un poignard empoisonné, déjà préparé; le misérable sortait alors pour accomplir sur le champ ce qu'on lui ordonnait.

p. 52

L'auteur dit : lorsque le roi Naqrāwaš, sus mentioné, mourut, son fils Sawrat lui succèda au trône; il était croyant en l'unicité de Dieu. Il ferma les temples des Astres et il arriva que l'eau du Nil diminuât sous son règne. Par la suite, ses frères le détrônèrent en faisant monter sur le trône leur jeune frère Miṣrām, dont nous avons parlé. Celui-ci était un tyran; il multiplia les temples des Astres et manifesta solennellement sa gratitude envers eux, récompensa leurs gardiens, augmenta leurs frais et leurs sacrifices. Il avait un maître qui lui conseilla de s'écarter du public en lui enveloppant le visage d'une lumière éblouissante, il lui dompta des lions qu'il enfourcha, puis il prétendit être Dieu, et invita son peuple à l'adorer. Il s'absentait pendant une période de 30 ans; durant son absence il montait des espèces de grandes bêtes à figure terrifiantes, entre autres des animaux sauvages et des lions. Ce prêtre l'amena jusqu'à la mer noire au milieu de laquelle il lui érigea une idole en pierre noire et blanche, sur laquelle il inscrivit son nom et le consacra comme sacrifice au Soleil; c'est lui qui construisit la citadelle d'argent qui se trouve dans la mer noire, et dont l'histoire est bien connue. Cela est raconté par le prêtre al-Maws dans les chroniques des anciens rois. Il inscrivit sur l'idole : je suis Miṣrām le tyran, compilateur de l'histoire, révélateur des secrets, j'ai propagé la philosophie idéale, révélé les choses étranges, élevé des monuments gigantesques sur les mers pour qu'on sache après mon règne qu'il n'y a jamais eu de royaume égal au mien. On dit qu'il avait planté dans la ville de Barsān un

sur une haute colonne: l'oiseau sifflait deux fois par jour, au lever du soleil et au coucher, des sifflements différents grâce auxquels on pouvait prédire le cours des événements. Il construisit dans la ville de Barsān, qu'il avait bâtie pour son fils Misram, un dôme en or sur un phare d'une hauteur qu'il atteignit les nuages qui le protégeaient ainsi du soleil. Il fit élever au sommet de la porte de la ville des idoles orientées dans des sens différents; si quelqu'un venait avec une mauvaise intention, ces figures lançaient, paraît-il, sur lui des flammes dévorantes. Son règne dura 230 ans et quand il mourut, son peuple fut terriblement affligé. On aurait porté sa dépouille mortelle sur les épaules en déambulant pendant 30 ans.

*p. 51* Son fils Misram lui succéda sur le trône. Celui-ci adorait Saturne, il fit la guerre à une nation de génies jusqu'à ce qu'elle fut soumise grâce aux enchantements magiques. Il construisit dans le Sahara du Maghreb des villes dressées sur des colonnes en marbre, entourées de filets en or, et y installa des bibliothèques de philosophie. Il leur fit des portes souterraines munies de cadenas et de clefs solides. Il y avait trois villes; dans chacune trois coffres qui renfermaient les curiosités scientifiques, les nouveautés philosophiques, les signes secrets de la chimie, des sphères en eau toujours congelée, de l'air transformé en solide qui ne se décomposait pas; il y avait un bassin d'eau de vie de création divine; les signes des astres, nimbés des couronnes de la victoire, juxtaposés en face des figures des philosophes, qui s'occupaient d'eux, tenant dans leurs mains les livres de la science; tous les talismans des diverses pierres précieuses, des joyaux, des sphères extraordinaires serties de perles de valeur inappréciable, des lingots d'or, de l'argent et de pierres précieuses, des médicaments secrets et des remèdes admirablement composés. Les images de ces coffres sont gravées sur les murs de tous les temples antiques, sur lesquels les Anciens les inscrivaient avec leurs caractères; l'histoire de ceux-ci d'ailleurs est bien retracée dans leurs livres anciens et sur leurs temples. Ce roi fit construire une ville proche des trois autres, à l'image du paradis, à ce qu'il prétendait, à laquelle des souterrains secrets donnaient accès et qui les reliaient les unes aux autres. Un homme qui a beaucoup voyagé m'a dit, que lorsque le misérable regicide qui habite à la montagne d'Almout veut commettre un

Les uns montent sur des barques, d'autres entrent dans les maisons qui se trouvent sur la rive ; ils allument des torches, une multitude de chandelles. Le souverain d'Egypte fait de même, Durant cette soirée on consomme des quantités incalculables de chandelles. On voit les gens sur les deux rives, sur les barques, dans les maisons donnant sur le fleuve, avec des tambours, des cornes et tout équipement de distraction. C'est la plus belle soirée d'Egypte et la plus agréable. La plupart plongent dans le Nil, aspergent ceux qui ne plongent pas, lui attribuant un pouvoir de protection contre les maladies.

'Amr Ibn al-'Ās dit : "le gouvernement d'Egypte équivaut au califat, car l'Egypte occupe une position médiane entre le troisième et le quatrième "climat"; elle échappe à la chaleur des premier et deuxième "climats", de même qu'aux froids des cinquième et sixième". Al-Jāhiz dit : "les Egyptiens sont les plus sages parmi les hommes jeunes et les plus sots parmi les adultes". On dit : Dieu accorde au peuple d'Egypte une vie facile et aisée, signe de sa clémence envers ses serviteurs, qui se traduit par l'abondance de l'eau devenue la première richesse du pays.

p. 50

*Extraits d'histoire des rois d'Egypte depuis les origines :*

On dit, toute réserve accordée à Dieu, que le premier roi qui gouverna l'Egypte lorsque la terre fut divisée entre les fils d'Adam (salut à lui), au temps d'Amūš, d'après le testament d'Adam, s'appelait Naqrāwaš, fils d'Adrām. Il fut le premier à construire des réservoirs d'eau, à faire des talismans, à dresser des colonnes sur lesquelles il inscrivit l'histoire. Il bâtit des villes, creusa, approfondit et élargit le Nil qui se divisait jusqu'alors en constituant des marais. Il édifia deux bâtiments sur les rives du Nil à l'extrémité de la Nubie sur lesquels il inscrivit quelques signes, et depuis les crocodiles ont cessé de descendre le cours du Nil. L'écriture des anciens égyptiens était faite en caractère appelé Ḥalqaṭīr; c'est le caractère employé par Adam. Naqrāwaš était savant et prêtre. Il agit sous l'influence d'une inspiration des génies. On dit qu'il saisissait une partie des sciences que l'archange Raz'ābīl avait enseignées à Adam grâce auxquelles il créa de nombreuses curiosités parmi lesquelles l'image d'un oiseau perché

odorants. Lorsque la végétation, plus avancée, est devenue verte' la terre apparaît alors, pendant 3 mois, comme une chrysolithe verte jusqu'à ce que les cultures jaunissent, se sèchent et mûrissent. La terre devient ainsi jusqu'à la fin de la moisson, pendant 3 mois, comme un lingot en or rouge.

On raconte que l'Egypte est figurée dans les livres des Anciens entourée de tous les autres pays tendant les mains vers elle et demandant de quoi manger : ce qui signifie qu'elle est le plus riche en cultures. Selon un récit on aurait dessiné à Hārūn ar-Rašīd l'image des villes égyptiennes ainsi que toutes les villes du monde ; il n'aurait admiré que la ville d'Asyūṭ et ses environs, une province d'Egypte, dont la surface, de 30 milles feddans, constitue un seul terrain absolument plat, au point que si l'on y versait une seule goutte d'eau, elle en couvrirait toute la superficie. Il n'y a pas sur terre plus merveilleux tapis de verdure que lorsque, après p. 49 les semailles, les champs sont devenus verts. A l'ouest de la ville, se trouve un mont blanc, en forme de manteau ; à l'est, le Nil l'entoure, tel un ruisseau d'argent. Dans l'exubérance des arbres et des vignes, le ramage des oiseaux est tel qu'on ne peut s'y entendre parler.

L'augmentation et la diminution du niveau du Nil font l'admiration de tous, mais nous n'avons pas l'intention d'en parler plus longuement car elles sont notoirement connues. "La nuit de la plongée" (laīlat al-ġiṭās), en Egypte, est une chose des plus extraordinaires. Elle s'appelle de nos jours, "la brisure de la digue" (kasr al-ḫalīj), elle a lieu le 10 cānūn II c'est-à-dire le mois de janvier en langue des Chrétiens (rūm). A ce moment là, la crue du Nil atteint son apogée et commence à se retirer. L'eau du Nil est alors d'une teinte des plus claires. Cette soirée a une grande renommée en Egypte, car tout le monde sort (des maisons). Tous ceux qui peuvent sortir pour la célébrer préparent des mets et des boissons, mettent leurs beaux atours, exposent ce qu'ils possèdent de bijoux, de vaisselle en or et en argent et apportent toutes sortes d'instruments de fête.

ne perd plus son fil, même lorsqu'elle rencontre du fer. Elle attire les aiguilles, petites et grandes, avec une force plus grande que celle d'un aimant. L'ail ne neutralise pas cette caractéristique comme il neutralise l'effet de l'aimant. La pierre du mont n'attire pas elle même le fer, mais si l'on affûte du fer sur elle, celui-ci devient aimanté. Les propriétés de cette pierre en font une merveille.

On dit que le Nil d'Egypte parcourt une surface de 700 farsaḫ, qu'il coule dans un pays inhabité sur une distance de 4 mois, de 2 mois dans le pays des soudanais, d'un mois dans le pays d'Egypte, à partir de la ville de 'Uswān jusqu'à son embouchure à Rosette, à l'est d'Alexandrie.

Huršīš le rūmī, dans son histoire, dit que le Nil mesure depuis son origine jusqu'à son embouchure 390,930 milles. Contrairement aux autres fleuves du monde qui coulent dans la direction du sud, le Nil coule dans le sens nord, car il a son origine dans les pays du sud. A ce sujet, un poète dit :

— *Le pays d'Egypte admirable pays, où le Nil coule sous le souffle du vent du sud.*

Il n'est pas de fleuve au monde, hormi le Nil, qu'on ait p. 48 appelé "mer". Dieu n'a-t-il pas dit: "Si tu trembles pour ses jours, dépose-le sur la (mer)". Les Arabes l'appelent mer. C'est le seul fleuve au monde qui nourrisse la terre en eau au point que ses cultures puissent se passer des pluies.

On dit que l'Egypte ressemble, pendant 3 mois, à une perle blanche, pendant 3 mois à un musc noir, pendant 3 mois à une émeraude verte et pendant 3 mois à un lingot rouge. On explique ceci ainsi : lorsque le Nil se répand sur le sol d'Egypte, les villages sur les buttes et les collines émergent au-dessus de l'eau comme des astres ; les gens emploient les barques comme moyen de communication et c'est alors que le sol ressemble à une perle blanche. L'eau reste sur le sol pendant 3 mois ; quand elle se retire, les cultivateurs commencent les semailles et la terre conserve une teinte noire pendant 3 mois jusqu'à ce que la végétation pousse et devienne verte ; ceci dure trois mois encore et la terre apparaît comme une sorte de musc noir, laissant aussi échapper des parfums

p. 45

## L'EGYPTE ET SES MERVEILLES

L'Egypte est située au début du quatrième "climat". Elle a les Gémeaux comme signe de Zodiaque, et comme astre Mercure. Elle s'étend de 'Uswān à Alexandrie. Sa fertilité, ses cultures et ses fruits sont abondants, tous sont irrigués par le Nil. Le Nil est une des Merveilles du monde. On ne lui connaît pas de source au delà du mont de la lune, situé à 9 dégrés et demi au sud de la ligne équinoxiable. Il nait de 12 sources dont l'eau s'accumule dans 2 lacs semblables à de vastes marais, de chacun d'eux sortent 3 rivières parmi lesquelles le Nil d'Egypte ainsi que d'autres grands fleuves dont nous retracerons l'histoire, si Dieu Très-Haut le veut. Ces sources se situent dans les pays chauds du Sud où, par suite de la proximité du soleil, aucune plante ni aucun animal ne peuvent vivre.

p. 46 On dit que le Nil d'Egypte surgit à son origine des sables, et des montagnes puis parcourt la terre des soudanais à la limite des pays nègres que traverse un bras du Nil se jetant dans la mer des nègres, ce sont les hautes eaux de ce bras qui alimentent les crues du Nil d'Egypte. On y trouve le crocodile dit "waral" (lézard) qui existe dans le Nil d'Egypte et vit dans le désert et les pairies. Il est de la race des crocodiles car lorsque le crocodile sort du Nil pour parcourir les rives, il arrive parfois que l'eau se retire et qu'il reste sur le sol ; c'est alors qu'il se multiplie et devient le "waral" bien connu. Le crocodile ne se trouve que dans le Nil d'Egypte ou dans un fleuve de même source.

Dans le Nil d'Egypte se trouve le poisson nommé ra'ād (silure électrique ou silure trembleur) qui fait trembler la main du pêcheur tant qu'il est dans son filet ou accroché à son hameçon. Sur une rive du Nil, il y a une montagne stérile connue de tous les habitants de cette contrée : celui qui sort son épée du fourreau pour l'enfoncer dans le sol de cette montagne, puis tient la poignée p. 47 (de l'épée) de ses deux mains est pris d'un tremblement tel qu'il ne peut la tenir (en main) fût-il le plus fort des hommes. Une lame de couteau ou de glaive affutée sur une pierre de ce mont

tombeau qui n'est pas bien entretenu, se trouve dans le haẓīr, en face de la mosquée; à la place de la tête il y a une plaque en pierre dite "misann" de Médine sur laquelle on lit : "C'est le tombeau de Ḥamza Ibn 'Abd al-Muṭṭalib, oncle du Prophète (la prière et le salut de Dieu à lui), lion de son Envoyé, seigneur des martyrs et leur guide sur la route du paradis, tué le jour de'Uḥud (puisse Dieu être content de lui). Sur le tombeau on voit une tablette sur laquelle on lit : "Dieu a acheté la vie et les biens des fidèles. Le paradis en est le prix. Ils combattent, mettent à mort leurs ennemis, tombent sous leurs coups; etc ..." jusqu'à la fin du verset. A l'autre extrémité vers les pieds du tombeau, il y a une autre tablette où on lit : "Dieu et les anges sont favorables au Prophète; Croyants, adressez pour lui vos vœux au Seigneur; invoquez pour lui la paix".

"C'est le tombeau de Ḥamza Ibn 'Abd al-Muṭṭalib, lion de Dieu, loin de son Envoyé, il se battit à Badr et tomba en martyre le jour de'Uḥud".

Plus loin encore, vers la montagne, à gauche on rencontre un autra haẓīr. A la droite vers 'Uḥud, avant d'arriver au tombeau de Ḥamza, se trouve une construction s'élevant à la bauteur de la ceinture sur laquelle il y a une tablette en bois où on lit : "Ici repose Sahl Ibn Qaïs Ibn Sa'd, commandant en chef de la colonne expéditionnaire du Prophète; il se battit à Badr et tomba en martyre à 'Uḥud".

L'auteur, Dieu ait pitié de lui, dit : Ici prend fin la partie consacrée à la Mekke, Dieu l'honore, aux rites du Pèlerinage, à la mosquée du Prophète à Médine et maintenant, ayant Dieu pour meilleur guide, je commence à décrire les divers pays dans la mesure du possible.

Prophète rendit visite à 'Umm Ayman alors qu'elle était triste. Elle lui dit : je ne possède rien pour accomplir le Pèlerinage. Il lui répondit : fais un jeûne de 10 jours du mois de ḏū'l ḥijja puis va à la mosquée de Qubā, le jour de 'Arafa, fais une prière de 2 rak'as et tu auras la récompense d'un Pèlerinage.

On lit encore que Sa'd Ibn Abī Waqqās (puisse Dieu être content de lui) dit : aller à la mosquée de Qubā pour faire une prière de 2 raka's est préférable pour moi que d'aller visiter Jérusalem 2 fois; si les gens savaient les mérites de la mosquée de Qubā, ils y conduiraient leurs montures.

Le puits de Qubā, avec l'eau duquel le Prophète (la prière et le salut de Dieu à lui) se gargarisa et qu'il rejetta ensuite à l'intérieur, pour que de salée qu'elle était, elle devienne douce grâce à sa bénédiction se trouve à l'ouest de la mosquée. La maison de S'ad Ibn Ḫaitama al-Anṣārī, où le Prophète vivait parmi les Musulmans est proche du coin ouest. L'espace entre la partie antérieure de la mosquée et l'emplacement de l'arbre sous lequel se déroulait la baï'a (serment de fidélité) est couvert d'un plafond en planches élevées sur des troncs d'arbres.

*Les tombeaux des Martyrs de la bataille de'Uḥud,*
(que Dieu ait leur âme) :

Les tombeaux des martyrs se trouvent au pied de la montagne de'Uḥud. Le plus proche de la montagne c'est un ḥaẓīr (enceinte close), construit en pierre, à hauteur de la ceinture et qui contient 37 tombeaux couverts d'une pierre dite "ǧandal". Le tombeau des deux nouveaux mariés à savoir Ma'ād Ibn 'Amr Ibn al-Jamūḥ et son ami Ma'ad Ibn 'Amr que le Prophète ordonna d'inhumer ensembles dans un seul tombeau, se trouve à l'ouest de ce ḥaẓīr séparés par une distance de deux fois le jet d'une pierre. Sur le tombeau on voit deux planches avec des inscriptions; l'une est en pierre dite "misann" de Médine, l'autre en bois; le tombeau est couvert d'une voûte d'une hauteur de la taille de l'homme. Tout près se trouvent 12 autres tombeaux. Plus bas que le ḥaẓīr se trouve le tombeau de Ḥamza Ibn 'Abd al-Muṭṭalib, entouré d'un ḥaẓīr comprenant un oratoire et un tombeau. Ce

p. 44

être content d'elle). A l'extrémité est de la nef, de côté de la cour, se trouve une construction semblable à une chambre : on dit que c'était l'entrepôt de la mosquée.

*Nombre des lampes :*

On compte 294 lampes qui consommaient 10 raṭls d'huile par nuit.

p. 42

*Le Baqī' de Médine :*

La première chose qu'on voit dans le Baqī' de Médine du côté est, c'est le tombeau de Mālik : c'est un tombeau abandonné, construit de pierre et d'argile, de 4 empans de haut au-dessus du sol; près de l'emplacement de la tête, il y a une pierre sombre, sur laquelle on lit, inscrite et gravée, la date de la mort. Puis on continue la marche et l'on constate que les tombeaux avaient rejetté leurs morts, la terre refusait tout ce qu'on y avait enterré, petit ou grand. Il ne reste rien en elle qu'elle n'ait rejetté à sa surface, rien de leurs membres ni de leurs os, pas la moindre partie qui soit restée dans son sein, surtout parmi les habitants de Médine.

La plaine ressemble à un ossaire pillé : morts inhumés jadis, morts d'aujourd'hui, crânes des morts anciens et pourris, crânes tout frais. Avertissements pour les gens de bon sens. Puis on poursuit sa marche pour rencontrer la rawḍa (sépulture) d'al-'Abbas Ibn 'Abd al-Muṭṭalib, la sépulture d'Ibrāhim fils du Prophète (salut à lui), puis la sépulture de 'Uṯmān Ibn 'Affān, etc.

*La mosquée de Qubā :*

C'est une mosquée située à trois milles de Médine, lieu de prière pour celui qui passe. C'est un carré de 70 coudées de côté. La partie antérieure se compose de 3 nefs tandis que la partie inférieure et la partie latérale constituent un seul portique élevé sur 43 colonnes en coquillages recouvertes d'une couche de chaux. Elle possède 3 portes sans battants. Sur le coin inférieur à gauche dans la direction du miḥrab on lit que le

p. 43

*Al-Miḥrāb :*

Le miḥrāb ne se trouve pas juste au milieu du mur de la qibla mais déplacé de 20 coudées vers l'est; le mur de la qibla est recouvert de marbre, sur lequel sont inscrits entre la porte d'ar-Raḥma et la porte de Gabriel les versets coraniques de la sūra "du soleil au plus haut de son cours" à la sūra "des hommes". A côté du miḥrāb on voit le dessin d'une grande étoile orné en son milieu d'une pierre d'hyacinthe bleue; on dit qu'elle constituait la pierre médiane de la parure de Fāṭima az-Zahra'. Dans le mur de la qibla au milieu de la nef et à la droite du miḥrāb, se trouve une petite porte; cette porte située au-dessous de la maqṣūra donne à un escalier qui mène à une porte de l'ancienne demeure de la famille de 'Umar.

*Nombre des portes de la mosquée du Prophète :*

La mosquée possède 20 portes : 7 sur le côté est d'une forme carrée avec des montants en grille; un nombre égal sur le côté p. 41 ouest dont une petite porte en arc avec un battant, d'une forme unique car la mosquée n'a pas d'autres portes en arcs. Dans la partie antérieure de la mosquée on compte 4 grandes portes, une ménagée dans le mur de la qibla et une autre sous la maqṣūra, mentionnée plus haut.

*Nombre des colonnes de la mosquée :*

On compte 276 colonnes dans la mosquée et 3 minarets dans les trois coins : un sur le coin est, un sur le coin ouest, un troisième sur le coin de la partie inférieure de la mosquée. Le sol de la mosquée est couvert de cailloux sombres de 3 côtés : en avant, en arrière et de côté. Dans la nef médiane de la qibla il y avait en l'an 528 (1133—4) un tapis de Ṭabaristān doublé ; tous les murs sont recouverts de marbre jusqu' à une hauteur qui est le double de la taille d'un homme et même légèrement plus haute ; la cour où poussent des palmiers est recouverte de cailloux. Dans la nef orientale on aperçoit une construction semblable au miḥrāb : on dit que c'était l'endroit où priait Fāṭima (puisse Dieu

*Ar-Rawda, où se trouve le tombeau du Prophète:*

Le tombeau du Prophète est situé au tiers de la nef médiane d'ar-Rawda du côté est. Celle-ci qui est ronde a 5 coins. Dans le coin du mur opposé à la qibla, du côté du minbar se trouve le visage du Prophète. Au niveau de sa taille, un clou d'argent indique la place du visage d'Abū Bakr. Au niveau de la taille d'Abū Bakr se trouve le visage de'Umar.

De ce mur au mur de la qibla on mesure 20 coudées ; le mur situé au delà de la porte de Jabra'il a 15 coudées de long. p. 39 La distance entre ce mur et le mur est de la mosquée est de 9 coudées, les 3 autres murs ont respectivement 15 coudées de long et 12 de haut. Tous sont recouverts de marbre et surmontés de grillage de fer. La Rawda est découverte ; elle n'a pas de plafond en deça du plafond de la mosquée. Elle est revêtue de toiles de soie colorée qui montent jusqu'aux deux tiers des murs. Du côté est et du côté ouest la partie non couverte est imprégnée d'ambre gris, de musc et de safran, Dans le coin où est située la tête du Prophète se trouve une plaque de marbre vert, le plus beau qu'on ait jamais vu, indiquant la place de sa tête.

*Al-Minbar (la chaire) :*

Il se compose de 8 marches, le ḫaṭib s'élève jusqu'à la septième marche seulement car la huitième est recouverte d'un couvercle (mikabba) en bois qui en interdit l'accès car c'est la marche où se levait le Prophète. Entre le minbar et le mur de la qibla on mesure 20 coudées; la distance entre le minbar et la maqṣūra est de 12 coudées; la distance comprise entre la partie antérieure de la maqṣūra et le mur de la qibla est de 8 coudées. A côté du minbar, vers la Rawda, il y a un anneau d'argent p. 40 placé sur une étoile en argent qui tourne bruyamment; c'est avec cet anneau que le Prophète distrayait al-Ḥasan et al-Ḥusaïn. Près du minbar, vers la qibla et orienté un peu vers l'est se trouve une des colonnes de la mosquée dont on coupa une partie longue d'un empan dans laquelle on fit pénétrer le tronc qui avait manifesté son attachement pour l'Envoyé de Dieu (la prière et le salut de Dieu à lui).

p. 37

# LA MOSQUÉE DU PROPHÈTE

La mosquée du Prophète a une forme rectangulaire, sa longueur a 100 coudées de plus que sa largeur. Le plafond de la mosquée est décoré, peint, sculpté et doré entièrement. Il est élevé sur des linteaux sculptés reposant sur des colonnes en coquillage noir, superposé, recouvertes d'une couche de chaux, sans arcades sauf la partie donnant sur la cour qui s'élève sur des colonnes analogues surmontées d'arcades dont la façade est incrustée de mosaïque. Les colonnes qui donnent sur la cour sont plus courtes que celles qui supportent le plafond de la mosquée. Celles qui donnent sur la cour portent des grillages en bois de teck.

Dans la partie antérieure de la mosquée, on compte 5 nefs axiales ; un nombre égal dans la partie inférieure, 3 du côté est et 4 du côté ouest. De la partie antérieure jusqu'à la cour on compte 11 arcs, comme pour l'autre côté. La longueur de la mosquée, du coin du minaret de Bilāl qui se trouve à côté du tombeau du Prophète au coin est de sa partie inférieure, est de 270 coudées. La largeur, de la porte de Jabrā'īl qui est aussi à côté du tombeau du Prophète à la porte de la "miséricorde", située à côté de la maison d'as-Sayyda, est de 170 coudées.

p. 38

*Ar-Rawḍa, située entre le tombeau et le minbar :*

La longueur d'ar-Rawḍa, située entre le tombeau du Prophéte et le minbar est de 56 coudées. La partie couverte de marbre, située au milieu d'ar-Rawḍa, où s'asseyait le Prophète en s'appuyant contre un coffre de bois où il mettait ses affaires, ressemble aujourd'hui à une sorte de bassin recouvert de marbre dont la profondeur est d'un empan et la longueur de 3 coudées et qui existe encore de nos jours. Il est fermé par un cadenas de fer que personne n'a jamais ouvert et on ne connaît pas son contenu. Le coffre se trouve dans la partie orientée vers la qibla du bassin, déposé au fond dans une position telle qu'on peut le déplacer.

36 *Batn Muhasser. Sa situation, par rapport à al-Muzdalifa :*

La vallée de Muhasser coupée par la route, commence à al-Muzdalifa et s'étend dans le sens Ouest-Est. C'est un lit du torrent dont la largeur est de 100 coudées. Lorsqu'on la quitte pour al-Muzdalifa on traverse un endroit très élevé, c'est là que se trouve la source (siqaya) de 'Abbas sur la droite. C'est une grande mare qui, aujourd'hui ne contient pas beaucoup d'eau.

*Al-Ma'zaman :*

Ce sont deux montagnes situées à l'entrée du défilé lorsqu'on sort d'al-Mas'ar al-Haram pour gagner 'Arafat. Le soir de la fête du sacrifice, on y allume beaucoup de torches, sur les deux côtés de la route.

L'auteur, Dieu ait pitié de lui, dit : tout ce que nous avions l'intention de décrire, relatif à la Mekke, Dieu l'honore, est complet. Essayons maintenant de décrire la mosquée du Prophète (la prière et salut de Dieu à lui) à Médine, ainsi que la Rawda, le Baqi' et l'emplacement des Martyrs (que Dieu ait leur âme).

On y monte par un escalier intérieur qui se compose de 15 marches. Une petite porte est ménagée vers la Ka'ba. On peut se lever n'importe où dans le Mas̆'ar al-Harām, mais on doit s'élever plus haut que la vallée de Muḥasser. Quand les pèlerins se mettent à circuler, avance tranquille et respectueux en faisant appel à Dieu jusqu'à ce que tu arrives à la vallée de Muḥasser où tu commences les tours, à pied ou sur ta monture presse les pas jusqu'à la sortie — c'est la règle.

p. 35

### *'Arafat et la montagne de la Miséricorde* (ar-Raḥma) :

'Arafat est un petit village situé à côté et à l'ouest des Banū Ḍabba à un niveau plus bas qu'al-Mawqif, à droite lorsqu'on se dirige vers le Mawqif. La montagne dite ar-Raḥma sur laquelle les gens montent pour l'invocation est la plus proche d'al-Mawqif. C'est une petite montagne, pas très haute, et escarpée de toutes parts. Elle donne sur le Mawqif où on a construit une sorte de bassin (saqiya) autour de lui et d'où on peut monter par trois côtés: du côté du Mawqif par 17 marches et des deux autres côtés par 10 marches respectivement. Au pied de la montagne, on trouve trois citernes. La partie haute du bâtiment constitue une mosquée: c'est celle de'Umm Salama, femme du Prophète (la prière et le salut à lui).

### *La S̆ari'a (oratoire) d'Abraham :*

C'est un mur construit de tous les côtés mais à ciel ouvert, dont la plus grande partie est démolie et dont il ne reste que le mur de la qibla où se trouve le miḥrab. Sur la droite quand on regarde le miḥrab on passe sous trois arcades. La place du minbar se trouve à droite. La s̆ari'a est de 170 coudées en longueur et de 150 en largeur; vers la qibla par rapport au sanctuaire se trouve une mare derrière laquelle on voit le champ d'arbres dits al-arak nommé le val de'Urana, près des deux repères constituant les limites du territoire sacré et au-dessus desquels on doit s'élever à pied ou sur sa monture. Celui qui s'y installe la veille d'al-Mawqif doit considérer son pèlerinage comme irrégulier, le Prophète n'a-t-il pas dit: "'Arafa tout entière est un Mawqif, restez plus haut que la vallée de'Urana": on dit qu'elle fait partie du territoire sacré. La largeur de cette vallée entre les deux repères (al-maïls) est de 800 coudées.

pied de la montagne, se trouve une grotte où le Prophète (la prière et le salut de Dieu à lui) pénétra et où il ne peut s'asseoir que quand la pièrre finit par se ramoller et son coude ainsi que sa tête s'y enfoncèrent (la prière et le salut de Dieu à lui). Dès lors tous ceux qui y entrent ne s'asseyent pas sans placer leurs coudes et leurs têtes dans le creux où le Prophète (la prière et le salut de Dieu à lui), avait mis les siens. C'est dans cette grotte que Dieu, lui révèla la sūra, dite "al-Mursalāt", nom, qu'on donne à la grotte.

*La mosquée d'al-Muzdalifa :*

La mosquée d'al-Muzdalifa est située à un niveau plus bas que la Mosquée Sacrée, sur la gauche dans la direction de 'Arafāt.

C'est dans cette mosquée qu'on fait la prière de coucher du soleil et celle du soir quand on dévale depuis 'Arafāt. Le Prophète (la prière et le salut de Dieu à lui) n'a-t-il pas dit (en désignant la mosquée): "La prière est là devant toi". La mosquée est construite avec des pierres bien taillées, sans plafond, c'est un mur seulement

p. 34

sur trois côtés; le quatrième côté est vide. Elle n'a pas de miḥrāb, mais une pierre sculptée indique l'orientation de la qibla. La mosquée a 63 coudées de long et 50 de large. La hauteur du mur est de 10 coudées. La Muzdalifa, tout entière est un maš'ar (lieu sacré des rites) sauf la vallée de Muḥasser. Lorsqu'on y descend, tu ne cesses pas de faire entendre la formule du takbīr et tahlil. Quand on la quitte pour Minā, on dit: Dieu je te demande de m'accorder tous les biens. Ensuite on lui demande tout ce qu'on veut car le lieu est une station de pèlerinage (mawqif) grandiose. Prend les cailloux des Jamras d'al-Muzdalifa, c'est mieux.

*Al-Maš'ar al-Ḥarām (lieu sacré des rites) :*

C'est un emplacement élevé à droite de la route montante allant à 'Arafāt, situé au pied de la montagne des Banū Quzaḥ. C'est un minaret de pierres bien taillées enduites de chaux d'une hauteur de 12 coudées. Son périmètre est de 12 coudées et demie.

gauche, à la porte du campement d'as-Saïl et celui d'al-Mu'taz séparés de la Jamra d'al-'Aqaba par une distance de 400 coudées. Puis tu lances les cailloux à la troisième Jamra, située au milieu de la mahajja, (route), à une distance de 350 coudées de la Jamra médiane.

On lance 7 cailloux dans chacune des trois Jamras en prononçant les paroles mentionnées plus haut. Le pèlerin doit répéter à haute voix la formule : "Dieu est Grand" (takbīr) et faire appel à Dieu à chaque heure du jour autant qu'il veut ; on ne doit pas cesser le "takbir" avant la prière de midi et celle de l'après-midi à "al-Muhassab". Lorsque tu entres dans la Mekke pour faire le Tawaf al-Ifada, course désacralisateur dis : "Dieu, louange à Toi, grâce à Toi j'ai accomplis parfaitement le Pèlerinage ; Tu m'as pardonné mes péchés ; Tu as satisfait mes désirs ; Tu es Tout-Puissant". Lorsque tu fais tes adieux à la Mosquée Sacrée, tu ne dois pas lui tourner le dos jusqu'à ce qu'elle disparaisse à tes yeux. Alors tu dis : "Dieu, puisses-Tu m'accorder un pèlerinage béni, pardonner mes péchés, accepter mon devoir, vénérer mon effort; Tu es le plus clément. Que ce ne soit pas le dernier adieu à ton sanctuaire et la dernière visite du sépulcre vénéré de ton Prophète ; puisses-tu me faire revenir sain et sauf aux miens ; Tu es Tout-Puissant".

p. 33

### *La mosquée d'al-Haïf, sa dimension et description de la Grotte :*

La mosquée se trouve au pied de la montagne; à droite de la route si l'on prend la direction de Minā vers al-Muzdalifa. Elle est construite avec des pierres bien taillées dont la plus grande partie est en brique enduite d'une couche de chaux. La salle de prière est composée de 3 nefs; d'un côté de la cour se trouve un portique sur des arcs élevés sur des pieds droits en brique enduite d'une couche de chaux. Les pieds droits sont au nombre de 185, la longueur de la mosquée est de 175 coudées; elle possède 7 portes et une huitième petite porte ménagée dans le mur de la qibla près du minbar donnant sur la maison de l'imam. Au milieu de la cour s'élève un minaret dont la partie supérieure est lézardée. Près de la mosquée, au

Minā est un village bâti au flanc de la vallée qui descend de 'Arafāt. Au milieu de cette vallée se trouvent les deux Jamras dont la première est celle d'al-'Aqaba. Lorsque tu rencontreras Minā à l'entrée d'al-'Aqaba, sur la gauche du chemin suivi par ceux qui y entrent, venant de la Mekke, lance 7 cailloux à sa base du milieu de la vallée, en disant pour chacun d'eux : il n'y a d'autre divinité que Dieu, Dieu est grand malgré satans ou satan et son mépris. On ne doit pas jeter de cailloux avant l'aube. Dans ce cas, on doit accomplir à nouveau cet acte après l'aube sans peine d'être blamé ; le caillou est considéré comme une offrande : ceux qui sont acceptés sont enlevés (au ciel), les autres restent toujours (sur terre). Ceux qui partent pour Minā ne sont pas tenus à la prière de la fête, car la prière ce jour-là se fait en restant debout dans al-Maš'ar al-Ḥarām. Les jours de Minā sont les jours où l'on doit faire appel à Dieu ; Dieu n'a-t-il pas dit : "Faites appel à Dieu durant certains jours comptés". Ceux-ci sont les trois jours de Mina où on jette les jamras ; ce sont les jours d'at-Tašrīq, le jour de sacrifice non compris, parce que Dieu a dit : "Celui qui aura accompli les rites en deux jours ne commet pas un péché", sinon, il aurait dit : "celui qui aura accompli les rites en trois jours". Les cérémonies (an-nafr) doivent avoir lieu durant le deuxième des trois jours qui suivent le jour de sacrifice, les jours connus sont le jour de sacrifice et les deux jours après, le quatrième fait particulièrement partie des jours comptés. Si, tu jettes les cailloux à la Jamra d'al-'Aqaba, tu égorges ton offrande en l'orientant vers la qibla et tu dis : au nom de Dieu, cette offrande provient de Toi et est à Toi, je te demande de l'accepter de moi comme tu l'acceptas d'Abraham ton ami (salut à lui). Sur le flanc de la montagne donnant sur la jamra d'al-'Aqaba se trouve une mosquée où l'on aperçoit, scellée au mur situé du côté de la salle de prière, une pierre plate foncée portant la trace du pied d'Ismaël (salut à lui), fils d'Abraham (ami de Dieu). Lorsque celui-ci l'étendit sur le dos pour l'égorger, Ismaël frappa la pierre de son pied, la pierre se ramollit et son pied s'y marqua (salut à lui). A cet endroit se trouve la trace du bélier ; plus bas, au fond du chemin, lorsque tu arrives à al-'Aqaba, se trouve la mosquée de la bay'at al-Anṣār construite à gauche de la route à l'aube de l'Islam et dont on aperçoit encore les ruines. Puis tu arrives à Minā pour rencontrer la seconde Jamra, à la

p. 31 ; p. 32

s'accrochent 18 lampes, donc 72 pour l'ensemble. Aux voûtes de p. 29 la Mosquée Sacrée on compte 150 lampes et cinq lustres : un sur la porte d'Abraham (salut à lui), un second sur la porte d'as-Ṣafā, un troisième sur la porte des Banū Šaiba, un quatrième sur la porte des piliers et un cinquième sur la porte des Banū Jumaḥ.

Le sol de la mosquée est recouvert de sable de la grosseur de la semoule. Deux agents sont munis de fouets qu'ils font retentir en l'air au début de chaque prière.

*As-Ṣafā et al-Marwa :*

As-Ṣafā est une énorme pierre bleue sur laquelle on bâtit un escalier par lequel on monte au sommet d'Abū Qubaïs. Cet escalier contient 30 marches, mais jusqu'à l'endroit où on stationne on en compte 18. Al-Marwa est aussi une énorme pierre, mais qui était brisée en deux parties qui sont séparées par un espace d'environ 12 coudées. Dans cette anfractuosité on construisit un escalier de 10 marches environ jusqu'à l'endroit où on s'arrête. En bas, vers l'Orient on éleva un miḥrāb. Du haut de la Marwa, on ne voit de la Mosquée Sacrée que l'étendue de 2 coudées.

*Dimension d'al-Mas'ā:*

D'as-Ṣafā jusqu'au premier repère vert qui se trouve dans le coin du minaret placé à la porte de la vallée, il y a 180 coudées; p. 30 de ce premier repère au second situé dans le coin de la maison de Ja'far et celle d'al-'Abbas il y a 125 coudées — en face de chacun de ces deux repères verts s'en trouve un autre semblable, de la même forme. De ce repère jusqu'à al-Marwa on mesure 475 coudées ; ainsi l'espace entre as-Ṣafā et al-Marwa est de 780 coudées.

*Minā, la Jamra et son jet :*

Lorsque tu arrives à Minā dis : "Dieu, voici Minā que Tu nous recommandes comme lieu où l'on s'acquitte des actes de dévotion ; je te demande de nous accorder ce que Tu accorderas à tes protégés, à ceux qui t'obéissent et à tes pieux serviteurs"

delà de Dār al-'Ajala; la porte d'aṭ-Ṭabarī, qui est un petit arc sans piliers, dite porte d'as-Sudda, à travers de laquelle on sort pour se rendre à la maison de Ja'far aṣ-Ṣādiq. Sur cette façade on compte encore 6 portes se rapportant aux maisons avoisinantes de la Mosquée Sacrée, et qui lui sont tout à fait étrangères.

*Nombre des colonnes de la Mosquée Sacrée ;*
*le miracle du Prophète (la prière et le salut de Dieu à lui)*
*à propos de l'achat de la colonne rouge :*

On compte dans la mosquée 470 colonnes situées principlement dans les voûtes. Les portes contiennent 26 colonnes à part. Dans les deux maisons annexées à la mosquée, celle d'an-Nadwa et celle d'al-Ḥinṭa, on compte 129 colonnes ce qui porte le nombre des piliers et des colonnes à 621.

Dans la Mosquée Sacrée, on compte 3 nefs sur chaque côté du plan carré. Sur chacun de ces côtés donnant sur la cour, on compte 46 arcs en longueur et 31 en largeur. Sur la façade donnant sur le Dār an-Nadwa, au milieu de l'espace libre, on voit une colonne rouge qui était la propriété d'une juive. Le Prophète voulait la lui acheter, mais la femme ne voulut la vendre que pour son poids en or. Il la lui acheta en acceptant la condition: on mit alors le pilier dans le plateau d'une balance, le Prophète mit dans l'autre plateau un mitqāl qui l'emporta en poids grâce à un effet de sa grandeur, c'est l'un de ses miracles. Chacune des façades de chaque nef donnant sur la cour est ornée d'une mosaïque.

p. 23

*Nombre des lampes de la Mosquée Sacrée,*
*les ḥaṭīms et les lustres:*

A l'intérieur de la mosquée se trouvent 5 colonnes en bois garnies de cuivre appelées ḥaṭīms; on y accroche des lampes, mises dans des coupes en verre, à l'occasion de ramaḍān, au ḥaṭīm du gouverneur de Bagdad, à celui du Šāh roi des Iraniens, à celui du Sanjār roi des Persans et à celui de la Sayyda. Ceux-ci se trouvent du côté du Maqām. Enfin on compte le ḥaṭīm des ḥanīfites du côté syrien donnant sur le coin ouest.

Au ḥaṭīm du prince de Bagdad s'accrochent 20 lampes, à celui du Šāh 10, à celui de Sanjar 10 encore, à celui des ḥanīfites 6 et à celui de Zamzam 10. A chacun des quatre autres ḥaṭīms

Banū Mahzūm d'où on sort pour as-Safa, et qui est constituée par 5 arcades soutenus par 4 piliers; la porte des tailleurs (hayyatin) dite porte des Banū Talha, composée de deux arcs reposant sur un pilier — c'est près de cette porte que les Bédouins vendent les vivres dont ils disposent, quand ils viennent à la Mekke.

Sur la façade située près du côté d'al-Mas'ā on compte 4 portes : la porte de 'Ali Ibn Abī Talīb (puisse Dieu être content de lui), qui se compose de 3 arcs élevés sur deux piliers — en face du pilier situé près de la porte du Prophète (salut à lui), se trouve al-Maïl al-Ahdar dans le coin de la maison de Ja'far qui est contiguë à celle d'al-'Abbās; c'est un repère couvert d'une couche de chaux, peint en vert, construit par al-Mahdi qui le dressa comme signe de fin de la bousculade (harwala)—; la porte du Prophète (salut à lui), petit arc sans piliers, d'où on sort vers les jardins et les pharmaciens et où se trouve un grand tambour d'une largeur de 5 empans, en bois dégageant l'odeur du gingembre, recouvert d'un côté de cuir, qu' on frappe à partir du 10 du'l hijja à chaque prière; la porte des Banū Saïba qui se compose de 3 arcs élevés sur deux piliers — c'est par là que le Prophète (salut à lui), entra. C'est par là qu'entrent toute personne en vue du Hajj ou la 'Umra; le seuil de cette porte depuis le premier arc jusqu'au troisième, c'est Hubal la grande idôle qui se trouvait dans la Kaba - les Quraisites l'adoraient pour Dieu, mais l'Islam l'a déplacée et en fait le seuil de cette porte sur lequel on passe et que les pélerins venus de tous les horizons piétinent. Gloire à Dieu pour la grâce de l'Islām. De ce côté se trouve al-Mas'ā situé entre les deux collines d'as-Safa et d'al-Marwa : c'est le lit du torrent, où se trouve le marché de la Mekke et le rendez-vous des marchands en vivres et des artisans. Sur la façade située au delà de la Dār an-Nadwa, on compte 4 portes : la porte des piliers (bāb assawari) qui est un petit arc sans colonnes, la porte d'an-Nadwa composée de deux arcs élevés sur un pilier par laquelle on entre à la Dār an-Nadwa, annexée à la mosquée ; c'est une maison décorée du côté de la Dār al-'Ajala ; elle est formée de tous les côtés de voûtes élevées sur des colonnes en briques enduites d'une couche de chaux, elle a 32 coudées de longueur et de largeur; elle contient 77 colonnes, elle possède une autre porte par où on entre encore dans la mosquée, connue — comme la précédente — sous le nom de porte d'an-Nadwa; cette porte se compose de deux arcs sur un pilier, elle est située au

p. 26 p. 27

de Minā et le coin d'Ajyād al-Kabīr qui se trouve près de la porte yémenite est de 280 coudées. Telles sont les mesures de la Mosquée Sacrée tant en longueur qu'en largeur.

*Les Minarets :*

La mosquée possède 5 minarets : un s'élève au coin d'Ajyād, un deuxième au coin dit Abū Qubaīs, c'est dans le coin de ce minaret juste après la maison d'Abraham (l'ami de Dieu, salut à lui), que se trouve al-Maīl al-Aḫdar (le repère vert) où commence l'empressement (harwala), un troisième dans le coin des Banū Šaība, un quatrième sur la porte de Dār an-Nadwa et un dernier sur la porte des Banū Jumaḥ dite la porte d'as-Suddah.

*Nombre des portes de la Mosquée Sacrée :*

La mosquée possède 17 portes : 3 dans la façade ouest juste après la porte des Banū Jumaḥ et Banū Sahm, la grande porte des Sahmides dite porte de la 'Umra d'où les gens sortent pour le tan'īm afin d'accomplir la 'Umra — c'est un grand arc cintré sans piliers, la porte d'Abraham (salut à lui) constituée par 7 arcs élevés sur 8 piliers de briques cuites, couvertes d'une couche de chaux; on y passe avant d'arriver à la mosquée pour atteindre une chambre qui était un emtrepôt de blé ( dār al-ḥinṭa ) et qui fut annexée à la mosquée, par Zubaïda — c'est une chambre carrée de 65 coudées de longeur et de largeur; ce sont des voûtes élevées sur des colonnes en brique cuite enduite d'une couche de chaux, comprenant 52 colonnes; en traversant cette chambre on entre dans la cour de la mosquée. A l'extérieur de cette porte, sur le flanc de la vallée, se trouvent le puits de Ġadura et le puits d'Abraham ; ils sont très profonds. Leur eau est saumâtre et imbuvable, puis la porte de Ja'far connue sous le nom de la porte des Yémenites; elle est composée de deux arcs élevés sur un pilier. Sur la façade située à proximité de la vallée, et qui donne sur Abū Qubaīs, on compte 6 portes : la porte des épiciers (baqqalīn) — qui est la porte d'Ajyād al-Kabīr - située en face de la maison d'Abū Jahl ; elle est formée de deux arcs reposant sur un pilier; la porte des filateurs ( ġazzalīn ) composée de deux arcades reposant sur un pilier; la porte d'aṣ-Ṣafā dite la porte des

p. 25

son plafond couvert de bois de teck sculpté. A l'extérieur la coupole est recouverte d'une mosaïque en verre dorée. Cette coupole est surmontée d'une petite ayant une chaîne de cuivre. La dernière soirée du mois de ramadān, on allume des chandelles partout sur la coupole; le da'ī y monte pour faire l'invocation en faveur du prince des croyants, ce da'ī bénéficie d'un traitement spécial pour cette fonction. La coupole de Zamzam domine la partie dite "al-Multazem" de la Ka'ba; c'est un endroit situé entre le coin noir et la porte de la Ka'ba. Le coin de la coupole dépasse les limites du coin de la Ka'ba; le pourtour de la coupole est muni à l'intérieur de bassins contenant de l'eau où les gens font l'ablution en vue de la prière.

p. 23 *La Coupole d'Abreuvement (Qubbat aš-Šarāb) :*

Devant le puits de Zamzam se trouve "la coupole du boire". C'est une sorte de voûte soutenue par des pieds en bois, couverts de grillages et percée d'une petite porte du côté de la Dār an-Nadwa. La circonférence de la coupole est de 80 coudées; le fond en est peint avec de la chaux. Dans la coupole, il y a des jarres pleines d'eau depuis le coucher du soleil jusqu'à la nuit à l'usage des gens. Le plafond de la coupole est recouvert par une mosaïque, elle est surmontée d'une figure d'oiseau en cuivre qui tourne au vent. La distance de cette coupole à celle de Zamzam est de 25 coudées.

*La Chambre de la Juive (Baït al-Yahūdiyya):*

Elle se trouve à l'intérieur de la Mosquée Sacrée; c'est une chambre carrée, haute, dont les murs sont couverts d'une couche de chaux. Outre ceux que nous avons décris il n'y a pas d'autre bâtiments dans le sanctuaire.

*La Mosquée Sacrée, ses dimensions et ses chefs d'œuvres :*

Quatre imāms font la prière dans le sanctuaire: l'imam šāfi'ite près du Maqām, l'imām mālikite dans le coin ouest, l'imām ḥanifite près de la gouttière et l'imām ḥanbalite dans le coin yéménite. La longueur de la Mosquée Sacrée depuis le coin des Banū Šaïba — c'est la porte de l'entrée de la Mosquée Sacrée jusqu'au coin des Banū Jumaḥ — qui se trouve près de la porte des Sahmides — est de 407 coudées. Sa largeur depuis la
p. 24 porte des Sahmides, qui est le coin des Banū Jumaḥ, jusqu'au coin

ṭawāf (déambulatoire) il y a 12 coudées. La largeur de l'espace destiné au ṭawāf est de 42 coudées; celui-ci ne se trouve pas en face de la Ka'ba mais en face du milieu de son mur.

p. 21

*Le puits de Zamzam, ses dimensions, celles de sa coupole, son eau et ses vertus:*

Il est recommandé au pèlerin de prendre de l'eau de Zamzam autant qu'il peut : pour boire, faire l'ablution durant son séjour à la Mekke. Quand on en boit il est préférable de répéter l'invocation divine en disant : Dieu, je te demande de la bonne science, de la protection contre toutes les maladies. Elle exauce les vœux pour lesquelles elle a été bue. Il est recommandé aussi au pèlerin d'en emporter avec lui dans son pays car c'est un remède pour ceux qui demandent à en boire croyant fermement en ses vertus. Ibn 'Abbas n'a-t-il pas dit : "Buvez de la boisson des pieux et priez dans le sanctuaire des élus". Il réitère : "La boisson des pieux est l'eau de Zamzam, le sanctuaire des pieux sous la gouttière". La profondeur de Zamzam, de haut en bas, est de 72 coudées, l'espace entre la surface de l'eau et l'ouverture du puits est de 34 coudées, de la surface d'eau jusqu'au fond du puits il y a 38 coudées. On dit que l'eau monte au cours de la soirée du 14 ša'ban à minuit. Ce soir là, tout le monde à la Mekke fait ablution de son eau; on en puise des quantités que Dieu seul peut évaluer; l'eau n'augmente pas, ne diminue point et elle ne change pas d'aspect. Il en est de même pendant les cérémonies du Pèlerinage, le niveau de l'eau ne diminue pas : toutefois il se stabilise un peu. On raconte qu'en l'an 324 (935-6) l'eau disparut et que le puits resta inutilisable quelques jours, on le cura pour que l'eau s'y accumulât. On raconte encore que ce puits fut tari durant certaines années au point qu'un homme y descendit et y fit une prière de deux rak'as.

p. 22

La circonférence du puits est de 18 coudées. Son mur mesure 6 coudées. Il est surmonté d'une coupole carrée, élevée sur 16 colonnes, toutes sculptées. La coupole a 4 angles attachés avec des grillages de fer donnant sur une jolie porte du côté de la coupole dite "Qubbat aš-Šarāb" (dôme d'abreuvement) connu des habitants de la Mekke sous le nom de "fontaine de Zubaīda" (siqāyat Zubaïda). Son sol est pavé de marbre,

### *Description du Maqām:*

Le Maqām est une pierre de couleur rouge sombre, pointée de noir, il présente deux sommets séparés au milieu. La profondeur de l'empreinte des pieds (d'Abraham) dans la pierre dépasse deux tiers d'empan et un demi pouce.

### *Les traces des pieds dans la pierre :*

Description : La trace du gros orteil de l'un des deux pieds est placée à côté du talon de l'autre. Les doigts du pied droit sont orientés vers l'entrée, le talon de ce pied et les doigts du pied gauche vers le sanctuaire, le talon vers l'entrée. L'espace entre les deux pieds est de 3 pouces vers le sanctuaire, mais qui diminue graduellement à 2 pouces dans la direction de l'entrée pour atteindre moins d'un pouce à l'extrémité du front, dans la direction de l'entrée.

*p. 20*

### *Le Maqām :*

Le Maqām est couvert d'une couche d'argent. Sur l'extrémité supérieure dirigée vers l'entrée, on lit la légende : "gloire à Dieu", du côté de Zamzam : "louange à Dieu," du côté du sanctuaire vénéré : "il n'y a d'autre divinité que Dieu," du côté de la Dār an-Nadwa : "Dieu est grand." A l'extrémité inférieure, on trouve 4 poignées en argent fixées à la couche d'argent, grâce auxquelles on peut enlever le Maqām pour le laver. Le Maqām est situé dans un petit bassin carré de marbre blanc recouvert d'une couche d'argent. La profondeur du bassin est de 4 pouces. Deux anneaux sont attachés au Maqām sur lequel on dépose un couvercle de bois d'une hauteur de 4 empans, les deux anneaux entrent alors dans deux ouvertures ménagées dans le coffret possédant deux cadenas, l'un du côté de Zamzam et l'autre du côté de Dār an-Nadwa. Le Maqām reçoit un autre couvercle de fer, lorsque la saison du Pèlerinage approche, et que la foule défile nombreuse devant lui; on enlève alors le couvercle de bois pour le remplacer par celui en fer. On met alors à droite et à gauche de celui-ci deux sièges de bois, sur lesquels on installe deux chandeliers de cuivre munis de chandelles de poix. L'espace entre le Maqām et la Ka'ba est de 30 coudées, entre le Maqām et la limite du

*La Pierre Noire, sa hauteur dans le coin, ses attributs :*

La Pierre Noire est à trois coudées de hauteur par rapport au sol. La partie visible est d'un empan, sans compter la partie qui est encastrée dans le mur qui est d'un empan aussi. Elle est lézardée et brisée en 3 parties dont 2 sont grandes et une petite. On raconte que 'Abd Allāh Ibn az-Zubaïr l'avait collée et fixée avec de l'argent et l'avait introduite dans le coin. La petite partie avait été conservée par les Banū Šaïba, mais lorsque le Qarmaṭī restitua la Pierre après s'en être emparée, on la colla avec de la gomme laque; les Banū Šaïba rendirent alors la troisième partie et on versa sur l'ensemble de l'argent qui l'en-
p. 18 toura jusqu'à ce qu'elle prît l'aspect d'un œil. Outre la brisure, elle est piquée en de nombreux points. Tâche de baiser le plus possible la pierre noire (istilām) et le coin yémenite. Cela lave les péchés — tout en prononçant : "au nom de Dieu, Dieu Très-Haut, puisses-tu me donner la croyance en Toi, et dans les révélations du Prophète".

*Description du Ḥijr et ses dimensions :*

Le Ḥijr est de forme cubique, semblable à un bassin qui ne serait pas carré. Ses murs de même que le fond sont recouverts de marbre blanc ; les deux extrémités ne sont pas contiguës au coin du sanctuaire mais donnent respectivement sur les deux coins syrien et ouest. L'espace qui sépare les deux bouts du mur du Ḥijr des deux coins syrien et ouest est respectivement de 8 et de 6 coudées : il constitue les deux portes donnant accès au Ḥijr.
p. 19 Le tour de celui-ci est de 45 coudées et demie, sa longueur depuis le mur du sanctuaire jusqu'à son extrémité est de 20 coudées, sa largeur totale est de 25 coudées car l'une de ses extrémités dépasse les limites du coin syrien du sanctuaire d'une coudée. La gouttière (mizāb) est au milieu de ce mur qui entoure le Ḥijr. Elle est fixée au mur de la Ka'ba. L'eau de la gouttière coule sur deux plaques de marbres de couleur verte jaunâtre, scellés avec du plomb. La hauteur de ce mur est de 5 empans tandis que l'épaisseur est de 4 empans. La partie haute du mur qui est plate est recouverte de marbre blanc ; sur l'autre face du mur, en son milieu, juste derrière la gouttière, on voit une plaque de marbre vert sur lequel on applique la poitrine pour dire l'invocation hebdomadaire à la fin de la semaine. Telle est la description du Ḥijr.

*Le plafond de la Mosquée Sacrée et les çolonnes :*

Le plafond du sanctuaire est élevé sur 3 "linteaux" rangés s'étendant du mur est au mur ouest Le "linteau" à son tour est élevé sur 3 colonnes en bois modelé qui reposent sur des socles en bois ornés de clous en argent. Les colonnes sont alignées depuis le mur syrien jusqu'au mur yémenite. La distance entre la première colonne et le mur syrien est de 4 coudées; entre la première colonne et la colonne médiane la distance est de 7 coudées; celle entre la colonne médiane et la troisième colonne située après le mur yémenite est de 7 coudées; celle qui va de la troisième au mur yémenite est de 6 coudées. Le ciel du sanctuaire est d'une couleur or verdâtre, non sculpté mais cerné de vert doré. Au plafond du sanctuaire 4 lucarnes sont ménagées pour l'éclairage, les lucarnes sont couvertes d'une pierre blanche dite at-Talq, envoyée par 'Abd Allāh Ibn az-Zubaïr du Yémen, à ce qu'on raconte, et destinées spécialement à couvrir les lucarnes afin de laisser passer la lumière et non la pluie. L'une de ces lucarnes est située au haut de la pierre noire, une seconde se trouve au milieu du sanctuaire vers le chapiteau de la colonne médiane; une troisième est ménagée au haut du coin syrien et la quatrième donne sur le coin yémenite. Dans le coin noir se dresse une colonne où se trouve une barre d'argent, c'est là qu'étaient les boucles d'oreilles de Māriya, l'amulette et la corne de bélier. Aujourd'hui on n'y voit que deux grandes lampe d'argent, sculptées, et un suspensoir auquel deux autres lampe sont attachées.

p. 16

*La porte de la Ka'ba, ses dimensions et son linteau :*

Le linteau de la porte est en teck noir orné d'inscriptions d côté de l'intérieur du sanctuaire, doré du côté extérieur. La port est d'une longueur de 7 coudées et demie et d'une largeur de coudées moins 4 pouces. Elle est revêtue de plaques d'argen doré. Elle a deux anneaux en argent blanc non doré; le cadena était de cuivre rouge doré en partie déteint. Ce n'est aujourd'hu que du fer couvert d'argent. La longueur du cadenas est d'u empan. La porte se trouve dans le mur oriental, l'espace entre l porte et le coin noir est de 5 coudées, ce lieu est appelé " a Multazem ". L'espace entre celui-ci et le coin syrien est d 18 coudées, la hauteur de la porte au-dessus du sol est de coudées.

p. 17

"Sois assidu dans tes prières et n'en sois pas distrait". A côté de chaque mihrab on lit l'inscription suivante : "Il n'y a pas d'autre divinité que Dieu; Mohammed est l'envoyé de Dieu". Dans le même mur, du côté du coin yémenite, au sommet de la plaque de marbre rouge, on voit un mihrab d'or d'une longueur de 2 empans et d'une largeur d'un empan et demi. Au sommet de ces plaques colorées et des mihrabs se trouve un espace recouvert de marbre sur lequel la légende suivante est inscrite avec du musc liquide: "Il n'y a d'autre divinité que Dieu, Mohammed est l'envoyé de Dieu". Cette légende est répétée sur deux lignes et suivie d'une autre : "L'imam al-Muti'-lillah, prince des croyants", et la ligne au-dessous : "L'imam al-Muqtadir-billah, prince des croyants".

Dans le mur yémenite on compte 4 de ces plaques colorées: 2 vertes et 2 rouges surmontées d'un espace orné sur lequel on lit : "Le premier temple consacré à Dieu est celui de la Mekke, temple béni, lieu où brille la vraie lumière, ce lieu saint est fécond en merveilles. Il est devenu l'asile des peuples". Dans le mur où se trouvait la porte on voit trois de ces plaques; une verte située entre deux rouges. Les trois sont surmontées d'un espace revêtu de marbre où on lit, sur un coin du linteau de la porte, l'inscription suivante: "Tous les hommes qui peuvent faire le Pèlerinage doivent venir rendre hommage à l'Eternel. Que l'incrédule apprenne que le Tout-Puissant n'a pas besoin de l'encens des humains".

"Au nom de Dieu clément et miséricordieux".

"Dieu et les Anges sont favorables au Prophète. Croyants adressez pour lui vos vœux au Seigneur; invoquez pour lui la paix".

Dans le mur syrien on trouve 3 autres plaques de marbre coloré; une plaque verte située entre 2 rouges. Les 3 sont surmontées d'un espace recouvert de marbre sur lequel on lit : "Nous avons établi la maison sainte pour être l'asile où se réunirent les peuples. La demeure d'Abraham sera un lieu de prière. Nous avons confié à Abraham et à Ismaël le soin de purifier mon temple pour les pèlerins, les fidèles et les pratiquants". C'est la description de la Mosquée Sacrée de dehors et à l'intérieur.

permit d'augmenter l'élévation de 9 coudées et c'est de la sorte
p. 13 que le sanctuaire a mesuré 18 coudées de hauteur. Enfin, lorsqu'il fut incendié à l'époque de'Abd Allah Ibn az-Zubaïr celui-ci ordonna de la reconstruire; il augmenta ce que les Quraišites avaient diminué; mais le sanctuaire lui semblait alors peu élevé; il augmenta alors la hauteur de 9 coudées, en disant: "les Quraišites l'avaient augmenté de 9 coudées, quant à moi je l'augmenterai de 9 coudées". Depuis le sanctuaire a 27 coudées de hauteur et depuis personne ne l'a surélevé.

*Description de l'intérieur de la Mosquée Sacrée, ses caractéristiques et la signification de la prière:*

Il est indispensable pour ceux qui veulent accomplir le Pèlerinage, d'essayer d'entrer dans le sanctuaire et d'y dire la prière: cela leur confère la meilleure des faveurs. Une fois entré, le fidèle ne tarde pas à se prosterner, à réciter ses prières avec un grand attachement à Dieu, car c'est un cadre vénéré et ne tarde pas aussi de se déchausser. Il ne crache pas, il ne se mouche pas, il se tient le plus correct possible car c'est un lieu vénéré, sacré et pur que Dieu Très-Haut, Tout-Puissant a honoré entre tous les lieux de la terre tout entière. Lieu du pèlerinage terrestre pour les hommes il est face au saint sanctuaire, lieu du pélerinage céleste des anges.

Le sol du sanctuaire est pavé de marbre blanc. Dans une plaque de marbre située à la porte d'entrée de la Ka'ba, on voit un clou d'argent. Tous les murs sont aussi recouverts de marbre blanc jusqu'à une hauteur de 9 coudées. La partie supérieure, allant jusqu'au plafond n'est pas couverte de plaques d'or, mais sculptée et dorée. Parmi les marbres qui couvrent les murs, on trouve des plaques de marbre rouge et vert. On dit qu'al-Walīd Ibn 'Abd al-Malik les avait envoyés avec d'autres marbres. Il y avait joint la somme de 30 mille dinārs et donna ordre d'en couvrir le sanctuaire et de le dorer. C'est le premier qui a fait
p. 14 couvrir la Mosquée Sacrée de marbre et la fait dorer. Parmi les plaques de marbre coloré il y en a 5 sur le mur ouest juste en face de l'entrée; trois d'une couleur rouge et deux d'une teinte verte. Dans le même mur et entre les 5 plaques se trouvent trois miḥrābs (niches) en argent dont chacun a 5 empans de long et 3 de large. Dans les espaces entre ces miḥrābs on lit la légende :

syrien, on dresse le minbar de hatib le vendredi; on l'enlève les autres jours. C'est un minbar constiué de trois parties.

L'arrière corps, c'est-à-dire la façade ouest qui s'étend du coin yémenite au coin occidental, mesure 27 coudées — la longueur de la coudée ici est de 20 pouces. La distance de coin yémenite au coin noir est de 21 coudées et demie.

p. 11

Le côté syrien, c'est-à-dire la façade syrienne, surmontée de la gouttière (mizab), s'étend du coin ouest au coin syrien et mesure 24 coudées. Ce sont les dimensions du sanctuaire à l'extérieur.

A l'intérieur les dimensions sont les suivantes : le mur qui est en face de toi lorsque tu entres dans le sanctuaire où sont ménagés les mihrabs d'argent et où le Prophète a fait la prière, mur qui s'étend du coin ouest au coin yémenite, a une longueur de 22 coudées. Le mur où se trouve la porte, et qui s'étend du coin noir au coin syrien, a 29 coudées de long à cause du coin qu'avait construit al-Hajjaj Ibn Yusof dans le coin syrien de sanctuaire et où il plaça une échelle par laquelle on accède au sommet de la Ka'ba pour accrocher les toiles (Kuswa). La largeur du mur syrien s'étendant du coin ouest au coin syrien est de 15 coudées et demie; cette distance est plus réduite à cause du coin sus-dit. La largeur du mur yémenite allant du coin noir au coin yémenite est de 17 coudées et demie. Mesurée à l'intérieur, la superficie du sanctuaire est de 352 coudées et demie

p. 12

L'épaisseur des murs de la Ka'ba est de 5 empans et la hauteur du sanctuaire, mesurée à l'intérieur en partant du sol, de 30 coudées: le mur du sanctuaire mesure 27 coudées de haut; il est surmonté d'une rampe d'une coudée de hauteur; on accroche la Kuswa une coudée au-dessus de cette rampe, c'est ainsi que la hauteur atteint 30 coudées. C'est l'élévation à l'extérieur tandis que l'élévation à l'intérieur est la suivante : tous les murs, du fond du sanctuaire jusqu'au premier plafond ont 20 coudées de hauteur et 2 coudées du premier plafond au plus élevé. C'est la hauteur intérieure.

On raconte qu'Abraham (l'ami de Dieu, salut à lui) avait donné à la Mosquée Sacrée primitive une hauteur de 9 coudées sans couverture; lorsque les Quraïsites la rebâtirent avec 6 coudées de moins en longueur qu'on laissa dans le Hijr, le surplus de pierre

l'histoire suivante: Maḍāḍ Ibn Jurhum s'y était installé et as-Sumaïda' Ibn Jurhum étant sur celle d'Ajyād une grande guerre éclata entre les deux. Ajyād — Je veux dire ceux qui s'y installaient — autrement dit as-Sumaïda' et les siens étaient les premiers à répandre le sang dans ce lieu sacré et à encourager la tuerie; les Arabes les appellèrent "Ajyād", car ils furent les premiers à donner généreusement leur sang puis ils baptisèrent la montagne "Ajyād". C'est une haute montagne, verte, située à l'ouest de la Mosquée Sacrée, au sommet de laquelle se trouve un minaret dont la construction est attribuée à Abū Bakr et sur lequel le muézin fait l'appel à la prière pendant le mois de ramaḍān. Elle est située en face du coin yémenite de la Ka'ba et on y accède par la porte d'Abraham. Du côté ouest, elle donne sur la montagne de Qua'īqi'ān. Il y a aussi le mont d'Ibn 'Imrān; c'est une montagne noire située entre Abū Qubaïs et Ajyād; en réalité elle se trouve derrière celles-ci, mais de loin, elle semble être située entre elles. Par apport à la K'aba, elle domine le mur yémenite, mais elle est penchée davantage sur le coin yémenite. Puis on voit la montagne dite al-Bukā, à l'arrière des montagnes entourant la Mekke. Elle se trouve sur le flanc, située à l'extrémité de Ḏū-Ṭuwā, à ta droite lorsque tu sors pour at-Tan'īm. A ta gauche, se trouve le Muttaka' qui est la pierre sur laquelle, le Prophète s'assit pour se reposer, quand il y parvint selon les récits des habitants de la Mekke d'après leurs Šaïhs.

p. 9

*Nombre des faubourgs de la Mekke :*

Les faubourgs de la Mekke sont au nombre de quatre : al-Ḥajūn et ses environs qui s'étendent jusqu'à al-Marwa, le faubourg dit Qu'aïqi'ān et ses environs jusqu'à la porte de Ḏū-Ṭuwā, le faubourg d'Ajyād al-Kabīr avec la passe d'Abū Bakr, englobant la partie basse du site de la ville (masfala) et allant jusqu'à la porte des Yémenites puis le terrain plat (abṭaḥ) et ses environs de la porte de Minā s'étendant jusqu'au chemin de'Ali et celui de 'Uṯmān.

p. 10

*Dimension de la Ka'ba de dehors :*

La longueur de la façade de la Ka'ba, c'est-à-dire de la partie où se trouve la porte, du coin noir au coin syrien est de 27 coudées. Le long du tiers restant de ce mur, du côté du coin

que ces quatre lieux. A ce qu'on raconte, c'est l'un des "Ahšabān" On dit d'elle qu'elle est la première montagne créée par Dieu Très-Haut sur Terre.

Elle tire son appellation d'Abu Qubaïs du surnom d'un homme qui y vivait dans la haute antiquité. L'homme était surnommé Abu Qubaïs et c'est à lui qu'on attribue l'origine du nom de cette montagne. Parmi les montagnes, elle est la plus proche de la Mosquée Sainte. Elle est placée en face de la Mekke aussi bien que de la Ka'ba du coin noir.

p. 6 On rencontre aussi la montagne d'al-Handama; c'est une haute montagne qui domine Abū Qubaïs du côté est. Elle est faite d'une pierre rouge et il s'y dessine un grand rocher blanc qui, vu de loin, ressemble à une forme humaine. On peut l'apercevoir de la Mosquée Sainte à travers la petite porte des Sahmides. C' est sur cette montagne que les habitants de la Mekke s'étaient retranchés le jour d'al-Qarmaṭi. Plus bas, et séparée de cette montagne par une caverne, se trouve la passe de'Ali. Puis on trouve la montagne blanche située sur le "terrain plat" (abṭaḥ) près de la porte de Minā (bāb Minā). Entre elle et la montagne rouge, on voit une muraille où sont ménagées deux portes en bois recouvertes de plaque de fer, elles se trouvent sur "al-Ma'la" et sont connues sous le nom de porte de Minā. Près d'elles des puits profonds p. 7 où les gens puisent une eau qui n'est pas très douce.

La montagne rouge s'étend depuis la mosquée d'al-Ḥaïf jusqu'à l'endroit dit al-Ḥajun. Elle est parcourue par un chemin élevé au bas duquel s'étend la haute plaine (baqi') de la Mekke. Sur l'un de ses chemins se trouve le lieu dit al Muḥaṣṣab, entouré de la passe située en face de la mosquée d'al-Ḥaïf où venaient les ancêtres du premier siècle de Minā, aux derniers jours d'at-Tašriq pour accomplir la prière du midi, de l'après-midi, du coucher du soleil et du soir. Ils allaient ensuite à la Mekke. Il a été bien prouvé que le Prophète a suivi le même chemin. Puis on découvre p. 8 la montagne située derrière la Dar an-Nadwa (maison de l'assemblée), dite Qu'aïqi'ān. Elle donne sur celle d'Abu Qubaïs. C'est une montagne verte. On raconte, à propos de son appellation de Qu'aïqi'an.

serviteur d'après ce qu'il a recueilli, de vérifier ces faits et de lui donner satisfaction, car quoique ce dernier ait fait son possible dans le choix de ses informations, il a adopté une position intermédiaire entre un long développement et un résumé trop succinct, il est digne de sa bienveillance et doit être pardonné pour ses fautes, car il est "comme celui qui apporte des dattes à Hajar".

p. 4

C'est à vous que nous avons emprunté tout ce qui est merveilleux puisque vous êtes une merveille parmi les merveilles. C'est ce que je voudrais dire en commençant mon récit en suscitant le soutien de Dieu (gloire à lui), et en aspirant à son pardon. Puisse Dieu rendre les Lettres heureuses en prolongeant les jours du seigneur en le récompensant pour ses bienfaits qu'il accorde aux gens.

— On fait d'ordinaire des cadeaux qui correspondent à la valeur du destinataire: quant à moi, je vous fais un cadeau digne de vous.

— On offre les objets périssables, et moi, je ferai l'objet de mes cadeaux ce qui subsistera de votre gloire.

## LA MEKKE ET SON TERRITOIRE SACRÉ

La limite du territoire sacré du côté de Médine est situé au lieu dit Ḏū-Ṭuwa, à 3 milles de la Mekke ; dans la direction de la ville be Judda elle est à 10 milles ; vers le Yémen elle est à 7 milles ; dans la direction de l'Irak, elle est à 6 milles ; dans celle de la ville d'aṭ-Ṭa'if, elle est à 11 milles, ce qui fait 37 milles dans l'ensemble. Le tour du territoire sacré autour de la Mekke est de 733 milles. Le Prophète a construit dans les deux territoires sacrés 15 mosquées.

p. 5

### *Description de la Mekke, ses faubourgs et noms des montagnes qui l'entourent :*

La montagne d'Abū Qubaïs: c'est une montagne d'une couleur sombre donnant vers le blanc, qui porte au sommet un minaret attribué, selon ce qu'on raconte à Abraham. Au pied de cette montagne se trouve la colline d'aṣ-Ṣafā par laquelle on y accède. Il n' y a que quatre endroits par où on puisse atteindre le sommet : aṣ-Ṣafā, la passe de 'Umar et celle de 'Ali et la passe d'Ajyād aṣ-Ṣaġīr. Pour l'ascension d'Abu Qubaïs, on n'a d'autres chemins

al-Istibsar fi 'Aja'ib al-Amsar (le livre d'observation des merveille: des divers pays). J'ai eu la plupart du temps le souci de cherche la vérité et d'éviter la réunion de récits dissemblables.

p. 3 J'ai commencé par la Mekke, Dieu Très-Haut l'honore et tout ‹ qui mérite d'être mentionné: description de son territoire sacré, non des montagnes qui l'entourent, mention de ses environs, descriptic de la Mosquée Sainte — dans la mesure du possible — les dime: sions extérieures de la K'aba et la description de l'intérieur. J' décrit (les deux collines) d'as-Safa et d'al-Marwa, (les lieux de'Arafa, de Muzdalifa, de Mina et la montagne de la miséricorc (ar-Rahma), avec le sanctuaire d'Abraham (salut à lui). J'ai fa la description du val de Muhasser, sans parler des rites ( c Pèlerinage). J'ai décrit la mosquée de l'Envoyé de Dieu à Médin de même que sa chaire. J'ai dénombré ses portes avec les colonn et les lampes. De même, pour son tombeau (salut à lui), po la plaine de Médine, pour le tombeau de 'Utman (Dieu soit conte de lui), pour la mosquée de Quba, pour les tombeaux des mart au (mont) 'Uhud, auprès de qui je demande bénédiction et bie veillance.

J'en suis venu ensuite à décrire le pays d'Egypte et ses merve les: le Nil et la longueur de son cours, puis la construction d pyramides, les birbas (temples antiques), leurs bâtisseurs, leu dimensions et ce qu'on y a fait comme merveilles. J'ai mention les rois qui rendirent ce pays prospère avant le déluge et l conséquences de celui-ci. J'ai décrit la conquête de l'Egypte so le règne de notre seigneur 'Umar Ibn al-Hattab, puis je regagna la ville d'Alexandrie. J'ai décrit sa construction, fait la descriptic de son phare, des caractéristiques du miroir qui s'y trouvait et c sa fondation, pour nommer en terminant les rois qui se succédère sur son trône. J'ai cité ensuite les pays d'Ifriqiya et leurs mervei les. J'ai fait la description de la ville de Carthage, de ses mon ments et de ses merveilles, ensuite celle des autres pays jusqu' l'extrémité du Maghreb. J'ai divisé les différentes contrées en deu parties et les ai mises en ordre suivant deux catégories: les ville du sahara et les villes voisines, celles du littoral et celles qui le suivent. Je n'ai cité — de ce que j'ai recueilli — que les fait quasi connus par tous (les auteurs) et qui sont acceptés par de témoins oculaires ou par tradition auriculaire. C'est au seign (Dieu prolonge son pouvoir et ses bienveillances) d'apprécier son

et le passé des Arabes et des Non-Arabes. On peut en effet apprendre l'histoire des Anciens et celle des royaumes complétement disparus, comme si ces royaumes avaient ressuscité ou avaient failli l'être.

— Rien ne me plaît dans le monde hormis les livres qui contiennent poèmes et histoires.

— Les hommes de mérite et de vertu sont morts, et, c'est dans les livres que nous trouvons leurs traces.

Dans le passé, les gens ont composé soigneusement et écrit des histoires et des chroniques, afin de mettre en ordre les événements remarquables et de réunir leurs détails. Et chaque auteur, suivant sa méthode apportait soit en détail soit en résumé sa contribution à l'histoire. Souvent même de sages serviteurs ont immortalisé leurs rois grâce à des histoires bien rédigées et des ouvrages soigneusement composés, afin de leur faire plaisir et de s'attirer leurs faveurs. Sans ceux-là, les successeurs n'auraient pas possédé la science de ceux qui venaient avant eux, et on n'aurait même pas connu l'histoire des différentes religions et celle des diverses nations.

C'est ainsi que j'ai découvert l'illustre Šaïh, le grand, le puissant, le haut, le glorieux, le vénérable Abū 'Imrān fils de grand Šaïḫ Abū Yaḥyā Ibn 'Ūqtīn (puisse Dieu maintenir leur grandeur et faire prospérer leur gloire et leur fortune) dépassant par son mérite les hommes de mérite et par sa noblesse les Nobles, devançant les hommes de son époque par sa science, par sa complaisance aussi bien que par son amour pour la recherche scientifique, la protection de savants et le souci de gagner la sympathie des doctes légistes. Il s' intéressait particulièrement aux bonnes nouvelles, il récompensait les historiens par ses largesses au point que sa renommée fût connue de tous voyageurs et dans le monde entier. Pour lui manifester ma reconnaissance, je n'ai pas pu résister à la joie de lui dédier un livre renfermant à la fois des histoires que j'ai entendues et d'autres que j'ai lues et englobant toutes les éparses anecdotes agréables. Escomptant me garantir sa bonté, espérant aussi ses faveurs et sa satisfaction, j'ai intitulé mon ouvrage, composé suivant le plan déjà prévu, " Kitāb

## AU NOM DE DIEU CLÉMENT ET MISÉRICORDIEUX

Que la bénédiction de Dieu soit sur notre seigneur Mohammed

Kitāb al-Istibṣār fi 'Ajā'ib al-Amṣār

(le livre d'observation des merveilles des divers pays).

Louange à Dieu qui connaît les secrets. Il accorde le pardon aux crimes. Il est l'Uniqe, l'Invincible, le Puissant, le Fort, le Pur dont la veille, ni la nuit, ni le jour ne neutralise la force.

Pleins de foi en son unicité, nous lui consacrons nos louanges; puisant dans l'infini de ses grâces, comblés de sa miséricorde, nous le remercions.

Nos prières pour son Prophète, notre seigneur Mohammed, l'envoyé aux miracles éblouissants, aux révélations décisives, celui qui nous arrache de l'enfer par les cheveux, celui qui prêche pour la foi de son Dieu par des versets évidents.

Nos prières de même pour les siens vénérés, pour ses pieux compagnons, jusqu'au jour du jugement.

Grâces à son chaste fils, à son pieux descendant l'Imām impeccable qui renouvela les préceptes de la Religion après leur déformation, qui lutta sincèrement pour Allah, et invita égarés et perdus à suivre la voie de la Vérité. Grâces aux Califes orthodoxes, guides de la foi, flambeaux de ceux qui suivent le vrai chemin. Nous rejetons nos invocations en faveur de leur successeur le béni, le bienheureux notre seigneur le Commandeur des Croyants Ya'qūb; que le triomphe accompagne son bonheur et que la providence lui accorde les victoires qu'il désire.

On sait que la science est le bien le plus précieux, qu'elle est l'occupation la plus honorable, qu'on n'a pas cessé de la transmettre des ancêtres à leurs successeurs, et d'un homme noble à un autre. C'est pourquoi, il faut la considérer comme le meilleur cadeau qui se puisse offrir et le meilleur don qui se puisse espérer, afin d'être imprégné par elle, d'être l'un de ses représentants et de posséder vivement les traces de l'histoire variée des nations

p. 2

Les apports les plus originaux concernent le Maghreb — Extrême. Les efforts constructifs des trois premiers almohades, surtout de Ya'qūb, sont importants : travaux hydrauliques, mosquées, palais et fortifications à Marrākuš, Fās et Miknāsa.

Ce résumé est un apercu rapide de l'Istibṣār, véritable petite encyclopédie historico-géographique.

Pour établir le texte nous avons consulté trois manuscrits : un appartenant à la Bibliothèque nationale de Paris (fonds arabe No. 2225), d'une écriture lisible, mais dont les premières et les dernières feuilles manquent — il présente de plus quelques lacunes —; deux manuscrits de la Bibliothèque nationale d'Alger : le premier (No. 1560) est en bon état et complet; par contre le deuxième (No. 3216), quoiqu 'il soit complet, est en mauvais état et d'une écriture parfois difficile à déchiffrer. Nous avons consulté enfin l'édition de von Kremer concernant le Maghreb, établie d'après un manuscrit dont nous ignorons le sort; mais elle présente beaucoup de lacunes.

Nous donnons au manuscrit de Paris la lettere "ب", à ceux d'Alger — respectivement les lettres "ع" & "م" à l'édition Kremer la lettere ك.

Les multiples fautes d'orthographe ou quelquefois grammaticales aussi bien que les variations de noms propres montrent que ces manuscrits étaient copiés à une époque postérieure à celle de l'original, par des copistes peu lettrés. Par suite de celà, nous avons été obligés assez souvent d'avoir recours aux ouvrages antérieurs. Et, malgré l'élargissement de notre champ de travail qui en a résulté, nous ne pouvons prétendre que notre texte soit parfaitement rétabli. Quelques mots, voire quelques phrases, restent encore imprécis ou peu intelligibles. Citons par exemple les mots "baḥr murahham" (p.14-15) ou les mots "hijāra matrūra" (p.33). S'agit-il là de termes techniques propres à l'architecture ? Nous ne pouvons l'affirmer, mais nous comprenons ces mots selon le sens général de la phrase. C'est ainsi que nous entendons les premiers comme "espace recouvert de marbre" et les seconds comme "pierres bien taillées." Mentionnons encore les mots "tawrān min nuḥās" (p.20) que nous comprenons comme "deux chandeliers de cuivre", la phrase "fa nāza'ani fi'l qorb wa al-šūli fa galabtuhu"

(p. 185) que l'on peut interpréter ainsi : "il a eu avec moi une discussion à propos du thon et de l'esturgeon, mais c'est moi qui l'ai emporté." Citons aussi le mot "T̲alīt̲" (p.200) nom propre d'une ville, dans le sud marocain, près de Sijilmāssa, dont nous ne savons rien.

En ce qui touche à la traduction, notre effort a visé à reproduire fidèlement l'arabe en français au moyen d'une transposition littérale. C'est seulement chaque fois que l'arabe était difficile à traduire directement, nous voulons dire mot par mot, que nous avons tenté de reproduire plutôt le sens, mais tout en observant de rester le plus près possible du texte. Une pareille tâche n'est pas facile à mener à bien. Nombreuses sont les difficultés que nous avons rencontrées : nuance entre les mots, images difficiles à rendre, tournures propres à chacune des langues, somme toute c'est l'esprit de l'une et de l'autre qui était en jeu. Nous pourrions en donner des exemples multiples. Sans chercher plus loin, il suffirait de parcourir les premières pages de l'ouvrage où les illustrations de ces difficultés abondent.

Des notes explicatives accompagnent le texte. Elles ont pour but soit l'indication de sources antérieures constituant les informations de base de notre texte, soit la comparaison de celui-ci avec celles-là. C'est aussi dans le même but que nous avons mentionné, dans les notes, quelques uns des ouvrages les plus importants des époques postérieures.

Béja, laine de Wajja, cuivre jaune de Fès, huile de Miknasa et ses alentours, peau de l'antilope, sel et surtout sucre du pays de Sous — exporté dans tous les pays du Maghreb et d'Andalousie, et en Ifriqiya — ainsi que le cuivre travaillé, le miel, le vin, les esclaves, de l'ambre d'excellente qualité. Dans les pays du Soudan, il s'étend sur l'or, l'alun blanc et l'amiante.

Sur le plan historique, le livre renferme des renseignements de nature différente et de valeur inégale : histoires anciennes empruntées aux livres connus ou perdus, se rattachant aux légendes, et aux fables de valeur seulement littéraire, et des documents historiques contemporains d'une valeur inestimable.

La première partie qui décrit en détail les Lieux Saints est intéressante pour l'histoire de l'art, surtout si l'on tient compte de la rareté des traités consacrés à l'archéologie, ce qui rend la tâche de l'historien de l'art des plus difficiles.

En ce qui concerne l'Egypte, l'ouvrage nous donne une idée de l'esprit avec lequel on concevait l'histoire de l'Egypte ancienne. Tout ce qui est ancien doit être extraordinaire sans même tenir compte des documents très sûrs que l'on possède. Ainsi, le plomb devait remplacer le mortier dans la construction des pyramides; mais il aurait suffi d'examiner ces monuments pour constater qu'il n'en était rien. A la différence de la première partie caractérisée par la sécheresse des renseignements, la seconde est surtout littéraire.

Le chapitre consacré à Alexandrie est des plus intéressants. L'auteur nous présente en détail le célèbre phare et retrace la position militaire de la cité placée sous la menace permanente de l'ennemi séculaire, Chrétiens et surtout Normands de Sicile. La croisade de Saladin et sa victoire, la mission d'Ibn Munqiḏ auprès d'al-Manṣur sont l'objet de quelques pages intéressantes auxquelles on souhaiterait une plus grande ampleur.

La dernière partie relative au Maghreb est d'une valeur incontestable pour l'histoire almohade, du fait de la situation sociale de son auteur. Celui-ci condamne avec amertume les opératioms menées par 'Ali Ibn Ġaniya en Ifriqiya et défend la cause de son souverain.

et à Damiette; nous sommes maintenant en l'an 586 (1190)"; tout comme si le fait existait encore ou comme s'il l'avait constaté lui-même. Il ne savait pas que Tennis avait été l'objet de plusieurs attaques des Siciliens et des Croisés et que ses habitants l'évacuaient en 588 (1192) lorsqu'il remaniait son ouvrage (voir p. 88 et note 1 ). Une fois parti d'Egypte pour rejoindre le Maghreb et le Soudan, l'Auteur n'est plus sollicité par le passé. Il revient à ce qu'il voit et donne des descriptions plus précises. Si l'on tient compte du fait qu'il était maghrebin et par conséquent familiarisé avec un pays qui était le sien, on comprendra aisément que cette partie ait plus de valeur que la précédente.

Ici les sources auxquelles notre ouvrage puise ses renseignements et dont il fait mention sont al-Mas'ūdī et al-Bakrī — ce dernier constitue la source essentielle de la troisième partie. Mais l'effort de notre auteur est considérable; il suit un plan qui lui est propre et il fournit des informations personnelles très considérables, notamment en Ifriqiya et au Maghreb-Extrême.

*INTÉRÊT DE L'OUVRAGE :*

L'ouvrage est une source de renseignements d'ordre géographique, historique et archéologique. Il insiste sur la prospérité agricole de l'Egypte due au Nil et plus spécialment sur celle de la contrée d'al-Fayyūm. Celle-ci attire son attention surtout par ses travaux hydrauliques qui favorisent son agriculture et ses fruits. Les dattes d'al-Faramā sont classées parmi les merveilles du monde. Il s'étend longuement sur les mines d'émeraude situées entre la ville de Qūṣ et celle d'Assouan. Il s'arrête sur l'industrie du tissage à Damiette et Tennis ou l'on trouve des robes en fil sans or à 100 dinars et où l'on se livre à la chasse des grives. 'Aydab, à cette époque, était un port important d'où on partait à destination de Ḥijaz, du Yémen, des Indes et des autres pays.

A propos du Maghreb, il insiste sur la richesse agricole et minérale de chaque ville : soie de Gabès, huile de Sfax exportée en Sicile, en Italie et dans la "Grande terre" (pays des Francs = France), tissu de Sousse, poissons de Bizerte, corail de Ṭabarqa, dattes des Oasis et et du pays du Jarīd, or du pays situ entre les Oasis et l'Egypte, pistaches de Qafṣa, blé a.

Dans ces chapitres l'auteur utilise cinq sources différentes qu'il cite à quelques reprises: al-Mas'ūdī (m. 956), Ibn Waṣīf Šah qui écrit vers l'an 1000 est d'origine persane et habitant, semble-t-il, la ville d'Ihmim, versé dans l'histoire de l'Egypte ancienne — selon la conception, il est vrai, qu'on se faisait de cette histoire au Moyen Age (Cf. Carra de Vaux, L'Abrégé des Merveilles, Paris, 1898), Ibn 'Abd al-Ḥakam, al-Bakrī et enfin les informations personnelles de l'auteur, portant souvent sur des événements qui lui étaient contemporains (chaque fois que l'auteur les reproduit il les fait précéder de la formule: "an-Nāẓir dit"). L'auteur a-t-il puisé ses renseignements directement à ces sources? Le fait que les fragments de l'ouvrage d'al-Bakrī qui traitent de l'Egypte (ms. Paris, 2218) ressemblent d'une manière frappante tant par leur plan que par leurs détails aux chapitres de notre ouvrage nous incite à croire que l'auteur n'a fait que reproduire l'ouvrage d'al-Bakri avec ses détails empruntés à al-Mas'ūdī, Ibn Waṣīf Šah et Ibn 'Abd al-Ḥakam. Cette constatation n'empêche pas que l'auteur ait pu consulter ces livres qui étaient en vogue à l'époque et qu'il en ait tiré peut-être des renseignements qu'il aurait ajoutés à ceux d'al-Bakri. Et s'il ne mentionne pas al-Idrīsī, il semble que celui-ci l'inspira maintes fois. Lorsqu'il s'agit de la conquête arabe, il reproduit Ibn 'Abd al-Ḥakam tel qu'il l'était par al-Bakrī. Et sans doute en va-t-il de même quand il s'agit de l'Egypte ancienne et qu'il mentionne Ibn Waṣīf Šah en reproduisant son récit.

Dans ce domaine de l'histoire ancienne, nous n'attendons rien de nouveau de l'auteur. Mais c'est à propos des villes égyptiennes que nous attendons une mise à jour comme il le fait lorsqu'il traite des villes du Maghreb. Or, il n'en est rien. La croisade fait rage et plusieurs villes égyptiennes sont le théâtre de drames qui devront retentir au Maghreb. Mais l'auteur, se contentant de donner quelques passages sur la croisade et la victoire de Saladin à la fin de ses chapitres, se donne à reproduire la description classique de ces villes telle quelle était faite par al-Mas'ūdī, Ibn 'Abd al-Ḥakam et al-Bakrī. En plus il risque d'induire le lecteur en erreur quand, négligeant de donner sa source, il modifie un peu la forme de celle-ci et donne par contre la date à laquelle il rédige son ouvrage. Nous avons pour exemple de ce fait les renseignements d'al-Mas'udi sur Tennis et Damiette reproduits par l'auteur de la façon suivante: "il y a des Chrétiens payant la capitulation à Tennis

A propos de Médine il s'étend de la même manière en insistant sur la mosquée du Prophète, la sépulture vénérée, la mosquée de Qubā pour finir avec les tombeaux des martyrs au pied du mont'Uḥud.

Cette partie, par les renseignements précis qu'elle apporte et par son caractère scientifique, est d'une grande valeur. Mais nous ne savons pas à quelle source l'auteur a puisé ses informations. En ce qui concerne la Mekke ces dernières sont différentes de celles qui sont fournies par al-Azraqī (IIIe/IXe siècle) et reproduites par Ibn Rusteh (fin du IIIe/IXe siècle) et ainsi que de celles d'Ibn Jubaïr, contemporain de notre auteur, qui constituent les deux sources d'informations les plus originales sur la Mekke et la Ka'ba. Notre auteur ne leur doit donc rien. Sans doute peut-on penser à al-Bakrī qui écrivit en 460 (1067) et dont l'ouvrage intitulé *al-Masālik wa'l Mamālik* (les Itinéraires et les Royaumes) constitue quant à l'Egypte et au Maghreb l'information de base de notre auteur et dont la partie de cet ouvrage relative aux Lieux Saints est perdue. Pour la description de Médine et la mosquée du Prophète, nous ne savons pas non plus à quelles sources a puisé l'auteur; ses informations sont différentes de celles d'Ibn Rusteh et de celles d'Ibn Jabaïr. Toutefois l'auteur dit de l'an 528 (1133—1134) qu'en cette année il y avait dans la nef médiane de la mosquée du Prophète un tapis fabriqué au Ṭabaristān. Et ceci donne à croire que la composition de la première partie doit remonter à cette époque et que notre auteur la copia en 587 (1191) d'après une source qui ne nous est pas parvenue.

Dans son ensemble la seconde partie se rattache à l'exposé des merveilles du monde; ce n'est partout que curiosités, choses rares et extraordinaires. Par ailleurs nous remarquons l'ébauche d'un plan qui tente de diviser les chapitres consacrés à l'Egypte en deux périodes: celle de l'Egypte ancienne — qui se subdivise à son tour en deux autres périodes séparées par le déluge — et celle de l'Egypte moderne, arabisée. La première commence par un exorde sur le pays en général et finit avec l'apparition de l'Islam et la chute du pays sous la pression des Arabes. La seconde, celle des villes égyptiennes, débute par l'histoire de la conquête musulmane empruntée à Ibn 'Abd al-Ḥakam. Ce plan et ces divisions ne sont valables qu'en gros, dans les détails, les renseignemer géographiques et historiques, antiques où modernes, s'intercs les uns dans les autres sans une nette démarcation.

*L'OUVRAGE* :

Un coup d'œil rapide nous permet de constater que le *Kitāb-al-Istibṣār* est une oeuvre géographique. Selon R. Blachère les ouvrages arabes de géographie se divisent en deux grandes catégories : l'une est constituée par la géographie mathématique, l'autre par la géographie descriptive. Elles se subdivisent respectivement en deux classes : science des longitudes et des latitudes et détermination de la position du pays d'une part, science des itinéraires et des Etats, et science des merveilles du monde de l'autre. Dans quelle catégorie classerons-nous l'Istibṣār ? D'après le titre de l'ouvrage qui signifie "Livre d'observation des merveilles des divers pays", il semble qu'on doive le classer dans la quatrième catégorie. Mais d'une façon générale il n'en est rien car il ne s'agit pas de géographie pure. Malgré sa date tardive c'est un mélange d'histoire et de géographie de toutes sortes, qui s'attache à la classe des ouvrages historico-géographiques des premiers siècles.

Au point de vue géographique, l'ouvrage n'a aucune prétention scientifique, il n'est pas exclusivement consacré aux merveilles du monde comme on pourrait l'attendre, mais ce n'est qu'une œuvre de compilation renfermant cartains renseignements précis, d'autres plus vagues, des légendes savoureuses, le tout rassemblé pêle-mêle dans le but d'offrir a tous une description facile et agréable qui ne soit alourdie de précisions scientifiques ennuyeuses n'intéressant que les spécialistes.

*LES SOURCES :*

Pour tenter d'identifier les différents auteurs auxquels il a emprunté ses informations, nous tiendrons compte du fait que l'ouvrage est divisé en trois parties distinctes : Lieux Saints, Egypte, Maghreb.

Il ne s'agit dans la première partie, que d'une description de la Mekke et de Médine destinée à brosser un tableau des rites traditionnels relatifs au cinquième principe de la religion musulmane : le Pèlerinage. L'auteur insiste sur la Mekke, énumère ses banlieues, ses collines et les montagnes environnantes. Il décrit minutieusement la Ka'ba, ses dimensions, sa porte, la pierre noire. Il s'étend longuement sur la Mosquée Sacrée, décrit le puits de Zamzam, explique au fur et à mesure les rites du Pèlerinage. Il mentionne encore les autres mosquées, telles que celle d'al-Haïf et celle d'al-Muzdalifa.

Il semble qu'il ait écrit ce livre en l'an 587 de l'Hégire (1191), au mois de ramadan (septembre-octobre). C'est ce qu'il nous apprend à plusieurs reprises, particulièrement à propos de la mission d'Ibn Munqid. envoyé de Saladin auprès du calife mâghrebin, et des opérations militaires contre les Banū Ġaniya en Ifriqiya. Mais le livre a été vraisemblablement l'objet de quelques remaniements postérieurs à cette date : nous en avons pour exemple la mission d'Ibn Munqid au sujet de laquelle l'auteur, après avoir indiqué la date de la rédaction de son ouvrage (ramadān 587 / septembre-octobre 1191) rapporte que l'ambassadeur de Saladin quitta la résidence califienne le 11 muḥarram 588 (28 janvier 1192).

Les détails qu'il donne sur Meknès, Fès et Marrakech prouvent une connaissance profonde de ces villes; il y a certainement vécu s'il n'en est pas originaire : il ne se contente pas de décrire minutieusement les capitales maghrebines de l'empire almohade de son temps, les travaux entrepris sous Ya'qub et ses deux prédécesseurs, mais il propose encore des plans constructifs destinés à améliorer la prospérité de ces contrées.

En outre, les renseignements qu'il donne à propos de l'expédition militaire contre les Banū Ġaniya s'accordent d'une façon frappante avec une lettre officielle expédiée par la chancellerie de Ya'qūb et dont il nous livre des extraits(1). Quand il traite du Soudan, il dit qu'il a consulté des lettres officielles expédiées au nom de Ġana roi de l'un de ces pays et destinées à Yusof Ibn Tašfīn; ce qui veut dire qu'il avait sous la main les anciennes archives almoravides. Pouvons-nous conclure de là que notre auteur remplissait auprès de Ya'qūb al-Manṣūr une fonction lui permettant d'être au courant des événements, à la chancellerie ou au palais califien ? Doit-on penser que notre auteur était l'auteur même de la lettre de la chancellerie Ibn Mahšara (2) ? D'autre part le fait de louer très humblement le calife et ses deux prédécesseurs, n'est-il pas une preuve de soumission affectueuse de la part d'un sujet almohade dévoué ?

---

(1) Cf. Texte : p. 159 et note 1.

(2) Abū al-Fadl Ja'far IbnMohammed Ibn Ali Ibn Ṭāhir Ibn Tamīm al-Qaīsī (541/1146—7=598/1201—2). Cf. Lévi—Provençal, Un recueil de lettres officielles almohades. étude, p. 9 et note 2.

*L'AUTEUR :*

Nous ignorons l'auteur du *Kitāb al-Istibṣār.* A l'exception d'Ibn Abī Zar' qui mentionne le titre de l'ouvrage[1], aucun écrivain en effet n'a donné jusqu'ici le moindre renseignement. L'auteur d'ailleurs à travers son livre ne nous révèle presque rien de sa personne. Il se désigne sous trois appellations : *al-Mu'allif* (l'auteur), *al-Nāẓir*, sur lequel on va revenir et *al-Wāḍi'* : la signification est à peu près identique à celle *d'al-Mu'allif.* Aussi nous arrêterons-nous simplement à l'examen *d'al-Mu'allif* et *d'an-Nāẓir.* Ces deux mots désignent-ils une ou bien deux personnes? Il pourrait s'agir d'un titre mais cette hypothèse est peu soutenable car nous ne connaissons pas à l'époque de titulaire de ce nom. Dans le second cas on doit admettre, que le mot *an-Nāẓir* signifie "réviseur", celui qui a mis l'ouvrage au point. Ce terme désigne donc un autre personnage que l'auteur. Ce fait est confirmé par le passage suivant (texte, p. 226): « *an-Nāẓir* dit : Ici prend fin ce que j'ai trouvé à ce sujet, l'auteur *(al-Wāḍi')* l'a bien composé, a mis en ordre ce qu'il a vérifié ..., j'ai vérifié et embelli le livre de l'auteur *(al-Wāḍi')* avec ce que j'ai ajouté dans les divers sujets : et j'espère me consacrer à la composition d'un livre complet contenant l'histoire des pays du Maghreb et de ses royaumes jusqu'à notre époque imāmide bien heureuse en y ajoutant ce que j'ai présenté à notre auguste souverain, en l'an 580 (1184—5) et en y insérant, tant que je vivrai, les nouvelles conquêtes par lesquelles il exterminera les ennemis ... »

De toute façon c'est ce "Réviseur" qui doit rester à nos yeux le véritable auteur du livre, qui composa l'introduction dans laquelle il établit le plan de l'ouvrage (description des Lieux Saints, de l'Egypte et du Maghreb) et qui termina ce dernier en nous promettant un livre exclusivement consacré à l'histoire du Maghreb. Quelques passages semblent suggérer qu'il vécut sous le règne de Ya'qūb al-Manṣūr l'Almohade et qu'il était sous le patronnage d'un haut dignitaire, le šaīḫ Abū 'Imrān Ibn Abī Yaḥyā Ibn "'Ūqtīn", mécène auquel il dédie son livre et dont il sollicite les faveurs.

---

(1) Cette mention est faite lorsque l'auteur d'al-Qirṭās (p. 24) reproduit un extrait relatif à l'appellation de la ville de Fès. Du fait qu'il ne figure pas dans l'ouvrage tel que nous le connaissons aujourd'hui, cet extrait démontre que l'Istibṣār nous est parvenu incomplet.

# INTRODUCTION

Le mérite de consacrer, le premier, un travail spécial au *Kitab al-Istibsar* ne nous revient pas. Il y a un siècle Alfred von Kremer édita la partie relative au Maghreb d'après un manuscrit qu'il possédait (Kitab al-Istibsar fi 'Ajaib al-Amsar : Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VIe siècle de l'Hégire, Vienne, 1852). Cette édition est toutefois incomplète — il y manque les chapitres consacrés aux pays de Gumara, à l'installation des Idrisides dans le Maghreb, à l'hérésie des Bargawata, à la ville de Sijilmasa, aux origines des 'Ubaïdides, aux villes de Dar'a, d'Agmat, Nafis, Tinmallal, Marrakus et aux pays de Sous aux confins de Soudan, sans parler, des pays de Soudan proprement dit. D'autre part, l'édition de von Kremer présente ici et là des lacunes plus ou moins considérables. E. Fagnan, une cinquantaine d'années après, publia une traduction commentée de cette même partie d'après l'édition de von Kremer, les deux manuscrits d'Alger et celui de Paris (l'Afrique septentrionale au XIIe siècle de notre ère; Extrait du recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine. Vol. XXXIII, année 1899. Constantine, 1900). Dans sa traduction, Fagnan comble les lacunes du texte arabe établi par von Kremer. Ce travail ne saurait toutefois répondre à toutes les exigences des arabisants.

La partie arabe, encore inédite est d'ailleurs considérable; elle représente la moitié environ du texte complet. Elle est divisée en deux parties : un tiers, consacré aux lieux saints, la Mekke et Médine; le reste à l'Egypte et ses merveilles.

Ainsi se dessine notre tâche : établissement du texte complet du *Kitab al-Istibsar* et traduction de la partie relative aux Lieux Saints et à l'Egypte.

# KITĀB AL-ISTIBṢĀR

## fī A'jā'ib al-Amṣār

Description de la Mekke et de Médine,
de l'Egypte
et de l'Afrique septentrionale

*par un écrivain marocain du VIe siècle de l'Hégire (XIIe s. J. C.)*

**Texte arabe annoté,**

**publié avec une traduction de la partie relative aux Lieux Saints et à l'Egypte**

*Par*

DR. SAAD ZAGHLOUL ABDEL-HAMID

Ancien professeur à la Faculté des Lettres de l'Université d'Alexandrie
Professeur à la Faculté des Lettres de l'Université de Kuwait